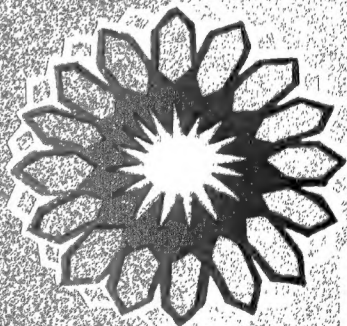


ندوة التاريخ الإسلامى والوسطى

المجلد الثانى
١٩٨٣



تحرير:

دكتور قاسم عبده قاسم
دكتور رأفت عبد الحميد

نَدْوَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيطِ

المجلد الثاني

١٩٨٣

تحرير:

دكتور قاسم عبد قاسم
دكتور رافت عبد الحميد



دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع.

المحتويات

صفحة	مقدمة
٧	أولا : الدراسات والبحوث :
١١	١ — عقد مراجعة من العمر انفاطلى
١٣	للدكتور أحمد عبد الرازق
٤٩	٢ — حول اتخاذ السواد ورنع الألوية والأعلام السوداء فى المغرب والأندلس
	للدكتور السيد عبد العزيز سالم
٨٣	٣ — الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب فى العصور الوسطى
	للدكتور رافت عبد الحميد
	٤ — صليبية الأطفال
١٤٥	للدكتور عبد الفتى محمود عبد العاطى
	٥ — الدوافع الاجتماعية فى الحركة الصليبية
١٨٧	للدكتور قاسم عبده قاسم
	٦ — الفتح النورمانى لآنجلترا — ملحمة غريفة فى تاريخ أنجلترا ونورمانديا فى العصور الوسطى
٢٣٥	للدكتور محمد محمد الشيخ
	٧ — الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين
٢٦٣	للدكتور محمد عبد الحميد عيسى
	٨ — قوانين الملكية الزراعية فى الإمبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى : دراسة تحليلية .
٢٩٩	للدكتور وسام عبد العزيز مرج

- ثانيا : الكتب والدراسات الجديدة
- ١ - تقرير عن معرض القاهرة الدولي للكتاب ١٩٨٣م ٣٤٣
- محمد مؤنس عوض ٣٤٥
- ٢ - عرض ونقد كتاب « تاريخ المغرب - محاولة في التركيب » . ٣٥٥
- سنومى يوسف ابراهيم
- ثالثا : رسائل الدكتوراه والمجستير المسجلة في التاريخ الاسلامى والوسيط بالجامعات المحرية
- اعداد محمد مؤنس عوض ٣٧٧
- ١ - رسائل الدكتوراه والمجستير التى نوقشت ٣٧٩
- ٢ - رسائل الدكتوراه والمجستير المسجلة ٤٠٩
- ٣ - الرسائل التى نوقشت بين يناير ١٩٨٢ وابريل ١٩٨٣ ٤١٥

« ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط »
كتاب سنوى يشترك فيه مجموعة من الاساتذة

المراسلات باسم :

الدكتور ماسم عبده ماسم : كلية الآداب - جامعة الزقازيق - قسم
التاريخ .

الدكتور رافت عبد الحميد : كلية الآداب - جامعة عين شمس - قسم
التاريخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

انما اذ نحمد الله ان وفقنا لاصدار المجلد الثانى من « ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط » ، نود ان نشير الى ان هذا المجلد قد جاء خطوة اكثر تقدما عن المجلد الاول . فعلى طياته الدراسات والبحوث الى جانب نقد الكتب وعرض لاحدث ما ظهر من دراسات فى العجم الماضى ، فضلا عن سجل برسائل الدكتوراه ورسائل الماجستير التى سجلت ، والتى نوقشت ، فى ميادين التاريخ الاسلامى وتاريخ العصور الوسطى فى الجامعات المصرية ، وهى خطوة نرجو ان تليها خطوات اكثر تقدما فى الاعداد التالية ان شاء الله ؛ لان فى طموحنا ان نعد سجلا كاملا بالدراسات التى جرت فى هذين الفرعين على امتداد وطننا العربى الكبير .

يضم هذا العدد لثنائى دراسات اولها : عبارة عن وثيقة تتضمن عقد مراجعة من العصر الفاطمى ينشرها الدكتور احمد عبد الرازق نشرنا ثانيا بعد ان كان جروهان قد نشرها ضمن بردياته الشهيرة ، ولكن الدراسة التى قام بها الدكتور احمد عبد الرازق استكملت كثيرا من جوانب الصورة التى كانت ناقصة عند جروهان . واهم ما فى هذه الدراسة انها تكشف عن جوانب جديدة فى الحياة الاجتماعية بمصر ابان الشدة المستمرية . والدراسة الثانية قام بها الدكتور السيد عبد العزيز سالم عن دلالة اللون الاسود فى الصراع السياسى عند المسلمين ، والابعاد التاريخية للمدلول اللغوى للسود ، وكيف كانت الالوية السوداء والسود فى المغرب والاندلس ، وسيلة لشرعية الولاية ، او شعاعا للانفصال السياسى او المذهبى عن السلطات الحاكمة ، او اقرارا بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية بهدف تهميش الشعب ، والوحدة ، فى ظل رمز روى هو الدعوة للخليفة العباسى .

اما الدراسة الثالثة التى قام بها الدكتور رافت عبد الحيد فتتناول موضوعا محوريا فى تاريخ اوربا العصور الوسطى ، وهو الصراع السياسى

الذى دار حول مبدأ الانتخاب الجرماني ، وحق وراثة العرش في الملكية الألمانية في العصور الوسطى . وأهمية الدراسة تكمن في أنها تكشف النقاب عن مدى ما يمكن للبيئة أن تلعبه في تشكيل التاريخ السياسي لبلد ما ، كما أنها توضح لنا بجلاء الدور المدمر الذي لعبته البابوية في السياسة الأوربية إبان فترة تمتد حوالى ثلاثة قرون ما بين الحادى عشر والثالث عشر . والدراسة الرابعة يطرحها الدكتور عبد الغنى محمود عن صليبية الأطفال . هذه الدراسة تتناول جانباً هاماً من تاريخ الحركة الصليبية ، وهو الجانب المتعلق بالتدين العاطفى لدى شعوب الغرب الأوربي ، ومدى ما اتسم به هذا التدين من حماسة وتعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى . كما يكشف الدكتور عبد الغنى كيف أن هذا التعصب قد أعنى الغرب الأوربي بالدرجة التى جعلت الناس يلغون بفلذات كبابهم فريسة سهلة للمشعوذين والمصابين بالهوس الدينى ، بالشكل الذى جعل حملة الأطفال تنتهى نهايتها المأساوية الشهيرة .

الدراسة الخامسة قام بها الدكتور قاسم عبده قاسم عن الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية . وهى دراسة تستهدف كشف النقاب عن العوامل الحقيقية التى حفزت إبناء المجتمع الأوربي في أخريات القرن الحادى عشر لحمل راية الصليب والسير على طريق القدس . وأهم ما في هذه الدراسة أنها توضح أن الصليبيين الذى شاركوا في الحملة الأولى قد ساروا تحت راية ايندولوجية واحدة ، ولكن الأهداف الحقيقية لكل طبقة في مجتمع غرب أوربا كانت تختلف عن أهداف الطبقة الأخرى بل وتتناقض معها . الدراسة السادسة يطرحها الدكتور محمد الشيخ عن الفتح النورمانى لانجلترا ، وهى دراسة تكشف عن حقيقة تاريخية هامة مؤداها أن فتح انجلترا على يد وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ ، بعد معركة هاستنجز الشهيرة ، كان منعطفًا هاماً في مسار التاريخ الإنجليزي ، وتاريخ منطقة نورماندى على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي . والدراسة تحمل كثيراً من المعلومات الهامة عن الأوضاع السياسية في انجلترا قبيل الغزو النورمانى .

أما الدراسة السابعة فقد طرحها الدكتور محمد عبد الحيد عيسى عن موضوع نائق الأهمية ، وهو الحضارة الأندلسية في مرحلة التكوين ، وعلى الرغم من صعوبة البحث في مثل هذه الموضوعات فإن الدكتور عيسى قد عالجها بقدر كبير من اليسر والبساطة ، لا سيما وأن اهتمامه بالجوانب الأدبية

في الدراسة قد سهل عليه رصد علامات كثيرة في هذا الميدان . هذه الدراسة تشير الى أن البحث في مثل هذه الموضوعات قد بات ضرورة ملحة أمام الباحثين المهتمين بتاريخ هذه الفترة من تاريخنا العربي الأسلاسي . أما الدراسة الثالثة التي قام بها الدكتور وسلم عبد العزيز فرج ، فنتناول موضوعا هاما وطريفا ، وهو القوانين المنظمة للملكية الأرض الزراعية في الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي . هذه الدراسة تكشف عن كثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، بل والسياسية والعسكرية ، في بيزنطة إبان هذه الفترة الحرجة من تاريخها . وأهمية الدراسة تنبع من كونها دراسة بعيدة تماما عن التاريخ السياسي السذبي مازال بعض الباحثين يعملون عليه . وعلى الرغم من أن موضوع الدراسة حافل بالصعوبات ؛ فإن الوثائق التي استعان بها الدكتور وسلم ، وقدرته على التحليل والاستنباط جعلت قراءة البحث أمرا ممتعا .

في هذا العدد أيضا نقد وتحليل كتاب « تاريخ المغرب — دراسة في التركيب » للدكتور عبد الله العروى ، قام بها السيد / سنوسي يوسف ابراهيم المدرس المساعد بأداب عين شمس . وهذا النقد يعارض كثيرا من الأفكار التعميمية التي اشتهر بها الدكتور عبد الله العروى ، ويرد كثيرا من الأمور الى صحتها التاريخية . أما الجهد الكبير الذي قام به السيد / مؤنس عوض المعيد بقسم التاريخ بأداب عين شمس سواء فيما يتعلق بتحليله الذكي للكتب الجديدة ، أو عرضه للرسائل التي نوقشت أو حرده . ودقته — هذا كله يبشر بباحث واعد يمتلك كل مقومات النجاح .

هذا العدد ، بكل ما فيه ، خطوة أخرى على الطريق نعتزف انها ثامرة ؛ ولكننا نرجو أن نتحقق الكمال ، أو نقرب منه ، في الأعداد القادمة إن شاء الله ، ولكن ذلك لن يكون ميسورا إننا لم يساعدنا القراء بملاحظاتهم ونقدهم وما يثيرون به . والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم
دكتور رائف عبد الحميد

أولاً :

الدراسات والبحوث

عقد مراجعة من العصر الفاطمي

للدكتور أحمد عبد الرازق

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

بأكادب عين شمس

عقد مراجعة من العصر الفاطمي

تحتوى مجموعة دار الكتب المصرية من أوراق البردى العربية على عدد كبير من عقود الزواج من بينها عقد مؤرخ في العشر الأخير من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٦١ هـ / ١٧ — ٢٦ أبريل ١٠٦٩ م باسم حسن بن المكتبا بابى البدر وضياء ابنة غنائم الطوائف (لوحة ١) ، قام بنشره للمرة الأولى الاستاذ جبروهيمان عام ١٩٣٤ ضمن مجموعة من عقود الزواج التى تنسب الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (١) . ونظرا لأهمية هذا العقد فقد رأينا من المناسب إعادة نشره من جديد بهدف تصحيح بعض القراءات الخاصة بنصومه ولإلقاء مزيد من الضوء على نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ابان هذه الفترة الحرجة من التاريخ الفاطمى المعروفة بالشدة المستنصرية التى عانت منها البلاد قرابة سبع سنين ٤٥٧ — ٤٦٤ هـ / ١٠٦٥ — ١٠٧١ م (٢) ، وكذا لمقارنته بعقود الزواج المعاصرة التى دونت

A. Grohmann, Arabic Papyri, Cairo, 1934, I, pp. 101-106, (١)
pl. V. fig. 45.

(٢) المقرئى ، اغانة الامة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجبال الدين الشيبلى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٤ — ٢٧ ؛ المواظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣٣٥ — ٣٣٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ١٣١١ هـ ، ج ١ ، ص ٦٠ — ٦٢ ؛ محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٨٨ — ٩٠ ؛ عبد المنعم ملجود ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥٦ — ١٥٨ .

على النسيج ووصلنا نموذج منها خاص بالطبقة الحاكمة (٦) .

والعقد الذى نحن بصدد مدون على صحيفة رمادية ضاربة الى الصفرة يرجع انها جاءت من مدينة الآشموين تبلغ مقاييسها ٢٣x٢٠,٨ سم ، ومدون عليها ثلاثة وعشرين سطرا بالمداد الأسود نقشت بخط النسخ الذى كان متداولاً فى المكتبات النيومية فى سطور متزاخمة خاصة ابتداء من السطر السادس عشر بحيث تداخلت بعض كلمات الأسطر التالية مما يزيد من صعوبة قراءتها ، ومع هذا فالوثيقة فى حالة جيدة من الحفظ باستثناء بعض أطرافها العليا التى تآكلت بفعل الزمن ، وكذا بعض الثقب التى أصابت الأسطر الأولى من جانبها الأيمن .

وفىما يلى نص هذا العقد :

- ١ — (بسم الله) الرحمن ا (لرحيم) .
- ٢ — هذا با أصحق حسن بن المكتا بابو (كذا) البدر (٤) الساكن يومئذ مخينة (الآشموين) .
- ٣ — ضيا (٤) ابنة غنائم (٥) الطواف (٦) الساكن يومئذ بهذه المدينة المذ (كورة ...) .
- ٤ — وتزوجها به تزويجا مستأنفا اذ كانت زوجته (٧)
- ٥ — ودخل بها وأصابها وطلقها طلقاً واحدة واسترجعها بهذا .

A. Grohmann, Arabische Paläographie, Vienne, 1967- (٣)
1971, I, p. 106, pl. XIV; Yusuf Ragib, Un contrat de
mariage sur soie d'Egypte fatimide, Annales Islamo-
logiques, XVI, (1980), pp. 31-37, pl. xiii.

- (٤) قراها جروهان التدر انظر : Arabic Papyri, I, p. 102.
(٥) قراها جروهان عثمان بالرغم من وجود نبذة واضحة تعلق حرف الميم انظر : Arabic Payri, I, p. 102.
(٦) قراها جروهان الأطراف Arabic Payri, I, p. 102.
(٧) هناك مكان لأربع كلمات قرا منها جروهان كلمتى به ، وهذا ، بيد أننا لا نوافق على هذه القراءة انظر : Arabic Payri, I, p. 102.

- ٦ — انصداق أصحقتها أربعة دناتير مستنصرية جياذ العيون نغدها.
- ٧ — هـ [ن] ذلك ديناراً واحداً قبضته منه لنفسها نقداً في يدها نأماً وأفياً .
- ٨ — وإبرانه منه ومن اليمين عليه برا [ء] قبض واستيفى [كذا] وأخرت الثلاثة دناتير .
- ٩ — الباتى [كذا] مهرها عليه الى انتضى [كذا] خمسة لىلى متواليات أولهن تاريخ .
- ١٠ — هذا الكتاب وعليه أن يتقى الله عز وجل فيها ويحسن صحبتها بالمعروف
- ١١ — كما أمر الله سبحانه في كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله
- ١٢ — وسلم تسليماً وله عليها مثل ذلك ودرجة (كذا) زائدة وولى تزويجها إياه بذلك .
- ١٣ — الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضى أبو القاسم .
- ١٤ — عبد الله بن على بن عبد الرحمن خليفة القاضى أبى الحسن مسرة بن عبد الله .
- ١٥ — على الحكم والصلاة والخطابة والفتا (ء) والمظالم بمدينة الأشمونيين وأعمالها اليه .
- ١٦ — بكشف حالها وتزوجها وكيل المتولى ذلك وكشف عن حالها فوجدها (٨) مستحقة .
- ١٧ — الناكحة فزوجها من الزوج المسما معها فيه بائنها ورضاها بالمهر (٩) المذكور عاجله .
- ١٨ — وأجله المذكورين فى هذا الكتاب وشاهدى (كذا) عدل شهدا له عليها بالرضا وقبل
- ١٩ — الزوج من المتولى هذا النكاح ورضى به وأنزله نفسه بمخالطة جرت بينهما على جميعه .

(٨) فرأها جروهمان فوجبها أنظر : Arabic Payri, I, p. 102.
 (٩) قرأ جروهمان العبارة الأخيرة ورضا وبالمهر أنظر : Arabic Payri I, p. 103.

٢٠- شهد على اقرار الزوجين والمتولى الشيخ بجميع ما فيه بعد أن
قرئ عليهم فأتروا بفهمه

٢١- ومعرفته (١٠) جميعه وكتب في العشر الأخير من جمادى الآخر سنة
أحدى وستين وأربعمائة .

٢٢- أشهد (١١) على بن نجيب (١٢) بن على المغربي على اقرار الزوجين
والمتولى وكتب في تاريخه أشهد (١٣) على بن حفص بن على بن حفص
على اقرار الزوجين

٢٣ - والمتولى بما فيه وكتب في تاريخه .

لعل أول ما يلفت النظر في هذا العقد هو أنه خاص ببعض أفراد طبقة
العامة بدليل خلوه من المقدمة أي خطبة الصداق التي تميزت بها العقود
الخاصة بالطبقة الأرستقراطية الحاكمة ، والتي كانت تختلف في الطول
والقصر بحسب مكانة صاحب العقد إذ كانت « تطال للملوك وتقصّر لمن
دونهم بحسب الحال (١٤) » . ويتجلى ذلك بوضوح من عقد زواج معاصر
باسم أبى المنصور هاشم بن ملكتون بن شبيب وسلامة ابنة الأمير ناصح
الدولة الصيادى (لوحة ٢) المحفوظ بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة تحت
رقم ٩٢٨١ ، والحدون على قطعة نسيج حريرية (١٥) ، إذ يحتوى هذا العقد

(١٠) قراها جروهمان بمعرفة أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.

(١١) قراها جروهمان شهد أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.

(١٢) قراها جروهمان نجيد أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.

(١٣) قراها جروهمان شهد : Arabic Papyri, I, p. 103.

(١٤) القلتشسندى ، أصبح الامشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة

١٩١٤ - ١٩٢٨ ، ج ١٤ ، ص ٣٠٠ .

(١٥) تنوعت المواد التي سجلت عليها عقود الزواج الفاطمية ، إذ
بلا حظ أنها دونت على البردى والورق والنسيج . كما وصلنا عقد من نفس
الفترة مدون على قطعة من الرق أنظر :

G. Levi Della Vida, A marriage contract on
parchment from Fatimite Egypt, in L.A. Mayer Memorial
volume, Ertz-Israel, VII, 1964 pp. 64-6٥.

على خطبة صدائق تحتل سبعة أسطر من مجزوء أسطر العقد البالغ عددها ستة عشر سطرا أى ما يقرب من نصف المتن تقريبا (١٦) . وهذه الخطبة عبارة عن مجموعة من العبارات الدعائية وبعض الأحاديث الذبوية المتعلقة بالزواج والحاضنة عليه ، فضلا عن بعض العبارات الشيعية التى ذاعت بصفة خاصة إبان العصر الفاطمى مثل «... والشهد أن محمدا رسوله المصطفى وأمينه المرتضى... صلى الله عليه وعلى وصيه على أمير المؤمنين ، وعلى ابنه فاطمة سيدة نساء العالمين ، وعلى سبطيه الحسن والحسين بابى الرحمة ، وعلى الأئمة من ولد الحسين بنور الدجى وشموس الضحا وإمام الله على الورى...» . وذلك فى الوقت الذى اقتصر فيه متن العقد الذى نحن بصدد دراسته على صلب العقد فقط مما يشير بوضوح الى انتهاء صاحبيه الى طبقة العامة من الشعب المصرى (١٧) .

ويفهم أيضا من متن هذا العقد أنه عقد مراجعة أى تجديد نكاح بمعنى أن المدعو حسن كان متزوجا من قبل بيضاء هذه ثم طلقها طليقة واحدة ، ويبدو أنه رغب بعد ذلك فى استرجاعها فأعادها الى عصمته بموجب هذه الوثيقة التى بين أبدينا الآن ولكن بعد انقضاء مدتها (١٨) بدليل أنه أمضاها صدائقا جديدا (١٩) مقداره أربعة فنانير مستنصرية ، عجل لها بدينار

Yûsuf Râgib, Un contrat de mariage, Annales Islamico-logiques, XVI, pp. 34-35.

(١٧) استمر هذا التقليد متبعا طوال العصورين الأيوبرى والمملوكى

A. Dietrich

انظر

Eine arabische Eheurkunde aus der Aiyûbiden zeit, in Documenta Islamica Inedita, Berlin 1952, pp. 121-154;

Ahmed Abd ar-Râziq, Un document concernant le mariage des esclaves au temps des Mamlûko, in JESHO, XIII/3, 1970, pp. 309-314.

(١٨) العدة المقررة حسب الشريعة الإسلامية هى ثلاثة قرو أى ثلاث حيضات ، انظر سورة البقرة ، آية رقم ٢٢٨ .

(١٩) ابن عابدين ، رد المحتار على المختار ، شرح تنوير الأبحار فى فقه مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان المعروف بحاشية ابن عابدين ، القاهرة ١٩٠٥ ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ - ٥٢٤ ؛ محمد زيد الإيأتى ، الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ١١٥ .

واحد قبضته بيدها تابا وانبا ، وآخر لها الثلاثة الباقية الى حين انتضاء
خمس ليال متواليات من تاريخ هذا النكاح .

والحق ان ظاهرة تأجيل جزء من الصديق تعد من الأشياء المألوفة في عقود
الزواج التي ومسلطنا من أيام الطولونيين بل واستمرت أيضا حتى أيام
الأيوبيين والمالوك تشهد بذلك العقود الأثرية التي تحت أيدينا الآن والتي
نص بعضها على ضرورة سداد الجزء المتبقى من الصداق على أقساط معلومة
تدفع في نهاية كل سنة (٢٠) خلافا لما جرى عليه العرف في الوقت الحاضر (٢١)
الذي تنقضى بتأجيل باقى الصداق لأترب الاجلين الطلاق أو الموت (٢٢) .

ويستمرى الانتباه في صيغة هذا العقد العملة التي تقرر بها الصداق
وهي الدنانير المستنصرية (٢٣) الجياد المبيون ، وكذا قيمة هذا الصداق .
أما عن العملة فالمقصود بها الدنانير الذهبية التي أصدرها الخليفة الفاطمي
المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله ، خامس خفاء
الفاطميين في مصر الذي ولى الخلافة بعد وفاة أبيه في الخامس عشر من
شعبان سنة ٤٢٧ هـ / ١٣ يونيو ١٠٣٦ م وبقي شاغلا لها الى حين وفاته

(٢٠) حسن الهوارى ، عقد زواج على قطعة من الحرير ، مجلة
كلية الحقوق ، أكتوبر ١٩٢٧ ، ص ٥١ ؛ سعاد ماهر ، عقود الزواج على
المنسوجات الأثرية ، القاهرة % بدون تاريخ % ، ص ٦ ، ١١ ، ١٨ ، ٣٠ ؛
عبد الله مخلص ، عقدا نكاح كتب في أواسط القرن الثامن ، مجلة المجمع
العلمى العربى ، ج ٢١ ، % ١٩٤٦ % ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٢ ؛

Grohmann, Arabic Papyri, I

pp. 67-68, 83, 86, 92, 97; Ahmed Abd ar-Râziq,

Un document, JESHO, XIII/3, p. 309; La Femme

au temps des Mamlûks en Egypte, Le Cairo, 1973,

p. 130-133.

(٢١) سعاد ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٢ .

(٢٢) عمر عبد الله ، أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية

القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٢ .

(٢٣) أشعار جروهمان الى ورود لفظة الدنانير المستنصرية في العديد

من الوثائق البريدية انظر : Grohmann, Arabic papyri, 1, p. 105.

في الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ / ١٠ يناير ١٠٩٤ م بعد أن أقام فيها ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام (٧٤) أصدر خلالها مجموعة كبيرة من العملات الذهبية بعضها من ضرب مصر والاسكندرية والبعض الآخر من ضرب دمشق ، وفلسطين ، وطرابلس ، والمهنية ، وصقلية ، وصلنا منها بالفعل مجموعة طيبة محفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة بيانها كالتالي حسب تاريخ اصدارها :

رقم السجل بالمتحف	الوزن	مكان الضرب	سنة الضرب	مسلسل
٤٣٦٠	٤١٢ جرام	مصر	١٠٣٦/هـ ٤٢٨ م	١
١/١٧٠٨٠	٤٢٤ جرام	مصر	١٠٣٧/هـ ٤٢٩ م	٢
٤٣٦١	٤٢٠ جرام	مصر	١٠٣٨/هـ ٤٣٠ م	٣
٩/١٧٠٨٠	٤١٤ جرام	مصر	١٠٤٠/هـ ٤٣٢ م	٤
١٢/١٧٠٨٠	٤٣٠ جرام	مصر	١٠٤٣/هـ ٤٣٥ م	٥
١٤/١٧٠٨٠	٤٠٠ جرام	مصر	١٠٤٤/هـ ٤٣٦ م	٦

(١٤) عن هذا الخليفة أنظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق امبروز ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨٣ — ٨٤ ؛ ابن ميسر ، المتقى من أخبار مصر ، تحقيق أمين فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٥٥ ؛ ابن ظافر ، أخبار الدول المقطعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٦٧ — ٨١ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان وانباء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٩ — ١٩٧٢ ، ج ٥ ص ٢٢٩ — ٢٣١ ؛ النويري ، نية الأرب في فنون الألب ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٢ ؛ ابن أبيك ، كثر الدرر وجلبع القرر : الحرة المضئنة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٦١ ، ج ٦ ، ص ٣٤٢ — ٤٤٠ ؛ المقرئزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ — ٣٥٦ ؛ انعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ١٨٤ — ٣٣٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٩٣٠ — ١٩٧٢ ، ج ٥ ، ص ١ — ٢٣ ، ٢٤ — ١٤١ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٧٥ ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٥ — ٢٢٠ .

رقم السجل بالتحرف	الوزن	مكان الضرب	سنة الضرب	مستلسل
٣/١٧٠٨٠	٤ر٠٢ جرام	مصر	١٠٤٥/هـ٤٣٧ م	٧
١٧/١٧٠٨٠	٤ر١٠ جرام	مصر	١٠٤٦/هـ٤٣٨ م	٨
٩٧٣٢	٤ر٢٥ جرام	مصر	١٠٤٧/هـ٤٣٩ م	٩
٤/١٧٠٨٠	٤ر٠٨ جرام	مصر	١٠٤٨/هـ٤٤٠ م	١٠
٤٣٧٠	٤ر١٠ جرام	دمشق	١٠٤٩/هـ٤٤١ م	١١
٢٣٥٤٦	٤ر٠٢ جرام	الاسكندرية	١٠٥٠/هـ٤٤٢ م	١٢
٤٣٦٢	٤ر١٠ جرام	فلسطين	١٠٥٠/هـ٤٤١ م	١٣
٨/١٧٠٨٠	٤ر٠٠ جرام	مصر	١٠٥١/هـ٤٤٣ م	١٤
٤٣٦٣	٤ر٢٠ جرام	صقلية	١٠٥٢/هـ٤٤٤ م	١٥
١٠/١٧٠٨٠	٣ر٨٨ جرام	مصر	١٠٥٣/هـ٤٤٥ م	١٦
١٦/١٧٠٨٠	٤ر٣٠ جرام	مصر	١٠٥٤/هـ٤٤٦ م	١٨
٤٣٦٤	٤ر٢٨ جرام	مصر	١٠٥٥/هـ٤٤٧ م	١٧
١٦٥٢٧	٤ر١٥ جرام	مصر	١٠٥٦/هـ٤٤٨ م	١٩
٧٠٩٧	٤ر٠٢ جرام	دمشق	١٠٥٩/هـ٤٥١ م	٢٠
٤٣٦٥	٤ر٣٩ جرام	طرابلس	١٠٥٩/هـ٤٥١ م	٢١
٤٣٦٧	٤ر٢٠ جرام	المهديّة	١٠٥٩/هـ٤٥١ م	٢٢
٤٣٦٨	٤ر١٠ جرام	فلسطين	١٠٦١/هـ٥٤٣ م	٢٣
١٥/١٧٠٨٠	٤ر٢٢ جرام	مصر	١٠٦٢/هـ٤٥٤ م	٢٤
٤٣٦٩	٤ر٢٠ جرام	المهديّة	١٠٦٣/هـ٤٥٥ م	٢٥
١٧/١٧٠٨٠	٣ر٩٤ جرام	مصر	١٠٦٤/هـ٤٥٦ م	٢٦
٩٧٣٣	٤ر٠٢ جرام	مصر	١٠٦٥/هـ٤٥٧ م	٢٧
٠٢/١٧٠٨٠	٤ر٠٠ جرام	مصر	١٠٦٦/هـ٤٥٨ م	٢٨
٢٤/١٧٠٨٠	٤ر١١ جرام	مصر	١٠٦٧/هـ٤٦٠ م	٢٩
٣٨٧٦	٤ر٠٣ جرام	مصر	١٠٦٨/هـ٤٦١ م	٣٠
٢٣٥٩٠	٤ر١١ جرام	الاسكندرية	١٠٧٦/هـ٤٧٢ م	٣١
٩٠٩٧	٤ر٣٠ جرام	مصر	١٠٨٧/هـ٤٨٠ م	٣٢
٢٣٥٤٧	٤ر٢٥ جرام	الاسكندرية	١٠٨٩/هـ٤٨٢ م	٣٣
١٨٤٤٧	٤ر٠٢ جرام	مصر	١٠٩٠/هـ٤٨٣ م	٣٤
٣٨٧٥	٤ر٠٣ جرام	الاسكندرية	١٠٩١/هـ٤٨٤ م	٣٥

من هذا العرض يتضح لنا أن الخليفة المستنصر بالله قد جرى على سنة غيره من الخلفاء الفاطميين من حيث تعميم دور سك النقود الشيعية لبس في مصر وحدها بل أيضا في شمالي أفريقيا والشمالي وطرابلس وفلسطين. ومصور وصقلية بدليل تلك النقائير التي وصلتنا من عصره من كل هذه الأقاليم والتي تفر بها المتاحف ودور الكتب ضمن غيرها من العملات الفاطمية المحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة ودار الكتب المصرية (٢٥)، ومتحف دمشق الوطني، والمتحف العراقي ببغداد، ومتحف استنبول، والمكتبة الأهلية ببغداد، والمتحف البريطاني بلندن، ومتحف اسنوليان بكسفورد، ومتحف جمعية التمثيل الأمريكية بنيويورك (٢٦)، ومتحف برلين، ومتحف كوبنهاجن، ومتحف بالرمو بصقلية (٢٧) وغيرها من المتاحف والمجموعات الخاصة التي يحتاج الأمر للتعرف على ما فيها من مسكوكات إلى اتصال شخصي بأصحابها من الهواة (٢٨).

(٢٥) عن هذه المجموعة انظر كل من

Lavoix, Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale, III, Egypte et Syrie, Paris, 1896; Lane-Poole, Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, London, 1897.

(٢٦) حاول ميلز في سنة ١٩٥١ إعطاء إحصاء دقيق لمجموعة المسكوكات الفاطمية في جمعية التمثيل الأمريكية وجامعة بنسلفانيا في كتاب أشار فيه إلى المراجع المقارنة للنقود الفاطمية التي قام بنشرها انظر: Miles, Fatimide Coins New-York, 1951.

(٢٧) انظر ما كتبه كل من لاجومينا وبالوج عن هذه النقود Lagumina, Catalogo delle monete arabe esistenti nella Biblioteca comunale au Palermo.

(٢٨) قام الدكتور عبد الرحمن نهى بنشر بعض النقائير الناطمية المحفوظة ضمن مجموعة الدكتور فتحي سلام بيد أن هذه النقائير تخلو من نقود مستنصرية أنظر، عبد الرحمن نهى، إضافات جديدة في مسكوكات الفاطميين، مجلة المجمع العلمي المصري، المجلد ٥٢، موسم ١٩٧٠ / ١٩٧١، ص ٣ - ٢٤.

ويستشف أيضا من دراسة هذه القلابة الخاصة بالديناتير المستنصرية جودة الدينار المستنصرى من حيث الوزن ، اذ كان وزنه يفوق عادة الوزن الشرعى للدينار وهو ٢٥ جرام ، بدليل انه وصلنا دينار من ضرب طرابلس فى سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م يزن ٣٩ جرام (٩) ، وآخر من ضرب مصر فى سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م زنته ٣٠ جرام ، الأمر الذى يفسر لنا عبارة « جياذ الميون » المصاحبة للفتة الديناتير المستنصرية الواردة فى عقد الزواج الذى نحن بصدد دراسته ، والتى يقصد بها الديناتير المستنصرية الجيدة الذهب ، ولا عجب فى هذا فقد كُتبت العرب يطلقون على الديناتير لفتة التبن والعين (٣٠) — ولعل المقصود بهذه العبارة أيضا الديناتير التامة الاستدارة ، لأنها كانت تضرب بدورة على شكل عين الحيوان (٣١) وهى الصفة الغالبة على ديناتير الخليفة المستنصر بالله التى وصلتنا والمحتولة حاليا بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ودار الكتب المصرية اذ يتراوح قطر كل منها فيما بين ١٩ مم ، ٢٢ مم .

والحق أن اختلاف حجم ديناتير هذا الخليفة ينقلنا الى الحديث من طرازها ، أى الكتابات الوازدة عليها ، ولذا فقد وقع اختيارنا على أربعة قطع من مجموعة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وقفلمتان من دار الكتب المصرية ، الأولى من ضرب سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، والثانية من ضرب سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، والثالثة مؤرخة بسنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م ، والرابعة

(٢٩) وصلنا دينار من ضرب مصر فى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٢٨ م ضمن مجموعة متحف ميلانيلفيا يزن ٨٤ جرام ، وآخر من ضرب فلسطين سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ضمن مجموعة جمعية التنييت الأمريكية يزن ٨٢ جرام
Miles, Fatimide Coins pp. 32, 34, no. s 314, 320. انظر :

(٣٠) عبد الرحمن مهنى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٢ .

(٣١) الكرملى ، النقود العربية وعلم التنييت ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٤٩ .

من ضرب سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م تنشر هنا للمرة الأولى (٣٦) . أما الخامسة والسادسة فهما من إصدار سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م وفيها يلي عرض لهم :

١ - دينار من ضرب مطر سنة ٤٢٩ هـ (لوحة رقم ٢)

وجه	ظهر
مركز :	مركز :
لا اله الا الله	الاسلام
وحده لا شريك له	معد ابو تميم
محمد رسول الله	المستنصر بالله
صلى على الله	أمير المؤمنين
هـسـهـش	هـسـهـش

محمد رسول الله أرسله بالهدى الخير بمصر سنة تسع وعشرين
ودين الحق ليظهره على الدين بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا
كله ولو كره المشركون وأربعمائة

القطر : ٢٢ مم

السوزن : ٤٢٤ جرام

متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٣٥٤٥ .

(٣٢) انتهت هذه الفرصة لاسجل شكرى لكل من الاستاذ عبد الرؤوف
على يوسف مدير متحف الفن الاسلامى بالقاهرة والسيدة سهام المهدى
امينة قسم العملة بالمتحف لتفضلهما بالواقعة على منحنى حق نشر هذه القطع .

٢. — دينار من ضرب مصر سنة ٤٤٥ هـ (لوحة رقم ٤)

وجه	ظهر
هـامش خارجي :	هـامش خارجي :
محمد رسول الله أرسله بالهدى	بسم الله ضرب هذا الدين بمصر
ودين الحق ليظهره على الدين	سنة خمس وأربعين وأربعمائة
كله ولو كره المشركون	

هـامش أوسط :	هـامش أوسط :
وعلى أفضل الوصيين ووزير	دعوا الإمام بعد لتوحيد
خير المرسلين	إلا اله الصمد
هـامش داخلي :	هـامش داخلي :
لا اله إلا الله محمد رسول الله	المستنصر بالله أمير المؤمنين
القطر : ٢٠ مم	
الوزن : ٤٢٣ جرام	
متحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٠/١٧٠٨٠	

٣. — دينار من ضرب مصر سنة ٥٨ هـ (لوحة ٥)

وجه	ظهر
هـامش خارجي :	هـامش خارجي :
محمد رسول الله أرسله بالهدى	بسم الله ضرب هذا الدين
ودين الحق ليظهره على الدين	بمصر سنة ثمان وخمسين
كله ولو كره المشركون	وأربعمائة

هـامش أوسط :	هـامش أوسط :
وعلى أفضل الوصيين	دعوا الإمام بعد لتوحيد
ووزير خير المرسلين	إلا اله الصمد

هائش داخلى :
 لا اله الا الله محمد رسول الله المستنصر بالله أمير المؤمنين
 القطر : ٢١ م
 الوزن : ٤١٢ جرام
 متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠/١٧٠٨٠

٤ - دينار من ضرب صور سنة ٤٦١ هـ

وجه	ظهر
مركز :	مركز :
على	معد
لا اله الا الله	عبد الله ووليه
وحده لا شريك له	الامام ابو تميم
محمد رسول الله	المستنصر بالله
ولى الله	امير المؤمنين
هائش :	هائش :
محمد رسول الله ارسله بالهدى	بسم الله الرحمن الرحيم
ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	هذا الدينر بصور سنة احدى وستين وأربع مئة

القطر : ٢٢ م
 الوزن : ٤١٢ جرام
 دار الكتب المصرية رقم السجل ١١٦٨/١٥٤٧

٥ - دينار من ضرب مصر سنة ٤٦١ هـ

وجه	ظهر
هابش خارجي :	هابش خارجي
مجد رسول الله ارسله بالهدى	بسم الله ضرب هذا الدينر
ودين الحق ليظهره على الدين	بمصر سنة احدى وستين
كله ولو كره المشركون	وأربعائة
هابش اوسط :	هابش اوسط :
وعلى افضل الوصيين	دعا الامام محمد لتوحيد
وووزير خير المرسلين	الاله الصمد
هابش داخلي :	هابش داخلي :
لا اله الا الله محمد رسول الله	المستنصر بالله أمير المؤمنين
القطر : ٢١ مم	
الوزن : ٤ر٠٣ جرام	
دار الكتب المصرية رقم السجل ١١٦٨/١٥٤٦	

٦ - دينار من ضرب مصر سنة ٤٨٢ هـ (لوحة رقم ٦)

وجه	ظهر
مركز :	مركز :
على	محمد
لا اله الا الله	عبد الله ووليه
وحده لا شريك له	الامام محمد أبو تميم
محمد رسول الله	المستنصر بالله
ولي الله	أمير المؤمنين
	عاش

هـامش :

محمد رسول الله أرسله بالهدى بسم الله الرحمن الرحيم ضرب
ودين الحق ليظهره على الدين هذا الدين بصر سنة ثلث
كله ولو كره المشركون وثماتين وأربعمئة

القطر : ٢١ مم

الوزن : ٢.٤ جرام

متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٨٤٤٧ •

من هذه الدراسة يمكننا القول بأن الدنانير المستعمرة كانت تضرب على طرازين مختلفين : الأول يتألف من كتابات مركزية تسير على كلا الوجهين في سطور أربعة أو خمسة متوازية ، يحيط بها هامش خارجى تدور كتاباته عكس اتجاه عقرب الساعة ويفصلها عنه دائرتان من خطين بارزين (اللوختان ٣ ، ٦) ، وهذا الطراز متأثر الى حد كبير بالعملة التي ضربها الخلفاء الفاطميون في شمالي افريقيا قبل مجيئهم الى مصر . أما الطراز الثاني فقد بدا أكثر زخرفة ، إذ أخذت النصوص المكتوبة عليه شكل دوائر متتالية تسير في عكس اتجاه عقرب الساعة ويحيط بها حلقات من خطوط يارزة على وجهي الدينار (اللوختان ٤ ، ٥) وهذا الطراز مطبق بدوره للنقود الفاطمية التي ضربت بالمتصورة التي أسسها الفاطميون في تونس الحالية سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م . وإلى جانب ذلك ، التشابه بين أشكال ونصوص الدنانير المستعمرة والسكة الفاطمية في المغرب ، نجد تشابها آخر في العيار فقد وصل عيار النقود الذهبية في مصر الفاطمية بمسغة عامة الى ٢٣٥ قيراط وهو عيار جيد جدا يتشبه أيضا مع عيار النقود الفاطمية التي ضربت في المغرب ويعكس لنا العهد القديم الذي قطعة جوهه على نفسه للمصريين عند استيلائه على مصر في سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م بتعبير النقود وتجويدها ومنع الغش فيها وصرفها الى العيار الذي عليه النقود المنصورية في شمالي افريقيا (٣٣) .

(٣٣) عبد الرحمن فهمي ، النقود العربية ، ص ٥٩ ، ٦١ ؛

A. Ehrenkreutz The Crisis of Dinar in the Egypt of Saladin,
JAOS, 76, pp. 178-180.

نتنقل بعد ذلك الى الحديث عن الصداق نفسه أى الدنانير الأربعة التى أصدقها حسن الى زوجته ضياء وهو مبلغ ضئيل فى نظرنا خاصة لو تذكرنا أن هذا الزواج قد تم ابن سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م التى روى المؤرخ ابن ميسر بصدها ما نصه « وفيها اشتد الفلاء بمصر وقتلت الأقوات فى الأعمال ، وعظم الفساد واكل الناس الجيف والميتات ، ووقفوا فى الطرقات فقتلوا من ظفروا به واخذوا ماله » (٢٤) . وابن ميسر يشير هنا الى بعض أحداث المجاعة الكبرى التى حدثت بمصر بسبب تقصير النيل واستمرت سبع سنين من ٤٥٧ — ٤٦٤ هـ / ١٠٦٥ — ١٠٧١ م حتى عرفت باسم الشدة المستنصرية وشبهت بسنى يوسف الصديق بسبب ما ترتب عليها من آثار وخيمة وصلت آثارها الى العراق والحجاز بل وبلاد ما وراء النهر (٢٥) وعظم الأثر خلالها حتى تعذر وجود الأقوات وارتفعت الأسعار حتى بيع رغيف فى زقاق القناديل كما تباع الطرف بأربعة عشر دينارا ، وقيل أربعة عشر درهما ، وبيع أردب القمح بمائتى (٢٦) ، وبذا لم تعد للأموال أهمية من أجل الحصول على الطعام بديل ان حارة سميت بحارة الطبق بعد أن بيع فيها عشرون دارا لقاء طبق من الطعام (٢٧) . وتحدث المصادر أيضا عن امرأة من أرباب البيوتات ، باعت عقدا لها قيمته ألف

(٢٤) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٣٥ .

(٢٥) ابن أبيك الدوادار ، كثر الخبز ، ج ٦ ، ص ٣٦٩ .

(٢٦) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٥٨ ، انظر أيضا كل من المقرئى ، اغارة الآفة ، ص ٢٤ ؛ ابن أبيك الدوادار ، كثر الدرر ، ج ٦ ، ص ٣٧١ ، حيث أشار الى بيعه بمائتين دينارا فقط ، على حين أشار ابن تغرى بردى الى بيعه بمائة دينار ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛ Ashtor, Histoire des

prix et des salaires dans l'Orient médiéval, Paris, 1969; pp. 125, 132.

(٢٧) ابن أبيك الدوادار ، كثر الدرر ، ج ٦ ، ص ٣٧١ ؛ مجد المنعم ماجد ، الأمام المستنصر بالله ، ص ١٥٧ ؛ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٣٥ .

دينار بتليس دقرق ، نهب منها اثناء الطريق بعد ان استطاعت ان تأخذ منه ما يعجن قرصة ، ثم اخذتها ووقفت في مكان مرتفع ورمعتها في يدها بحيث يراها الناس ونادت باعلى دسوتها : « يا اهل القاهرة ، ادعوا لولانا المستنصر ، الذى اسعد الله الناس بأيامه ، واعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقويت على هذه القرصة بألف دينار (٢٨) » . ونقرأ ايضا عن حبة القمح التى وقفت على صاحبها دينار كامل (٢٩) ، وعن البيضة التى سارت تباع بنفس المبلغ (٤٠). مما اضطر اعيان الدولة ورؤساءها الى خدمة الناس لقاء كسرة من الخبز يسدون بها رمقتهم ، بل ولم يكن الخليفة نفسه يجد ما يقتات به فكانت الشريفة بنت صاحب السبيل ترسل اليه برغيفين أو بقعاب من فتيت ، يقتلته منه مرة واحدة في اليوم (٤١) .

كذلك اضطر الناس الى اكل البقية من الكلاب والقطط والبغال واخذوا في البحث عنها في كل مكان حتى بيع الكلب بخمسة دناتير ، والقط بثلاثة دناتير (٤٢) ولم يعد يصل اليها الا اهل السعة والثراء وزادت المسغبة حتى

(٣٨) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ٥٨ — ٥٩ ؛ النويرى نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٦ ؛ ابن ميسر ، المنتقى من اخبار مصر ، ص ٥٧ ؛ الذهبى ، العبر في خبر من غير ، الكويت ١٩٦٠ ، تحقيق صلاح المنجد ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ؛ المقرئى ، الخلط ، ج ١ ، ص ٣٣٧ ؛ اغائة الامة ، ص ٢٥ — ٢٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ١٧ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٣٩) ابن ميسر ، المنتقى من اخبار مصر ، ص ٥٧ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٩ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٨ .

(٤٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛ زكى حسن ، كنوز الفاطميين القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٥ .

(٤١) المقرئى ، اغائة الامة ، ص ٢٥ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٥٨ .

(٤٢) المقرئى ، اغائة الامة ، ص ٢٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٦٨ .

حتى اضطر سكان القاهرة الى اكل لحم الالهيان ، فقد اشارت بعض المصادر الى قصة الوزير الذي نزل يوما عن بقلته ، فغفل عنها الفلام المكلف بحراستها بسبب ضعفه من الجوع فاستولى عليها ثلاثة نفر ونبحوها واكلوا لحمها ، فقبض عليهم وتم صلبهم ، فلما اصبح الناس لم يروا سوى عظامهم لأن الناس اكلوا لثاء الليل لحومهم . وقيل أيضا أن الرجل صار يأخذ ابن جاره ويذبحه ويشويه ويأكله ولا ينكر ذلك . بل صارت طائفة من الناس تجلس بأعلى بيوتها ومعها سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد القومها وتشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه واكلوه حتى عرف الزقاق الذي يجلسون فيه بزقاسق القتل (٤٣) . ورغم ما في هذه الروايات من مبالغات واضحة (٤٤) قد تكون من افتعال بعض مؤرخي السنة الذين راوا فيها اصاب البلاد من كوارث كانت بمثابة انتقام الهى لما ارتكبه الوزير البساسيري حين ثار في العراق وجعل الخطبة والسكة في بغداد باسم الخليفة المستنصر بالله (٤٥) ، فانه من المسلم به أن هذه الشدة قد صاحبها ارتفاع ملحوظ في الأسعار فقدت معه النقود قيمتها الفعلية وبذا

(٤٣) المقرئى ، خطط ، ج ١ ، ص ٣٣٧ ؛ أغالة الامة ، ص ٢٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٤٨ .

(٤٤) قارن بين أحداث هذه الشدة وبين ما حدث ابان السنين الأولى من حكم السلطان العادل الأيوبي (٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١٢٠٠ - ١٢١٨ م) حيث اشتد الجوع بالناس حيث كلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ، تعدوا ذلك الى أن اكلوا صغار بنى آدم فكثرا ما يمشر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون . انظر عبد اللطيف البغدادي ، الإنفاة والاعتبار فى الأمور والمشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر ، ص ٦٢ وما بعدها . انظر أيضا المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤٥) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ١٩ .

يكون الصداق المقدم من المدعو حسن الى زوجته ضياء مبلغا رمزيا (٤٦) لأنه لم يكن يكفى لشراء رغيف من الخبز بلغة هذا العصر نتيجة لما حدث فيه من تضخم .

والواقع أنه من الصعب أن نقرر هنا عما اذا كانت الدلائل الأربعة تمثل الحد الأدنى للصداق الذي كان يقدم للمرأة من علة الشعب زمن الدولة الفاطمية ، كما أنه من الصعب علينا أن نتعرف في الوقت نفسه على أكبر صداق قدم لنساء هذه الطبقة بسبب ندرة عقود الزواج التي وصلتنا من هذه الفترة . ومن المستحيل كذلك أن نعقد مقارنة هنا بين ما كان يقدم لنساء علة الشعب وبين ما كان يقدم لنساء الطبقة الحاكمة بسبب خاو عقود هذه الطبقة ، التي تحت أيدينا الآن ، من قيمة الصداق (٤٧) ، وان كان بالإمكان أن نشير الى أن عقود الطبقة الأولى كانت تسجل على البرديات بخط الرقاع ، على حين كانت عقود الطبقة الأرستقراطية تسجل على قطع من النسيج الممبوس في مادة نشوية بالخط الكوفي الذي شاع استخدامه على تحف العصر الفاطمي (لوحة رقم ٢) .

أما فيما يخص بالشيوخ أبي الفضل الذي مولى عقد هذا الزكاح بأمر من القاضي أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن ، خليفة القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله ، فلم نعثر على ترجمة لأحد منهم في المصادر المعاصرة ، باستثناء الأخير إذ ورد اسمه على بردية محفوظة بمتحف برلين تحت رقم ١٥٠٢٢ / ١٢ ، وبالتالي فأننا نجهل عما اذا كانوا من الشيعة أو السنة وان كان القريري يشير الى أن قضاة الولايات كانوا يقومون بعملهم

(٤٦) اختلف الفقهاء فيما بينهم بصدد الحد الأدنى للصداق فهو ثلاثة دراهم عند المالكية ، وعشرة عند الشافعية انظر :

D. Santilhana, Istituzioni di diritto musulmano Malichita con riguardo anche al sistema sciafrito, Roma, 1926, I, pp. 170-173; Shorter Enc. Isl., art. nikâh, 'urs; D. et J. Sourdol, La Civilisation de l'Islam classique, Paris, 1968, p. 585.

حيث نجد أن الحد الأدنى له يجب ألا يقل عن عشرة دنائير .
(٤٧) انظر : Yûsuf Râgib, Un contrat, Ann. Ist., pp. 34-35.

القضائي نائبين عن رؤسائهم في القاهرة (٤٨) ، كما نعلم في الوقت نفسه أن أهل القرى المصرية كان معظمهم من أهل السنة المحافظين ، الذين لم يكن من السهل تحويلهم عن مذهبهم التقليدي (٤٩) .

ونستشف أيضا من هذا العقد أن مدينة الاشمونين وهي من أعمال الصعيد (٥٠) وموضعها حاليا إحدى قرى مركز ملوى (٥١) ، كانت مجلسا للحكم وأن القاضي بها كان بمثابة الوالي عليها وعلى أعمالها لجمعه بين الحكم والصلوة والخطابة والقضاء والمظالم في آن واحد كما جاء في نص العقد ، وذلك على الرغم مما ذكره القلقشندي من وجود ولاية واحدة بالصعيد هي قوص التي يحكم متوليها على جميع بلاد الصعيد (٥٢) . وهذا يعني أنه كان يعين بسجل من قبل الخليفة ، وأن كان الوضع قد تبدل بعد ضعف سلطة الخلفاء وصار تعيين الولاة من قبل وزراء السيف ، كما بطل عزل الولاة عند وفاة الخيفة ، بل صارت تجدد لهم الولاية (٥٣) .

بقى أن نشير في نهاية هذه الدراسة إلى أن هذا العقد قد توافرت فيه أركان العقد وشروطه من حيث العناية بالشهاد أذ نجد في صلب العقد شاهدي عدل شهدا على موافقة الزوجة على هذا الزواج باذنها ، وقبولها للصداق المذكور عاجله وآجله . كما شهدا أيضا على اقرار الزوجين بما وكذا المتولى لهذا الزواج أي الشيخ أبو الفضل العباسي بن هبة الله ، وذلك بعد أن قرأ عليهما صيغة هذا العقد ، الذي أقرأ بفهمه وبمعرفة جميع ما جاء فيه ثم قام كل منهما بإثبات شهادته واسمه في نهاية العقد . أما الشيخ

-
- (٤٨) المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٦٣ .
 - (٤٩) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
 - (٥٠) أنظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .
 - (٥١) محمد رمزي ، القاموس الجغرافي ، القاهرة ١٩٦٣ ، القسم الثاني ، ج ٤ ، ص ٥٩ — ٦٠ .
 - (٥٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .
 - (٥٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .

التولى للعقد وكذا العاقدان فلا توتبع لهم هنا ولعلمهم قد ائكتوا بتوتبع الشاهدين فقط .

وهذه العناية بالاشهاد على عقود الزواج بصفة خاصة ، ترجع الى عناية الشارع نفسه لخطره وعظم شأنه فهو وان كان كغيره من العقود أركانه الإيجاب والقبول الا انه خصه من بينها بالاشتراط حضور شاهدين لصحته ، وذلك لقول الرسول ﷺ « لا نكاح الا بشهود » (٥٤) . ومن المعروف ان الشهود كانوا يكونون زمن الدولة الفاطمية طائفة متميزة خضعت لنظام دقيق ، اذ كان يشرف عليها رئيس يعرف « بوجه الشهود » أو « مقدم الشهود » (٥٥) ، اما بقية الشهود المدعول ، فكانت مراتبهم تختلف حسب تقدم او تأخر تعديلهم ، وقد درج بعض القضاة على احاطة مجلس حكمهم بعدد كبير من الشهود رغبة في املاء شأنهم (٥٦) .

وهكذا تكشف لنا هذه الوثيقة عن بعض النواحي الاجتماعية المتعلقة بالزواج وقيمة الصداق الذي كان يقدم لنساء الشعب وعن بعض الفوارق الاجتماعية الشائعة تحت حكم الفاطميين في مصر من حيث طريقة صياغة عقود الزواج ، وايضا المادة المستخدمة لتسجيل هذه العقود ، وطرز الكتابة التي كانت تدون بها نصوص العقود التي كانت تختلف من طبقة الى أخرى .

كما أسهمت هذه الوثيقة في التعريف ببعض العملات التي كانت سائدة وقت صياغة هذا العقد والدليل على مدى جودتها ، كذلك كشفت عن التعريف ببعض التقاسيم الادارية بالتعليم الصعيد وما بها من وظائف متنوعة . والأساليب المتبعة بصدها من حيث الجمع بين هذه الوظائف ، وكذا التعريف بأسماء بعض من كان يشغلها ممن أغفلت المصادر الفاطمية الاشارة اليهم والتعريف بهم وبوظائفهم المحلية المتنوعة .

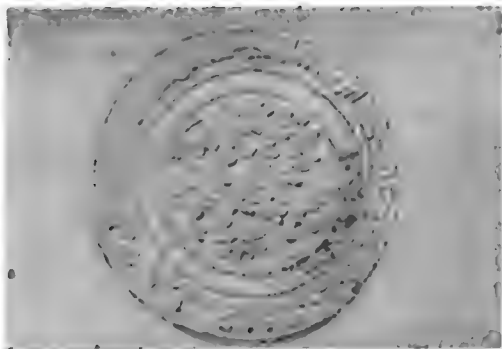
(٥٤) مسعود ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٣ .

(٥٥) الكددي ، الولاة والقضاة ، تحقيق رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ ،

ص ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٥٦) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ١٤٨ .

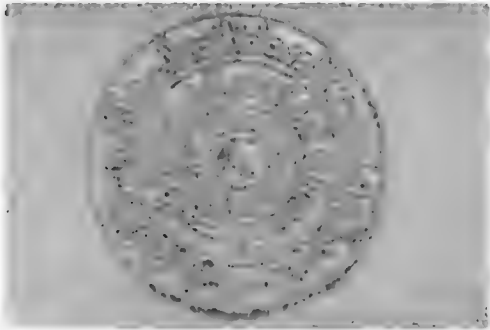




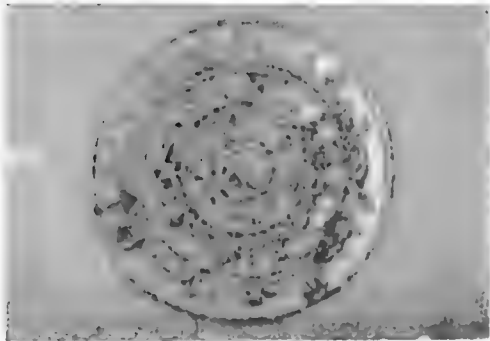
وجه



ظهر

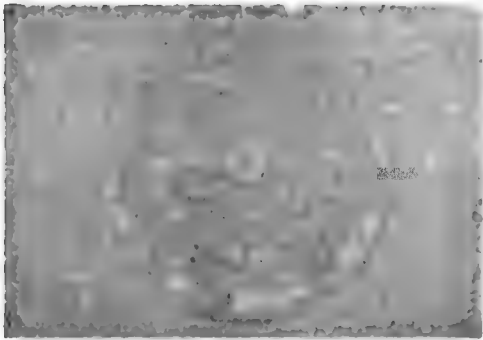


وجه



ظهر

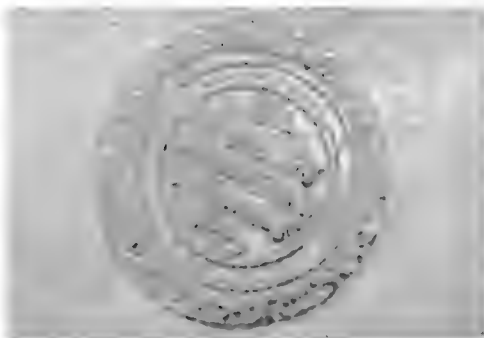
اوجه رسم هـ



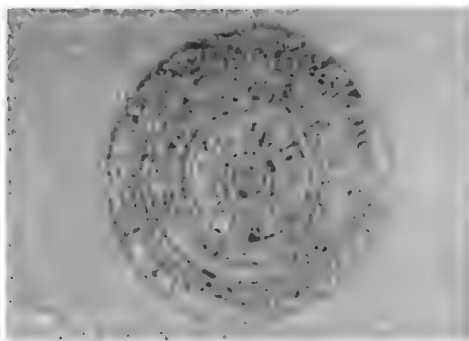
وجه



طهر



وجه



ظهر

**حول اتخاذ السودان ورفع الألوكة
والأعلام السوداء في المغرب والاندلس**

للدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ
الإسلامي والحضارة ورئيس قسمي التاريخ والوثائق
والمكتبات بجامعة الإسكندرية

حول اتخاذ السواد ورفع الألوكة والأعلام السوداء في المغرب والأندلس

كان لألوان الألوكة والأعلام في التاريخ الإسلامي معان ورموز تشير إليها ، فكان التبييض ، أى رفع الرايات البيضاء ، والتسويد ، والتحمير والتخضير شعارات لها معان ومدلولات (١) ، فإذا ما رفع العلم الأسود ،

(١) يعتبر اللونان الأبيض والأسود ، وكلاهما نقيض للآخر ، من الألوان الرئيسية عند العرب ، أما الألوان الأخرى فكانت أقل شأنًا ، فالأخضر درجة من السواد ، والأحمر درجة من البياض ، والخضرة عند العرب السواد ، فكثرتوا يعبرون عن كثرة النخل والشجر بالسواد لخضرته والسودادة ، وقيل أن ذلك لأن الخضرة تقارب السواد ، وأرض السواد يعتمد بها المناطق الخضراء من العراق . وكان العرب إذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا أحمر ، ومنه كلمة حمراء (تصغير حمراء) التى وسيت بها السيدة عائشة أم المؤمنين بمعنى بيضاء ، والحمراء العجم لبياضهم ولأن الشجرة أغلب الألوان عليهم (ابن منظور الأمازيقى المصرى ، لسان العرب ، مادة سود ، وحمر ، وخضر - الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، مادة خضر وسود) والحمرة الخمرية هم اتباع المازيار بجرجان ، سموا كذلك لأنهم يحمرون راياتهم خلاف المسودة من بنى هاشم (عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، القاهرة ، تحقيق الأستاذ محبى الدين عبد الحميد ، ص ٢٦٨ - الزبيدي ، تاج العروس ، مادة حمر) ، وربما ترمز الحمرة عندهم بسفك الدماء لرغبتهم في قتل أعدائهم العباسيين أما الصفرة فتقابل السواد ، والأصفر الأسود (تاج العروس ، مادة صفر ، وراجع : أبو الحسن على بن اسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيدي -

شعاع العباسيين في الأندلس أو المغرب في فترة ما من التاريخ الاسلامي ، دل ذلك على قيام ثورة على الحكم القائم ، استند فيها الثوار على شرعية هذا الرمز ، ولذلك فإن اللون الأسود للعلم يعبر عن حيث مدلوله اللغوي من أمور لها أبعادها التاريخية ، ومن هنا كانت اللغة الاطار الذي يحدد مدلولات الأشياء . فالبياض ، تقيض السواد ، كان لون لواء المسلمين الذي حملة مصعب بن عمير يوم غزوة بدر الكبرى ، وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخول مكة أبيض الأصفر (٧) ، وكان البياض ايضا شعاع الأمويين في المشرق وفي الأندلس (٨) ، وقد ظل رمزا لهم حتى بعد سقوط دولتهم في المشرق ، فكان انصارهم الناصرون على أبى العباس السفاح ، أول خلفاء بنى العباس ، يرفعون الالوية البيضاء رمزا للنضال ضد الدولة العباسية (٩) ، وكذلك كان يقال للحزبية ، الخوارج ،

« المرسى ، كتاب المخصص ، طبعة بيروت ، السفر الثاني ، المجلد الأول ص ١٠٥)

(٢) عبد الحى الكتانى ، كتاب التراتيب الادارية في المدينة المنورة العلية ، طبعة بيروت ، نسخة مصورة عن طبعة الرياض ١٣٤٦ هـ ص ٣٢٠ . ومن المعروف أن لواء رسول الله (ص) كان أبيض اللون ورايته سوداء (ابن هشام ، السيرة النبوية ، طبعة بيروت ، ١٩٧٥ ، ج ٢ ، ص ١٨٦ — عبد الحى الكتانى ، كتاب التراتيب الادارية ، ص ٣١٨ ، ٣٢٢) وزاد ابن عباس انه كان مكتوبا على لوائه صلى الله عليه وسلم « لا اله الا الله محمد رسول الله (راجع ابن الجوزى ، الوفا بأحوال المصطفى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، ج ، ص ٦٧٠ . — عبد الحى الكتانى ، التراتيب الادارية ، ص ٣٢٢)

(٣) أحمد مختار العبادى ، في التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢١٠ .

(٤) بىض حبيب بن مرة المرى في البثنية وحوار سنة ١٣٢ هـ ، وببض أبو الورد مجزاة بن الكوثر بن زفر بن الحارث النكلى قائد أبى محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية ، المعروف بالسفيانى في قنشرين ، كما ببض أهل الجزيرة وشقوا عصا الطاعة على أبى العباس السفاح ، وزحفوا نحو =

المبيضة لأن راياتهم في الحروب كانت بيضاء (م) ، كما كان المسلمية الرزامية والمقنمية الناقمون على العباسيين يبيضون في بلاد ما وراء النهر. (٦) . والبيض عند الأمويين وربما عند غيرهم قد يعنى النقاء والطهارة والصفاء ، اذ ان اللون الأبيض عند العرب يعنى التقى الخالى من العيوب (٧) ، وقد يكون ذلك هو السبب في اختيار الأمويين للون الأبيض شعارا لهم . أما العباسيون ، فقد اتخذوا السواد شعارا لهم منذ ان لبسه أبو مسلم الخراساني في رمضان سنة ١٢٩هـ ، وجعله لون لوائه (٨) ، ربما تعبيرا عن حزنهم (٩) على الشهداء من آل البيت الذين سقطوا ضحايا المطالبة بحقهم في الخلافة ، وهو حق انتزعه الأمويون منهم ، وان كان للعباسيون بدورهم قد فعلوا نفس الشيء مع الطالبيين ، وينسبون في ذلك التفسير الى بكر بن ماهان ، داعى العباسيين في الكوفة (١٠٥ - ١٢٧هـ) قوله : « قد تتابعتم على آل رسول الله مصائب لا ينكر معها لاتباعهم لباس السواد حتى يدركوا بنارهم » . ولكن عددا من الباحثين لا يقر هذا التفسير ، ويعتقدون أنه

= حران ، وبيض اهل قرقيسياء ، والرقعة ، ودارا ، وماردين ، والرها ، وسمساط في نفس الفترة ، تمسكا بولائهم للدولة الاموية البائدة (السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، ج ٣ : العصر العباسي الاول ، الاستقصية ١٣٩٨هـ ، ص ٥٧) .

(٥) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة حبر .

(٦) عبد القاهر بن طاهر: البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ .

(٧) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة حبر .

(٨) ولهذا السبب عرف العباسيون بالسودة ، فكانوا يخرجون وقد حملوا الرايات السوداء (راجع اصطلاح السودة في اخبار جبهة في تاريخ الاندلس ، نشره لافونتي القنطرة ، مدريد ١٨٦٧) .

(٩) جرت العادة في العصر العباسي ان يتخذ اللون الاسود او الأزرق علامة للحداد والحزن على الموتى من الأتارب ، فعندما بلغ زبيدة أم الأمين نبأ مصرع ابنها ، أمرت بثيابها غسوت ولبست مسحاً من شعر (المسعودى ، مروج الذهب ، طبعة بيروت ، ج ٣ ، ص ١٥) كذلك لبس الرشيد يوم وفاة أمه الخيزران طيلساناً أزرق اللون (الاربلى ، خلاصة التبر المسبوك ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ١١٢) .

لا توجد صلة بين اللون الأسود وبين أحزان العباسيين على شهادتهم أهل البيت استناداً إلى أن بعض المعارضين للحكم الأموي أمثال أبي حمزة الخارجي والحرث بن سريج سبقوا العباسيين في حمل اللواء الأسود في حروبهم ضد الأمويين ، فالكهيت يخاطب الحرث بن سريج بقوله :

والا غارموا الرايات سوداً . . . على أهل الضلالة والتعدي (١٠)

ويكون للسوداء في تلك الحالة علاقة بأهل الضلالة والبغي ، فيرمز للحق والعدالة (١١) . ويستندون في ذلك إلى أن رسول الله ﷺ كانت له راية تسمى العقاب (١٢) مصنوعة من صوف أسود مريضة ، رسم فيها هلال أبيض ، كان يحملها في غزواته وحروبه ضد المشركين (١٣) . وذكر ابن حجر العسقلاني

(١٠) أحمد مخنار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٢٦ . والمقصود بأهل الضلالة والتعدي الأمويون .

(١١) عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، بغداد ، ١٩٢٥ ص ٣٦ .

(١٢) جاء في المخصص لابن سيده أن العقاب العلم الضخم شبيهت بالعقاب من الطير ، وهي اللواء (راجع ابن سيده ، المخصص ، السفر السادس ، المجلد الثاني ، ص ٢٠٤) .

(١٣) عبد الحى الكنانى ، كتاب التراثيب الإدارية ص ٣٢٠ وما يليها . وربما استهدفه العباسيون من اتخاذ السواد شعاراً لهم وحمل الألوية السوداء في حروبهم مع الأمويين الاقتداء برسول الله ﷺ في حربه مع المشركين أهل الضلالة والكفر ، فإن هشام في السيرة النبوية يذكر نقلاً عن ابن اسحق ، أنه كانت لرسول الله ﷺ رايتان سوداوان أحدهما مع على بن أبى طالب يقال لها العقاب والأخرى مع الأنصار (ابن هشام ، السيرة النبوية ج ٢ ص ١٨٦ أبو الربيع سليمان بن روس الكلاعى الأندلسى ، الاكتفاء فى مفازى رسول الله ج ٢ تحقيق نكتور مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨ ، عبد الحى الكنانى ، المرجع السابق ص ٣٢١) وذكر ابن الجوزى أن راية الرسول كانت سوداء من مرط لعائشة من مرهل وكانت على شكل مربع من الصوف تسمى العقاب (أبو الفرج بن الجوزى) .

في الإصابة عند ترجمته لسعد بن مالك الأزدي ، أنه وفد على النبي ﷺ ،
 نعت له راية على قومه سوداء فيها هلال أبيض (١٤) ، وذكروا أنه عندما قدم
 عمرو بن العاص من غزوة ذات السلاسل ، كانت تخفق بالسجد النبوي في
 الخيطة رايات سود ، وكانت لعلى بن طالب (رضي الله عنه) راية سوداء
 حملها له الحضيض بن المنذر بن الحارث بن دملة المعروف بصاحب راية
 ربيعة ، يوم صفين وفي ذلك يقول على (رضي الله عنه) :

إن راية سوداء تخفق ظلها . . . إذا قيل قدحها حضيض تقحها (١٥)

وقد يرمز السواد للسيادة والمجد والشرف ، فيقال ساد يسود سودا
 وسؤدا وسيادة ، والأسود من القوم على هذا النحو سيدهم وإجلهم قدرا
 وأعظمهم (١٦) . وقد يرمز للغلبة والتفوق ، لأن السواد يعنى الكثرة العددية ،
 وسواد الناس علمتهم . واعتقد أن للسواد علاقة بقل غسادة والأخذ بالثغر
 منهم من قول الشاعر :

فإن أئمت لم تناروا وتسودوا . . . فيكونوا بغايا في الكف عيابها (١٧)

واللواء الأسود في هذه الحالة يرمز الى الدعوة لقتال السادة طلبا

الوفاء بأحوال المدعى ، ج ٢ ص ٦٦٩ . ويصفها الشيخ عبد الحى الكتاني
 بأنها شملة مخططة من صوف ، وقيل فيها مثال الأهله ، وقال نقلا عن ابن
 جماعة في مختصر السير ، وكان لرسول الله ﷺ راية سوداء مربعة يقال
 لها العقب (كتاب القراآت الادارية ، ج ١ ص ٣٢٢) .

(١٤) ابن حجر العسقلاني ، كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ، ج ٢ ،
 طبعة مصورة بالافنست ، عن طبعة مطبعة ١٣٢٨هـ ، ص ٣٢ ، ترجمة ١٣٩٢ .
 (١٥) عبد الحى الكتاني ، المرجع السابق ، ص ٣٢١ (١٠) ابن حزم
 القرطبي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق د. عبد السلام هارون ، القاهرة
 ص ٣١٧ .

(١٦) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة سود — ابن منظور ، لسان
 العرب ، مادة سود .

(١٧) نفس المصدر . . .

للثأر أو استعادة للحق من أهل البغى والتعدي والظلم . وبفهم هذا المعنى بوضوح تام في قول بكر بن ماهان سالف الذكر : « قد تتابعت على آل رسول الله مصائب لا يتكرر معها لأشباعهم لباس السواد حتى يثركوا يثارهم » ، بل اننى أعتقد أن نفس هذا المعنى يتضمنه بيت الشعر الذى استشهد به القائلون بأن الراية السوداء ترمز للحق والعدالة :

والا غارفعوا الرايات سودا . . . على أهل الضلالة وائتمدى

وعلى خسوء ما سبق ، وفى نفس الاطار يمكن أن نفس اللون الأسود الراية الرسول ﷺ بعد تشريع الجهاد ضد المشركين الذين ظلموا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، من قوله تعالى عز وجل : « أئن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير .. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » (١٨) وكان محمد بن على العباسى يقول : « عليكم بالسواد فليكن لباسكم » (١٩) . وقد أخذ خلفاء بنى العباس بذلك ، فكانوا لا يلبسون فى الرسميات الا الثياب السود ، وذكروا أن الرشيد كان يلبس يطوس يوم وفاته جبة سوداء ، خز بغير قميص ، وعليها فنك ، وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنك ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء ، وكان متطلسا بطيلسان أسود .

وكان من اصحاب أبى جعفر المنصور عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وكان ممن يلبس السواد ويلزمه حيث كان (٢٠) ، أما اللون الأخضر ، فكان رمزا للتشيع ، فعندما بايع المأمون العباسى الامام على الرضا بن موسى الكاظم بولاية العهد فى سنة ٢٠١ هـ ، طرح السواد من الثياب والاعلام ولبس الثياب

(١٨) القرآن الكريم ، سورة الحج ، ٢٢ ، آية ٣٩ ، ٤٠ .

(١٩) مجهول ، اخبار الدولة العباسية ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى ، بيروت ، ١٩٧١ ص ٢٤٥ .

(٢٠) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٢٨ . ص ٢٤١ .

الخضر في رمضان من تلك السنة ، وأمر الناس بتغيير لباس آبائهم بلباس الخضرة (٢١) . وعلى الضد من ذلك ، فإن المعز بن باديس ، أمير إفريقية ، من بنى زيري بن مناد الصنهاجي (٢٢) ، أمر بحرق بنوده الخضراء في سنة ٤٤٠ هـ فور إعلانه الانفصال الذهبي والسياسي عن الخلافة الفاطمية في مصر (٢٣) .

(٢١) ابن طباطبا ، كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والسدول الإسلامية . القاهرة ١٣١٧ هـ . ص ١٦٨ وما يليها . وفي ذلك يقول : « وأمر المأمون بخلع لباس السواد ولبس الخضرة ، فلما سمع العباسيون ببغداد ما فعل المأمون من نكاح الضلالة من البيت العباسي إلى البيت العلوي وتغيير لباس آبائهم وأجداده بلباس الخضرة ، أنكروا ذلك » (المرجع السابق ، نفس الصفحة) . وفيه يقول المسعودي : « وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ، وأظهر بدلا من ذلك الخضرة في اللباس والأعلام وغير ذلك » مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٣ طبعة بيروت ، دار الأنثوس ، ص ٤٤١) . فلما عاد المأمون إلى قصره ببغداد بعد مصرع الأمين ، كان الناس يختلفون إليه في كل يوم مسلمين ولباسهم الثياب الخضر ، ولم يكن أحد يدخل عليه إلا في خضرة ، وساد اللون الأخضر زى أهل بغداد جميعا ، وكان الناس يخرقون ويهزقون ما لديهم من الأردية السوداء باستثناء القلائس ، ومع ذلك فكان بعضهم يلبس القلائس السوداء متخفيا ، ولم يكن أحد يتجرأ على لبس أقبية أو طيلاس أو يرفع أعلاما سوداء . فلما حادته بنو هاشم في ذلك ، وقدم طاهر بن الحسين وخطبه هو وقواده أهل خراسان ، استجاب لهم ، واستدعاهم ، فقدموا ، فدعا « بسواد فلبسه ، ودعا بخلعة سوداء ، فكساها طاهر بن الحسين ، وخلع على عدة من قواده أقبية وقلائس سوداء ، فلما خرجوا من عنده ولبسهم السواد ، طرح سائر القواد الخضرة ، ولبسوا السواد » (راجع ابن طيفور ، كتاب بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨ ص ٢) . وهكذا عاد المأمون إلى اتخاذ السواد في ٢٣ صفر سنة ٢٠٤ هـ ، أي بعد ما يفر من ثلاث سنوات من الغائه (السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٨٦) .

(٢٢) ابن حزم ، جبهة أنسلف العرب ص ١٠٦ .

(٢٣) ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار المغرب ؛ طبعة صادر — بيروت ، ج ١ ، ١٩٥٠ ص ٣٩٩ . ومن نزع إلى السواد في المغرب الأدنى

ويضاف الى هذه الألوان الثلاثة اللون الأصفر الذى اتخذه أبو زيد مظل بن كيداد اليفرنى الخارجى الثائر على الدولة الفاطمية فى المغرب فبمسا بين عامى ٣٢٢ ، ٣٣٧ هـ ، لبندين من بنوده ، سجل فى أحدها البسلة وعبرة « بمحمد رسول الله » ، وفى الآخر عبارة « نصر من الله وفتح قريب على يدى الشيخ أبى يزيد . اللهم انصر وليك على من سب أولياك » (٢٤) ، وقد سبق أن رأينا أن اللون الأصفر من فصيلة الأسود شعار الدولة العباسية . وبهنا من هذه الألوان الأربعة اللون الأسود بالذات الذى أصبح اللون الرسمى فى الثياب عند العباسيين ، واتخذوه فى طياتهم وعمائمهم وقلانسهم والزيتهم ، وأصبح هذا اللون فى المغرب والأندلس — موضوع هذا البحث — شعارا للثورة على الأوضاع السياسية السائدة فى هذين الصقعين ، المجانية لطبيعة الأمور ، أو مظهرا من مظاهر الشرعية فى الولاية ، أو التماسا للتبعية الاسمية للخلافة العباسية ، أو اقترارا لعمل مخالف لإرادة الحكوميين . وقد تبطلت هذه الحالات جميعا فى فترات مختلفة من تاريخ الأندلس تكرر فيها اتخاذ السود ورمع الألوان السوداء ، والدماء باسم الخليفة العباسى المعاصر للواقعة .

وأول من رمع اللواء الأسود فى المغرب عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، أحد أحفاد عقبة بن نافع مؤسس القيروان ، تائيدا للثورة العباسية التى أطاحت بدولة بنى أمية ، وربما كسبا لسند شرعى يدمم دولته فى إفريقية . ولقد ظهرت أطباع عبد الرحمن بن حبيب الفهرى فى الإمارة منذ يوم بثورة الذى انهزم فيه العرب على أيدي البربر فى طليعة عام ١٢٤ هـ ، فاتحاز ابن حبيب الى الأندلس مع بلج بن بشر بن عياض

أحد رجالات العرب المعارضين للحكم الأغلبى فى مهد إبراهيم بن الأغلب ويدهمى حمديس ، ولكن ثورته انتهت بالفشل ، وتبكن عمران بن مجالد ، قائد ابن الأغلب من استرجاع تونس (ابن الأثير ، الكامل التاريخ ، ج ٥ طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة بيروت ، ج ٤ ص ٤١٩) .

(٢٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٠٨ وما يليها .

العشيري والطالعة البلجية المنسوبة اليه عساه يجد في الأندلس سبيلا يوصله الى تحقيق أمنيته ، ولكن ابواب الإمارة في الأندلس كانت موصدة ، فلم يوفق في التماس مجال له هناك بسبب الصراعات العنيفة التي احتدمت في الأندلس أولا بين العرب والبربر ، ثم بين البلجيين من العرب والبربر وبين الشاميين الطارئين ، فلما وجه حنظلة بن صفوان وإلى المغرب أبا الخطار الحسام ابن ضرار الكلبي إلى الأندلس أميرا ، ينس عبد الرحمن من تحقيق أمنيته ، وخاف أن يقع في قبضة الأمير الجديد (أبي الخطار) ، فركب سفينة أقلته إلى تونس (٧٥) ، فنزلها في جمادى الأولى سنة ١٢٦ هـ أملا في الدعوة إلى نفسه بين جماعات البربر الذين ينتسب اليهم عن طريق أمه . ثم دعا الناس إليه في ٢٧ جمادى الآخرة من نفس السنة ، فأجابوه ، وجمع حشودا منهم لقتال حنظلة بن صفوان وأخراجه من أفريقية ليخلو له الجو ، ويعلم نفسه أميرا على أفريقية . ونجح عبد الرحمن بن حبيب بعد محاولات خسيسة في حمل حنظلة بن صفوان على الخروج من أفريقية إلى دمشق في جمادى الآخرة من نفس السنة (٧٦) ، ومن أفريقية بعث عبد الرحمن بيعنه إلى مروان بن محمد مع بعض الهدايا (٧٧) ، فأقره مروان بن محمد على ولاية أفريقية . ولم يكن ابن حبيب في واقع الأمر في حاجة إلى مثل هذا الاقرار ، إذ كان قد اغتصب الولاية بالفعل من حنظلة بن صفوان ، وكسان مروان بن محمد واقعيًا ، فلم يكن أمامه سوى إقراره على ما بيده في الظروف

(٢٥) يعبر ابن الأبار عن ذلك بقوله : « فلم يزل عبد الرحمن بهما (أي الأندلس) يحاول التغلب عليها إلى أن دخل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي إليها . . . فخافه عبد الرحمن وخرج مستترا ، فركب البحر إلى تونس » (ابن الأبار ، الحلة السرياء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ٢ ص ٣٤١) .

(٢٦) راجع تفاصيل هذه المحاولات وما اصططنه ابن حبيب من الفخر والمخاطلة في حمل صفوان على الرجيل من أرض المغرب في : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصور الإسلامية ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ص ٢٣٤ - ٢٣٧ .

(٢٧) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٧ .

الصعبة التي كان يواجهها في الشرق الاسلامي ، وبهذا الاقرار أصبح ابن حبيب أمراً شبه مستقل عن الخلافة الأموية المحترمة ، ويمكن من التغلب على جميع خصومه السياسيين في افريقية ، وبطش بأعدائه البربر الإباضية في إقليم طرابلس و افريقية . ولكن هذا الانتهازي المغامر لم يكد يعلم بانتصار الثورة العباسية ومصرع مروان بن محمد ، وقيام دولة بني العباس في سنة ١٣٣هـ حتى بادر بإعلان دخوله في طاعة أبي العباس السفاح ، فلما توفي السفاح في سنة ١٣٦هـ وخلفه أبو جعفر المنصور في تلك السنة أقر ابن حبيب الفهرى على ولاية افريقية ، وأرسل له خلعاً سوداء ، وهو أول سواد دخل افريقية . والظاهر أن ابن حبيب كان يسعى الى كسب تأييد شرعى من وراء هذه الخلع ، بدليل أنه ما كاد يستوثق من تمكين سلطانه في البلاد وثبات قدمه في الإمارة ، حتى بادر بخلق طاعته للمنصور ، وأمر بتزويق خلع المنصور . ولكن انصار الدولة العباسية تأهبوا على قتله ، وتنصيب أخيه الياس — المتعطش الى الإمارة — مكانه ، وإعادة الدعوة لأبى جعفر المنصور ، وتولى الياس نفسه تنفيذ المؤامرة وقتل أخاه عبد الرحمن في سنة ١٣٧هـ ، ولما يهنا بالإمارة ، ولم يلبث الياس أن أعاد الدماء على منابر افريقية لأبى جعفر المنصور لحاجته الى تأييد عباسي يشد أزره ، ويدعم شرعيته في الحكم بعد جريمته «الشنعاء» ولم يتردد في أن يبعث بطاعته الى المنصور مع وفد من العرب من بينهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى افريقية (٢٨) .

وواضح مما سبق أن دخول بنى حبيب في طاعة العباسيين ، وانخاضهم السواد ، كان ضرورة سياسية حتمتها الظروف لتدعيم مركزهم المتارجح في الداخل ، والاستناد في إمارة افريقية على سند شرعى في تلك المرحلة الانتقالية الحرجة بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وربما كان عبد الرحمن بن حبيب يستهدف تحقيق استقلال ذاتى في افريقية قريب الشبه

(٢٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ص ٢٨٠ — ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ص ٤٠٩ .

ياستقلال الأغلبة بهذا القطر فيها بعد ، مع الإبقاء على ولائهم للعباسيين ،
علما طالبه المنصور بالتبعية المباشرة ، لم يتردد ابن حبيب في تحديه ولعنه ،
واقدم على خلع السواد ، واحراق اللواء والخلع .

ثم ظهر اللواء الأسود في الأندلس للمرة الأولى في ولاية يوسف بن عبد
الرحمن الفهري ، ويبدو أن يوسف كان قد استقل عن الخلافة الأموية في السنين
الأخيرة من عصر مروان بن محمد ، فبعث أبو جعفر المنصور عند بدء قيام
الدولة العباسية الى عامر بن وهب بن عمرو بن المصعب بن أبي عزيز بن
عمير — وكان له في الأندلس قدر — سجلا ولواء بولاية الأندلس ، وقام
بسرقة سطة ، ولكن يوسف الفهري قتله (٢٩) . واعتقد أن يوسف كان يرغب في
الاستئثار بولاية الأندلس مهما كلفه الأمر ولهذا أراد أن يكسب شرعية في
الحكم فخطب لأبي جعفر المنصور الى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس
وأسس دولة بني أمية في الأندلس . ثم رفع اللواء الأسود من جديد في سنة
١٤٦هـ لتقويض دعائم الحكم الأموي في الأندلس لصالح العباسيين ، رفعه
العلاء بن مغيث ليحصبى على الأمير عبد الرحمن الداخل ، وذلك بعد ثمان
سنوات فقط من مبايعة الأخير بالإمارة . ومن المعروف أن عبد الرحمن بن
معاوية كان يدعو في بدء توليه الإمارة لأبي جعفر المنصور على نحو ما كان
يفعل يوسف بن الرحمن الفهري ، وإلى الأندلس السابق ، ويذكر ابن الأبار
في الحلة السرياء أن عبد الرحمن أقام الدعوة باسم المنصور لمدة تقل عن
العام ، ممثلا في ذلك يوسف الفهري في دعائه للعباسيين (٣٠) ، في حين
يحددها المقرئ بعشرة أشهر فقط . واعتقد أن المنصور كان يتوقع اقدام

(٢٩) ابن حزم ، جبهة أنساب العرب ، ص ١٢٦ .

(٣٠) ابن الأبار ، الحلة السرياء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ج ١ ،
ص ٣٥ . ويقول ابن الأبار « أقام اشعرا دون السنة يدعو لأبي جعفر
المنصور متقبلا في ذلك يوسف الفهري الوالي قبله » . وواضح أن عبد الرحمن
الداخل لم يشأ أن يتطوع الدعاء للخليفة العباسي بمجرد توليه الإمارة ، وإنما تعمد
الاستمرار في الدعاء له الى أن ترسخ قواعد إمارته ويثبت سلطانه .
واعتقد أن عبد الرحمن كان موافقا في تلك السياسة الحكيمة التي تدل على
ذكائه والمعيتة وهو ما شهد له به أبو جعفر المنصور نفسه ، اند أعدائه .

عبد الرحمن بن معلوية على اسقاط اسمه من الخطبة في الأندلس ، بل انه لم يكن يتوقع اطلاقا أن يواصل عبد الرحمن ، خصمه اللدود ، وسليل خلفاء بني أمية في المشرق ، الدعاء له على منابر الأندلس ، ولهذا فان قطع الدعاء له في الأندلس لم يكن مفاجأة للمصور ، ولم يكن لذلك أدنى أثر لديه ، ولم يحدث أى ردود فعل سريعة ، اذ كان في نيته القضاء على دولة عبد الرحمن بن معاوية بمواء تابع الدعاء له أم توقف عنه . واعتقد أن انتظار المنصور الطويل ولادة ثمان سنوات ، على عبد الرحمن بن معلوية لم يكن يعنى اغفاله لأمره ، وانما كان انظارا لفرصة مواتية وظروف ملائمة للاتاحة بدولته . وجاءت اللحظة التي كان ينتظرها المنصور العباسي ، وتهيأت له الفرصة عندما سار الى المغرب الأدنى قوة عباسية بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي ، تمكنت من القضاء على الإباضية في طرابلس وسائر المغرب الأدنى ، ودخول القيروان في غرة جمادى الأولى من سنة ١٤٤هـ (٣١) ويبدو أن المنصور كان قد عهد الى أحد قادة هذه الحملة وهو العلاء بن مغيث اليحصبي برفع لواء الثورة في الأندلس ضد عبد الرحمن الداخل ، مستغلا الظروف الداخلية السيئة التي كانت تجتازها البلاد في هذه الفترة ، ليجمع حوله الأنصار والمؤيدين للدولة العباسية ، ويتمكن بهم من السيطرة على قرطبة . فالفترة التي حفل فيها ابن الأشعث الخزاعي بقواته العباسية — سنة ١٤٤هـ — والفترة التي قامت فيها ثورة العلاء بن مغيث في الأندلس — سنة ١٤٦هـ — متقاربة ، الأمر الذي يدعونا الى الاعتقاد بأنه كان من بين قواد هذه القوة ، لا سيما وأن المغرب قبل وصول القوة العباسية كان قد أصبح إباضيا بربريا ، بحكم انتصار الخوارج الإباضية والصفورية من أقصى المغرب الى ادناه في طرابلس . وأيا ما كان الأمر فقد عبر العلاء بن مغيث البحر من افريقية الى تدمير مركز جند مصر ، وأقرب المعابر البحرية في الأندلس الى افريقية . والظاهر انه عبر في بداية سنة ١٤٥هـ ، وأنه أقام بعض الوقت في تدمير لتنظيم ثورته واعداد قوته . واعتقد أنه كان يعتمد على انتصار له في تدمير من جند مصر ، فان انتقاله الى باجة في أقصى الجنوب الغربي من

الأنطلس ، والمركز الثاني لجند مصر ، له مغزى هام ، وواضح أن ثمة علاقة تربط بين باجة وتدمر وبين العلاء بن مغيث ، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأنه قدم من مصر وأنه اشترك مع القوة العباسية التي قادها ابن الأشعث الخزاعي الوالي السابق للعباسيين على مصر وأفريقية . وبذلك تكتمل حلقات الحلقة التي دبرها المنصور ، ونلخصها في أنه اختار لقيادة الثورة قائدا يمنيا ، وفد إلى أفريقية مع عسكر العباسيين الذين سيرهم بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي لاستئصال أفريقية من عبث البربر الإباضية والصفرية ، وأنه أسند إليه مهمة الانتمال بالمعارضين للحكم الأموي في الأنطلس من اليمينية المستقرين في تدمر من جند مصر ، وأنه زوده بالأعلام السوداء وبسجل الولاية ، ليرفعها في الوقت المناسب . ثم اخبر العلاء الزمان والمكان المناسبين لثورته ، فقد كانت الثورات تفتح الأنطلس في الشمال والجنوب ، وشغل الأمير عبد الرحمن الداخل باخادها ، وكان وقت نزول العلاء مشغولا بقمع ثورة قام بها القيسية في طليطلة عندما بلغه قيام العلاء بن مغيث برفع اللواء الأسود ، شعار العباسيين ، في باجة ، وهذا ينقلنا إلى تونيقه في اختيار المكان الملائم لثورته وهو مدينة باجة . فهذه المدينة تقع في أقصى الجنوب الغربي من الأنطلس غير بعيد من قرطبة الحاضرة ومن اشبيلية وماردة موطن الثورات اليمينية والبربرية المتواصلة (٣٢) . ثم إن باجة كانت بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي الهام لقيام الثورة كانت المركز الثاني لجند مصر ، حيث يمكنه أن يعتمد على تأييد أهلها للثورة ، ولهذا السبب ، ما كاد العلاء ينزل بباجة ويلبس السواد ويدعو لأبي جعفر المنصور ويرفع الألوية والأعلام السوداء ، حتى اجتمعت إليه حشود ضخمة من الناقمين على عبد الرحمن ، المتورين منه والراغبين في خلع (٣٣) والتخلص

(٣٢) كانت اشبيلية وما يليها من غرب الأنطلس وأكبر مدنه إذ ذاك باجة وماردة . على حد قول الدكتور حسين مؤنس ، من مراكز الثورة الكبرى على عبد الرحمن الداخل الذي كان قد تمكن في العام السابق على ثورة العلاء (١٤٥ هـ) من القضاء على ثورة قام بها اليمينية في اشبيلية بزعامة عبد الغافق اليماني رئيس عرب اليمينية الذي اضطر إلى الفرار إلى المشرق حوالي سنة ١٤٥ هـ (ابن الأبار ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، هامش ٣) . (٣٣) ابن الفوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأنطلس ، نشره خليان ربييرا مدريد ١٩٢٦ ، ص ٣٣ - أخبار مجموعة في تاريخ الأنطلس ، ص ١٠٧ - ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٧٧ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٥٧٥ .

منه ومعظمهم من جماعات الينية المستقرين بكثرة في بلاد غرب الأندلس . وما ان علم عبد الرحمن بن معاوية بأمر العلاء حتى ترك حصاره لطابطة ويادر بالانسحاب ، فأتبل نحوه العلاء بجيوعه ، وتحرك في اتجاه قرطبة الحاضرة ، فلأذ ابن معاوية بحصن قرمونة القريب من اشبيلية ، وعنفذ أطلق عليه العلاء بحشوده الضخمة وأحكم عليه الحصار . ومضى نحو شهرين ، نفذت خلالها الأموات والمؤن في قرمونة بسبب الحصار الطويل ، ودب اليأس في نفوس المحصورين من أتباع عبد الرحمن ، وفي نفس الوقت كان معظم أنصار العلاء قد انخلوا عنه لطول أمد الحصار ، فاقتم عبد الرحمن هذه الفرصة وعزم على مفاجأة قوات العلاء بهجوم خاطف سريع ، نجح قواته داخل المدينة في موضع قريب من بابها المعروف بباب اشبيلية ، ثم أمر بنار مأوتدت ، وأمر بأغداد السيوف فطرحت في النار ، ثم خاطب رجاله وأمرهم بالخروج معه خروج من وطن نفسه على القتال حتى الموت ، وسل سيفه في مقدمة أصحابه واندفع من باب المدينة ، وانقض هو ورجاله على جيش العلاء ، فمزقه شرمزق ، وأذرعوا السيوف فبين بقي منهم في ساحة المعركة ، فسقط العلاء نفسه صريعا ، فبعث عبد الرحمن برأسه بعد أن لفه في السجل واللواء الى مكة ليوضع أمام سراق المنصور (٢٤) .

ثم عاد اللواء الأسود يرتفع من جديد في افريقية سنة ٤٤٠هـ ، وكان ظهوره في هذه المرة لتأكيد الانفصال المذهبي والسياسي للمغربين الأدنى والأوسط في آن واحد عن الدولة الفاطمية في مصر . ومن المعروف أن المعز لدين الله كان قد استخلف على المغربين الأدنى والأوسط قبل رحيله النهائي الى القاهرة في سنة ٣٦٢هـ أبا الفتوح يوسف ولكن بن زيري بن مناد الصنهاجي (٢٥) . وظل أبو الفتوح يوسف وبنوه يتوارثون إمارة المغربين الى

(٢٤) ابن الفوطية ، المصدر السابق ، ص ٣٤ — ابن عذاري ، البيان ،

ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٢٥) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ، ص ٢١٧ — ابن الخطيب ، كتاب اعمال الاعلام ، القسم الثالث تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ٦٥ .

أن تم انفصال المغرب الأوسط عن الأدنى في عهد نصير الدولة باديس بن المنصور بن يوسف في سنة ٣٩٥ : متفرد حماد بن يوسف ويتوه بإمرة الغرب الأوسط من حاضرتة القلعة المنسوبة إليه في حين ظل بنو يوسف بن زيري يتولون المغرب الأدنى بين المهديّة ، ويذكر ابن خلدون أن حمادا دعا للخلفاء العباسيين ، وأنه أعاد دولته إلى المذهب السنّي (٣٦) ، وأنه بذلك قد سبق المعز بن باديس في إعلان انفصاليه المذهبي والسياسي من الخلافة الفاطمية بمصر نحو ثلاثين عاما (٣٧) . وكثفت دولة يوسف بن زيري في إفريقية موالية للدولة الفاطمية منذ أن استنابه المعز لدين الله على ولايتها ، ولكن ما أن خلف أبو الفتح المنصور بن بلتكين يوسف أباه (٣٧٤ — ٣٨٦ هـ) على إمارة إفريقية حتى بدا يجتئح إلى التفكير في الانفصال عن الخلافة الفاطمية في مصر ، ولكن العزيز بالله الفاطمي لم يترك له الفرصة لذلك ، فقد كان يبيت القلاقل والفتن في إفريقية حتى يصرفه عن التفكير في الانفصال ، وظلت العلاقات بين الدولتين الفاطمية والزيرية ودية في الظاهر ، وكان العاهلان يتبادلان الهدايا حفاظا على ظواهر الأمور ، فكانت تلك العلاقات أشبه بقناع زائف يخفي وراءه ما كان يعمل فيها من التوتر والتحفز . ثم تولى المعز بن باديس في ٢١ ذي الحجة سنة ٤٠٦ هـ ، وهو ابن ثمان سنوات ، وكان قد نشأ نشأة سنية على يد استاذة ووزيره أبي الحسن بن أبي الرجال ، ولهذا فقد كان يكره التشيع ويضطهد الشيعة في إفريقية ، وحمل الكثير منهم على الخروج من إفريقية إلى صقلية في سنة ٤٠٩ هـ (٣٨) ، بل أنه أخذ يحمل الناس على نبذ المذهب الإسماعيلي واعتناق المذهب المالكي مستهدفا من ذلك تحقيق الانفصال المذهبي ثم السياسي من مصر الفاطمية . ومع ذلك فقد كان الحاكم بأمر الله — رغم كله ما قيل عنه — يداريه ويسترضيه ، ويهاندنه ويوادعه ،

(٣٦) ابن خلدون ، تكتل العرب ، ج ٦ ص ٣٢٤ .

Marçais, La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946, p. 164.

(٣٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٢٨٨ . وكان قد قتل في أيامه عدد كبير من الشيعة ، وكان ذلك من الأسباب التي حملتهم على الرحيل إلى صقلية فرارا من اضطهاد الزيريين لهم .

وكان ينعم عليه بالالتحاب التشريعية والهدايا النفيسة حتى يثقل عليه كل المنافذ المؤدية الى ذلك الانفصال . وتختلف الروايات في تحديد تاريخ انفصال المعز بن باديس عن الدولة الفاطمية والسنة التي دعا فيها للخليفة القائم بأمر الله العباسي ، فبينما يذكر ابن عذارى أن المعز خرج من طاعته للفاطميين في سنة ٤٣٣هـ (١٠٤١م) وأنه دعا في هذه السنة للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٣٩) يؤرخ المقرئ لهذا الحادث في سنة ٤٣٥هـ ، ويذكر أيضا أن الخليفة أرسل اليه في تلك السنة الخلع من بغداد على طريق القسطنطينية (٤٠) . ثم يأتي المقرئ بعد ذلك بروايتين أخريين متناقضتين داخل اطار حوادث سنة ٤٤٣هـ ، جاء في الرواية الأولى أن المعز ابن باديس — بعد أن تبادل معه اليازوري وزير المستنصر بالله انفاطحي الاهتات — أقسم ليحولن الدعوة الى بنى العباسي ، وأنه « لج في ذلك » ، وقطع الدعاء للمستنصر ، وأزال اسمه من الطرز والرايات ، ودعا للقائم أبى جعفر بن القادر في سنة أربعين وأربعمائة ، وكتب اليه بذلك ، فكتب اليه بالعهد صحبة أبى الفضل بن عبد الواحد التميمي ، فقرأ كتابه بجامع القيروان ، ونشر الرايات السود ، وهم دار الاسماعيلية ، ووصل الخبر بذلك الى القاهرة ، فأنشأ اليازوري بتجهيز أحياء هلال بن جشم والأشروزيين ورياح وعدى وربيعة الى المغرب وتولية مشايخهم أعمال افريقية ، فقبلت مشورته وأرسل اليهم في سنة إحدى وأربعين ، فوصلوا افريقية سنة ثلاث وأربعين « (٤١) » .

- (٣٩) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٩٧ .
 (٤٠) المقرئ ، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧١ ص ١٩٠ .
 ونفس النص نشره د. أحمد مختار العبادي عن النسخة المحفوظة بمكتبة سراى أحمد الثالث باسطنبول ضمنية لمقاله بعنوان « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، المنشور بصحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ببحرید : ١٩٥٧ ، ص ٢٢٢ .
 (٤١) المقرئ ، اتعاط الحنفا ، ج ٢ ص ٢١٦ .

أما الرواية الثانية فتتضمن النص التالي : « وفيها (أى فى سنة ٤٤٣هـ)

أظهر المعز بن باديس صاحب إفريقية الخلفاء على المستنصر ، وسيررسولا إلى بغداد ليتيم الدعوة العباسية ، واستدعى منهم الخلع ، فأجيب إلى ذلك ، وجهزت الخلع على يد رسول يقال له أبو غالب الشيزرى ومعه العهد واللواء الأسود ، فمر ببلاد الروم ليمدى منها إلى إفريقية ، فقبض عليه صاحب الروم ، وبلغ ذلك المعز بن باديس ، فأرسل إلى قسطنطين ملك الروم فى أمره ، فلم يجبه رعاية لحق المستنصر . واتفق قدوم رسول طغرل بك يستأذنه فى مسيره إلى مصر ، فظفهر المودة التى بينه وبين المستنصر ، وأنه لا يرخس فى أذنيه ، واتفق قدوم رسل المستنصر إليه بهدية عظيمة ، فبعث معه برسول القائم بما على يده ، فدخل إلى القاهرة على جبل ، وأحرق العهد واللواء والهدية فى حفرة بين القصرين » (٤٣) .

وواضح أن المقرئى يناقض نفسه فى الروايتين ، فيقحم اليازورى فى الرواية الأولى التى يحدد فيها سنة ٤٤٠هـ للدعوة للخليفة القائم بأمر الله ، مع أن اليازورى لم يقول الوزارة إلا فى ٧ المحرم سنة ٤٤٢هـ (٤٢) ، ويؤرخ الانفصال وقطع الدعوة للخليفة الفاطمى فى الرواية الثانية فى سنة ٤٤٣هـ . هذا التناقض الواضح يجعلنا فى حيرة حول التاريخ الصحيح من بين التواريخ الثلاثة التى أثبتتها المقرئى للسنة التى دعا فيها المعز بن باديس للخليفة العباسى ، وهى ٣٥٠ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ . ويتفق كل من ابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون على أن تاريخ سنة ٤٤٠هـ (٤٤) هو الذى تم فيه إعلان

(٤٢) المقرئى ، اتعاضد الحنفا ، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٢١٢ .

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ص ٥٥ . ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٩٩ . ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٢٥ . ويذكر ابن عذارى أن المعز بن باديس أتبع حركته الانفصالية بقطع الدعوة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى الخطبة وأحراق بنوده الخضراء والدعوة على المنابر الإفريقية للعباس بن عبد المطلب .

الدعوة للخليفة العباسي وانقطعت فيه عن الخليفة الفاطمي . وإمام هذا الاختلاف فائنى أميل الى تصور حوادث الانفصال على النحو التالى :

١ - فى سنة ٤٣٥ (وليس فى سنة ٤٣٣ كما يذكر ابن عذارى) (٤٥) بلغ أبا القاسم أحمد الجرجرائى (ت ٤٣٦) وزير المستنصر بالله نبأ اقدام المعز بن باديس على قطع الخطبة عن المستنصر والدعوة ببلاد افريقية للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، كما بلغه ما كان يقوم به المعز من اضطهاد للعناصر الشيعية فى افريقية والدعوة للمذهب المالكي . فخطب المعز بن باديس محذرا وهو يراجمه بالتحريض بخلفائه والقدح فيهم « حتى اظلم الجو بينه وبينهم » (٤٦) .

٢ - عندما استقر أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بن محمد بن أحمد الجرجرائى فى الوزارة بعد أن صرف المستنصر عنها أبا منصور صدقة الفلاحى فى سنة ٤٣٩ هـ ساد التوتر العلاقات القائمة بين القاهرة والمهدية ، ولم يحاول المستنصر بالله من جانبه أن يسترضى المعز بن باديس كما كان يفعل كل من الظاهر لاعزاز دين الله أو الحاكم بأمر الله من قبل ، وإنما تمعد اغفال شئانه استغفانا به ، فازدادت بذلك هوة الخلاف اتساعا وعمقا . وذكروا أنه لما بلغ المستنصر ما قام به المعز بن باديس من قطع الخطبة له والدعوة للخليفة القائم العباسى كتب الى المعز يتهدده (٤٧) ، وأورد ابن خلكان أن المستنصر كتب الى المعز يتهدده ويذكره بالتزام آباءه الطاعة والولاء للفاطميين ، فرد عليه المعز مؤكدا حق أسرته فى الاستقلال ، وقال له : « أن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم اعظم من التقديم ولو أضروهم لتقدموا بأسيانهم » (٤٨) . وهكذا تحطم كل أمل فى ايجاد تسوية ودية بين الطرفين .

(٤٥) ابن عذارى ، البيان ص ٣٩٧ .

(٤٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٢٥ .

(٤٧) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٣١ .

(٤٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان .

وفي أثناء ذلك كان المعز بن باديس قد سير رسولا من قبله الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يلتمس منه الخلع واللواء الاسود والعهد ، فاجابه الخليفة الى طلبه ، وعهد بحمل الخلع والعهد واللواء الاسود الى ابي غالب الشيزرى رسولا من قبله الى المعز ، وكلفت رحلة ابي غالب الى افريقية تتطلب منه ان يمر ببلاد الروم ربما ليركب من احد موانئها سفينة تبهر الى افريقية لطول الطريق البري عبر بلاد الشام ومصر وبرقة الى افريقية ، واثناء مروره وقع في قبضة السلطات البيزنطية باعتباره موفدا من قبل الدولة العباسية العدو الاول للدولة البيزنطية . فلما علم المعز بذلك سير عثمان بن ابي بكر بن حمود بن أحمد الصدقي السفاحي المعروف بابن الضبط رسولا (٤٩) من قبله الى القسطنطينية في تاريخ يسبق سنة ٤٤٠هـ التي توفي فيها هذا السفير وهو مئذ من مهمته او حسب تعبير ابن بشكوال « صادرا او واردا » . والظاهر ان عثمان هذا حاول اقناع المسؤولين في بيزنطة بالامراج عن رسول الخليفة العباسي وعدم التعرض مستقبلا لسفراء العباسيين الى افريقية حفاظا على العلاقات الطيبة بين الزيريين والبيزنطيين ولكن البيزنطيين لم يوافقوا على طلب المعز بن باديس حردسا على العلاقات الودية القائمة بالفعل بين دولتهم والدولة الفاطمية (٥٠) ، وتظاهروا بعدم قبولهم الاضرار بمصالح الفاطميين .

(٤٩) ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٦٦ ، ترجمة رقم ٨٨٢ .

ويؤكد قيام المعز بارسال هذه السفارة الى الخليفة العباسي ، نصر المقتريزي في اتعاظ الحنفا الذي سبق الاشارة اليه ، وجاء فيه « وبلغ ذلك المعز بن باديس ، فأرسل الى قسطنطين ملك الروم في امره » (ص ٢١٤) .

(٥٠) كتبت العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية قد تحسنت في عهد المستنصر بالله الذي مقد مع الامبراطور ميشيل الرابع هدنة في سنة ٤٢٩ هـ (المقيزي ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٧) ، كما تبادل مع قسطنطين التاسع الهدايا سنة ٤٣٧ هـ (محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٤٥) .

واعتقد أنهم وافقوا رسول المعز بعدم التعرض مستقبلا لأى من سفراء الخليفة العباسى الى افريقية ، فقد كانت للدولة البيزنطية مصالح فى جنوبى إيطاليا وكان يهبط فى نفس الوقت الإبقاء على صلاتها الطيبة مع الزيريين .

٤ — اتفق قدوم رسل المستنصر بالله الفاطمى بهدية نفيسة الى الامبراطور البيزنطى ، فبعث معهم السفير العباسى الأسير مع كل ما كان يحمله معه من الخلع واللواء والعهد ، فحرقها المستنصر فى ساحة بين القصرين فى سنة ٤٤٠ هـ .

٥ — كانت العلاقات بين المستنصر بالله والمعز بن باديس قد سادت فى تلك السنة الى أقصى درجة بحيث لم يعد هناك أى مجال للتفاهم ، وعدمت كل وسيلة لعلاج الموقف المتدهور . وكان المعز قد بلغه نبأ احراق الخلع العباسية والعهد واللواء فى ساحة بين القصرين بالقاهرة ، كما علم ان الخليفة العباسى يصدد ارسال خلع اخرى عن طسريق القسطنطينية أيضا . ولكنه لم يستطع الانتظار لكثير من ذلك واضطر الى التعميل باعلان الانفصال المذهبى والسياسى عن الدولة الفاطمية رسميا فى نفس سنة ٤٤٠ هـ مدفوعا فى ذلك بضغوط شعبية من اهل القيروان المعادين للمذهب الاسماعيلى .

٦ — استعاض المعز عن الأعلام والخلع بثيالب بيضاء أمر بإخراجها من فندق الكتان بالقيروان وصبغها بالألوان الأسود الحالك ، وجمع الخياطين وأمرهم بقطعها أثوابا ، ثم جمع الفقهاء والقضاة الى قصره ، وخطبى القيروان وجميع المؤننين ، وكساهم ذلك السواد . ثم اندبروا جميعا الى الجاليع حيث اعلان انفصاله رسميا عن الدولة الفاطمية مذهبيا وسياسيا (٥١) وأمر بلعن الخلفاء الفاطميين .

٧ - ثم وصلت الخلع الجديدة والعهد واللواء الاسود - فيما يبدو -
 صحبة ابي الفضل بن عبد الواحد التميمي الى القيروان (٥٢) في سنة
 ٤٤١هـ ، فقرأ المعز بن باديس كتاب الخليفة بجامع القيروان ،
 ونشر الرايات السود ، وهم دار الاسماعيلية ، وامر بسبك ما لديه
 من الخناثير والدراهم والقطع التي تحمل اسماء بنى عبيد الله ، وازالة
 اسمائهم من الرايات والطرز (٥٣) .

٨ - امر المعز بن باديس في آخر سنة ٤٤١هـ او بداية سنة ٤٤٢هـ بتبديل
 النسكة ، ف ضرب عملات ازيلت من نقوشها العبارات الدالة على المذهب
 الشيعي (٥٤) . وقد وصلت الينا عملة قيمتها ١/٢ دينار من عهده ،
 نقوشها على النحو التالي :

مركز الوجه مركز الظهر

ومن يتغ (غير) لا اله الا الله
 الاسلام د (ينا) وحده لا شريك له
 فلن يقبل من (٤) محمد رسول الله

دائرة الوجه

محيت الكتابة ولم يعد مميذا منها محيت الكتابة ولم يبق منها سوى
 سوى رقم « اربعين » كلمة « شاهدا » وواضح انها آية
 قرآنية من سورة الاحزاب

وبسك العملة الجديدة اتخذ الاتصال السياسي والمذهبي صفة

(٥٢) القرطبي ، اتعاط الحنا ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

(٥٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠٢ .

(٥٤) Henri Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes de
 la Bibliothèque Nationale : Espagne et Afrique, Paris,
 1891, p. 407, No. 934.

نهائية ، وتبع ذلك رد الفعل الفاطمي ممثلا في الغزوة الهلالية ، فقد اخذ المستنصر بمشورة وزيره ابي محمد اليازوري بارسال احياء من عرب بنى هلال وسليم ورياح وعدى وغيرها الى افريقية لاشباع انتقامه من الزيريين ، فوصلت طلائعهم الى افريقية في اواخر سنة ٤٤٣هـ (٥٥) .

ذلك هو تصوري لحواذك الانفصال الزيري عن الدولة الفاطمية ، وهو انفصال ارتبط بالسواد لونا للثياب والخلع والرايات .

واذا كان اتخاذ السواد ورفع الرايات والاوية السوداء في افريقية قد لبى حاجة سياسية ومذهبية بالنسبة للدولة الزيرية الصنهاجية ، وخلص افريقية التي تامل فيها المذهب المالكي من السيطرة الاسماعيلية فانه اتخذ بعد قيام دولة المرابطين ورسوخ قواعدها في اعقاب انتصارهم الحاسم في الزلاقة على قوى المسيحية في اسبانيا ، للتعبير عن طابع الزهد ، والروح الجهادية التي غلبت على عصر هذه الدولة ، وتبريرا لاسقاط دويلات الطوائف التي تسبب وجودها في تجرؤ الدول المسيحية على اراضي المسلمين وفي لتحسار رقعة الاسلام في الاندلس ، ولم يكن كسبا لتأييد شعبي أو التماسا لئسند شرعي يدعم لصاحبه سلطانه ، فقد جاء التسويد المرابطي من منطلق القوة ، وبعد سنوات من انتصار المرابطين في الزلاقة . ويذكر صاحب الحل الموشية نصا يشير الى أن ابن تاشفين لم يكن يطمع في التلقب بالقبالة الخلافة ، فعندما طالبه بعض اصحابه باتخاذ لقب امر المؤمنين قال : « حاشا لله ان نسمى بهذا الاسم ، وانها تسمى به خلفاء بنى العباسي لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وانسا راجلهم ، والقائم بدعوتهم » (٥٦) . ولهذا اكتفى يوسف بن تاشفين بأن يتلقب بأمر المسلمين وناصر الدين ، وهو لقب خلعه على نفسه في سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) دون

(٥٥) راجع التفاهيل في : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، ص ٥٨٠ وما بعدها .
(٥٦) مجهول ، كتاب الحل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ص ١١ .

الرجوع الى الخليفة العباسي ، وسنرى أن الخليفة لم يخطبه في رسالته بهذا اللقب ، ويعنى هذا أنه لم يقره عليه . والمعروف أن يوسف أصدر لهذا اللقب منشورا رسميا اورد صاحب الحل الموشية نصه (٥٧) .

واعتقد أن تسويد يوسف بن تاشفين كان نابعا من رغبته الملحة في استقاط ملوك الطوائف عن عروشهم واعادة دولة الاسلام في الأندلس الى سابق قوتها ووحدها . فقد صبر يوسف طويلا على سفه ملوك الطوائف وسلوكهم المشين فيما بينهم ، وصبر على استهترهم بالقيم الدينية ، واستعانتهم بعضهم على بعض بقوى المسيحية في أسبانيا ، ويؤكد ابن خلدون أن المرابطين لم يقتدوا على قتل المتوكل عمر بن الأمطس وولديه الا بعد أن ثبت لديهم مداخلتهم لألفونسو السادس مقابل التخلي عن بعض حصون المملكة الأمطسية له (٥٨) ، وكان قد بلغ ابن تاشفين وهو بحافرته مراكش أن الأمير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، اتفق مع البرهانش وكيل الفونسو السادس في جهات غرناطة والمرية ، وتعاقد معه على نصرته مقابل ثلاثين ألف دينار يقدمها له ، كما ثبت ليوسف بن تاشفين تعاون ابن رشيق صاحب مرسية مع النصارى أثناء حصار المسلمين لحصن لبيط بشرق الأندلس (٥٩) . كان ذلك الدافع الرئيسى الذى ادى الى اقدام ابن تاشفين على استئصال ملوك الطوائف والإطاحة بعروشهم ، غيرة على دولة الاسلام في الأندلس ، ورحبة بأهل الأندلس الذين ابتزهم ملوكهم بغير حق وأرغمهم على بذل الأموال ليقدمها هؤلاء الأمراء والملوك للملك المسيحية ، وبجدة أنه لاينفى للمسلمين قتال الروم ويتركوا وراءهم الأعداء ممن يواسى عليهم معهم (٦٠) . ويؤكد ذلك ما ورد في رسالة الامام أبى حامد الغزالى الى يوسف بن تاشفين وتتضمن فتوى بشرعية تصرفاته مع ملوك الطوائف ، من ذلك قوله : « ... بسبب

(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٥٨) ابن خلدون ، كتاب المعبر ، ج ٦ ص ١٨٧ .

(٥٩) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب

« التبيين » ، تحقيق ليفى برونفسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ١٧٥ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١٧٥ .

استيلاء أهل الشرك وابتداع أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبى والقتل والنهب ، وتطرتهم إلى احتضام أهل الإسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف آراء الثوار (أى ملوك الطوائف) المحاولين للاستبداد بالامارة ، وتقاتلهم على ذلك ، حتى اختطف من بينهم حماة الرجال ، بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، واقضاء الأمر بهم إلى الاستئجاد بالنصارى حرصا على الانتقام ، إلى أن اوطنهم بيضة الاسلام ، وكشفوا اليهم الأسرار ، حتى اشرفوا على التهائم والأغوار ، فربتوا عليهم الجزا ، وجزوهم بشر الجزا . ولما استنفذوا من عندهم الأموال ، أخذوا في نهب المناهل ، وتحصيل المعائل ، واستمرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين ... عن مداراة المشركين ، فلبى دعوتهم ... وذكر أن أولئك الثوار لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وأغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التى كانت مرتبة عليهم بجزية المشركين ، وابتداعهم بهالهم ، مداراة لبقاء أمرتهم ، عادوا إلى ممالاة المشركين ، وألقوا اليهم القول في جهة الأمير ، وجراؤهم على لقائه ، وصح ذلك عنده وعند المسلمين ، فسأله المسلمون عن ذلك انزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتقارحها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك ، ولما تملكها رفع المظالم ، وأظهر فيها من الدين المعالم ، وبدد المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتب الجهاد ، وقطع مراد الفساد ... » (٦١) .

وكان يوسف بعد أن تحقق له توحيد الأندلس بخلع ملوك الطوائف ، وربطها بدولته في المغرب ، وقد عاد إلى حضرة ملكه وجمع الفقهاء وأحسن اليهم ، فقال له علماء الأندلس : « انه ليست طاعته بواجبة حتى يخطب للخليفة ، ويأتيه تقليد منه بالبلاد » ، فأرسل إلى الخليفة المقتدى بأمر الله ببغداد ، فأتاه الخلع والأعلام والتقليد (٦٢) ، ومنذ ذلك الحين اتخذ المرابطون

(٦١) مجموعات وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية ، المجموعة الأولى ، وثيقة ٧٣ ، الرابط ١٣٩٦هـ ، ص ٢٠٥ وما يليها .
 (٦٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة صادر - بيروت ، ١٩٦٦ ، ج ١٠ ، ص ١٥٥ .

السواد شعارا لهم في ملابسهم وأعلامهم (١٦) ، وهذا يعني أن الأعلام والخلع والتقليد وافته قبل سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) التي توفي فيها المقتدى بالله العباسي (١٦) . ويفهم من اجتماع يوسف بن تاشفين بعلماء الأندلس أن أمرا ما خطيرا تعرض له يوسف وأراد أن يشرك فيه علماء الأندلس ويطلب مشورتهم بشأنه ، فالتوه بسرعة التماس التقليد والخلع والأعلام ، واعتقد — كما سابين فيما بعد — أن المسألة تتعلق بشرعيته في حكم الأندلس بعد أن أقدم على إسقاط ملوك الطوائف .

ولأيا ما كان الأمر ، فقد ضرب يوسف بن تاشفين بأغيات الدينار المرابطي الجديد بعد وصول التقليد والخلع بطبيعة الحال ، وقد وصل الدينار مرابطي ضرب في اغيات سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٥) نقوشه الكتابية كما يلي :

مركز الوجه	مركز الظهر
الإمام	لا اله الا الله
عبد	محمد رسول الله
الله	الأمير يوسف بن
أمير المؤمنين	تاشفين

ونقش في دائرة الوجه « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ويذكر ابن خلدون أن يوسف كتب ، في شأن تقليده ، إلى الخليفة المستظهر بالله ولد المقتدى بالله وخلفه ، وأنه بعث إليه في ذلك الغرض سفارة ، على رأسها الفقيه عبد الله بن محمد بن العربي الماعزري الأشبيلي وولده القاضي الحافظ أبو بكر بن العربي ، في سنة

(٦٣) أحمد مختار العبادي « نظام الخلافة في المغرب الاسلامي في العصور الوسطى » فصله من كتاب فلاسفة الاسلام في المغرب العربي ، ص ١٥٦ .

(٦٤) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٠ .
La voix, Catalogue des monnaies musulmanes, p. 202. (٦٥)
No. 516.

٤٨٥هـ ، فتلطبا في القول. وأحسنا في الإبلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعهد ليوسف على المغرب والأندلس ، فصدر له عهده بذلك ، وعاد أبو بكر الى المغرب ومعه التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والاقاليم (٦٦) ، فأنذمت محتويات هذا التقليد بين الناس . واعتقد — مع ذلك — أن السفارة التي ذكرها ابن خلدون إنما تتعلق باستصدار فتوى بشرعية يوسف في إسقاط عروش ملوك الطوائف كما سبق أن أوضحنا ، وقد تحقق ذلك في رسالة أبي حامد الغزالي ، سألته الذكر ، ثم استصدار تقليد من الخليفة العباسي بتوليته ما كان يتولاه بالفعل من المغرب الأقصى والقسم الغربي من المغرب الأوسط ، وما انضاف الى ذلك في الأندلس بعد إسقاط دويلات الطوائف باستثناء بني هود بسرقسطة ، واعتقد أن سبب اهتمام يوسف بن تاشفين بالتقليد المذكور والفتوى أن ملوك الطوائف كانوا قد طعنوا في شرعية إمارته ، وزعموا أن طاعته غير واجبة لأنه لس من قریش ، وكتبوا الى ملك قشتالة وزعماء النصراني في إسبانيا رسائل بهذا المعنى ، وقع بعضها بين يدي يوسف . وهذا يفسر اجتماعه بعلباء الأندلس في مراكش ، واستشارته لأرائهم ، فأنفقوا برسالة سفارة الى الخليفة العباسي لالتماس تقليد خلافي بحكم ما ينظره بالاضافة الى الأندلس . وقد اجتمع الفقيه عبد الله بن العربي وولده أبو بكر سفيان يوسف بن تاشفين الى بغداد بأبي حامد الغزالي وأبي بكر الشاشي وغيرهم ، وأوضحا لهم جهاد يوسف لنصارى الأندلس ، وجهوده في توحيد كلمة المسلمين ، واستطاع ابن العربي أن يستصدر فتوى الغزالي لصالح يوسف ، وتقليده من الخليفة المستظهر العباسي بتوليته على ما بيده وتحت نظره من الأقطار . وقد كتب كل من الامام الغزالي (٦٧) والقاضي أبو بكر الطرطوشي (٦٨) الى يوسف رسالة يدعموه الطرطوشي فيها الى تطبيق العدالة والنبسك بالخير ، ويقتي الغزالي

(٦٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ — عنان ، المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

(٦٧) وثيقة رقم ٧٣ من « مجموعات وثائقية دورية » ، الرباط ، ١٣٩٦هـ .

(٦٨) وثيقة رقم ٧٤ من نفس المجموعة .

بشأن ملوك الطوائف . والمعروف أن الفقيه ابن العربي وولده قد رحلا إلى بغداد في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وواضح أن رسالة الغزالي كتبت قبل سنة ٤٩٣ هـ والتي توفي فيها ابن العربي بفقر الإسكندرية ، فعاد ابنه أبو بكر إلى المغرب في نفس السنة ومعه الرسالة والتقليد العباسي الصادر من المستظهر بن المعتدى بالله ، يقره فيه على حكم المغرب والأندلس .

ولابد لنا ، بعد هذا العرض ، أن نميز بين سفارتين : الأولى كان يوسف قد أرسلها إلى المعتدى بأمر الله قبل سنة ٤٨٥ هـ ، ويطلب فيها الأعلام والخلق والتقليد بحكم المغرب ، فوافاه ذلك قبل سنة ٤٨٧ هـ التي توفي فيها المعتدى ، والثانية ، ومثل فيها ابن العربي وولده بعد سنة ٤٨٥ هـ ، وكان هدنه اقرار الخليفة العباسي سواء المعتدى بالله أو المستظهر بالله الذي خلفه ، بحكم المغرب والأندلس ، واستصدار فتوى من كبار الأئمة بشرعية ما أقدم عليه بالفعل منذ سنة ٤٨٣ وحتى ٤٨٨ هـ التي نفى فيها المعتد وآله التي أغيات ، وقتل المتوكل وولديه) من عزل ملوك الطوائف والجهاد في الأندلس ، ومن المؤكد فيه أن الخليفة المعتدى كان قد لقر يوسف على إمارة المغرب ، وأنه أرسل إليه التقليد والخلق والألوية ، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين الذي كان قد تلقى به يوسف منذ سنة ٤٦٦ هـ (٦٩) . وهناك رسالة أخرى صادرة من الخليفة العباسي المستظهر بالله إلى علي بن يوسف بن تاشفين ، لم يخاطبه فيها بلقب أمير المسلمين (٧٠) .

وبقيت بعد ذلك حالتان ارتفعت فيهما الألوية السوداء شعار الخلافة العباسية : أحدهما حدث في المغرب الأدنى والأوسط في عهد يعقوب المنصور ، والثانية في شرق الأندلس في نهاية عصر هذه الدولة . أما الحالة

(٦٩) الحلل الموشية ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٧٠) حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وإياهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ، ص ٦٦ — ٦٨ .

الأولى فتتعلق بالأمر على بن إسحاق بن محمد بن غانية المسوفي صاحب ميورقة ، واحد المخلصين لدولة الرابطين البائدة ، وكان قد خرج باسطول ميورقة في سنة ٥٧٩هـ بعد أن آلت إليه إمارة الجزائر الشرقية اثر وفاة أبي إبراهيم إسحاق بن محمد بن غانية (٧١) ، متجها الى العدوة ، ثم قصد مدينة بجاية عندما راسله جماعة من أعيانها ، وهناك وجد ابن غانية واتباعه الميورقيون في إفريقية حلفاء جمعتهم بهم الظروف السياسية وقتئذ والهدف المشترك ، وهو القضاء على نفوذ الموحدون في إفريقية والمغرب الأوسط ، والدعوة باسم الخليفة العباسي . هؤلاء الحلفاء هم عرب بنى هلال وسليم ورياح وزغبة ثم المباليك الغزائيع بهاء الدين قراقوش الأسدي النقوي ، مملوك تقي الدين عمر ابن أخى صلاح الدين . ولم يلبث على بن إسحاق أن دخل بجاية في ٦ شعبان من تلك السنة ، وأقام بها سبعة أيام ، صلى خلالها صلاة الجمعة ، ودعا في الخطبة لبنى العباس ثم للإمام أبي العباس أحمد الناصر (٧٢) . ثم بعث على بن إسحاق ابنه مع كاتبه عبد البر بن مرشان الى الخليفة العباسي يلتبس منه الخلع والأعلام السوداء (٧٣) . ولم يكن ابن غانية يبغى من وراء السواد كسبا أدبيا أو شرعيا يعتمد عليه في حكم إفريقية بقدر ما كان يهيم أن يحافظ على التقاليد الرابطية في اظهار الولاء للعباسيين ، فكان كل هدفه أن يحرر المغربين الأدنى والأوسط من السيطرة الموحدية ، ويقوم على تلك المناطق السيادة الرابطية ، التي تتمثل في السواد أو التبعية الاسمية للخلافة العباسية .

وأما الحالة الثانية ، فتتعلق بسيف الدولة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، الذي ينتهي الى بنى هود أصحاب سرقسطة في عصر

(٧١) هو مؤسس أسرة بنى غانية أصحاب الجزائر الشرقية : ميورقة ومنورقة ويابسة ، وينسبون الى محمد بن على المسوفي المعروف بابن غانية والد اسحق المذكور ، وكان قد استقل بمملكة الجزائر الشرقية وضبطها لنفسه ، وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة الأول ، داعيا لبنى العباسي (عبد الواحد المراكشي ، المعجب في أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٤٤) .

(٧٢) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣٤٧ .

(٧٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ،

ص ٧١٧ .

الطوائف ، وكان قد استقل بمرسية ثم خطب للعباسيين واتخذ السواد شمعاراً (٧٤) . ولم يلبث ابن هود ابن بسط سلطانه على معظم شرق الأندلس بالإضافة الى عدد من مدن الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية ، ومن بينها مالقة والمرية وغرناطة وجيان والجزيرة الخضراء وقرطبة وبليطوس وملردة وأخيراً اشبيلية (٧٥) .

وكان ابن هود قد شرع حركته في رجب سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) عندما تمكن من إيقاع الهزيمة بالسيد أبي العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن محمد بن يوسف الموحدى ، وكان يتولى بلنسية ، فخرج اليه بقوات بلنسية ، فهزمه ابن هود ، واستولى على محلته ، ثم دخل ابن هود مرسية وهو يرفع راية سوداء عباسية ملتصقة من وراء رفعها جيع صفوف المسلمين وراء رمز إسلامي روى ، وتكوين جبهة اسلامية متحدة يمكنها ان تواجه المواقف والأقواء التي أثارها الدفوع السريع لحركة الاسترداد المسيحي آنذاك للاطاحة بدولة الاسلام في الأندلس في أعقاب انهيار دولة الموحدين ، وكانت هذه الحركة موجهة من مملكة أرغون نحو شرق الأندلس ، ومملكة قشتالة وليون نحو جنوب الأندلس ، ومملكة البرتغال نحو غرب الأندلس ، فالهدف اذن من التسيويد التأييد الشعبي الأندلسي وخلق جبهة للتصدي أمام الضغوط النصرانية ، ولم تشتت ما تبعثر من قوى الاسلام في الأندلس على أثر هزيمة الموحدين في العقاب (٧٦) . وأصبح

(٧٤) عبد الواحد المراكشي ، المصدر ، ص١٧٤ .

(٧٥) دخلت اشبيلية في طاعة ابن هود في سنة ٦٢٩هـ (السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس ، بيروت ١٩٧٠ ، ح ١ ص١٥٢ — تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ١٩٦٩ ص٩٩) .

(٧٦) يعتقد الأستاذ محمد عبد الله عنان أن فكرة ابن هود في الانضواء تحت راية الخلافة العباسية أن يتشجع بثوب من الشرعية في انتحال الولاية وفي محاربة الموحدين ، بدليل أنه أعلن أنه سوف يعمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين ومن عدوان النصراني معا ، وأنه سوف يعمل على احياء الشريعة وسنذها وبعدها دزست في ظل الموحدين (انظر : محمد عبد الله عنان ، عصر الرابطين والموحدين ، القسم الثاني ، ص ٣٩١) .

رمع الشعاع الأسود يرمز للجمعية والوحدة والصمود . ونجح ابن هود في اجتذاب الجماهير وراءه ، ثم ببيع له في مرسية في أول رمضان سنة ٦٢٥هـ ، فدعا للخليفة المستنصر بالله العباسي ، وكتب اليه يلتصم الخلع والتقليد والأعلام (٧٧) ، فبعثها اليه ، وسماه « مجاهد الدين » سسيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل على الله » ، وعرف ابن هود في المصادر الإسبانية بسيف الدولة Zafadola . وفي نفس الوقت الذي قام فيه ابن هود بتوحيد شرق الأندلس قامت في بلنسية ثورة أخرى ترعها رئيس من سلالة بنى ابن مردنيش الذين ناوعوا سلطان الموحدين في شرق الأندلس في عهد عبد المؤمن بن علي ، وفي عهد ولده أبي يعقوب يوسف ، هو أبو جبيل زيان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش في سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) ، فبعد أن انهزم السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الموحدى أمام ابن هود في مرسية ، اضطربت الثورة في بلنسية ، والدفع أهل المدينة حول أبي جبيل زيان الذي فكرهم برئيسهم القديم ابن مردنيش ، فنادوا برئاسته ، وكان أبو جبيل هذا وزيراً للسيد أبي زيد وإلى بلنسية ، ولم يسع هذا الأخير إلا أن يرحل عن بلنسية أمام الهيج في أوائل صفر سنة ٦٢٦هـ ، ولاد ببعض الحصون القريبة ، وعندئذ قدم أبو جبيل من مقره بحصن انده ، فدخل المدينة في ٢٦ صفر سنة ٦٢٦هـ ، ونزل بالقصر ، وعقد البيعة لنفسه في غرة ربيع الأول ، وحذا حذو ابن هود ، فدعا للخليفة

(٧٧) جاء في مخطوطة شواهد الخلّة والأعيان في مشاهير الاسلام والبلدان ، لأبي بكر محمد بن العربي المعافري ، المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط ، تحت رقم ١٠٢٠ د ، أن ابن هود كتب إلى خليفة بغداد ، فكتب له الخليفة « التقديم على بلاد المغرب وبعثها له مع الخلعة التي مسحته ببردة النبي صلى الله عليه وسلم المعروفة لبني العباسي . قال : وفي يوم الجمعة الخامس عشر (من رمضان) قرئ التقليد الشريف الذي خطت فيه يمين ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم علامته الخثرة المشرفة . . . وخرج المتوكل في الخلعة الواصلة بالسواد المعروف لخلافة بني العباسي » . نسخة ميكروفيلم رقم ١١٩٨ بمكتبة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي ، كلية الشريعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة) .

العباسي المستنصر بالله ، ودخلت في طاعته دائية وجنجاله وعدد من الحصون ،
وذاع امره (٧٨) وظل اميرا على بلنسية الى أن سقطت هذه المدينة في يد
خايبى الأول ملك ارغون بعد حصار طويل في ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ .

وهكذا كانت الالوية السوداء والسواد في المغرب والأندلس وسيلة
لشرعية الولاية أو شعارا للانفصال السياسى أو المذهبى عن السلطات
الحاكمة ، أو اقرارا بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية بهدف لم التمهت
والوحدة ، في ظل رمز روحى هو الدعوة للخليفة العباسى .

(٧٨) محمد عبد الله عنان ، ص ٣٩٤ وما يليها .

**الملكية الاملية بين الوراثة والانتخاب
في المصور الوسطى**

للكتور زانت عبد الحميد - أستاذ تاريخ العموز
الوسطى المساعد بأداب عين شمس

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب

في العصور الوسطى

وصفت ألمانيا في القرن السابع عشر ؛ بأنها « فوضى شاعتها العناية
الالهية » ! وما ذلك القول عن ادراك الدارسين لتاريخ ألمانيا بعيد ...
ولا غلواء فيه ولا غرابة ؛ فقد تشكلت ألمانيا آنذاك مما يزيد عن ثلاثمائة
دويلة وكيان سياسى ! ..

على الحدود الغربية عند الراين لا نجد الا اطلالا لولايات كانت تعد
في الماضي هامة ، مثل بادن وورتمبرج .. اما الألزاس واللورين فقد
وقعتا في قبضة الفرنسيين منذ أواخر القرن ذاك . على حين تهدت الفوضى
بعينها في الولايات الكنسية الواقعة على الراين أو بالقرب منه ، حيث كان
رجال الاكليروس يمارسون حكما يفتقر تماها الى الكفاية والاعتدال ، ويسمح
الطريق في يسر وسهولة امام ضربات الجيران الأقوياء . بينما كان الشرق
يبدو متماسكا وعلى قدر من القوة ، متمثلا في هانوفر وسكسونيا ، وإلى
الجنوب عند أعمالى الدانوب توجد بافاريا ، الشديدة التمسك بكاثوليكيته ،
والتي تملكها الغيرة الشديدة من جارتها الشمالية القوية ، بروسيا .

على هذا النحو كانت ألمانيا — أو بتعبير أدق — ما يسمى ألمانيا في
القرن السابع عشر ، وباتت كذلك أيضا على امتداد القرن الثامن عشر ،
خليطا غريبا يجمع بين دول لكبرى ودويلات صغرى ، علمانية وكنسية ، حرة
واستبدادية ، ولم يكن ثمة فوق هذا الخليط المتلاطم سلطة فعالة على
الاطلاق ؛ فالإمبراطور كان اسما كبيرا محسوب ، والإمبراطورية كانت كيانا
شرعيا ، لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الأمور ، ذلك أن السلطة
الحقيقية لم تكن تتمثل في الإمبراطورية ككل ، وإنما في أجزائها المختلفة ،
وفي حكام الدويلات التي تتكون منها الإمبراطورية ، مثل النمسا وبروسيا
وبافاريا وهانوفر وسكسونيا وغيرها . وهكذا كانت ألمانيا في مجموعها وفي
أجزائها ، تعاني من التفتت السياسي ، وتعجز بل وربما ترغب عن ابداء

اية مقاومة جديده معالة تجاه نوابها جاريتها القوية الطامعة .. فرنسا . حتى نعتها فولتير بسسخرته اللاذعة بأنها « ليست امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة » . وان كان ما يعنينا هنا الآن فقط .. الشق الاول من هذا التبعث « الثلاثى » .. اعنى الامبراطورية .

غير أن الذى يدمو للمعجب والاعجاب فى الوقت نفسه ، انه رغم هذه الفوضى السياسية الضارية اطنابها فى ألمانيا ، إلا أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، شاهد ازدهارا رائعا للفكر والفن الألمانيين ؛ فقد ظهرت منذ منتصف ذلك القرن حركة بحث قومية عظيمة فى هذين المجالين ، كان المساهمون الرئيسيون فيها « لسنج » Lessing و « جوتة » Goethe و « شيلر » و « كانت » Kant . وفى الموسيقى رفع خلفاء « باخ » الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم « هايدن » و « موزارت » و « بيتهوفن » رأس البلاد اننى تتحدث الألمانية حاليا فى أوروبا . ولا شك ان ما ابدعه هؤلاء المهكرون والمفنائون يقف على النقيض من الضعف السياسى للدويلات الألمانية فى تلك الفترة .

وفى آخر سنى القرن الثامن عشر ، فى اعقاب الحرب التى نشبت بين فرنسا الثورة ، وألمانيا ، وانتهت بهزيمة الأخيرة ، وانسحاب كل من بروسيا والنمسا ومقد صلحين منفردين فى عامى ١٧٩٥ و ١٧٩٧ على التوالي ، ثم فرض تسوية من جانب فرنسا وحليفها روسيا ، املت فيها شروطهما وعقدتا المعاهدات مع كل دولة على حدة ، وانتهى الأمر فى فبراير ١٨٠٣ بقبول الرئيسستاغ الألمانى لهذه التسوية التى غيرت الى حد كبير وجه الخريطة الألمانية ؛ فقد اختلت من الوجود مائتا واثننا عشر دولة ابتلعها جاراتها الكبيرة ، وتوارى تماما معظم فرسان الامبراطور وجميع المدن الامبراطورية عدا مست منها ، وازيلت الولايات الكنسية باستثناء ميوز ، وان كان قد بقى الفرسان النيبوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت .

لم يهض على ذلك أكثر من ثلاث سنوات ، حتى أقدم الامبراطور الفرنسى نابليون ، والذى كان قد بلغ أوج مجده آنذاك ، على اتخاذ قرار

من جانبيه بقيام اتحاد الراين ، ودعا حكام المانيا لاعلان انضمامهم او رفضهم في غضون أربع وعشرين ساعة . وكان هذا التنظيم يقوم على اساس انشاء اتحاد من بعض الدول Confederation لا قيام دولة اتحادية . وفي السادس من اغسطس ١٨٠٦ اعلن الامبراطور فرنسوا الاول تخليه عن اللقب الامبراطوري القديم ، فانتهت بذلك الامبراطورية الألمانية ، او ما ذاع في التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة ! .

غير ان هذا الاتحاد « الميسوخ » الذي قصد به اساسا فرض « الحماية » الفرنسية على المانيا ، لم يقدر له ان يعمر طويلا ، اذ سرعان ما انحل بزوال سلطان نابليون ؛ ولم يكن « الاتحاد » الذي رسمه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بلحسن حظا من ثرينه ، وان كان العدد الاجمالي للدويلات الألمانية الداخلة في هذا « الاتحاد » الاخر او بعبارة ادق ، هذا « المجمع » او « الديت » Diet قد هبط الى تسع وثلاثين ، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها ، وان تمنع وحدها اجازة وتنفيذ كل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدي ، وباختصار ، لم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنظمة في هذا « الديت » . ولا شك كانت الحلة الكبرى لهذه المحنة ناجمة عن اختلاف الالمان انفسهم فيما بينهم في رسم خطة انشائية لمستقبل بلادهم . فالبعض منهم يصبو الى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا ، والبعض الآخر يرمى الى دولة ألمانية تدن بالولاء للتاج النمساوي ، وثالث يروم اتحادا تعاهديا تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الصغرى ، ان تكون فرقا متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها . وهكذا لاحت المانيا كأنها تتحرك وتسير في ضباب فلسفى ، أو كما وصفها المؤرخ الفرنسى ميشليه Michelet بأنها « آسية أوروبا » ! .

ولا شك كانت فرنسا والنمسا هما اكثر الدول الأوروبية افادة من هذا الوضع المتردى في المانيا ؛ الأولى ضمنت عدم قيام دولة قوية على حدودها الشرقية ، والثانية أطمأنت الى سيادتها على هذه المنطقة ، وكان هذا مما أذى مشاعر الالمان ؛ خاصة وإن النمسا لم تكن من قبل مسوى

حوتية أوستريا *Austria* التى تشكلت بصورة رسمية فى منتصف القرن الثانى عشر على يد فردريك برىاروسا (١) *Frederick Barbarossa* . وكان هذا دافعا لبروسيا ، ذات الطبيعة الاسبرطية ، العسكرية ، والتى وجدت فى التحالف بين فرنسا والنمسا اعتداء على حقوق كانت تدعيها بالزمامة ، كى تحين الفرصة السانحة لتأكيد زعامتها تلك ، وساعدها الظروف بتولى بسمارك *Bismarck* منصب المستشارية فيها .

وعبر أحداث طويلة وجهود مضمنية بذلها الرجل ، ولا مكان هنا لفكرها ، كان يهدف بها أساسا الى توحيد ألمانيا بزعامة بروسيا ، خاض حربين حاسمتين ؛ الأولى ضد النمسا فى عام ١٨٦٦ ، تمكن على اثرها فى العام التالى من توحيد شمالى ألمانيا ، والثانية سنة ١٨٧٠ ضد فرنسا ، وهى التى ذاعت شهرتها بالحرب السبعينية ، تمخضت عن قيام الاتحاد الألمانى ، أو الامبراطورية الألمانية . وعلى الرغم من ذلك ، فان الذى يعنيننا ، انه رغم وجود اناس عبيدين رأوا أن الوقت مناسب لاتمام دولة مركزية قوية فى ألمانيا ، فان بسمارك لم يكن واحدا منهم . لقد كان يردد دائما « اننا لا نرؤم أن تنضم الينا بلغاريا وهى غير راضية ، بل نبتغى دولة تنضم الينا بلاء اختيارها وحريتها » . ويدرك أن هذه « الذاتية » المتملة بوضوح فى الدويلات الألمانية تضرب فى الأرض بجذورهما وصولا الى العصور الوسطى ، وعبر عن ذلك صراحة بقوله : « ان السلطة المطلقة للأمراء كانت اكتسابا جذريا . تحقق على حساب الدولة ووحدةها » (٢) .

ومن هنا كان سلوكه تجاه الدول الألمانية فى الجنوب بعد الحرب السبعينية ، لكى يجعلها تقبل على الاتحاد وهى راضية ؛ وفيما يتعلق ببلغاريا بصفة خاصة ، كان على استعداد أن يمنحها حقوقا واسعة :

Thompson and Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 394. (١)

Mayer, The historical foundations of the German Constitution, p. 30. (٢)

كالهينة على جيشها أيام السلم ، واسماع صوتها في الشئون الخارجية ، وتخويلها نظاما مستقلا للبريد والتلغراف . وهذه كلها تمثل بشيء من التفاوت بمقتضى التطور التاريخي ، حقوق الأبراء الألمان في العصور الوسطى . وليس ثمة ما هو 'أدل' على حكمته ونفاذ بصيرته من أن ملك بافاريا رضى أن يضع بنفسه التاج الإمبراطورى على مفروق وليم الأول ملك بروسيا في حفل تتويجه إمبراطورا على ألمانيا . وإن يكن الدستور الألماني الجديد الذى صدر فى عام ١٨٧٣ قد جاء مؤكدا « للذاتية » و « لروح الانفصالية » الكائنة فى الأرض الألمانية ، بل لقد دعى رئيس الاتحاد أو الإمبراطور ؛ القيصر الألماني ، وليس قيصر ألمانيا . وتلك لها مغزاها العميق الدال على حقيقة الاتحاد . ولم يكن « القيصر » يستمد سلطته من كونه « رئيسا للاتحاد الألماني » ، بل من كونه ملكا على بروسيا . لقد كان الأمر — على حد تعبير المؤرخين : جرانت Grant وتبرلى Temperley « أشبه بشرئبة من الحيوانات المنتظية فى سرب للصيد ، يتصدرها جيعا ذئب رمادى ضخم هو بروسيا ، يجرى فى أعقابها إنباء آوى من أمثال بافاريا وسكسونيا وفرنبرج ، ويسير فى ركابه خمسة وفلائون حيوانا أصغر ، تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة » .

بل إن الحال حتى ثلاثينيات القرن العشرين ، لم تختلف كثيرا عنها فى القرون التى سبقتها الى قلب العصور الوسطى ، عندما علت من جديد نغمة « الانفصالية » بين الليبراليين وأنصار الدولة الموحدة ، وانصبت الاتهامات على رأس مؤسس الاتحاد الألماني فى القرن التاسع عشر ، وعلى بروسيا . مما دفع الزعيم النازى هتلر أن يكتب فى كتابه « كفاحي » مدافعا عن سلفه بسمارك ، مؤكدا أن الرجل كان يعلم يقينا حقيقة النزعات الانفصالية فى دويلات ألمانيا ودويلاتها آنذاك ، وأنه « أحل هذه الحقائق محلها من التقدير ، فجعل تمثيل دول الاتحاد فى مجلس « البوندسرات » متناسبا وأهمية كل منها ، ولزم جانب الحكمة والاعتدال فى تعزيز سلطة الاتحاد على حساب الدويلات التى يتألف منها ، فما أخذ منها الا ما كان الاتحاد بحاجة ماسة اليه ، وحرص فى الوقت نفسه على احترام العادات

والثقائيد المحلية .. لقد أكرم المستثمر الحديدى مداراة الدويلات الألمانية تاركا للزمن أن يكمل ما بدأه هو ، لأن الطفرة غير مأمونة العواقب ، فدلل بهذا النهج التوفيق على بعد نظره وسلامة منطقته « (٣) » .

والباحث فى تاريخ ألمانيا عبر هذه القرون الطوال من ماضئها إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ، يجد نفسه يواجهها بعلامة استفهام كبيرة .. كيف وصل الحال بألمانيا حتى أوليت هذا القرن إلى تلك الحالة من الاعتزاز بـ « الذاتية » أو حتى « الانفصالية » ، والتي صدق عليها قول المؤرخ طومسون : « أن ألفا من المستين ويزيد قد شهد محاولات جادة أخرى لضخام ولواء الألمانى تجاه نزعتة القبلية ، فالبلغارى أو السكسونى كان يميل دائما إلى اعتبار نفسه هكذا ، على أن تدعوه ببساطة ألمانيا » (٤) . والذي يزيد الأمر حمرة أنه فى الوقت الذى بعث فيه فرنسا وبريطانيا فى القرن العاشر الميلادى ملكيات مهلهلة ، كانت ألمانيا تشكل أقوى دولة أوروبية

(٣) للوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، والحال التى آلت إليه ألمانيا عبر هذه القرون من الثامن عشر حتى العشرين ، والتي عرضنا لها فى هذه المصنفات للسلف فى إيجاز شديد ، كنتيجة حتمية ، ومقدمة طبيعية لألمانيا العصور الوسطى ، يمكن الرجوع إلى هذه الكتب :
— بول هازار ، الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر ، جزءان . ترجمة الدكتور محمد غلاب ، القاهرة ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ؛ بيير رنوتان ، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ — ١٩١٤ ، ترجمة الدكتور جلال يحيى . القاهرة بدون تاريخ ؛ جرانت وتبرلى ؛ تاريخ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، جزءان . الجزء الأول ترجمة بهاء نهى ، القاهرة . بدون تاريخ ؛ فيشر ، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ — ١٩٥٠ . القاهرة ١٩٥٨ ؛ هتلر ، كتابى ، ترجمة لويس الحاج . بيروت ١٩٦٨ ؛ دكتور محمد كامل ليلة ، النظام السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ . ومن الجدير بالذكر أن مجموعة من فلاحى بلغاريا شاركت بحماس فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وهم يمتلكون أنهم ذاهبون لحرب أعدائهم القدامى .. البروسيين ! راجع

Thompson and Johnson, op. cit., p. 353.

Thompson and Johnson, op. cit., p. 353.

(٤)

آنذاك ، لكن ما لبث أن تبدل الحال ، فما أن وافى القرن الثالث عشر ، حتى خرجت فرنسا من تجربتها الانتظامية ملكية قوية ، الملك فيها صاحب السلطة المطلقة . بينما أفلح النظام الانتظامي في إنجلترا ، والمنقول من أرض القارة بصورة منتقاة على يد وليم الفاتح النورمانى وخلفائه الأنجويين ، في أخراج ملكية قوية مقيدة ، أو بتعبير حديث . . دستورية . منذ صدر العهد الأعظم في عام ١٢١٥ . هذا على حين أسست الملكية ملكية ممزقة ، تتخالف سفيتها أنواء طموحات أمراء الإقطاع من العلمانيين والكنيوسيين على السواء ، هذا على الرغم من أن السمات العامة للنظام الانتظامي الأوروبي في العصور الوسطى كانت واحدة ، متمثلة في انحلال السلطة المركزية لحساب السلطات المحلية ، من جميع النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية (٥) .

(٥) للزيد من التفاصيل عن السمات الانتظامية للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى يمكن الرجوع إلى الكتب التالية :

H. Pirenne, *Economic and Social history of Medieval Europe*, pp. 58-66.

G. A. Hodgett, *A Social and economic history of Medieval Europe*, pp. 24-35.

F. Ganchof, *Feudalism*, Hong Kong 1976 وايضا

Stephenson, *Medieval History*, pp. 199-241. وكذلك

P. Vinogradoff, *Feudalism*, (in C.M.H. Vol. III, pp. 458-484)

وله أيضا بالاشتراك مع الأستاذ كويلاند ، الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ . وللاسناد كويلاند كذلك . القنية والانتظامية ، مثال في تاريخ العالم الذي أشرف على نشره السير جون أ . هابرتن ، المجلد الخامس ، ص ٣ - ٢٢ ؛ دكتور اسحق عبيد : الفرسان والأفنان في مجتمع الإقطاع ، بيروت ١٩٧٥ ؛ دكتور سميد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ص ٢٣ - ٨٨ ؛ دكتور ابراهيم العدوي : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ، ص ١١١ - ١٢٦ . أما عن النظام الانتظامي في إنجلترا فيمكن الرجوع إلى :

F. Barlow, *The feudal Kingdom of England, 1042-1216*, London 1974.

D. Douglas, *William the conqueror*, London, 1969.

وايضا

هذه التساؤلات التي تطرح نفسها الآن ، تدفعنا دفعا الى أن نعود بفكرنا الى ذلك التاريخ البعيد ، وعلى وجه التجديد عام ٩١١ عندما انتهت سلسلة البيت الكارولنجي للحاكم في الجزء الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية ، ألمانيا ، بوفاة لويس الطفل . هنا وجد الأمراء الألمان انفسهم امام اختيارين لا ثالث لهما ، اما الالتجاء الى فرع الأسرة الآخر في فرنسا ، واما العودة الى التقليد الجرمانى القبلى القديم باختيار ملكهم . ولما كان الملوك من أسرة شارلمان ، لم يحققوا لألمانيا خلال نصف القرن الأخير أو يزيد ، الحماية ضد اعدائها الخارجيين ، الذين استباحوها من الشمال والشرق (٦) ، فقد اثروا اتباع الطريق الأخير ، ورغبوا في أن يختاروا اوتو Otto دوق مسكونيا القوي ملكا عليهم ، غير أن الرجل اعتذر لتقدم العمر به ، وروح لهم قرينه كونراد Conrad فرنكونيا Franconia فتم اختياره بلا معارضة . فاصبح كونراد الأول بذلك اول ملك ألماني ، جرى تنصيبه بأيدي الأمراء (٧) .

هذه الحادثة تبطل نقطة ناصلة في تاريخ ألمانيا . فالملك الجديد لم يكن بمقدوره ادعاء أنه ينحدر من الأسرة الكارولنجية ، ولم يكن باستطاعته انكار أنه تم رفعه على العرش الألماني بيد اقران له ، لا يقلون عنه مكانة أو مرتبة . . . بتعبير آخر ، هم الذين صنعوه ملكا . من هذا المنطلق ، وبمقتضى هذه الخلفية وراء كل من الجانبين ، تحددت العلاقة الجديدة بين الملك والأمراء في ألمانيا ، ورسمت الخطوط الفاترة في جبهة التاريخ الألماني تمثل صراعا مريرا بين هؤلاء وبينه ، بتعبير أدق . . بين الملك بحرصه ودفاعه المستتب في سبيل اقرار حقه في تعيين خليفة على العرش من بين ابنائه أو افراد أسرته ، أي جعل الملكية وراثية ، يستمد منها بمقتضى حق الارث سلطانه وقوته ، والأمراء باستمسكهم بكل حملة وعناد بحقهم في

Barradclough, The Origins of Modern Germany, pp. 15-19. (٦)

Schmediler, Franconia's place in the Structure of Medieval Germany, p. 80. (٧)

اختيار الملك ، من واقع ممارستهم له الآن (٩١١) ، وامتدادا لتقليد جرماني
قبلى كان لدى الأجداد تائما ، وحرصا على تحقيق ذواتهم ومطالبهم .

ومن ثم لم يكن غريبا أن يطفو ذلك على السطح منذ الوهلة الأولى لممارسة
هذه التجربة ؛ إذ راح كونراد على الفور يئذل' قصارى جهده لتثبيت سلطانه
كملك على الأذواق ، وتدعيم نفوذه فى الداخل ، لكن الخطأ الذى ارتكبه
كونراد ، أنه وضع هذا الهدف نصب عينيه دون أن يسلك الدرب الصحيح
، بلوغا الى تحقيقه ؛ فبدلا من قيادة الجهود الألمانية بنجاح ضد انجبار
، والصقالبه والدانيين ، ترك كل دوقية تتعامل مع الغزاة بطريقتها الخاصة (٨) ،
مادامت فرنكونيا بعيدة عن متناول أيديهم ، فبدأ فى أعين الأذواق كما لو كان
حاكما لدوقية وليس ملكا (٩) . بل أن مغاراته الخارجية وجهت أساسا
لتهرب اللورين لسلطانه . وحتى هذه فقد فشل فيها (١٠) . وزاد الأمر سوءا ،
لأنه بغية توطيد سلطانه ، اعتد بصفة أساسية على الكنيسة ، يدفعه الى
ذلك ما ارتآه فى نفسه وملائقته المطردة سواء مع الأجراء ، فهو باعتباره
دوقا لفرنكونيا لا يستطيع أن يبد سلطانه — كملمانى — خارج حدود دوقيته
فى ظل هذه الظروف التى تحيط به ، أما باعتياده على رجال الكليروس يصبح
ممكنا ممارسة سلطة أوسع نسبيا عبر ألمانيا . ومن هنا التى يحظه كله
دعما واحدة فى كف الكنيسة ممثلة فى أساقفة مينز Mainz وكونستانس
Constance وسالزبورج Salzburg . . خاصة وأن الآخرين على الأقل
كانا فى عداوة مع دوقى منطقتيهما .

ولما كان العاقل ، على حد تعبير المؤرخ سكوت M. Scott هو الذى
بتأكد من أنه لن يستطيع أن يستغنى عن عون أولئك الذين يدين هو نفسه
لهم بالإنجاز الذى يضعه على مغرقه ، فقد كان طبيعيا فشل سياسة كونراد

Scott, Medieval Europe, p. 61. (٨)

Z. N. Brooke, A history of Europe, p. 21; G.M.H. III, (٩)
p. 69.

Scott, op. cit., p. 61. (١٠)

الأول فشلا ذريعا ، تلك التى لم يكن من ورائها الا سحق الأمراء العلمانيين الذين وضعوا انفسهم على هذا النحو منذ البداية فى مواجهة التاج ، الى الحد الذى دفع لوتو دوق سكسونيا الذى لعب الدور الاساسى فى اختيار كونراد ملكا ، الى التخلّى عنه وهجر جانيه بل وتحديه ، ونعل الأدواق الآخرون مثل فعله ، ووجهوا طاقاتهم لتدعيم نفوذهم المحلى فى دوقياتهم ، وأثبتت قواتهم وسلطانهم بين اناسهم الذين يحكمونهم ، وتحويل ولاء هؤلاء اليهم شخصيا ، فراحوا بذلك يبنون حول شخصياتهم نوعا من الهيكلية ، وما أن واثى عام ٩١٨ حتى أصبحوا قوة يحسب حسابها فى دوقياتهم ، واضحت هذه تشبه ممالك صغيرة ، وأمس كونراد قبل أن يوافيه أجله فى العام نفسه ، ملكا اسيا فقط ، بل حتى دوقا فاشلا لفرنكونيا ذاتها (١١) . ولكنه كان يدرك أن خير من يضمن لسياسته النجاح فى مواجهة تحديات الأمراء ، خصمه اللدود هنرى دوق سكسونيا ، ولذا جاءت آخر كلماته وهو على فراش الموت : « أن مستقيل الملكة معلق بالسكسون » (١٢) ، ولهذا أيضا جاءت توصيته باختيار هنرى خلفا له ، وللبررة الثانية خلال جيل واحد ، مارس الأمراء تقليدهم الجرماني باختيار الملك ، وعلى الرغم من أنه لم يشترك فى اختيار هنرى غير أمراء سكسونيا وفرنكونيا ، الا أن هنرى بذل جهودا مضنية عبر جولات من الصراع والمفاوضات لفرض سلطان الملكية على الأدواق الآخرين (١٣) . وعلى هذه الصورة بدت الملكية الألمانية — كما جاء على لسان المؤرخ جيسبرخت *Giesebrecht* اتحادا فيدراليا من ولايات متعددة ، قاد اليه ذلك المفهوم الفرنجى عن الملكية ، والفكرة الجرمانية التقليدية من الاتحاد الحر ، والتي من خلال الاتحاد « القبلى » لكل منها ، أدت الى علاقات تدعيم سيادة اسرة بعينها ، بحيث يمكن ان نسمي ذلك

Barracough, op. cit., p. 22; Scott, op. cit., p. 63. (١١)

C.M.H. Vol. III, p. 174. (١٢)

(١٣) قاد هنرى الأول حملة لاكرهه أرنولف دوق بافاريا على الخسوع له ، ولم تخضع له اللورين الا فى عام ٩٢٥ . راجع

C.M.H. Vol. III, pp. 179-180

فيدراليا . واصبحت المشكلة قائمة في التساؤل حول .. هل يؤدي ذلك الى ان يقود التنظيم الجرمانى الى اقامة نظم فيدرالى حقيقى ؟ او احياء الملكية الفرنجية ؟ وهذا بالفعل ما تبدى لهنرى الاول ، بحيث تكن بشيء من العنف والادراك الواضح ، ان يحقق كسبا معيناً من اجل سيادة دوقيته ، تاركا المستقبل لثمانه (١٤) .

هكذا .. وعلى امتداد ثلاثة قرون قادمة ، شهدت المانيا صراما طويلا بين سلطان التاج وسلطات الأمراء ، خفيا حيناً ، سافرا احيان كثيرة ، كل يسعى لتدعيم نفوذه ، وتأكيد ادعاءاته ، في ملكية وراثية شان الممالك الأوربية الأخرى خاصة في إنجلترا وفرنسا ، أو ملكية انتخابية ، الملك فيها ليس الا الاول بين أقرانه *primus inter pares* ، مما طبع تاريخ المانيا كله حتى سنها المعاصرة بهذه النزعة « الانفصالية » المبيقة الجذور في تربتها أرضا وسكانا . ولا شك ان هناك عوامل متعددة ، متباينة ، تكافلت كلها لتعمل سويا على تعميق هذا الاتجاه « القبلى » أو « الانفصالى » بين الدوقيات الألمانية .

يتساءل الجغرافيون .. ما هى المانيا ؟ ويجيبون .. هى كما يعرفها القوميون الألمان « وطن الألمان » *Deutschland* . وهذا الوطن لم يتحد في دولة واحدة الا منذ عام ١٨٧١ . وهو يتسع ليشمل غربا الأناضول واللورين ، ويمتد شرقا ليحاذى ساحل البحر البلطى . فالسهل الألمانى جزء من سهل أوروبى أعظم يمتد عبر شرق أوروبا فيولندة وألمانيا حتى هولندا ، وكذلك المرتفعات الهرميشية جزء من إقليم جيولوجى أكبر وهكذا . اذ ان النطاقات الطبيعية في وسط أوروبا نطاقات شرقية غربية ، بينما ألمانيا تقطع هذه النطاقات من الشمال الى الجنوب . وأبسط التقاسيم التضاريسية لألمانيا تنحصر في إقليمين .. القسم الشمالى السهل المنبسط ، والقسم الجنوبى المرتفع ، المكون من هضاب قديمة واحواض

(١٤): Joachimsmen, The investiture contest and the German constitution, p. 97.

داخلية . وإذا رسم خط متعرج من آخن في الغرب الى هانوفر ولينز وجورلتز على نهر نيسي Neisse فانه يفصل بين هذين القسمين التضاريسيين لألمانيا . فشمال هذا الخط تمتد السهول الشمالية التي تعتبر جزءا من السهل الأوربي الأعظم ، موج السطح ، ينحدر انحدارا تدريجيا نحو بحر الشمال ، ولايزيد ارتفاع الأرض فيه عن سبعمائة قدم ، بينما يزيد ارتفاع الجزء الجنوبي عن هذا القدر ، ليصل في كثير من اجزائه الى ألفى قدم . بل أن القسم الشمالي السهل ينقسم بدوره الى ثلاثة أقسام رئيسية ؛ غرب نهر الب Elbe وهو سهل مسفر تنحدر أنهاره نحو بحر الشمال ، وشرق نهر الب وهو أكثر اتساعا وينقسم بدوره الى عدة أقسام صغرى ، وتجرى أنهاره نحو البحر البطني ، ثم منطقة انتقالية بين السهل والجبل ، متداخلة في الاقليم الجنوبي لألمانيا ، الذي تجرى أنهاره هو الآخر نحو الشرق أو الغرب (١٥) . يضاف الى هذا عامل على جانب كبير من الأهمية ، هو عدم وجود حدود طبيعية منيعة تحيط بالوطن الألماني الأصلي ، ومن ثم لم تظهر فكرة الحدود الطبيعية في ألمانيا ، لأن المانيا لم تقترب في ذهن الألمانى ، منذ القرون الأولى للبلاد ، بوطن معين ذى حدود طبيعية ، هذا على عكس الحال في فرنسا تماما (١٦) . وتلك نقطة جديرة بالأهمية يوليها اصحاب النظريات السياسية اهتماما خاصا ، ويعتبرونها ركنا أساسيا من أركان قيام الدولة (١٧) .

(١٥) للمزيد من التفصيل عن هذه النواحي — انظر : دكتورة دولته صادقى ، جغرافية العالم ، دراسة اقليمية ، الجزء الأول ، ص ٤٧٣ — ٤٨٥ .
(١٦) دكتورة دولته صادقى والدكتور محمد السيد غلاب ، الجغرافية السياسية ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(١٧) دكتور عبد الحميد متولى ، الوجيز في النظريات والائتملة السياسية ومبادئها الدستورية ، ص ١٢٤ — ١٢٨ . ودكتور محمد كامل ليلة ، النظم السياسية ، ص ١٩ — ٢٠ وأيضا : هارولد لاسكى ، أصول السياسة ، الجزء الأول ص ٣٩ . ومن الجدير بالملاحظة أن النظرية الألمانية عن الدولة تأثرت الى حد كبير جدا بالواقع الألماني ، حيث ترى أن العبرة في قيام الدولة هي وجود حكومة تملك سلطة اصدار أوامر ملزمة في قدر معين من الشئون المتصلة بنظام الحكم ، ولو لم تكن لها السيادة بالمعنى المطلق في

=

هذه الطبيعة الجغرافية المتفاوتة ، واختفاء الحدود الطبيعية ، فرضت نفسها على الألمان بصورة واضحة ، في التناثر الظاهر بين سكان هذه المناطق وتلك ، ساعد على التباعد جريان الأنهار من القلب الى الأطراف هنا وهناك ، فنجب الناس بتجارتهم من المركز ، الذى لم يكن له وجود أصلا ، كجزيرة فرنسا *Ile de France* . وباريس فى وسطها الى الأطراف ، كل يسمى بتجارته حسب تيار النهر . وكان هذا عاملا هاما فى ازدياد قوة « الاتصالية » فى ألمانيا . فاذا أضفنا الى ذلك عنصرا آخر خاصا بالتكوين البشرى ، ادركنا مدى عبق هذه النزعة . فبينما كان اندماج العناصر السكانية يسير فى فرنسا بصورة سريعة جدا ، كان فى ألمانيا على العكس من ذلك ، حيث كانت القبائل المنفصلة عن بعضها قد بقيت لها قوتها وكيانها كوحدات عرقية قوية (١٨) ، وحيث كان الاتجاه القبلى فى ألمانيا قويا يتغل فى اقامة وحدات سياسية ألمانية على أساس قبلى (١٩) ؛ ذلك ان ألمانيا مع نهاية القرن العاشر ، كانت مقسمة الى خمس دوقيات كبيرة ؛ لوثارينجيا ، سكسونيا ، بافاريا ، فرنكونيا ، وسوابيا ، تتفق حدود الأربع الأخيرة تماما مع تجمعات القبائل الجرمانية القديمة : السكسون والبناريين والفرنجة والأليمانى . وراحت هذه السلالات الجرمانية تدعم قوتها داخل أراضيها التى تملكها ، وحتى داخل نطاق الامبراطورية الكارولنجية بصورة لا تعرف المأل . وبينما كانت سكسونيا تحتل فى الشمال بصفة دائمة ، مركزا مؤثرا وحيويا فى الحياة السياسية الاتصالية ، كان هناك فى الجنوب مركزان كبيران هما سوابيا وبافاريا اللذان خضعتا لمملكة الفرنجة بعد مقاومة عنيفة ، ولكنهما مع ذلك بقيتا كيانين مستقلين . ولا نجد تعبيرا أدق وصفا لحالة التناثر بين هذين العنصرين ، أفضل مما يذكره المؤرخ الألمانى « شميديلر » (٢٠)

(=)

تلك الشؤون كافة . وهى نظرية لم تلق أى قبول . انظر ، دكتور محمد كامل ليا ، المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٢ .

Mayer, op. cit., p. 8.

(١٨)

Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 148.

(١٩)

Schmeidler, Francia's place in the structure of Medieval

(٢٠)

Germany, pp. 74-5.

Schmeidler في قوله : « قلما تجد بين قبيلتين المائتين من الكراهية ، ما تجده السوابيين والباغاريين . لقد راح العداء بينهما يزداد نفوا واضطرادا ، ويتبل في مظاهر واضحة ؛ أبرزها العداء بين الولفيين والوهنشتاوفن Hohenstaufens فمع نهاية القرن الحادى عشر كان الولفيون هم الباغاريين ، والوهنشتاوفن هم السوابيين ، وخلف هذا العداء الأسرى كان يكمن العداء الموروث بين الضمعيين . وكانت إيطاليا مادة دسمة للشجار بينهما بصفة دائمة .

ولقد حاول شارلمان تذيب هذه العصبية القبلية ، غير أن نجاحه كان محدودا ومؤقتا ، لم يلبث أن ضاع بوفاته . ولما كانت فترة النجاح تلك قصيرة شالحة ، لدرجة لم يكن ممكنا معها تهر الشعور القبلى ، فقد ازداد هذا الشعور رسوخا من جراء الضعف الذى كان عليه خلفاؤه ، والذين شغلوا أنفسهم بشروعات تنسم بالأنانية ، وهجرة بالتالى سياسته . ولما بدا عجزهم عن التصدى للهجمات الفارجية واضحا ، أصبح الجو مهيأ لظهور قوى جديدة تتولى مهمة رد هذه الاعتداءات (٢١) . بل لعله مما يلفت النظر أن الحكام الكارولنجيين أنفسهم ، خلفاء شارلمان ، ساعدوا بصورة مباشرة على تعميق الفزعات القبلية . فعلى عام ٨٦٩ قسم لويس الألماني جيشه بصورة تحمل طابع التفكك الواضح ، فوجه الثورنجنين لحرب الصرب ، والباغاريين ضد مورايا ، والسوابيين والفرنكونيين تحت قيادته ، ولما كان السكسون قد انشغلوا بالدفاع عن أراضيهم ضد الصقالية ، فقد تحرروا على يد لويس الألماني من الالتزام بالمشاركة في حملاته العسكرية . وكان هذا دافعا لهم كى يركزوا كل جهودهم لحماية الحدود الشرقية (٢٢) .

ونتيجة لظروف الغزو هذه التى تعرضت لها ألمانيا ، واعتماد الدوقيات على قواها الخاصة في هذا المجال ، جاءت نشأة الأدواق نشأة عسكرية ،

Thatcher and McNeak, 8 Source book for Mediaeval history, pp. 69-71. (٢١)

Barraclough, op. cit., p. 10. (٢٢)

حيث اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلطة أو الأمخاض *Stems* كما كان يطلق عليها ، بزعماء محاربين كبيرين من العادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق من الناحية الإدارية ، وحولوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعي . أبان الفترة الكارولنجية ، خاصة في فترة الضعف التي شهدتها عهد لودفيج *Ludwig* الطفل ، وقد لقي هذا الإغتراب للقب «دوق» قبولاً حسناً ، حيث نظر الناس في كل دوقية إلى هذا «الدوق» باعتباره ممثلاً لوحدهم القبلية (٢٣) . ففي سكسونيا برزت عائلة «ليودولف» *Liudolfinger* والتي منها انحدر ملوك ألمانيا السكسون فيما بعد ، باعتبار أفرادها القادة العسكريين للحدود الشرقية *duces orientalis Saxonum* . وفي بافاريا جاءت العائلة الحاكمة من ليوتبولد *Liutpold* الذي قتل في إحدى المعارك ضد المجار ، وخلفه ابنه أرنولف الذي قرن لقبه بـ «العناية الإلهية» *Dei providentia dux* . أما سوابيا فقد حمل زعيم الأسرة الحاكمة فيها من البداية لقب دوق رايتيا *dux Raetianorum* . يعنى حياة ممرات الألب السويسرية . على حين احتلت عائلة كونرادين الزعامة في فرنكونيا بعد الصراع الداخلي الذي دار بينها وبين عائلة بيبين ، وانتهى بتحطيم الآخرين عام ٩٠٦ ، وليصبح زعيمها أول ملك لألمانيا (٢٤) .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعتبر حجر الزاوية في السياسة الاستقلالية للألماء الألمان في مواجهة الملكية ، فحقوق المقاطعات الخاصة لم تأت من جانب سلطة حكومية مركزية ، بل جاءت ملكيتها نتجاً محلياً خالصاً . وبالتالي فإن النبلاء الألمان حققوا لأنفسهم السيادة على ضياعهم وملكاتهم ، ليس عن طريق الحصول عليها من التاج بل بمجهودهم الخاص واعتنادهم

(٢٣) كاتور ، التاريخ الوسيط . ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم .
الجزء الأول ، ص ٣٥٥ وانظر أيضاً :

Thatcher and McNeal, op. cit., pp. 69-71.

(٢٤) للبزيد من التفاصيل عن النشأة العسكرية للدوقات الألمانية ،

يمكن الرجوع إلى :

Z. N. Brooke, op. cit., p. 7. و *Schmeidler, op. cit., p. 79.* وايضاً

وكذلك *Barracklough, op. cit., p. 19.* ودكتور نور الدين حلطوم ،

تاريخ العصور الوسيط في أوروبا ، ص ٤٤٨ — ص ٥١٠ .

على العنصرية القبلية (٢٥) . ومن هنا يمكن تفسير غيرتهم على هذه الحقوق ، ومن هنا أيضا تتضح الحقيقة القائلة بأن القبالة الألمانية كانت دائما متمردة ، بل ومتآمرة في مهود الملوك الأتوياء ، على حين تظل على ولائها إزاء ملك ضميمه ! ويمود ذلك في المقام الأول الى أن زعماء الجرمان المبكرين كانوا يقودون شعوبا تتكون أساسا من الأحرار ، ونسبيا من أرقاء لا يرتبطون مباشرة بالملك ، بل يخضعون للسادة المباشرين . وأثناء فترات الاضطراب التي صاحبت حركات الهجرة التي استمرت قرابة القرون الأربعة ، راحت طبقة الأحرار تتناقص (٢٦) ، فلما خضعت الأراضي الألمانية للفرنجة ، ولم يكن هذا الخضوع قد حدث دفعة واحدة ، بل على فترات متباعدة ، ولقي الفرنجة زمن شارلمان مقاومة عنيدة وتحديا لسياسة الضم هذه خاصة من جانب السكسون (٢٧)؛ كان ينظر الى كل فرد يمتلك أرضا يؤدي عنها ضريبة ، باعتباره حرا ، ويمنح كل الحقوق التي تخول للمواطن الحر . ومن بين هؤلاء ظهرت طبقة أرستقراطية ومخالفات ثرية راحت تزداد تباعدا عن الأحرار ، الذين لم تكن ملكياتهم تتعدى مساحات صغيرة محدودة (٢٨) . وبمرور الزمن أصبح هؤلاء الأحرار يشكلون جباعات الخدمة العسكرية ، بينما الآخرون يكونون الكونفلات أو القادة . ولما كانت الملكات الزراعية لهؤلاء واسعة ومبعثرة في أنحاء كثيرة من ألمانيا ، بل وربما أحيانا عبر الحدود في فرنسا أو إيطاليا ، أصبحت هذه الطبقة الأرستقراطية هي

Bryce, The holy Roman Empire, pp. 121-122. (٢٥)

Freiherr V. Dugern, Constitutional reorganization and reform, pp. 204-206. (٢٦)

(٢٧) ليس هناك شعب من الشعوب قاوم الغزو الفرنجي والاحتجاج في الإمبراطورية الفرنجية ، كما فعل السكسون تحت قيادة زعيمهم الأشهر فيدوكيند Widukind . وكان من نتيجة حروب شارلمان التي استمرت من ٧٧٢ حتى ٨٠٤ فناء جيل بأكمله ، ولم تفته إلا بعد أن أكره عدد كبير من السكسون مع أسرهم على ترك سكسونيا والاستقرار في الأقاليم الفرنجية .
Barraclough, op. cit., p. 8. انظر :

Freiherr V. Dugern, op. cit., p. 205.

(٢٨)

المهياة لممارسة الوظائف العامة ، فأضحت الكونتيات والأسقنيات والأديرة
في أيديهم ، والقيادة في الحرب (٣٦) .

حقيقة ان الكونتات على عهد شارلمان ، كانوا موظفين ملكيين ، يمكن —
على الأقل من الناحية النظرية — تغييرهم بيد الإمبراطور ، حتى اذا جاء
القرن العاشر الميلادي ، كان خلفاء هؤلاء الكونتات يحكمون ألمانيا باعتبارهم
أدواتا ، يتمتع الدوق منهم داخل حدود دوقيته بسلطان يفوق سلطة الملك ،
وأصبح منصبه وراثيا ، وبالتالي أصبح من المهام الصعبة على الملك احلال
غيره محله (٣٠) . ويعبر المؤرخ الألماني ماير Mayer عن هذه الحال بقوله :
ان الدوقيات الألمانية لم تكن تعتبر لشاغلها وظائف استمدت سلطتها من
النتاج ، بل وحدات تعود الى أصول مستقلة (٣١) ولأخذ استقلال الدوقيات
يزداد بفعل التقاليد والعادات القبلية المختلفة في كل دوقية عن الأخرى ،
بل وحتى الأهداف . وراح هؤلاء الأدواق ينظرون الى انفسهم باعتبارهم
حماة فيوريين على هذه الادعاءات والاختلافات (٣٢) . وليس ادل على ذلك
من انه في اثناء فترة الحرب الأهلية التي دارت بين الاخوة الادعاء ابناء لويش
التقى ، ما بين عامي ٨٣٢ — ٨٤٠ ، لم تكن ألمانيا موحدة في اتجاهاتها ؛
فبينما كانت بافاريا وحدها تؤيد لويش الابن ، تلحجت سكسونيا وثورنجا
وسوابيا وفرنكونيا في مواقفها ، وان ظلت على ولائها للويس الأب
فلما مات هذا . . . بقي الأمر معتدا خلال الحرب الأهلية الثانية
سكسونيا مثلا ، ونتيجة لصراعات طبقية ، اختلفت الأهواء ؛ فالأرستقراطية
النبيلة أيدت لويش الألماني (الابن) ، لأن الأغلبية العظمى المكونة من الأحرار
أيدت نوثر ! لم تكن هناك اذن وحدة في الهدف في ألمانيا ابان هذه الحرب
الأهلية التي انتهت بمعاهدة فردان Verdun عام ٨٤٣ ، ولا حتى بعد
ان خضعت كلها لويش الألماني بمقتضى المعاهدة . لقد اعتمد أولا على

-
- | | |
|---|------|
| Ibid, p. 206. | (٢٩) |
| Scott, op. cit., p. 60. | (٣٠) |
| Mayer, op. cit., pp. 15-16, 27. | (٣١) |
| Davis, A history of Medieval Europe, pp. 210-211. | (٣٢) |

بافاريا ، وبعد عام ٨٥٢ لم يقدم هو أو أحد من خلفائه على أن تطأ قدمه
مسكونيا ! ،

وعلى عكس ما كان عليه الحال في فرنسا ، خلت ألمانيا من وجود جهاز
إداري بها ، فلقد كان كونتات الفرنجة هنا مجرد نواب عن الملك ، وكان
هذا في حد ذاته يعد الشكل الأول من أشكال النظام الإداري في ألمانيا ، كما
أن الظروف التي ميزوا فيها كانت تختلف تماما في مسكونيا وبافاريا مثلا
عنها بالنسبة للجزء الغربي من الإمبراطورية الكارولنجية ، نعتى فرنسا .
لقد كان التكونت في ألمانيا لا يعدو كونه بعموما ملكا عين ليفرض ويؤكد الحكم
الفرنجي فوق شعب مهزوم ، ينحصر واجبه الأساسي في تحقيق رغبات سيده
الملك الفرنجي ، ومن ثم كان عمله في المقام الأول سياسيا ولم يكن إداريا (٣٣) .
وكان وجود الملك في غالبه بعيدا عن ألمانيا ، التي لم يكن بها — كما أسلفنا
— سوى نوابه ، عابلا أساسيا في ضعف سلطان الحكومة المركزية بها ،
بله عدم اعتياد الألمان الخضوع لحكم مركزي مباشر ، ومن هنا يمكن القول
أنه لم يكن هناك في ألمانيا ميراث لحكومة ملكية يمكن الاعتماد عليه . وهكذا
ناتج تحت سطح الوحدة الظاهرية التي تكونت بقيام الإمبراطورية الكارولنجية ،
غان كل إقليم من أقاليم الإمبراطورية كان يحتفظ بحياته الخاصة وتاريخه
ومشاكله وخصائصه الجغرافية ، ففقدت الإمبراطورية على هذا النحو دولة
غير متجانسة مع تقاليدها السياسية .

ويعود ذلك في المقام الأول إلى أنه في الوقت الذي كانت فيه فرنسا
أحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية ، لم تكن ألمانيا كذلك . ولذا فإن النظام
السياسي في الأولى ، لم يذم مستقلا من الترتيب الفرنسية ، بل فرض على
أرضها بأيدي الرومان ، فلما غزا الفرنجة غالبية ، وجد كونتات الفرنجة
أنفسهم وسط نظام إداري روماني قائم بالفعل ، كان قد أضحى أمرا طبيعيا
راسخا خلال خمسة قرون من الحكم الروماني ، فوجهته الطبقة الحاكمة
الجديدة حسبما تقتضى مصالحها (٣٤) . وظل نظام الحكومة الرومانية ،

Barracough, op. cit., pp 8-9

(٣٣)

Mayer, op. cit., p. 5.

(٣٤)

والمبادئ الأساسية للجهاز الإداري للدولة ، على حالها دون أن يتعرضوا للتفريب ، وبقيت للقانون الروماني هيئته ، وأصبحت له صلاحياته للسكان الغال — الرومان Gallo-Roman ، كما بقي النظام الضرائبي للدولة حيا في أسسه ومبادئه ، بل وحتى وقت متأخر ، إلى القرن العاشر ، عندما كانت تجبى ضريبة الدائنين (٢٥) Danegeld خلاصة القول ، أن مفهوم الوحدة السياسية للدولة ، الذي تمثل في هذا النموذج الروماني ، لم يدمر في فرنسا ، وأثبتت النظم الرومانية أنها الأسس الحية للدولة الفرنسية في العصور الوسطى بل والأزمنة الحديثة . أما ألمانيا فلم ينضو منها تحت السيادة الرومانية إلا جزء ضئيل ، ولم تمارس الإمبراطورية فيها عملية التوحيد التي طبقتها في غالة . وحتى عندما خضعت المناطق الألمانية للإمبراطورية الفرنجة ، لم يحدث ذلك دفعة واحدة ، بل على فترات ، كما أسلفنا ، ولم يجد الفرنجة ميراثا إداريا لدى هذه القبائل ورثوه عن الرومان ، وكان عليهم أن يتعاملوا — عندما أخضعوا سكسونيا مثلا — مع أثاس لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الحكومة الملكية ، ولا يعرفون شيئا مطلقا عن النظام الإداري الروماني ولم يكونوا قد تحولوا حتى ذلك الوقت إلى المسيحية (٢٦) . ولذا فإن الكنيسة هنا لم تكن تمثل الحفيظ على التقاليد الرومانية كما كان عليه الحال في فرنسا ؛ ذلك أن البعثات التبشيرية التي قدمت إلى الأراضي الألمانية ، جاءت من مملكة الفرنجة ، وكانت الكنائس والأديرة الكبيرة التي شيدها بونيفاس Boniface ، واتباعه ، بمثابة الطلائع التي مهدت للتوسع الكارولنجي بعد أن قام الرهبان بتنصير الناس ، وتأسيس مراكز للتعليم والحضارة ، فاجتدوا بذلك الكنيسة الألمانية التي عرفت بهذا طريقها إلى الوجود قبل أن توجد

(٢٥) للمزيد من التفاصيل عن النظم الرومانية في غالة الفرنجية ، راجع البحث القيم الذي كتبه الأستاذ Ch. Pfister تحت عنوان Gaul under the Meovingian Franks. C.M.H. Vol. II, pp. 133-158 وايضا ، موسى : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جابود ، ص ٣١٩ — ٣٢٢ .

Barraclough, op. cit., p. 7.

(٢٦)

أية زعامة ملكية ألمانية فعالة . وهى بهذه الصورة تعد عملا فرنجيا وليست
ميراثا رومانيا (٣٧) .

كانت ألمانيا إذن أرضا تم فزوها من جانب الفرنجة ، وطبقت فيها
النظم الفرنجية ، فالدوق فى أية دوقية ألمانية لم يكن خليفة للمحافظ الرومانى ،
كما كان عليه الحال فى فرنسا ، بل خليفة الموظف الفرنجى . وحتى هذه
لم يكسب لها السيادة هناك . وبالتالي فإن النظرية الرومانية عن الدولة ،
لم تكن الأساس الذى قامت عليه الحكومة الألمانية (٣٨) . وباختصار . .
فإن الوحدات الألمانية المستقلة ، التى لعبت دورا معينا فى المهام الحكومية ،
ولم تستمد سلطانها من التاج ، بقيت منذ البداية عنصرا رئيسيا فى الحياة
العامة . وساعد على ذلك أن نظام المبعوثين الملكيين الفرنجى لم يكن من
الميسور أن يحقق أى نجاح فى أى من بافاريا وسوابيا وسكسونيا .
وسرعان ما هوى وفقد رؤساء البلاط أهميتهم منذ بواكير القرن التاسع .
كما أنه لم يكن هناك نظام ضريبى واضح فى ألمانيا ، حتى قبل نهاية العصور
الوسطى . يضاف الى هذا كله أن التشريعات التكمسية والزمنية كلها توقفت
فى ألمانيا بعد تقسيم الإمبراطورية الفرنجية مباشرة (٣٩) .

وفى دولة لم يكن النظام السياسى فيها ثابتا ، ولا الإدارة فيها معروفة ،
يصبح الارتباط والولاء الشخصى أهم العناصر فى ادارتها وحياتها السياسية ،
ومن ثم اعتمد الحكام على أشخاص بعينهم ، وركنوا الى ولائهم ، بالإضافة
الى اعتمادهم على مسلحات واسعة من الأراضي تحت تصرفهم يبنون عليها
سلطانهم الملكى ، دون أن ينجحوا أو حتى يحاولوا اقامة جهاز إدارى كامل
يمكن أن ينتج حقيقة مشروعاتهم . وكان هذا يعنى بالتالى فقدان التاج
الألمانى للزعامة الأساسية التى يركز عليها الأمراء انفسهم ؛ ففى خلال

(٣٧) كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة دنكور قاسم عبده قاسم ،

ص ٣٥٩ .

Mayer, op. cit., p. 7.

(٣٨)

Pirenne, A history of Europe, p. 319. Ibid. p. 8. (٣٩) وايضا

الفترة الممتدة من عام ٨٧٠ حتى عام ٩١٨ كانت أراضي الناج قد تم اغتصابها ، بالإضافة الى أن ما تبقى منها كان مبعثرا في مختلف الدوقيات الألمانية (٤٠) . وكان هذا على عكس الحال في فرنسا ؛ ورغم أن النظام الإقطاعي كان سائدا فيها ، ضاربا بجذوره في تربتها ، إلا أن الملك كانت له أراضيها الخاصة ، وأصبح منذ القرن الثاني عشر قادرا على أن يسترد الامتيازات التي منحت من قبل لأصقاله ، وأن يتخذ عاصمة مستقرة للملك ، تتركز فيها الإدارات الحكومية ، وتتجه إليها كل الأنظار .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعد على جانب كبير من الأهمية ؛ فتغير موطن الأسرة الحاكمة في ألمانيا من دوقية الى أخرى ، كان كفيلا أن يتبعه بالتالي التغير القابل في كل مرافق الدولة وأجهزتها ، سعيا وراء الملك من دوقية الى أخرى ؛ فإذا كان الملك من سكسونيا ، شلن هنري الأول والأوتوين ، شكلت كل من سكسونيا وفرنكونيا قاعدة حكمهم ، وصخرة قوية في الشمال ، ووقفت مثلا كل من بافاريا وسوابيا بينهما وبين سيادة الملك في إيطاليا . وإذا كانت قوة الملك في بافاريا ، شلن هنري الثاني ، كان قادرا على عزل سوابيا المعادية دائما عن كل من بوهيميا وسكسونيا . أما إذا كان الملك سوابيا ، مثل أسرة الهوهنشتاوفن ، ارتبطت أراضيها بفرنكونيا وامتدت تجاه نورنبرجيا حتى تصل الى الألب ، مكونة حاجزا بين بافاريا وبوهيميا من ناحية وسكسونيا من ناحية أخرى (٤١) ؛ ذلك أنه لم تكن هناك عاصمة ثابتة لألمانيا ، ولا مركزا مستقرا للحكومة . حقيقة كانت

(٤٠) يمكن احصاء ما تبقى من هذه الضياع الملكية عند اعتلاء الأسرة السكسونية العرش ، على النحو التالي ؛ ٨٣ في فرنكونيا ، ٥٠ في سوابيا ، ٢١ في بافاريا ، ١٢ في اللورين ، ٥ في كل من سكسونيا وفريزيا . راجع Barraclough, op. cit. p. 31.

وانظر ايضا Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 8, 113.

Hodgett, op. cit., p. 24. وكذلك

(٤١) المزيد من التفاصيل عن الصراعات بين هذه الدوقيات ، انظر : Schmiedler, op. cit., pp. 82-93.

للبلوك مصورهم ، لكنها لم تكن لهم مستقرا ومقاما ، فحيثما وجد الملك توجد الحكومة (٤٢) . بل ان المشكلة لم تكن قاصرة فقط على عدم وجود مركز جغرافي يمكن الودمبول اليه من هذا الخليط الهائل من الأقاليم ، بل ان ألمانيا افتتحت ايضا أى شىء يمكن اعتباره مركزا روحيا تتجه اليه الأنظار ويعتبر قبلة الألمان (٤٣) .

ولما كان وجود عاصمة دائمة يؤدى بصورة طبيعية الى قيام حكومة مركزية ، على غرار باريس ، كان من البديهي ان يتصدى الأمراء الألمان لاية محاولة في هذا السبيل ، لأنهم يعلمون يقينا مدى تأثير ذلك في الحد من نفوذهم وسلطانهم . ومن هنا نفهم مغزى أجهاض المحاولة الجريئة التى أقدم عليها هنرى الرابع ، بهدف تقوية سلطة التاج وتدعيم نفوذ الملك ، باتخاذ سكسونيا وبداخلها جوتسلر Goslar عاصمة له ، وبني من حولها القلاع العسكرية في منطقة مرتفعات هارتز Harz ، متمثلا في ذلك آل كاييه الذين اتخذوا عاصمة ملكهم في جزيرة فرنسسا (٤٤) Ile de France . الا ان سياسة كهذه كان لايد ان تقابل بالاحتجاج من جانب السكسون والثورنجنين ، الذين كانوا اقل الشعوب الألمانية اندماجاً في الدولة الألمانية (٤٥) . فاذا علمنا ان هذه المنطقة كانت غنية بمناجم الفضة التى عثر عليها زمن أوتو الأول ، وأن ذلك يعنى اعطاء الملك الألماني مصدراً للحل مستقرا بعيدا عن تحكم الأمراء ، أدركنا الأسباب البعيدة للعداء السافر تجاه سياسة هنرى الرابع من جانب السكسون (٤٦) .

بسم الله

- | | |
|--|------------|
| Z. N. Brooke, op. cit., p. 20. | (٤٢) |
| Pirenne, A history of Europe, p. 320. | وايضا |
| D. Waley, Later Medieval Europe, pp. 73-74. | وراجع ايضا |
| Joachimssen, op. cit., p. 99. | (٤٣) |
| Ibid. pp. 110-111. | (٤٤) |
| Freiherr V. Dungen, op. cit., p. 211. | وايضا |
| Thompson and Johnson, op. cit., pp. 374-375. | (٤٥) |
| Barracough, op. cit., pp. 83-84. | (٤٦) |

لا ريب ان في ان الأمور التي عرضنا لها على هذا النحو ، ترسم لنا صورة واضحة من الأحوال العامة في ألمانيا إبان تلك الفترة من العصور الوسطى ، ونبين الدوافع الحقيقية التي حدثت بالأمراء الألمان الى التمسك بحقوقهم الموروثة بحكم النظام الجرماني القبلى ، والمكتسبة بمقتضى الضعف الذى انتاب الملكية في ألمانيا خلال القرن التاسع ، والغزوات الخارجية الشرسة التى تعرضت لها ، والتى تحققت من خلالها سلطتهم المتزايدة داخل دوقيتهم ، مما استتبع بالتالى حرصهم الشديد على أن تكون سلطة الملك مجردة من أى سلطان يمكن أن ينتص ولو قليلا من امتيازاتهم الواسعة ، ولن يتأتى هذا الا اذا استمرت الملكية الألمانية انتخابية بإيدى الأمراء ، بعيدة كل البعد عن اقرار مبدأ وراثة العرش . لقد كن اختيار الملك بالنسبة للأمراء — على حد قول بروك Brooke — حقا اسلسيا بصفة دائمة ، ولم يسمح أبدا أصحاب مبدأ الاختيار هؤلاء ، بالإعتراف بحق الارث كما جرى التقليد في فرنسا (٤٧) . ومن الجدير بالذكر أن سياسات عدد من الملوك الألمان في الداخل ، والظروف والمشكلات الخارجية التى تورطوا فيها جميعا في الخارج ، أعنى المشكلة الإيطالية ، كانت من العوامل الهامة التى عمقت مبدأ الانتخاب في الملكية الألمانية ، وجعلت حق وراثة العرش مع إغريات القرن الثانى عشر نمسا مفسيا .

فالاختيار الذى تم عام ٩١١ وجاء بكونراد الى العرش ككل ملك المانى ، ثم الاختيار الثانى الذى حدث سنة ٩١٨ وثبت ما ارتآه الملك الراحل من خلافة هنرى الأول السكسونى له ، كانا لايد أن يضعفا من البداية مبدأ الوراثة في الحكم ، وهو الشيء الذى كان مطلوبا آنذاك للاستقرار الداخلى في العصور الوسطى . غير أن هنرى الأول الصياد تمكن بسياساته الداخلية ، وجهوده الخارجية التصدى للهنغارين والدانين ، من تثبيت دعائم نفوذه ، والتأمين لأسرته في حكم ألمانيا . واتضح ذلك جليا عندما أقدم هنرى ، وقد حضرته الوفاة — على دعوة الأمراء والناس في ارنفورت Erfurt للتصديق على تعيين ابنه أوتو Otto خلفا له . ولم

Waley, op. et., p. 73. وأيضا Z. N. Brooke, op. et., p. 19. (٤٧)

يلبث أن تدعم هذا ثانية بلختيار الأمراء الحر بعد وفاة هنرى ، ومباركة
 الكليروس ، وموافقة الناس . وقد تم ذلك فى آخن Aachen ، حيث
 اجتمع الأدواق وكبار الكونتات والفرسان الذين انقسموا يمين الولاء له ،
 ثم قلم رئيس أساقفة مينز ، وأخذ بيده وقاده الى صحن الكتيسة مخاطبا
 الناس على هذا النحو : « أقدم لكم أوتو ، الذى اختير electum من قبل
 الله ، ومعين بواسطة هنرى ، السيد الراحل للمملكة domino rerum وأصبح
 الآن ملكا بيد كل الأمراء ، فإذا كان هذا الاختيار electio يسركم ،
 فلنعلنوا رضلكم بأن يرفع كل منكم يده اليمينى » . (٤٨) . هكذا — وعسى
 حد تعبير باراكلاف — نجح أوتو الأول من طريق ارادة إبيه ، وارادة
 الله . بحقوق الوراثة ، وبحق الانتخاب ، وبالحق الإلهى ، نجح فى استخدام
 كل تأكيد رمزى ودينى كان متاحا فى ذلك القرن (٤٩) . وبدا للجميع ساعتها
 أن مبدأ الوراثة قد أخذ يستقر فى الأرض الألمانية على حسب مبدأ الانتخاب
 أو بتعبير آخر ، تدعميم سلطان الملكية فوق سلطة الأمراء .

ولا شك أن السياسة التى اتبعها أوتو الأول أثناء عملية اختياره
 ملكا ، وبعدها ، تفصح عن نيات الملك الألماني الجديد تجاه الأمراء ؛
 فاختياره آخن بصفة خاصة لتجرى فيها عملية تنصيبه ، توحى بأن العامل
 الجديد يترسم خطى سلفه العظيم شارل . كما أن الوليمة التى أعقبت
 مراسم التتويج ، على الصورة التى جرت بها (٥٠) . وان كانت عند الأمراء
 لا تعدو امتدادا للتقليد الجرماني القديم ، إلا أنها لدى أوتو كانت تعنى
 حقيقتها لا رمزها فقط ، أى اعتبار الأمراء « خدما ملكيين » ، تابعين
 تبعية مطلقة للتاج . وقد ظهر ذلك واضحا بعد عامين فقط ؛ إذ أن
 ابرهارد Eberhard دوق بافاريا ، والذى كان قد خلف أباه أرنولف منذ

Widukind, History of the Saxons, in A Source book for (٤٨)
 Medieval history, by Thatcher and McNeal, pp. 72-75).

Barracklough, The origins of Modern Germany, p. 73. (٤٩)

(٥٠) للمزيد من التفاصيل من المراسم والصور التى جرت بها هذه
 الوليمة ، راجع Widukind, Loc cit.

عام ٩٣٥ . وحصل على ولاء البافاريين (٥١) رفض دعوة التاج له بالحضور اعتمادا على هاتين الدعامتين : التعمين بحق الارث عن ابيه ، وولاء دوقيته . فكانت لجابة أوتو على ذلك ، العزل . ولم يعط يافاريا لأجد من أبناء ارنولف الآخرين ، بل اعطاها لمهمم برتولد الكارنثي Berthold of Carinthia الذى تمهد أمام الملك بعدم تعيين أى أسقف أو كونت ، واصبحت أراضي التاج في بافاريا تابعة مباشرة للتاج ، وعين الى جانب الدوق ، رئيس بلاط يراقب تصرفاته داخل الدوقية . وكانت دلالة العزل الهامة هي القضاء على الاعتقاد السائد بحق الارث في الدوقية للأبناء (٥٢) وهو الحق الذى كان يناضل الملوك من أجله لجعله المبدأ الوحيد فى اعتلاء عرش الملكية الألمانية . ولم يضع أوتو وقتا ، فخطا خطوة واسعة عام ٩٦١ عندما تناهى عن مسألة اشراك الأمراء فى اختيار الملك الجديد ، واقتدم على تعيين ابنه وسماه حاكما شريكا . يضاف الى هذا كله اعتماد أوتو والأسرة السكسونية من بعد ، اعتمادا كاملا على الكنيسة ورجال الاكثيوس فى معظم أمور الدولة ، كقوة منافسة لتحطيم نفوذ الأمراء العلمانيين ، بعد الثورات وحركات التمرد التى نشبت ضد أوتو الأول ، وكانت أخطرها بين عامى ٩٥٣ - ٩٥٥ واستهدفت اغتياله . وذلك التى واجهت أوتو الثانى وهنرى الثانى ، حتى خضت الكنيسة الألمانية هيئة دنلوبية .

ومهما يكن من أمر ، فان الجهود التى كللت بالنجاح فى مواجهة المجبار ، والاستقرار الداخلى الذى تحقق ، كان عاملا رئيسيا فى أن يظل مبدأ الوراثة محترما ومرعيا على امتداد أربعة أجيال متعاقبة ، ابتداء بأوتو الأول وحتى هنرى الثانى (٩٧٣ - ١٠٢٤) . وحتى عندما لم يكن هناك وريث شرعى مباشر للعرش ، كما حدث عند وفاة أوتو الثالث دون أن يعقب خلفا ، اقدم الأمراء على اختيار هنرى الثانى ، احتراميا للأسرة التى قدمت كل ما فى مقدورها لرعاية ألمانيا ، باعتبار هنرى أحد أفراد البيت

(٥١) عن سياسة ارنولف البافارى المستقلة ، وانتزاعه بمن الولاء لآبائه من البافاريين ، راجع Heinrich Mitteis, *Feudalism and the German constitution*, pp. 236-237.

Barracough, op. cit., p. 28.

(٥٢)

السكسونى . بل ان ما حدث بعد ذلك عقب ارتحال هنرى هذا من الدنيا ،
يبين مدى نجاح الأسرة السكسونية في تمييز مبدأ الوراثة في اعتلاء العرش ؛
ذلك انه في عام ١٠٢٤ كان المتنازعان على العرش يدميان اتحادهما من
سلالة ابنة اوتو الأول ، ليوتجارد Luitgard وقد فاز كونراد (الثانى)
لأن ارملة هنرى الثانى ، كونيجوند Kunigunde سلطته الأشعر
الإمبراطورية عقب وفاة زوجها ، فقد ذلك تعيينا له باعتباره افضل المرشحين .

هكذا بدا عام ١٠٢٤ أن المواجهة بين مبدأى الوراثة والانتخاب ، قد
جسمت في هذه الجولة لصالح الوراثة ، وأن التزعة الاعليمية لدى الأمراء ،
والتي كانت واضحة تماما خلال القرن التاسع والعقود الأولى من القرن
العاشر ، قد أخذت تخبو ، وأن النظرية الثيوتونية عن الاختيار ، تسد
امسحت قاب قوسين أو أدنى من النسيان . خاصة وأن سنوات القرن
الحادى عشر — اذ استثنينا فترة الحرب الأهلية على عهد هنرى الرابع
(١٠٧٧ — ١٠٨١) — والعقدين الأولين من القرن الثانى عشر ، شهدت
استقرار مبدأ الوراثة بصورة بدت ثابتة ، بعد أن أمكن كونراد الثانى
لابنه هنرى الثالث ، وهذا لوريثه — الطفل — هنرى الرابع ، وهذا
لابنه هنرى الخامس .

وقد اتضح منذ الوهلة الأولى لاعتلاء كونراد الثانى العرش ، تصميم
الأسرة السالوية الفرنكونية على ترسيخ جذور مبدأ الوراثة ، جريا على
سنة الأسرة السكسونية ، وتدميها لسلطان التاج على الأمراء . ففي عام
١٠٢٦ ، ولم يرض على اعتلاء كونراد العرش سوى عاملين فقط ، أقدم
في أوجزبرج Augsburg على تعيين ابنه هنرى [الثالث] ذى التسع
سنوات ، وريثا له ، ووافق الأمراء على ذلك . وفي عام ١٠٢٨ تم تنويجه
ملكا في اكس لاشابل Aix-La-Chapelle وهى السنة التى أعقبت تنويع
كونراد نفسه امبراطورا في روما (٥٢) . وهكذا يعلن الملك امبراطورا ، وما
أن يصل الى العرش الامبراطورى حتى يعين ملكا جديدا خلفا له ، مما يوحى

يئن الأمر لم يكن فقط مجرد استمرارية ، ولكن تثبيتا للحقوق التاريخية للملكية . بل ان هذا الحق امتد الى الامبراطورية ذاتها ؛ فمنذ عهد كونراد هذا اتضحت الحقيقة القائلة بأن الملك الألماني هو بحكم الواقع *ipso facto* حاكم إيطاليا ، وذهبت مع الريح حقوق الناخبين اللمبارد ، ومنذ عام ١٠٥٤ ظهر مصطلح *Rex Romanorum in imperatorem promovendus* الذي يعنى أن الملك الألماني ، وإن لم يكن قد تلقى بعد التاج الامبراطورى فى روما ، إلا انه بالطبع يعد « ملك الرومان » *Rex Romanorum* بحقوق ثابتة لا يمكن انتهاكها فى وراثة الامبراطورية ، حتى أن أحد نقباء القانون فى القرن الحادى عشر ، مبر عن ذلك بقوله : « ان من تم اختياره من جانب الأمراء ، يصبح امبراطورا حقا ، حتى قبل أن يثبت البابا هذا الاختيار » (٥٤) .

وانطلاقا من السياسة العامة التى انبعتها الأسرة الفرنكونية ، والتى وضع خطوطها العريضة كونراد الثانى ، أقدم هذا الملك على وقف استنزاف أراضي التاج ، وذلك بعدم اتباع السياسة التى درج عليها أسلافه بتقديم هذه الأراضي هبات الى الكنيسة ، بل اتفقا لضرب كبرياء طبقة كبار النبلاء ، وذلك بالاعتماد على النبالة الدنيا ، أو صغار النبلاء الذين اغدق عليهم هباته ، ليصنع بهذا الاجراء قاعدة مريضة من الموالين والأنباع . وتبذل ذلك بصورة واضحة فى اعترافه بحق هؤلاء فى توريث اقطاعاتهم (٥٥) . وتجسد هذا بصورة عملية فى مواجهة للثورة التى اشعلها ارنست *Ernst* دوق سوابيا ، فقد تحالفت الملك مع الكونتات ضد الدوق (٥٦) . ولا شك أن اعتماد كونراد على النبالة الدنيا ضد الارستقراطية النبيلة ، مسألة تثير الاهتمام ، لأنها تشير للوهلة الأولى الى العداء الاجتماعى الآخذ فى الظهور خلال القرن الحادى عشر ، غير أن خطورة هذا الأمر تعود الى انه اذا كان كونراد قد استطاع بذلك تقوية سلطانه فى الداخل ، واضعاف

Barracough, op. cit., pp. 73-74.

(٥٤)

Thompson & Johnson, op. cit., p. 372.

(٥٥)

(٥٦) عندما طلب الدوق من الكونتات مناصرته ضد الملك أجابوه بأن طاعتهم له مرهونة بطاعته للملك ، قائلاين : « نحن أحرار ، والحارس الأعلى لحريتنا هو ملكنا وامبراطورنا ، فاذا هجرنا جانبهم فقدنا حريتنا » .

شبكة الأذواق وكبار الأمراء ؛ فإن هذا كان أمرا مؤقتا ، لانه أدى بسياسته هذه على المدى الطويل الى تقطيع المائتا الى اقطاعات صغيرة .

وتمشيا مع هذا الاتجاه ، وخروجاً عن الخط الذى رسمه الأوتوبيون بالاعتماد الكايل على رجال الاكليروس ، سعى كونراد وخلفاؤه الفرنكونيون الى الاعتماد على طبقة جديدة لا تمت الى النبالة بصلة ، وجعلوا منهم الموظفين الاداريين والفرسان المسلحين ، وهذه الطبقة عرفت باسم *ministeriales* وليس لها نظير فى المجتمعات الاقطاعية الأخرى فى فرنسا أو انجلترا (٥٧) . وامسبحت هذه الطبقة الجديدة تعتمد بصورة أساسية على التاج فى وظائفها ودخولها . وأذا كانوا يشبهون الافصال فى أنهم ينالون مكافآتهم بمنحهم الأراضي والراتب ، إلا أنهم كانوا يفتقدون الحرية الشخصية للفصل الاقطاعى ، ولا يمكنهم ادعاء نفس الامتيازات الخاصة بتلك الطبقة . وكان هدف الفرنكونيين من ذلك واضحا ، وهو أن هذه الطبقة من « محدثى النعمة » أقل خطرا من النبلاء وأسهل انتقيادا ، لاعتمادهم أو ارتباطهم المباشر بالملك . وقد جعل كونراد الثالثى منهم العمود الفقرى لجهازه الادارى الجديد ، ولم يكن هنرى الرابع من بعد بإقل منه استنادا اليهم ، حتى أن الشكوى التى سرت آنذاك ضده من أنه يحيط نفسه بهجوعة من ذوى الأموال المتضعة *Vilissimi et infirmi homines* وأنه يسمح فقط لنصائح مستشاريه من طبقات متدنية ، وبزدرى آراء الأمراء ذوى الأصول النبيلة ، كانت تعبر عن الواقع « الادارى » الجديد باعتماد الفرنكونيين على هؤلاء « الموظفين » *ministeriales* دون غيرهم .

ولم يحاول كونراد الثانى ان يعمد بالدوقيات الشاغرة الى الأسرات المحلية ، بل وضعها جميعا فى يد ابنه هنرى ، حتى اذا جاءت كونراد رسل الموت تتوفاه ، كان هنرى يسيطر بالفعل على كل الدوقيات الألمانية عدا اللورين وسكسونيا . فلما أصبح هنرى الثالث هذا ملكا عام ١٠٢٩ حردس

بـ
(٥٧) للمزيد من التماسيل عن اصل هذه الطبقة ووجودها فى ألمانيا ، راجع Davis, op. cit., pp. 334-33.

على بسط سلطانه على كل الدوقيات ، فمهد بسكسونيا الى رئيس اساقفة
بريمن Bremen ، ادالبرت Adalbert عام ١٠٤٣ ، بهدف اضعاف
جانب عائلة بيلونج Billonger ، ولما كان رئيس الاساقفة مواليا للناج ،
فقد تحول العداء بينه وبين ادواق سكسونيا الى عداة هؤلاء الآخرين
للملك . وان كان هنرى قد تمكن من اخضاع الثورات بها ، وابعى فيها خمس
سنوات يحاول تدعيم نفوذ الملكية وتقوية سلطاتها هناك . اما اللورين فقد
تعرضت للتقسيم بين ولدى جوتزيلو Gozilo بعد وفاته سنة ١٠٤٤ .
الا ان وفاة هنرى المفاجئة سنة ١٠٥٦ عصفت بمشروعاته هذه جميعها .
خاصة وان وريثه كان طفلا صغيرا . الا ان الملك الجديد هنرى الرابع ،
بعد ان باشر مهام سلطانه ، بذل جهودا كبيرة في اتمام خطط اسلافه
الفرنكونيين في اقامة دولة المانية قوية .

عهد هنرى الى استعادة كل حقوق الملكية وامتيازاتها التي تم اغتصابها
على ايدى الامراء ، العلمانيين والكليروسيين على السواء ، ابان الفترة
التي كان يعاني فيها غض العمر وسن القصور ، ولو اخذنا سكسونيا
مثالا واحدا فقط ، لعلنا انه خلال هذه الفترة ، اقدم غلاحوها على استغلال
ممتلكات الناج من الغابات والمراعى جهارا ، فقطعوا اخشابها ، ورعوا
انعامهم ، واورثوها ابنائهم . وكان الاتجاه الذى اتتوا فيه يختص باعادة
تاكيد امتيازات الناج فوق الاراضى ، وتحريم الاستغلال الخاص لها ،
وتخصيص انتاجها لدخل الملك ، وبيع الصاريح الخاصة بالانتفاع بها
سواء فى قطع الاخشاب او الرعى او اقامة لطواحين . كل هذا بدا لاعين
السكسون طغيانا جائرا . وفارق هذا وذلك ، فانه ضمانا لاجهاد الثورات
التي يمكن ان يقوم بها اهالى هذه المناطق ، فان هنرى ، وقد ترسم فى ذلك
خطى ابيه ، اقام فى اراضى الناج فى سكسونيا وفورنجا عددا من القلاع ،
شحنها بالمخمين له من السوابين ، الذين حظرا بمقتى السكسون وكراهيتهم
باعبارهم دخلاء يعملون فى خدمة ملك ، عد عندهم طاغية . وما ان واقى
عام ١٠٧٣ حتى كان هنرى الرابع قد سار فى هذه السياسة شوطا بعيدا ،

نقاد بذلك السكسون الى حافة الثورة (٥٨) .

وقد التى المؤرخ الألماني هانز هيرش Hans Hirsch الضوء على محاولة أخرى قام بها هنرى الرابع ، دفعت الأبراء دفعا الى عدم التردد فى الاطاحة به ، عندما اشتدت حمى الصراع بين الامبراطور والبابوية ، فمقد سعى الى أن يكون القضاء الجنائى ، أهم الحقوق العالمة ، مستندا الى السلطة الملكية . بمعنى أن تكون الادانة من الملك نفسه ، وبهذه الصورة يمكن نقلها الى سلطان الدولة ، وكان هذا يعنى فى حالة تملبه ، التدخل المباشر فى حقوق وامتيازات النبالة الألمانية ، وهى من أهم الحقوق التى كانوا يمارسونها (٥٩) . ويبدو أن هنرى الرابع كان متاثرا فى هذه الناحية ، بما اقدم عليه ويو Wipo مستشار كونراد الثانى والأذى امتدحه بانه واهب السلام العالم pacis ubique dator ومعلم ابنه هنرى الثالث ، من تقديم اقتراح الى هنرى الثالث ينصحه فيه بأن يصدر مرسوما عند تعيينه امبراطورا ، يجبر النبلاء الألمان على ارسال أبنائهم الى المدارس لتدريبهم هناك على احترام القانون . فالإيطاليون — على حد قوله — يدرسون منذ زمان بعيد ، القانون ، مما جعل من روما سيدة العالم (٦٠) . وبهذا وضع ويو يده على مواطن الضعف فى الملكية الألمانية زمن الأوتوويين والفرنكونيين . فقد كانت السلطات التشريعية والقضائية من أهم جوانب السيادة التى يفتتح بها الأدواق فى دوقياتهم . وكان اقتراح ويو يمثل المعارضة القائمة من جانب الناج ضد اتجاهات الأمراء العلمانيين ، الذين تجنبوا دوما أى قانون مكتوب كلما أمكنهم ذلك ، وراحوا يؤكدون فى تثقيف بنيتهم على الخلال الفروسية والخلقية ، والتى تقلبنا فى الملاحم

(٥٨) لليزيد من التفاصيل من سياسة هنرى الرابع الداخلية هذه ، راجع Strayer & Munro, op. cit. pp. 207-208.

ولايسا Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, pp. 181-184.

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 374-375.

وكذلك

Mayer, op. cit., pp. 27-28.

(٥٩)

Joachimssen, op. cit., 103.

(٦٠)

البنطولية (١١) . هذه الآراء المتباينة تكشف بوضوح من العداء الكلمن والقائم بين الأحزاب المتصارعة خلال ارساء النظم الملكية الألمانية . إبان تلك الفترة ، لأن ايجاد قانون مكتوب ، وهيكلي ثابت ، لن يخدم فقط قضية القانون في ألمانيا ، بل سيدعم بالتالي مركز الملكية الألمانية داخل ألمانيا (١٢).

كانت البدايات كلها على هذا النحو تشير الى أن الملكية الألمانية ، راحت تأخذ طريقها الى الاستقرار ، وأن ألمانيا ستغدو قوة كبيرة في أوروبا العصور الوسطى ، وإن مبدأ الوراثة قد حقق نجاحا بعيدا في التجربة الألمانية متوقفا على منافسه الخطير ، والكلمن في نفوس الألمان ، وهو مبدأ الانتخاب للجالس على العرش . وبدا أن هنري الرابع سوف يوضع في عداد أقوى ملوك أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، هنري الثاني ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا . لكن الظروف التي وجد هنري نفسه محاطا بها ، أضاعته جهوده وجهود أسرته وأسلحته عبثا ، وذهبت مع الصمت الرهيب محاولات الأسرة السكسونية والفرنكونية ، وحتى أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen في إقامة دولة ألمانية موحدة ، على رأسها ملك قوي ، يدعمه حق طبيعي تقليدي في وراثة العرش ، دون تدخل من جانب الأمراء .

ذلك أن هنري كان معاصرا لواحد من أقوى بابوات العصور الوسطى ، جريجوري السابع ، الذي تجسدت فيه كل مبادئ نظرية السمو البابوي منذ جلازيوس الأول Gelastus في نهاية القرن الخامس ، وحتى حركة الإصلاح الكلوني على المبادئ الجريجورية ، والتي استهدفت في النهاية وجود امبراطور واحد هو البابا (١٣) . ولا شك أن هذا لا يتفق ومسيادة

Id. (٦١)

Ibid., p. 104. (٦٢)

(٦٣) للمزيد من التفاصيل من آراء جريجوري السابع ، راجع

Ullmann, A short history of the
papacy in the Middle Ages, pp. 142-161.

Bryce, op. cit., pp. 156-158.

وأيضا

الامبراطور الألماني الذي كان يرى وجهة نظر مخالفة من الإصلاح الكنسي (٦٤) وقد حى اتون الصراع بادیء الأمر، حول مشكلة التقليد العلماني ، فلما أسقطت اتفاقية وورمز عام ١١٢٢ هذا القناع ، سرع لهيب الجدل بين البابوية والامبراطورية حول السيادة العالمية ، وانعكس هذا الصراع بصورة مباشرة على سلطان الملك الألماني في ألمانيا ذاتها . وانتهى الأمر بتعطيل الامبراطورية في القرن الثالث عشر ، وخروج ألمانيا دولة لا تحمل من حقيقتها الا اسمها فقط دون أى معنى سياسى .

كانت الكنيسة تميل دائما الى تأييد مبدأ الانتخاب في الملكية من الوراثة ، لأن ذلك كان هو أيضا نظامها الذى تقوم عليه ، وقد رأينا اسقف ميتر يباشر شيئا من هذا عند اختيار الملك الألماني . ولكن الشيء المؤكد انها كانت ترى في ذلك تحقيقا لصالحها الخاص . وكان جريجورى السابع بصفة خاصة من أشد البابوات تحبسا لهذا الاتجاه ، خاصة وقد رأى بمعنى رأسه ما فعله الامبراطور السابق هنرى الثالث من عزل ثلاثة من البابوات المنتخبين والارثيين ، وتعيين خمسة آخرين على التوالي من توسم فيهم التمسك باصلاح احوال الكنيسة . وتقصص رسائل جريجورى عن القاعدة التى بنى عليها بصفة أساسية هجومه على الحقوق الوراثية للملك ، واعتبر أن الأمراء يشكلون جماعة أو هيكل واحد ، وهم لذلك يمشون المملكة . وقد تحمس جريجورى جدا لأرائه هذه ، وقد رأى فيها عاملا هاما لتحقيق فكرته عن « صلاحية » idoneitas الحاكم (٦٥) . وقد اعتمد

وأيضا Ullmann, The growth of papal government in the Middle Ages, pp. 262-309.

وكذلك Tout, The Empire and the Papacy, pp. 110-114, 124-136
وانظر بصفة خاصة Dictatus Papae (in, Henderson, H. D. pp. 366, 7.
Barry, The Papal Monarchy, pp. 190-227. راجع أيضا
(٦٤) لفرنسا للصراع بين البابوية والامبراطورية بحثا خاصا تحت
« السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .
Joachimssen, op. cit., pp. 127-129. (٦٥)

رجال القانون الكسبي بصفة دائمة على عبارة وردت في احدى رسائل القديس جيروم Jerome يصف فيها نظام البيعة السكندرية ، حيث يقوم الكيروسها باختيار واحد من بينهم ليكون اسقفا ، « كما يفعل الجيش بالنسبة للامبراطور » (٦٦) .

كان قرار الحرمان الذى اصدره البابا جريجورى السابع ضد الملك هنرى الرابع في الثلثي والعشرين من فبراير ١٠٧٦ ، اشارة البدء للامراء كى يطرحوا وراء ظهورهم تماها ، هذا التقليد الذى جرى على امتداد قرابة قرن ونصف من الزمان (٩٣٦ — ١٠٧٦) ، اعنى احترام مبدأ الوراثة في الملكية الالمانية ، وان يبعثوا من جديد ذلك التقليد الجرماني القديم باختيار الملك ، والذى مارسوه في بولكير القرن العاشر الميلادى . ولم يكن هذا سلوكا غويا . . لكن التراكمات الطويلة الناتجة عن سياسة الاسرة السكسونية ثم الفونكونية من بعد ، والتي ابتغت تدعيم ساطان التاج وتأكيد الحق الورائى في العرش ، ثم ما لجأ اليه كونراد الثاني وهنرى الرابع بصفة خاصة من الاعتماد على طبقات اخرى ذوى اصول غير معروفة ، لخلق منافس قوى تجاه النبالة الارستقراطية ، ومحاوله اقامة عاصمة دائمة للملكة في سكسونيا ، وتجريد الامراء ثانية من الامتيازات التى اغتصبوها ابان فترة قصور هنرى الرابع . كل هذا جعلهم يستشعرون خطورة الامر اذا ما قدر للملك أن يحقق انتصاره على البابوية في صراعها حول مشيكة التقليد العلماني .

دفع قرار الحرمان ضد هنرى ، بالمانيا الى حالة من الفوضى العارمة ، تمثلت في تحطيم وحدة الكنيسة الالمانية ، ودفعت بالاساقفة المرتعشين أن يهرولوا الى البابا طالبين المصح والشفرة . وكان اضفاء صف القداسة على الثورة في المانيا ، عاملا هاما في تشجيع مختلف العناصر ، افرادا وجماعات على اظهار سطحتها (٦٧) ، وامتدت الثورة في مختلف انحاء المانيا

Mundy, Europe in the high Middle Ages, p. 330.

(٦٦)

Thompson & Johnson, op. cit., p. 382.

(٦٧)

بصورة واسعة ، عجز معها هنرى عن التصدى لها . وعقد الأمراء الألمان مؤتمرا في مدينة تريبور Tribur حضره مندوبان عن البابا ، اضطر هنرى على إثره أن يلحق بكل ما قاله آنفا في حق البابا ، ووعد بأن يرمى في كل شيء الطاعة الواجبة للكرسى الرسولى والبابا جريجورى (١٨) . وكان عليه أن يرضى أيامه الآتية في الدير حتى يأتيه عفو البابا . وأعلن الأمراء أنه إذا لم يتمكن هنرى ، حتى الثلثي والعشرين من فبراير سنة ١٠٧٧ من أن يضع عن نفسه قرار الحرمان الكنسى ، فانهم سوف يعلنون أنه قد اعترفهم به كملك من بعد . ورتب الأمراء أمورهم على أن يعودوا للاجتماع ثانية في فبراير في مدينة أوجزبرج ، حيث وجهوا الدعوة الى البابا لرئاسة هذا المؤتمر المقترح ، بحيث إذا ما تقرر عدم صلاحية هنرى الرابع للبقاء على مرثته ، اختار المؤتمر ملكا بديلا .

لا شك أن اغتيال جريجورى بهذه الأنباء كان يفوق كل وصف ، وليس أحب الى قلبه من أن يصبح وسيطا وحكما في الشؤون الألمانية . فاختار سبيله على مهل الى ألمانيا في ديسمبر عام ١٠٧٦ . وإذا كان هنرى قد فوت عليه هذه الفرصة ، بسعيه هو اليه ، ولقائه المهيمن في كانتوسا Canossa في يناير ١٠٧٧ ، وحصوله على العفو والمغفرة قبل الموعد الذي ضربه الأمراء ، إلا أن ذلك كله لم يثن هؤلاء من عزمهم ، فاجتمعوا في مارس من العام نفسه وقرروا عزل هنرى ، بعد أن اتهموه بأنه خدمهم ولم يلتزم بالبقاء في الدير حسب ما قرره في تريبور من قبل ، واختاروا ملكا مضادا هو رودلف Rudolph دوق سوابيا .

هكذا عاد الأمراء من جديد الى ممارسة التقليد الجرماني الخلفى باختيار الملك . والتقت مطالبهم وأطماعهم بالمصالح البابوية ، حتى أن المؤرخ

(١٨) Henry IV, Promise of the King to offer obediencie to the Pope.

وايضا Henry IV, edict Cancelling the Sentence against Gregory VII, (in Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp. 384-385).

كريستوفر بروك Christopher Brooke يرى أنه كانت هناك خطة موضوعة بين جريجورى السابع والأمراء ، بعد أن أصبح واضحا في عام ١٠٧٦ أن البابا وعدد كبير من زعماء الكنيسة الألمانية ، أن هنرى الرابع لم يعد على وفاق مع الأمراء ، ولإضفاء صفة العدالة على خطتهم انقاضية بعزل هنرى ، عادوا الى ما جاء في الكتاب المقدس ، من أن صموئيل عين داود ملكا بينما شاول كان ما يزال على قيد الحياة . ويذكر أن هذه الرؤية كانت مرضية جدا بالنسبة لجريجورى ، وهى التى ألهمته من بعد نبوعته الشهيرة عام ١٠٨٠ ، بأن هنرى لن يلبث أن يموت ، أبان صراعه مع رودلف السوابى . أما بالنسبة للأمراء فقد كان من الصعب عليهم الاعتماد فقط على ما جاء في العهد القديم ، والا وضعوا أنفسهم تحت رحمة اكليروس عنيف لا يرحم ، هو البابوية . ومن ثم تقدموا منفردين على اختيار رودلف دون مشورة البابا (٦٩) . ويدعم Ullmann هذا الرأى أيضا حين يقول أن الأمراء فوجئوا بما تقدم عليه البابا في كانوسا ، من العفو عن هنرى دون أن يستشيرهم في هذا الأمر ، ولما كانوا قد ووجهوا بالأمر الواقع . fait accompli فقد تصرفوا هم الآخرون بنفس الصورة عند اختيارهم لرودلف السوابى (٧٠) . ولعل هذا هو الذى يفسر مغزى الرسالة التى بعث بها جريجورى السلبى الى الأمراء الألمان عقب اذلال كانوسا (٧١) .

كان طبيعيا أن ينصح الأمراء من نياتهم الحقيقية بلختيار رودلف السوابى للعرش الألمانى ، فهم من ناحية أكدوا من جديد حقهم في « اختيار » الملك ، ومن الأخرى ضمنوا أن يحققوا من خلال الملك الجديد ، الذى صنعه

Ch. Brooke, *Europe in the central Middle Ages*, pp.154, (٦٩)
283.

Ullmann, *A short history of the Papacy in the Middle Ages*, (٧٠)
... Ages, p. 119.

Gregory VII, *Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa* (in Brian Tierney, *The Crisis of Church and State*, pp. 62-63). (٧١)

أيديهم ، كل ما كانوا يشكون من ضياعه على جهود هنري الرابع واسلافه ، الفرنكونيين بخاصة . ولذا كان رودلف ملكا مفضلا لدى الأبراء ، فقد كان عليه قبل أن يتم اختياره أن يتعهد بإعادة حقوق هؤلاء الأبراء ، ويظهر هذا واضحا خلال مرحلة المفاوضات التي سبقت اختياره . وكانت الوعود التي قطعها على نفسه تكشف بوضوح — على حد قول المؤرخ الألماني *Mittels* — الاتجاه الى منح رودلف مركز السيد الإقطاعي وليس مركز الملك (٧٢) . ومن ثم كان لهم ما تمخضت عنه عملية اختيار رودلف السوابي ، أن الملكية الألمانية — كما يراها الأبراء ، يجب أن تبقى انتخابية ، وأن يتولى الى الظل مبدأ وراثته العرش . ولذا فقد كان حرص الأبراء باديا على أن يتعهد لهم رودلف بعدم الإقدام على إحياء مبدأ وراثته العرش من جديد .

ونتيجة لحرب التقليد العلماني ، تحطمت محاولة الأسرة الفرنكونية لإقامة ملكية قوية ، فقد لقت البابوية بثقلها في الميدان ، واستغلت الأرستقراطية هذا النزاع لتدعيم مصلحتها ونفوذها ، ولعبت الحروب الأهلية (١٠٧٧ — ١٠٨١) دورا كبيرا في تمزيق وحدة ألمانيا ، واستغلت فترة الثلاثين عاما ، الواقعة بين ١٠٧٦ — ١١٠٦ ، وهي التي لم يكن فيها هنالك من الناحية القانونية ، ملك معترف به من الألمان جميعا ، في ممارسة سلطات متزايدة للأرستقراطية ، وبدلا من النظام الفرنكوني للحكومة ، أقامت الأرستقراطية نظاما ينفق ومصلحها هي ، وأهملت تماما حقوق الملكية . وهكذا شهد المجتمع الألماني تحولا خطيرا في تركيبه الاجتماعي خاصة في الفترة ما بين اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ واعتلاء هنريك الأول برباروسا العرش عام ١١٥٢ ، بحيث يمكن القول أن ألمانيا تحولت بالفعل الى مجتمع إقطاعي ، بعد أن انتشرت القلاع في كل مكان ، واختفى الفلاحون الأحرار ، وتحول النبلاء الصغار الى فرسان وارتبطوا بالسلادة بروابط الفدالية (٧٣) . وساعدت الحرب الأهلية في ألمانيا على التمكن لهذه القوى الجديدة ، وكان كل كسب يحققه الأبراء ، يعد بالتالي خسارة للتاج ؛ ذلك أنه كان على الملوك أن يقدموا باستمرار تنازلات متزايدة لهؤلاء الأبراء المكسب تاييدهم ،

Heinrich Mitteis, *Feudalism and German Constitution*, p. 241.

Barracough, op. cit., p. 136.

(٧٣)

خاصة التأييد العسكري . وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم ، بما فيها سلطانهم على النبالة الدنيا ، وحقم فى الوراثة . وهكذا أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب الى ابنه وكذا الأرضى . واهنت فكرة اقامة دولة لها كيانتها السياسى ، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك ، امرا عبثا (٧٤) . كما ان الادعاءات الخاصة بالامبراطورية اثرت الى حد كبير فى كفاءة ومقدرة الملكية الألمانية ، بعد أن أفرق الملوك الألمان أنفسهم فى مشكلات إيطاليا ، وتعددت سنوات غيبتهم هناك بعيدا عن ألمانيا ، مما أعطى الفرصة للأمراء الألمان كي يمارسوا سلطانهم وسيادتهم بعيدا عن أمين الملوك (٧٥) .

كان اختيار رولف السوابى اذن ، نقطة البدء فى طريق اللا عودة الى مبدأ وراثة العرش ثانية ، وإذا حدث من بعد فلن يمثل الا الاستثناء ، كما سنرى زمن أسرة الهوهنشتاوفن . بل لقد استمر الهجوم على الملكية الوريثية عقب موت رولف السوابى عام ١٠٨٠ ، اذ لقي اقتراحا بتعيين كونراد ابن هنرى الرابع بدلا من أبيه ، رفضا جامحا من أوتو كونت نوردهيم Otto of Nordheim الذى قال : « لا أرى الا عجلا شاردا يولد من ثور هائج ، لذا ، فأتأ لا أريد الابن ولا الأب !! » (٧٦) . وكان تهرد هنرى [الخامس] ضد أبيه ، وقبوله التاج وإعلان نفسه ملكا بيد الأمراء عام ١١٠٥ ، يعنى اعترافا منه بالمسبات الأرستقراطية للمجتمع الألماني ، وبما وصل اليه سلطان الأمراء ، وباختصار ، فان حقوق الارث الملكى والامتيازات التى لا تقبل المناقشة بالنسبة للملكية ، قد انهارت تماما من جراء الصراع حول التقليد العلماني ، والحرب الأهلية بين عامى ١٠٧٦ - ١١٠٦ وظهر ذلك واضحا فيما قاله أسقف ميتر ، الذى طالما أدمى ومارس حق تصيب الملك ، وراح يناضل الآن من أجل أن يجعل من نفسه « صانع الملوك » ، كى يتحكم فى مصائر المملكة وأقدارها . قال فى عام ١١٠٦ وهو يسلم الأشعرة الملكية الى هنرى الخامس : « اذا لم تغد حاكما عادلا ، وحميا لكنيسة الله ، فانه مصيبك حتما ما أصلب من قبل أباك ! » (٧٧) .

Z.N. Brooke, op. cit., p. 506.

(٧٤)

(٧٥) افردنا بحثا خاصا عن هذه الناحية تحت عنوان : « المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية » ، منشور بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٣٠ .

Barraclough, op. cit., p. 15, n. 1

(٧٦)

Ibid. pp. 153 — 154

(٧٧)

ولقد كان على هنرى الخامس أن يقدم بدوره للتعهدات على نفسه والتي لا تخرج عن تلك التى أعطها صافرا من قبل ، رولف . فقد وعد هنرى السكسون حتى يحصل على ولائهم عام ١١٠٦ ، وعدا بأن كل فرد سوف يحظى بالعدالة *at omnibus iustum indicium faciat* . وفى عام ١١١٩ أحنى رأسه للعاصفة ، وجدد وعوده فى عبارات محددة واضحة تجاه الملكة جييما . لقد كانت النتيجة الطبيعية للانتخاب ، باختصار ، الاعتراف بالحقوق المقررة لأمرء الاقطاع » (٧٨) .

ولو أن الأمور جرت على نحو طبيعى كما كانت تسير قبل عام ١٠٧٦ ، لوجدنا أن السابقتين اللتين جريتا فى عام ١٠٠٢ باختيار هنرى الثانى باعتباره وريثا لأوتو الثالث ، وعام ١٠٢٤ باختيار كونراد الثانى ، لتكونه مرشحا من قبل زوجة الملك للولحل هذا ، ليمكن أن تشيوا إلى أن الأمر سوف يقدمون الآن فى سنة ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس ، على اختيار فردريك السوابى الهوهنشتاوفنى الوريث الشرعى لهنرى ، والمرشح من قبله قبل وفاته . غير أن هذا أصبح الآن شيئا مستحيلا ، إذ لو حدث لراى فيه الأمر عودة إلى مبدأ الوراثة ، ولذا فقد عبدوا إلى اختيار لوثر *Lothar* دوق سكسونيا . وكان أدالبرت رئيس أساقفة ميتر ، والعدو اللدود لهنرى الخامس ، هو المحرك الأساسى وراء هذا الاختيار ، فقد أغرى الناخبين بعدم احترام وصية هنرى الأخيرة ، بالإضافة إلى أن لوثر كان معروفا بعدائه الشديد لسلفه أبان حياته ، ولم تكن لديه أية ادعاءات وراثية فى العرش (٧٩) ولذا كان يضع نصب عينيه أن امتلاكه للناج راجع فقط إلى الانتخاب وحده . وشجع الأمر على ذلك ، أنه كان قد بلغ الخمسين من عمره ، ولم يكن له وريث ذكر ، ولم يبد عليه أى علامة من علامات الطموح فى تكوين أسرة ملكية أو التدخل فى حقوق الأمر وامتيازاتهم . لقد كان لوثر باختصار أحد أفراد تلك الطبقة الجديدة التى ظهرت نتيجة لحرب التقليد العلمانى (٨٠) .

وطيلة عهد لوثر (١١٢٥ — ١١٣٧) كان يتصرف بها لا يزيد عن كونه

Ibid. p. 155

(٧٨)

Adalbert, letter to the bishop of Bamberg, (in S.B.M.H., pp. 167). راجع

أما لوثر فكان أبنا لأحد صغار الكونتات فى سكسونيا ، وإن كان قد حصل على حكمها سنة ١١٠٦ ، عن طريق إصهاره إلى أسرة بيللونج *Billung* راجع

Scott. op. cit., p. 116.

Davis, op. cit., p. 317.

(٨٠)

زعيمًا لجماعة النبلاء أكثر منه ملكًا ألمانيا . ولما ووجه بعداء أصحاب الحق الشرعيين في العرش ، الهوهنشتاوفن ، ركن إلى تدعيم نفسه بأقامة حزب توى إلى جواره ، دون أن يدخل في اعتباره أنه حاكم لملكة . فوزعت الأراضي الملكية لجذب الأنصار ، وأرتمى في أحضان الكنيسة ، وأبناغ رضاها بما قدمه من تنازلات باهظة ، وخسرت الملكية الألمانية كل ما كانت قد حققتة زمن هنرى الخامس بمقتضى اتفاقية وورمز عام ١١٢٢ . لكن الخسارة الكبرى تمثلت في تنازله للكنيسة عن أملاك الكونتيسة ماتيلدا ، وقبوله بادعاءات البابوية عليها ، وتلقيها من اثوبست الثانى Innocent II اعطاما بابويا ، في مقابل حصوله على التاج الإمبراطورى سنة ١١٣٣ ! (٨١) .

وكان هنرى المنكبر Henry the Proud الولفى دوق بافاريا ، من اكبر مؤيدى لوثر عند تتويجه ملكا ، وتدعم التحالف بينهما عام ١١٢٧ بزواج هنرى من ابنة لوثر الوحيدة ووريثته ، وجاء هذا الزواج في نفس العام الذى حل فيه الهوهنشتاوفن ، الأعداء التقليديون للولفين والملك ، السلاح ، وأقاموا ملكا منفلسا ، وظلت لهم اليد العليا حتى عام ١١٣٠ ، وإن كان التحالف بين لوثر وهنرى قد أدى إلى تحسن موقف الملك وانتصاره على خصومه عام ١١٣٥ . وكان لابد أن يكفى صهره على حسن صنيعه ، فجعله باركيزا لتوسكانيا ومهد إليه ادارة أملاك الكونتيسة ماتيلدا ، مما جر على الملك غضب الكنيسة في أخريات سنن حياته . وزاد المسألة تعقيدا في ألمانيا ، أن لوثر ضم إلى هنرى أيضا دوقية تسكانيا ، فغدا بذلك عند وفاة صهره اتوى المرشحين للعرش ، بسيطرته على بافاريا وسكسونيا في ألمانيا ، وتوسكانيا في إيطاليا ، وبتلقية للأشعة الملكية من لوثر الذى بعث بها إليه عندما حضرته الوفاة . كما أنه عن طريق زوجه جرترود Gertrude ورت ضياع لوثر الخاصة ، التى تشمل أملاك اكبر عائلتين في سكسونيا قديما ، بينما توجد الأملاك الوسيعة لأسرته في بافاريا تحت ادارة أخيه ولف Welf (٨٢) .

(٨١) راجع Lothar, Coronation Oath, 1133. وأيضا الوثيقة

الخاصة بمنح أراضى الكونتيسة ماتيلدا كقطاع بابوى إلى لوثر

Innocent II grants the land of Countess

Matilda to Lothar II, 1133, (in Thatcher & McNeal, A

Source book for Mediaeval history, pp. 169-171).

(٨٢) للمزيد من التفاصيل عن المركز المتميز للولفين ، راجع Z. N. Brooke, op. cit., p. 278.

أضحى من الممكن في ظل هذه الظروف ، قيام حكومة ألمانية مستقرة ،
 وأن تغدو الدولة الألمانية قوية . لكن شيئا من هذا لم يحدث ، لأن قيام
 ملكية ألمانية قوية لم يكن في مصلحة أى من النبلاء أو الكنيسة . وكانت
 شخصية هنرى المنكبر ، بلقبه الذى اقترن باسمه ، تنفz الأبراء والإكليروس
 من الإقدام على اختيار ملك لابد أن يصبح « متعجرا » مزهوا بقوته .
 وهكذا تكرر من جديد ما حدث عام ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس ، إذ
 ضرب بعرض الحائط آراء التنفر، التليل الذى كان ينادى بإعادة مبادئ
 الشرعية والوراثة ، رغبة فى تقوية الملكية (٨٢) ، ولعبت الدوافع الشخصية
 دورها حاسما ، متمثلة فى المندوب البابوى الذى بحث به البابا على عجل ،
 ليعمل قدر طاقته فى ألمانيا لصرف العاج عن هنرى ، ووقع اختيار الأبراء
 والمندوب البابوى على كونراد الهوهنشتاوفنى دوق سوابيا ، ليكون
 ملكا . ولما كان منصب رئيس أساقفة ميتر شاغرا ، بينها تم اختيار رئيس
 أساقفة كولون لقوه ، فقد تزم أسقف تريير *Trier* أدالبرو *Adalbro* .
 الدعوة لمنع وجود ملك قوى ، يمكن أن ينقض كل التنازلات التى حصلت
 عليها الكنيسة من قبل على عهد لوثر (٨٤) .

هكذا أكد الأبراء خلال أقل من خمسة عشر عاما ، وعلى مرتين
 متتاليتين ، حقهم فى انتخاب الملك ، وتأكيد كون الملكية الألمانية انتخابية .
 ولكنهم فى الوقت ذاته حكموا عليها بأن تظل ضعيفة ، ودفعوا بألمانيا إلى
 عداة اقطاعى محمر بين الولفيين والهوهنشتاوفن (٨٥) زاده ضراما ضعف
 شخصية كونراد ، ولجؤته إلى نفس الأسلوب الخاطيء ، قصر النظر الذى
 سار عليه سلفه لوثر ، فأتاهم إلى جانبه حزبا مناوئا للولفيين ، نعين

Barracough, op. cit., p. 158.

(٨٣)

Z. N. Brooke, op. cit., pp. 278 — 79.

(٨٤)

Thompson & Johnson, op. cit., p. 393. وايضا

Scott, op. cit., p. 119.

(٨٥)

ألبرت الدب Albert the Bear على سكسونيا ، وليوبولد Leopold الأخ غير الشقيق للملك ، دوقا على بافاريا ، بعد أن انتزعهما من هنرى الكبير . غير أن ذلك لم يؤد إلا الى اشغال نيران الحرب الأهلية ، فلما فشلت محاولاته ، وانتصر الحزب المؤيد لهنرى الأسد ، ابن هنرى الكبير ووريثه ، لجأ الى عملية تغذية هذه النيران ، فحرض برانديبرج ضد سكسونيا ، وأوستريا (النمسا) ضد بافاريا . غير أن هذه السياسة كشفت الى أى مدى أهدمت الملكية الألمانية الى ضياع .

ولم يكن أمام الملك من طريق سوى استرضاء الأمراء ، حتى أنه عند اعتلاء كونراد الثالث العرش ، كانت كل الضياع قد أصبحت وراثية ، بينما تحولت أراضي التاج الى رقع مبعثرة ، خاصة فى شمالى ألمانيا ، سواء من حيث المساحة أو الامتداد (٨٦) . وفى عام ١١٢٥ حبل التغيير فى الأسرة الحاكمة الى مزيد من التدمير لأراضي التاج ، فقد ذهب جزء كبير منها الى أسرة الهوهنشتاوفن ، بمقتضى الظن عند هنرى الخامس بانتقال العرش اليها من طريق فريديك السوابى الذى بعث اليه هنرى بالأشعرة الملكية . ثم ازدادت المشكلة تعقيدا عام ١١٣٨ بذهاب أراضي التاج الى هنرى الكبير ، بحكم الظن أيضا بانتقال العرش اليه بعد وفاة ثوثر . حتى أن هنرى — كما أسلفنا — فدا بالأراضي الواقعة تحت سلطانه ، أقوى من كونراد الثالث نفسه عند اعتلاء العرش . ولا ريب أن ضعف الدعائم المادية للملكية ، مع ازدياد وتقوية الحقوق الخاصة بالأمراء ، يعد السمة الرئيسية للفترة الواقعة ما بين عامى ١١٠٦ و ١١٥٢ ، حيث أصبح الملك يعد عند الأمراء الأول بين أقرانه Primus inter pares (٨٧) . ولقد أصاب أوتو الفريزي Otto of Freising كاتب سيرة فريديك الأول Gesta Frederici عندما ذكر أن الملكية التى كانت زمن الفرنكونيين وراثية عملا ، أمست فى

Bryce, op. cit., p. 162.

(٨٦)

Barracclough, op. cit., pp. 159-162.

(٨٧)

الأمراء وتهنئة للأمر في ألمانيا بعد فترة عصيبة ، لعبت بها النزعات والأهواء الشخصية كثيرا منذ حرمان هنرى الرابع حتى وفاة كونراد الثالث (١٠٧٦ - ١١٥٢) . لقد كان فردريك يدرك تماما حقوقه الملكية ومدى سلطانه ، شأن أى سيد إقطاعى ، ولم يكن يذخر وسعها فى سبيل تثبيت هذه الحقوق ، ولذا فقد أضحى البلاط الملكى على عهد بتوالى السنين ، شيئا يشترى الرهبة فى النفوس ويبعث على الاحترام . وكان زواجه من بياتريس *Biaatrice* وريثة كونتية برجنديا ، قد حمل اليه أرضا جديدة وافصلا تابعين (٩١) أما فيما يخص بالكنيسة ، فإن فردريك ، بعد التبعة والخضوع الذى كان قد أظهره كل من لوثر وكونراد تجاهها ، عاد بصورة متطرفة الى تلك السياسة التى انتهجها الأوتوويون من قبل . فأعلن عزله على التمسك بكل الحقوق التى أعطيت للتاج بمقتضى اتفاقية وورمز ١١٢٢ ، وكان المسبيل الذى انتهجه فى ذلك يدور حول استبدال الأساقفة المصلحين الذين يرغبون فى تركيز السلطة الكنسية فى يد روما ، بغيرهم من الأساقفة السياسيين ، من المدرسة الألمانية القديمة ، ولذين لم يهجروا جانبهم مطلقا ، بما يتميزون به من العناد . وكان من أبرز هذه الشخصيات رينالد *Rainald* رئيس أساقفة كولون ، وقد ظل حتى اليوم الأخير من حياته يعمل فى خدمة الدولة ، ويستحث فردريك على الدفاع عن حقوقه الى درجة ربما أبعد مما كان يسعى اليها فردريك نفسه . كما أنه وجد فى كريستيان رئيس أساقفة مينز ، عقلا متقدما ونصيرا غيور (٩٢) .

وكان من بين الدعامات التى لجأ اليها فردريك لتدعيم نفوذه وأسرته ، حرسه على أن يوجد الى جواره إدارة تنفيذية تعمل بأمره ، وأراضى واسعة للتاج وخاضعة له مباشرة ، ورغبته فى تطبيق مبادئ القانون الإقطاعى ،

Ibid. p. 395.

(٩١)

C.M.H. Vol. V, pp. 392-397. وأيضا *Ibid.* pp. 395-6. (٩٢)

بجعل الهرارية العسكرية **Heerschild** ونظام القيادة العسكرية مرتبطا أيضا بالتاج . وكان هذا يعنى مخلا طبيعيا لمفهوم وحدة **monistic** الدولة فى ألمانيا (٩٢) . وهذا يستتبع بالتالى العودة الى اقرار مبدأ الوراثة فى العرش ، والذى كان قائما أيام الأستين السكسونية والفرنكونية . وهذا بدوره سوف يقود حتما مقضيا الى الصراع مع الأمراء والكنيسة جميعا . وقد تهيأت الفرصة لفرديك برباروسا فى عام ١١٨٠ عند تحطيمه لقوة خصمه هنرى الأسد ، وكان الأخير قد استغل التفوق الضخم الذى حازه ، بما أغدقه عليه فرديك فى البداية ، فراح يطبق نظاما عسكريا صارما فى سكسونيا ، واهتم بتأسيس المسن فى مناطق نفوذه مثل برونزويك **Brunswick** وميونخ **Munich** ويمارس سياسة خارجية مستقلة ، فاصهر الى هنرى الثانى ملك انجلترا وتزوج ابنته ، وقام برحلة الى الأراضى المقدسة ، واستقبل رسل الإمبراطور البيزنطى ، الذى كان على عداوة مع الملك الألمانى . فلما استشعر فى نفسه القوة ، رفض الاشتراك فى الحملة الخامسة التى قام بها الإمبراطور الى ايطاليا عام ١١٧٦ ، وكان لغيا به إشره الكبير فى هزيمة فرديك فى موقعة لينانو **Legnano** ، وما ترتب عليها من إعادة تكرار مشهد كانتوسا ثانية فى البندقية ، على يد البابا اسكندر الثالث . فلما عاد الملك الى ألمانيا ، راح يستجمع قواه وقوى الأمراء الحاقدين على هنرى الأسد ، وتمكن من تحطيمه سنة ١١٨٠ (٩٤) .

غير أن فرديك فوت على نفسه وأسرته فرصة إقالة ملكية ألمانية وراثية قوية ؛ وذلك بالأسلوب الذى اتبعه بعد تدمير قوة خصمه ؛ ذلك أن عقابه جرى فى اطار النظام الاقطاعى ، فباعبار هنرى فصلا اقطاعيا

Mayer, op. cit., pp. 28-29.

(٩٣)

(٩٤) عن تفاصيل هذه الأحداث ، راجع

Z.N. Brooke, op. cit., pp. 51, 501-503.

بمتردا ، أدين بمقتضى القانون أو النظم الانتطاعية ، مجرد من ممتلكاته كمقوبة .
 انتطاعية أيضا . وبدلا من ضم هذه الأراضى والممتلكات الى التاج لنقويته ،
 وزعت على صغار النبلاء الذين ساعدوه فى محاربة هنرى والقضاء عليه .
 وكانت هذه سابقة خطيرة ، بحيث لم يستطع أى ملك ألمانى فيما بعد أن
 يضم أراضى مضادة لفصل مترد الى ملكية التاج ، هذا على عكس ما حدث
 بعد ذلك بعشرين عاما فى فرنسا ، عندما أقدم فيليب أوغسطس بعد هزيمة
 جون ملك إنجلترا ، على ضم نورماندى الى أراضى أسرة كابيه (٩٥) . لكن
 الشيء الجدير بالذكر أن سياسة فردريك هذه بتوزيع ممتلكات هنرى الأسد ،
 غيرت الخريطة السياسية والاجتماعية لألمانيا ، وإذا كانت قد ضمنت
 له السيادة على ألمانيا طيلة عهده ، بعدم وجود قوة كبيرة تماثل قوة هنرى .
 الأسد ، إلا أنها عملت على تفنيت وحدة ألمانيا تماما ؛ فقد اختلفت أو كادت
 الدوقيات الكبيرة القوية ، وحلت محلها دوقيات صغيرة هزيلة ، وأصبح
 لقب الدوق ومنصبه وليس له نفس البريق الذى كان من قبل ، وظهرت .
 نبالة جديدة لم تكن ضمن طبقة الأرستقراطية النبيلة من العائلات العريقة .
 وترك ذلك آثاره السيئة على مستقبل ألمانيا فيما بعد ٥٠٠ . وثبت فردريك
 بذلك أنه لم يكن رجل سياسة من الطراز الأول (٩٦) .

ومع أن الحملات العسكرية المتتالية التى قادها فردريك الى إيطاليا ،
 قد أرغمت ألمانيا من أمورها عسيرا ، إلا أن ما حصل عليه فردريك فى
 النهاية بمقتضى نجاحه فى زواج ابنه هنرى السادس من الأميرة كونستانس
 وريثة عرش النورمان فى صقلية ، عوضه كثيرا عن جرح كبريائه أمام مدن
 العصبة اللومباردية فى شمالى إيطاليا ، والبابوية . وضمأن فردريك العرش
 الألمانى من بعده لابنه هنرى السادس ، يعد هو الآخر نجاحا وإن كان
 مؤقتا لمبدأ الوراثة ؛ ذلك أن العمر القصير الذى أمضاه الملك الجديد على
 العرش (١١٩٠ - ١١٩٧) ، وانشغاله المستمر بتثبيت دعائم ملكه فى

Barraclough, op. cit., pp. 189, 193-4.

(٩٥)

Slesser, The Middle Ages in the West, p 113. وراجع أيضا

Z. N. Brooke, op. cit., pp. 503-506.

(٩٦)

Freiherr V. Dungen, op. cit., p. 221.

وأيضا

Ganshof, Feudalism, pp. 160-161.

وراجع كذلك

صقلية ، وحروب في إيطاليا ، وطفولة ابنه ووريثه ، وضعت خلفه فيليب السوابي ، والحرب الأهلية الضروس التي استمرت ستة عشر عاما ، كل هذا أطاح لقرون طويلة آتية بابهكتية قيام ملكية وراثية قوية في ألمانيا .

لقد شهدت نهاية القرن الثاني عشر ، وبواكير القرن الثالث عشر ، قمة المأساة في الصراع الطويل بين مبادئ الوراثة والانتخاب للعرش الملكي في ألمانيا . وحسبت لصالح الانتخاب . ولعبت فيها البابوية دورا رئيسيا الى جانب الأمراء الألمان ، ان لم يكن الدور كله . فقد كان يعينها في المقام الأول فرض سلطانها وسيادتها على ألمانيا في إطار نضالها من أجل السيادة العالمية . ولقد كان اثوستن الثالث — على حد تعبير باراكلاف (٩٧) — على استعداد ليس فقط لتجبر السلام في ألمانيا ، بل لجعل دول أوروبا جميعها تعلن الحرب ضد بعضها بعضا . هذا على الرغم مما كان يعلنه من أنه لا يريد بالامبراطورية شرا . لكن الامبراطورية التي كان يعينها ، كانت شيئا غير ذلك تماما . لقد كان يعنى امبراطورية بمفهومه الخاص ، وليست تلك الامبراطورية التاريخية التي نهضت من أجل مشكلة التقليد العلماني بفضل عبقرية الهوهنشتاوفن . كما أن امتداحه للورث الثاني ، يكشف عن أفكاره التي تعود بنا الى جريجوري السابع ، وهي تقوم على أساس أن يختار الملك بواسطة الأمراء ، ولا يصبح له ممارسة سلطانه الا بعد أن يتم التمهيد الواجب من جانب الكرسي الرسولي ، كي يحصل على الموافقة والتثبيت والرضى من قبل البابا .

وهذا هو ما حدث تماما إبان الأزمة التي تجرت بالموت المبكر لهنري السادس ، بينها ابنه ووريثه فردريك (الثاني) يجبو في عمر الطفولة . لقد بذل هنري قصارى جهده لأغراء الأمراء الألمان لجعل العرش وراثيا ، بحيث يخلفه ابنه بصورة تلقائية امبراطورا وملكاً على صقلية . ونجح في مارس ١١٩٦ من الحصول على تأكيد من جانب اثنين وخمسين اميرا ، اجتمعوا في ميرزبرج Wursburg بقبول مبدأ الوراثة على العرش . ولكن لم يكن

هناك تجربة سابقة يمكن أن تكون ضامنا مؤكدا على أن الأمراء سوف يلتزمون بما عاهدوا عليه هنرى ، اذا ما بات قبل أن يصل ابنته الى سن الرشيد (٩٨) . وهنا يبدو الخلاف كبيرا بين ما آلت اليه الملكية فى ألمانيا ، وما كانت قد بلغت فى إنجلترا وفرنسا . هنا كان الملوك قادرين على فرض هذا المبدأ بمقتضى التقليد الذى أصبح متوارثا جيلا بعد جيل . أما هنرى فقد اضطر الى أن يشترى موافقتهم بمزيد من التنازلات ، فاعترف لهم بحق الوراثة كاملة فى اقطاعاتهم ، وامتد ذلك ليشمل أيضا الأناث والأصهار . أما بالنسبة لرجال الكنيسة ، فقد منحهم حقوقا مساوية لهذه فيما يتعلق بالتصرف فى الوصية . لقد كانت أسرة الهوهنشتاوفن بدءا بكونراد الثالث ثم فردريك الأول ، فابنه هنرى السادس ، فابنه فردريك الثانى ، تسمى حقيقة الى تدمير نفوذها كآلة قوية ، لكن الوسائل التى استخدمها النجاح فى سبيل ذلك ، استخدمها الأمراء أيضا فى أراضيهم ، وهى القواعد الأساسية فى سيادة الأمراء وازدياد نفوذهم (٩٩) . وحتى هذه التنازلات التى قدمها هنرى ، لم ترض جميع الأحزاب ، فعدد من الأمراء ، ومن بينهم دوق النمسا ، كانوا قد حققوا بالفعل هذه الحقوق الوراثية بامتيازات خاصة .

وتملت المصالح والدوافع الشخصية كثير تهييل فى موقف كل من البابا كلستين الثالث Celestine ورئيس اساقفة كولون . فهذا الأخير ، شأن تربيته اسقف مينز (١٠٠) ، كان يدمى حقا قديما فى تتويج الملك المختار لألمانيا بيد الأمراء ، رأى أن نجاح هنرى فى ضمان العرش من بعده لابنه ، يعنى تهديدا لسلطانه . أما البابا الذى كان متقفا مع اسقفه أول الأمر ، فقد أقدم على تتويج فردريك الثانى ملكا ، متخطيا حق اسقف كولونى فى هذا

Scott, op. cit., pp. 256-257. وأيضا Waly, op. cit., p. 74 (٩٨)

Freiherr V. Dungen, op. cit., p. 221. (٩٩)

(١٠٠) هناك وثيقة خاصة بأسقف مينز فى هذا الشأن تعود الى سنة راجع ذلك فى Albert ١٢٩٨ ، وصادر عن الملك ألبرت

Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 276-277.

السبيل ، غازيا مرض الحائط بغضبه ، وذلك عندما لوح له هنرى باستعداده للخروج فى حملة صليبية ، وبالنظر الذى كان يحصل عليه البابا بمقتضى الاتفاق بين أبيه فردريك الأول والبابا لوقا الثالث ، من جميع كنائس الإمبراطورية بدلا من المناطق المتنازع عليها فى وسط إيطاليا (١.١) ، وهو الذى لابد أن يسيل له لعباب البابوية . ومع أن البابا قد رفض مقترحات هنرى بإقامة ملكية وراثية ، بعد أن رأى اشتداد المعارضة من جانب الأمراء خاصة دوق اللورين ، إلا أن هنرى سرعان ما اكتسب ثقة الأمراء ، وزعامة ألمانيا عندما أعلن اعتزاه الخروج بالحملة الصليبية التى كان قد وعد بها ، وببزياد من التنازلات ، وافق الأمراء فى ٢٥ ديسمبر ١١٩٦ على تعيين فردريك ابنه ملكا (١.٢) . ومع أن هذا الذى تحقق لم يكن يمثل نجاحا لكل مشروعات هنرى السادس ، إلا أنه ضمن على الأقل استمرارية الأسرة على العرش . وإن كانت هذه الأحداث كشفت بجلالة عن حقيقتين هامتين : قوة الأمراء وازدياد نفوذهم ، وارتباط مصالحهم بالمصالح البابوية .

على أن الشيء الذى يستلفت الانتباه هنا ، هو أن الأمراء الألمان كانوا فى حالة تعرض ألمانيا لخطر خارجى يهددها ، يتناسون — الى حين — خلافاتهم ونزعاتهم الشخصية ، حتى وإن كانت مسألة ظاهرية . وقد تمثل ذلك عند الموافقة على اختيار هنرى الأول الصياد ، ثم الموافقة الإجماعية عند تعيين أوتو الأول ملكا ، وكذلك الرضى العام الذى صحب اختيار فردريك الأول برباروسا . وقد تكرر نفس الشيء الآن بعد وفاة هنرى السادس المفاجيء والمبكر عام ١١٩٧ ؛ فالأمراء الذين يحملون راية الصليب فى الشرق ، أعلنوا ولاءهم لفردريك الثانى . وفى صقلية أظهر ماركوارد Markward أمير انويلر Anweiler الحليف القوي والوالى لهنرى السادس ، قوة كبيرة فى الدفاع عن الحقوق الألمانية فى صقلية (١.٣) . أما

(١.١) للمزيد من التفصيل ، راجع Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 204-206.

Barracough, op. cit., p. 203.

(١.٢)

C.M.H. Vol. V, p. 479, VI, 12.

(١.٣)

غليب السوابي ، أخو هنري السادس ، تقدم لتوه من توسكانيا وأعلن وقوفه الى جانب فردريك ، وأغرى زعماء سكسونيا وبافاريا باختياره وصيا على العرش ، حتى يبلغ فردريك سن الرشد (١٠٤) . وهكذا فإن حقوق الورثة في أسرة الهونشتاوفن ، والتي تحددها الأراء عام ١١٩٦ ، وهنري السادس بعد حى ، قد ارتضوها الآن سنة ١١٩٨ عندما اختاروا رودلف السوابي ملكا بعد أن أعطى الموائيق والضمانات بعدم المساس بحقوق فردريك الثاني ، ابن أخيه ..

كان من الممكن جدا أن تنفيق ألمانيا من صدمتها العنيفة بوفاة هنري السادس ، وأن تستجمع قواها من جديد في ظل ملكية موحدة كما أرادها الهونشتاوفن ، لكن عاملين هامين قلبا كل هذه الاحتمالات وبددوها ، أولهما تدخل البابوية بصورة سافرة متبذلة في شخصية انوسنت الثالث الذى يعيد الى الأذهان ذكرى سلفه جريجورى السابع ، والذى وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش تحطيم أسرة الهونشتاوفن ، وبالتالي تحطيم الإمبراطورية ، لتحقيق للبابوية السيادة العالمية الكاملة . وثانيهما التدخل الأجنبى في شئون ألمانيا من جانب فرنسا وإنجلترا ، ولم يكن ذلك راجعا لمصالحهما في ألمانيا ذاتها ، بقدر ما كان انعكاسا للصراع الطويل بينهما حول الوضع القانونى لمنطقة نورماندى ، بعد أن أصبحت مشكلة غاية في التعقيد في أعقاب فتح دوقها وليم لإنجلترا في عام ١٠٦٦ وإعلان نفسه ملكا عليها ودوقا لنورماندى . ولما كانت عائلة اللوفيين ترتبط برباط المصاهرة مع البيت الإنجليزى الحفكم ، منذ عصر هنري الأسد الى هنري الثاني ملك إنجلترا ، بالإضافة الى ما كان من أمر وقوع ريتشارد الأول ملك إنجلترا في أسر هنري السادس ، في طريق موته من الأراضي المقدسة ، واستمرار بقاءه أسيرا طيلة عامين . إزاء هذا كان طبيعيا أن تلقى فرنسا بثقلها الى جانب الهونشتاوفن حتى لا تدع لإنجلترا فرصة الافتراء باحراز نصر سياسى لها عن طريق انصارها في ألمانيا . إلا أن عاملا ثالثا كان له أكبر الأثر في نجاح مسعى هذين العاملين ، ألا وهو طفولة الوريث الشرعى فردريك الثاني ،

مما أعطى الفرصة السانحة للحرزين الكبيرين في المانيا ، الولفين والهوهنتاوفن ، ان يصطعرا حول العرش . وعلى البابوية ؟ ولا أخيرا تقع مسئولية هذه الفترة العصيبة من تاريخ المانيا ، والتي كانت نقطة فاصلة في تحويل مسارها التاريخي الى دولة ممزقة الأتلاء مهلهلة ، كما أرادتها البابوية ! .

ولقد ظهر ذلك واضحا من تلك اللهجة العذيفة والتوبيخ ، الذى وجهه انوسنت الثالث الى كونراد رئيس أساقفة ميونخ سنة ١٢٠٠ ، عندما حاول جاهدا ايقاف نزيف الدم المتدفق فى المانيا من جراء التطلعن بين الأحزاب المتصارعة ؛ لأن هذا يعنى — كما افصح البابا — ان تقف المانيا جبهة موحدة ، وهذا يجرى البابوية من حجية التدخل فى شئون الامبراطورية (١٠٥) . لما الأمر الثانى فيتدخل فى تلك الأوامر البابوية الصادرة الى المنسوب البابوى فى الغرب فى نفس العام ، ببذل كل جهد لعرقلة اتمام الصلح الذى كانت المفاوضات تدور بشأنه بين فرنسا وانجلترا ، لأن اتمامه سوف يوقف تسابقهما على التدخل فى الشؤون الألمانية ، ويوقف بالتالى الفوضى الحادثة فى المانيا ، ويجعلها تلتئم تحت سيادة الهوهنتاوفن ، اصحاب الحق الشرعى فى العرش ، وهذا لا شك يؤلم البابوية ! (١٠٦) .

وكان عدد كبير جدا من أمراء المانيا ، ممن يمثلون الأرستقراطية النبيلة ، قد اجتمعوا على اختيار فيليب السوابى ، أخى هنرى السادس ، منكا سلى المانيا عقب وفاة هنرى مباشرة ، وتم تقويجه فى مينز فى الثامن من سبتمبر ١١٩٨ . وفى مايو من العام التالى ، التقوا فى سباير Speyer وكتبوا الى البابا انوسنت الثالث ، يخبرونه ان اختيارهم للملك أمر لا رجعة فيه ، وحق لا يمكن نقضه ، ويوضحون له انهم سوف يظهرون فى روما قريبا لاتمام الاجراءات الرسمية لتقويجه امبراطورا . وارتج الأمز

Barracclough, op. cit., p. 207.

(١٠٥)

Id.

(١٠٦)

على انوسنت الذى كان يرى في هذا التصرف خروجاً على طاعته بمقتضى
السلطة البابوية التى يدعيها الجالسون على الكرسي الرسولى في روما ،
وحاول أن يوضح لهم اعترافه بحقهم في اختيار الملك ، لكنه ذكرهم أن التاج
الإمبراطورى يمنح من البابا وحده ، وأنه في حالة تنازع مرشحين على
العرش ، فإن المسألة تحتاج إلى تمحيص دقيق ، وهذا يستدعى بعض
الوقت . وكان هدف انوسنت من ذلك واضحاً ، كى يدفع كلا المرشحين
لطلب عونه ، وبالتالي تقديم تنازلات واسعة (١.٧) . لكن اجتماع سبائر في
جوهره أعاد إلى الأذهان من جديد ، تلك المفهوم antiquum جداً عن الإمبراطورية ،
والذى أحياه فردريك بربروسا ، متحدياً ادعاءات البابوية ، معلناً — كما
أسلفنا — أن من يتم اختياره من جانب الأمراء ، يصبح إمبراطوراً شرعياً ،
حتى قبل أن يحصل على موافقة البابا (١.٨) .

وفي مقابل فيليب السوابي ، اجتمع عدد قليل من أنصار البيت الولفي ،
واختاروا أوتو الرابع دوق برنمويك ، ابن هنرى الأسد ، ملكاً منافساً ،
وتوجوه في آخن في الثاني عشر من يولية ١١٩٨ . ولعبت الرشوة التي
قدمها ملك إنجلترا للأمراء الألمان في الشمال الغربي دوراً كبيراً في هذا
الاختيار ، حتى غدا الأمراء — كما وصفهم باراكلاف — مجرد جنود مرتزقة
من كثرة ما دفع لهم من فرنسا وإنجلترا (١.٩) . وقد حمل هذا الترشيح
معه نثر شر مستطير بالنسبة لألمانيا ، فقد أنقدها لأمد بعيد امتد حتى
القرن التاسع عشر ، أبلها في دولة موحدة . وكان أوتو قريباً من الأرض
الألمانية ، إذ لم ير أرض آبائه من قبل ؛ فقد ولد في فورماندى ، ونشأ في
بلاط إنجلترا ، وأعلن إيرلا على يورك ١١٩٠ ، وكونتا لپوانو Poitou
في ١١٩٦ . وصفه أحد المعاصرين بأنه كان « فطريسا غيبا » (١١٠) .
ولما كان لا يملك أى حق أو سند شرعى يؤهله لاعتلاء العرش ، فقد أعلن
على الفور قبوله لكل شروط البابا ونظريات البابوية في السيادة .

Stephenson, op. cit., p. 406.

(١.٧)

(١.٨) راجع صفحة ١٠٩

Barraclough, op. cit., p. 210.

(١.٩)

Slessler, The Middle Ages in the West, p. 128.

(١١٠)

ودون أن نخوض في تفاصيل الصراع الداخلى والحرب الأهلية التي استمرت ما بين عامى ١١٩٨ و ١٢١٤ أى ستة عشر عاما (١١١) ، فإن ما يعنينا منها تلك الوثيقة الهامة ، التى سجلها على نفسه البابا انوسنت الثالث ،والتي تنصح دون أدنى ريب عن أهدافه البابوية ومصلحتها ومطامعها فى ألمانيا ، وتشجيعها لاستمرار هذه الحرب الأهلية الطاحنة ، وإصرارها على أن تظل الملكية الألمانية انتخابية وليست وراثية ، حتى تتاح لها الفرصة للتدخل فى شئونها .

والوثيقة خاصة بقرار المناضلة بين المرشحين الثلاثة ، فيليب السوابى ، وأوتو الرابع ، وفردريك الثانى (١١٢) ، وصدرت عن البابا سنة ١٢٠١ ، أى بعد ثلاث سنوات من الانتظار والقرتب من جانب الأحزاب المختلفة ، والتعهد من جانب البابا . وقد جاء فى ديباجتها أن من مهام البابا النظر فى توفير الأمان والخيرية للإمبراطورية ، وأنه « مادام الأمر قد انعقد باختيار ثلاثة ملوك من جانب الأحزاب المختلفة ... فإن أمورا ثلاثة أيضا لابد أن توضع فى الاعتبار عند المناضلة بينهم ، وهى الشرعية والمصالحية واسلوب الاختيار » . وراح انوسنت يطبقها على المرشحين واحدا بعد الآخر ، واعترف صراحة بأن « الشاب — يعنى فردريك الثانى — ليس هناك أى سبب قانونى للاعتراض على انتخابه ، لأنه قد حظى من قبل بالأيمان التى أخذها أبوه على الأمراء .. وأن الأمراء قد صدروا عن ذلك ببعض اختيارهم .. ليس من الحق إذن معارفته » . ورغم هذا الاعتراف الصريح ، إلا أنه رفض تأييده ، « لأن الأمراء عندما اختاروه ، اختاروا للإمبراطورية شخصا لا يصلح لها ولا لأى منصب آخر ، لأنه لم يكن قد تجاوز من العمر عشرين .. ولما كان لا يمكن حكم الإمبراطورية عن طريق وصى على العرش ، أو نائب ،

(١١١) تراجع تفاصيل هذه الأحداث فى بحثنا الذى أقردهنا ذلك تحت عنوان « السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .

(١١٢) Innocent III, The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201, (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 220-227).

ولما كانت الكنيسة لا ترغب ولا تقدر على أن تمارس رعايتها دون امبراطور ،
لذا كان من الضروري اختيار شخص آخر » .

أما فيما يتعلق بقبليوب السوابي ، « فلا يبدو أن هناك أيضا من الناحية
الشرعية والقانونية ما يعترض اختياره » ، حيث اختاره عدد كبير من
الأمراء ، من ذوي المرتبة الرفيعة ، وهكذا « فإن اختياره يبدو شرعيا ...
ولكن دون اختياره مقبات ... فهو قد حرم كتحسبا لأنه استولى على
أراضي القديس بطرس في توسكانيا وديرها ورفض المصالحة » . لكن أهم
ما في الأمر هنا قول أنوسنت الثالث : « وليكن واضحا أيضا ، أنه ربما يكون
من الملائق أن نعتز على اختياره ، لأنه باعتداله العرش ، سوف يرث
الأخ أخاه ، كما ورث الابن من قبل أباه ، عندما سلم فردريك الأب إلى
أبنه هنري السادس ، وحاول هنري أن يسلمه أيضا لابنه فردريك الثاني .
وهكذا فإن الإمبراطورية سوف تنحو إلى أن تصبح وراثية ، وبالتالي سوف
تغدو الفسدة قانونا بحكم طول العادة !! » .

وهذا هو بيت القصيد في القضية كلها ... فالبابوية لا يعنيها قرار
الحرمان هذا . فقد كان بمقدورها أن تضعه عن كاهل من حملته إياه ،
ولا تقيم وزنا للشرعية أو الصلاحية أو أسلوب الاختيار ، وهي التواعد
الثلاث التي وضعها بنفسه أنوسنت في البداية معيارا للمفاضلة . وهذا
يتضح على الفور من حديثه عن أوتو الرابع حين يقول : « أنه يبدو للوهلة
الأولى أنه ليس من الملائق قانونا الوقوف إلى جانبه ، لأنه اختير على يد
بشر قليل ، كما أن حزبه قليل وضعيف » (١١٦) . ومع ذلك فهو يؤيد اختياره
ويعتبره أفضل المرشحين الثلاثة ، ويعلنه ملكا على ألمانيا .

كان هذا القرار من جانب أنوسنت الثالث ، ضربة قاضية وجهت إلى
مبدأ الوراثة في الملكية الألمانية ، وانتصار سلطا لمبدأ الانتخاب . لكن الضحية
في حلبة الصراع كانت ألمانيا ذاتها التي حرمت قيام دولة قوية موحدة ، حتى

(١١٦) كان عدد الأمراء الذين اختاروا قبليوب السوابي ، ٢٦ أميرا ،
بينما أيد أوتو ستة أمراء فقط . راجع Slessor, op. cit., p. 129.

سبعينيات القرن التاسع عشر ، على النحو الذى عرضنا له فى مقدمة بحثنا؛ ذلك أن البابوية لم تقف عند حد اصدار القرار ، بل مارست التدخل العلنى المسافر ، وراحت تنقل تأييدها — دون مراعاة لأية مبادئ — من فريق الى آخر حسبما تقتضى مصالحها . فها هى تؤيد أوتو الرابع ، فيقدم لها تنازلات مهيبة على حساب الملكية الألمانية ، حتى اذا أحسست أن قضيته أصبحت خاسرة ، وأن كفة فيليب هى الراجحة ، قلبت لحظيها الأول وصنيعها ظهر المجن ، وأعطت خصمها الهوهنشتاوفنى كل تأييدها ، وحصلت منه بالتالى على تنازلات أشد مهانة (١١٤) . حتى اذا اختطفه الموت غيلة عام ١٢٠٨ ، وألقت الأمراء حول أوتو الرابع ثانية ، بعد أن سُموا هذه الحرب الطويلة ، أعلنت من جديد وقوفها الى جواره ، ولكنها سرعان ما سبعت لهيب الحرب ضده متدبا رأت فيه هوهنشتاوفنى السياسة ، رغم أصله الولفى ، وأنه يسعى لاثابة ألمانيا قوية مرة أخرى . وعادت تستدعى ذلك « الشاب » — كما يصفه البابا — فردريك ، الذى نبذته مكها قسما ، وأعلنته ملكا ، ولم يتوان فردريك هو الآخر عن تقديم المزيد من التنازلات الأسمى مهانة (١١٥) . وخلال هذا كله كانت فرنسا وانجلترا تستبقان من أجل تحقيق نصر سياسى فى ألمانيا ، يحقق بالتالى كسبا فى نورماندى ، حتى تمكنت القوات الفرنسية المناصرة لفردريك ، من انزال هزيمة قاسية عند بونان *Bouvines* سنة ١٢١٤ بالقوات الانجليزية الولفية المشتركة ، أضحت فرنسا على أثرها ، كأكبر قوة سياسية فى أوروبا ، بينما انحطت ألمانيا الى السطح تضمد من نفسها الجراح ! .

ورغم أن فردريك الثانى (١٢١٢ — ١٢٥٠) بحث بقوة أسرة الهوهنشتاوفن ثانية ، ونفخ فى روح ألمانيا من جديد ، إلا أن عهده كان بريقا خاطئا سرمان ما خبا فى الظلام ، فقد ناصبته البابوية العداء المسافر

Philip of Suabia, Concession to Innocent III, 1203 (١١٤)
(in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 228-230).

Frederick II, promise to Innocent III, 1213; Promise to (١١٥)
resign Sicily 1216, (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 230-233).

حتى مات . واضطر هو في سبيل ضمان تأييد الأمراء ، الى اعطائهم الكثير من الامتيازات والنفازات على حساب التاج الألماني (١١٧) ، غلبا مات عام ١٢٥٠ ، مات معه كل أمل في دولة المانية قوية ، وتولت البابوية الاجهاض على مبدأ الوراثة تماما ، يعد أن سجدت له الضربة القاضية من قبل ، وغرقت ألمانيا في بحر من الفوضى ، استمرت ثمانية عشر عاما (١٢٥٠ — ١٢٦٨) ، رشحت البابوية خلالها ملوكا لألمانيا ، ليسوا من بينها على الاطلاق ، ريتشارد إيرل كورنول Richard of Cornwall والفونسو العاشر ملك قشتالة Alfonso X of Castile وحتى تطعن البابوية الى أن مبدأ الوراثة في الملكية الألمانية قد أحل القبر ، سيق الصبي المسقى كونادينو Conadino حفيد فردريك الثاني ، وآخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن ، الى نابولي ، حيث أعدم بموافقة البابوية ! .

ولعلنا خير مثال يوضح لنا الحال التي تردت فيها ألمانيا آنذاك ، اقدام الأمراء في عام ١٢٧٣ على اختيار رودلف الهابسبورجي Rudolf o Habsburg اذ رأى فيه الأمراء شخصا ينتهي الى عائلة لا تستطيع أن تطاولهم قوة . حقيقة كانت للهابسبورج أراضيهم في الألتزاس ، وإعالي الراين . ولم تكن هناك دلائل تشير الى مستقبل ما لهذه الأسرة . لقد كان رودلف يعتمد على الأمراء بصورة جعلتهم يظفرون منه بوعود تاطعة ، بأنه لن يقدم على التصرف في أى جزء من أراضيهم ، هبة ، دون موافقتهم (١١٧) . ولدينا وثيقة دامغة على هذه الناحية ، جاءت على قلم رئيس أساقفة مينز ، تقول : « وارنر Werner رئيس أساقفة مينز بفضل الله ... لما كنا نرغب دائما في أن نكون مطيعين ومعتقدين مع سيدنا الجليل ، رودلف ،

Frederick II, Statute in favor of the princes, 1231-1232; (١١٦)
 Concessions to the ecclesiastical princes, 1220 (in
 Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 238-240, 233-36).

Waley, op cit., pp. 76-78.

(١١٧)

الملك ، فانا قد اعطيناه بصورة تامة وصريحة موافقتنا على أن يهب كقطاع
قرى لنكرشليم *Lenkersheim* وايرلباخ *Erlebach* وبروك *Brucke*
وكسل متعلقاتها الى فردريك حاكم نورنبرج *Nurnberg* حيثما رغب في
ذلك « (١١٨) » .

لقد كان الانتخاب في الفترة المبكرة ، محط اهتمام كبار النبلاء ،
باعتبارهم ممثلين للحدقات الألمانية ، وأن كانت قد جاءت فترات معينة ،
حولت فيها الوراثة ، مسألة الانتخاب الى مسألة نظرية فقط . فلما توفي
هنري السادس ، ودست البابوية في ألمانيا انقضا وذايعها وقدميها ، أصبح
الانتخاب حقيقة واقعة ، وتخلفت ألمانيا عن إنجلترا وفرنسا سبعة قرون
مساويا .

Werner, electoral letter of Consent, 1282 (in Thatcher & (١١٨)
McNeal, op. cit., pp. 265-266.

وراجع أيضا وثيقة اختيار هنري السابع سنة ١٣٠٨ لينتزع
Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 277-278). مدى دور الأمراء في ذلك .

الوثائق والمراجع

أولا : الوثائق

Adalbert, Archbishop of Mainz :

Letter to the bishop of Bamberg.

Albert, German King : The archbishop of Mainz is Confirmed as archchancellor of Germany, 1298.

Frederick II, Emperor : Promise to Innocent III, 1213.

- Promise to resign Sicily, 1216.
- Concessions to the ecclesiastical princes, 1220.
- Statute in favor of the princes, 1213-1232.

Gregory VII, Pope : Dictatus papae.

Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa.

Henry IV, Emperor : Promise of the King to offer obedience to the Pope.

- edict cancelling the sentence against Gregory VII.

Henry VII, German King : Declaration of the election of Henry VII 1308.

Innocent II, Pope :

Innocent III grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133.

Innocent III, Pope : The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201.

Philip of Suabia, German King : Concessions to Innocent III, 1203.

Werner, Archbishop of Mainz : Electoral «letter of Consent». 1282.

Widukind, History of the Saxons (in. S.B.M.H.)

وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية :

Hinderson (E. F.), Select historical documents of the Middle Ages, London, 1925.

Thatcher (O. J.), McNeal (E. H.);

A Source book for Mediaeval history, New York.

Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050-1300, U.S.A. 1964.

— The Middle Ages, Vol. I, Sources of Medieval history, New York, 1978

ثانياً : المراجع الأوروبية

Barlow (F.), The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London, 1974.

Barracclough (G.), Mediaeval Germany, 911-1250; essays by German Historians, translated and ed. by Barracclough, Oxford 1948

— The Origins of Modern Germany, Oxford 1947.

Barry (W.) The Papal Monarchy, from st. Gregory the Great to Boniface VIII, New York 1906.

Brooke (Ch.), *Europe in the central Middle Ages, 962-1154*, London 1966.

Brooke (Z.N.), *A history of Europe from 911 to 1198*, London 1966.

Bryce (J.), *The Holy Roman Empire*, London 1950.

Cambridge Medieval History, 8 Vols. planned by J.B. Eury, Cambridge 1962, Vols. II, III, V, VI.

Davis (R.H.G.), *A history of Medieval Europe, from Constantine to St. Louis*, London 1957.

Douglas (D.C.), *William the Conqueror*, London 1969.

Freiherer (O.), *Constitutional reorganization and reform under the Hohenstaufen*, trans. from German by Barraclough, in *Mediaeval Germany*, Vol. II, pp. 203-233). Oxford 1948.

Ganchof (F.), *Feudalism*, Hong Kong 1976.

Hodgett (G.A.), *A Social and economic history of Medieval Europe*, London 1972.

Joachimssen (p.), *The investiture contest and the German Constitutions*, trans. from German by Barraclough in *(Mediaeval Germany*, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.

Mayer (Th.), *The historical foundations of the German Constitution*, trans. from German by Barraclough in *(Mediaeval Germany*, vol. II, pp. 1-34), Oxford 1948.

Mittels (H.), *Feudalism and the German Constitution*, trans. from German by Barraclough, in *(Mediaeval Germany*, vol. II, pp. 235-279). Oxford 1948.

Hundy (J.H.), Europe in the high Middle Ages, 1150-1309, London 1973.

Pfister (ch.), Gaul under the Merovingian Franks, in (C. M. H. vol. II, pp. 133-158 .

Pirenne (H.), A history of Europe London 1951.

Schmeidler (B.), Franconia's Place in the structure of Mediaeval Germany, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 71-94). Oxford 1948.

Scott (W.), Medieval Europe, London 1975.

Slessor (H.), The Middle Ages in the West, London.

Stephenson (C.); Mediaeval History, New York, 1962.

Strayer (J) & Munro (O.), The Middle Ages, 395-1500, New York 1970.

Thompson (J. W) & Johnson (E.N.), An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York 1966.

Tout (T.F.), The Empire and the Papacy, London 1924.

Ullmann (W.), The growth of Papal government, in the Middle Ages, London 1955.

— A short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.

Vinogradoff (P.), Feudalism, in (C.M.H. vol. III, pp. 458-484).

Waley (D.), Later Medieval Europe, from St. Louis to Luther, London 1976.

ثالثا : اراجع العربية

ابراهيم المدوى (دكتور) — المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى —
القاهرة ١٩٦١ .

اسحق مبيد (دكتور) : الفرسان والأقنان فى مجتمع الاتطاع — بيروت ١٩٧٥
جرائنت (٤ . ج) و نمبرلى (هـ)

تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، جزءان .
الجزء الأول ترجمة الأستاذ بهاء فهمى . القاهرة بدون.
تاريخ .

دولت صادق (دكتور) — جغرافية العالم ، دراسة اقليمية . الجزء
الأول . القاهرة ١٩٥٩ — الجغرافية السياسية . القاهرة
١٩٦٥ .

رنوفان (بير) : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ — ١٩١٤ . ترجمة دكتور
جلال يحيى . القاهرة ، بدون تاريخ .

سعيد عاشور (دكتور) : أوروبا العصور الوسطى .. الجزء الثانى ،
القاهرة ١٩٦٣ .

عبد الحيد متولى (دكتور) : الوجيز فى النظريات والانظمة السياسية
ومبادئ الدستورية . القاهرة ١٩٥٨ — ١٩٥٩ .

فيشر (هـ) : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ — ١٩٥٠ . ترجمة
دكتور أحمد نجيب هاشم ، وديع الضبع . القاهرة ١٩٥٨ .

كانتور (ن) : التاريخ الوسيط ، قصة حضارة : البداية والنهاية . الجزء
الأول ، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم . القاهرة ١٩٨١ .

لاسكى (ه) : اصول السياسة ، أربعة أجزاء ، ترجمة محمود فتحى عمر .
القاهرة بدون تاريخ .

كوبلاند (ج . و) : الفنية والاتطاع ، مقال فى « تاريخ العالم » ، الذى
اشرف على نشره السير جون آ . هابرتن ، المجلد الثانى ،
ص ٣ - ٢٢ . القاهرة ١٩٥٧ .

كوبلاند (ج . و) و فينوجرادوف (ب) :
الاتطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ترجمة دكتور
محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ .

محمد كامل ليلة (دكتور) : النظم السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ .

موسى (ه) : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ،
القاهرة ١٩٦٧ .

نور الدين حاطوم (دكتور) : تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا . لبنان ،
١٩٦٧ .

هتلى : كهاى . ترجمة لويس الحاج . بيروت ١٩٦٨ .

صليبية الأطفال ١٢١٢م

الدكتور عبد الغنى محمود عبد الجاطى
مدرس تاريخ العصور الوسطى بآداب القاهرة

(م ١٠ - لندون)

صليبية الأطفال • ١٢١٢ م • (✠)

لاشك أن الحروب الصليبية كانت صداما خطيرا بين الغرب اللاتيني والشرق الاسلامي ، استمر قرنين من الزمان • وكان تأثير هذه الحروب على شعوب الغرب الأوربي يختلف تماما عنه على شعوب الشرق الاسلامي • فقد كان المسلمون يعايشون هذا الواقع معايشة يومية ، وكانوا ينظرون الى الهزائم والانتصارات ومعاهدات الهدنة بين الطرفين كآمر طبيعي متكرر الحدوث، مما جعل مفهومهم عن تلك الحروب اقرب الى الحقيقة وأبعد عن شطحات الخيال •

أما أحداث الحروب الصليبية ووقعتها على شعوب الغرب فقد امتزجت فيها الأسطورة والخيال بالحقيقة • لقد ترك معظم الصليبيين منازلهم وأسرعهم وخرجوا للاستيلاء على الأرض المقدسة أو للدفاع عن مستعمراتهم فيها ، وسار الأخ أو الأب بأسلحته في يده وربما ليعود اليهم بعد سنوات ، أو ربما لا يعود • عندئذ جلست الأمهات والأخوات والزوجات في الكولخن يحكين للأطفال عن الأخطار التي تهدد المدافعين عن الصليب ، وعن الدوافع والأسباب التي أدت الى خروج الرجال الى الشرق • وعندما كان يعود المقاتل الصليبي الى وطنه ، كان يقص على أهل بيته وأهل قريته عن البطولات التي حققها فرسان الصليبيين ، وعن الغنائم والأسلاب التي استولوا عليها ، ويثير خيال سامعيه بالكثير من قصص المغامرات ، وعن الأرض المقدسة ، والمجرات الالهية التي تحققت ، كما أنه بلا شك كان يحكى الكثير من القصص والروايات عن حياة أعبائهم من المسلمين ، وعن الحياة في بلاد الشرق الساسرة • أما اذا مات المقاتل الصليبي في الشرق ، عندئذ كان يأمل ولده الصغير أو أخوه في الانتحار

✠ معظم مصادر هذا البحث مأخوذة عن مجموعة M.G.H. SS. (Monumenta Germanica Historica Scriptores)

في قائمة المحاربين (١) •

ولاشك أن الأطفال والمراهقين كانوا أكثر الفئات تأثراً بهذه الروايات التي ألهمت حماسهم وحركت خيالهم ، وهم بطبيعتهم أقرب إلى عملية الاستهواء • فخيال الأطفال يجعلهم يعتقدون أنهم قادرون على أن يأتوا بمعجزات في شتى المجالات ، ربما يعجز آباؤهم للكبار عن أن يأتوا بها • خاصة وأن الأطفال والمراهقين يميلون بشدة إلى تجسيد الخيال ، وتسيطر عليهم أحلام اليقظة ، ويظنون أن كثيراً من الأعمال الخارقة سهلة وفي متناول أيديهم • بالإضافة إلى ما كانوا يعيشون فيه ويسمعون عنه من أساطير وخرافات عما حققه المقاتلون في الشرق ، مما أكد لديهم ما يعتقدونه •

ويجب التأكيد مرة أخرى على أن أهم ما يميز مرحلة الطفولة هو ما اكتسبه الدراسات النفسية ، وهو أن الطفل يحاول أن يجد ما يجول في خياله ، كان يتخيل أنه يركب حصاناً يطير به ، أو أنه بضربة واحدة من يده يستطيع أن يقتل عشرات الرجال ، أو أن ركلة واحدة من قدمه تهدم أقوى الحصون • وإذا كان خروج حملة صليبية تتشكل غالبيتها من الأطفال لتخليص القدس من المسلمين يعد أمراً غريباً مثيراً للدهشة ، فإنه في نفس الوقت يدعو إلى التساؤل والبحث عن الظروف والأسباب التي أدت إلى خروج قافلتين من الأطفال من مكانين مختلفين ، وفي نفس الوقت تقريباً • فهل كان خروج هؤلاء الأطفال تعبيراً عن السخط الذي ساد بين العامة في أوروبا نتيجة لفشل القيادات السياسية في أداء واجبها تجاه الحركة للصليبية ؟ أم أنها كانت استجابة لظروف اجتماعية عاشها أولئك الأطفال ؟

الحقيقة لا يمكن الإجابة على هذه الأسئلة إلا بعد الرجوع إلى الورا ، وتتبع الحركة للصليبية وإبراز ما أصابها من نجاح وفشل • ومن المعروف أن أنابا أوربان الثاني نجح في أن يحشد عدداً كبيراً من المهاتلين من كل الفئات • إذ راح يمتلئ كل طائفة بأن هذه الحملة ستحقق لها من الآمال العراض ما عجزت عن تحقيقه في واقعها الأليم • ومع الانتصارات العسكرية الكبيرة التي حققها الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى والتي نتج عنها تأسيس ثلاث

Reinhold Rohricht, «Der Kinderkreuzzug» Historische (١) Zeitschrift, xxxvi (1876), pp. 2-3.

امارات صليبية فضلا عن مملكة بيت المقدس ، فان هناك كنيزا من الشك في ان تكون قد حققت ما كان يصبو اليه البابا اوربان الثاني . اذ ان الحملة قد حققت احد اهدافها فقط وهو الاستيلاء على الأرض المقدسة ، ولكنها في نفس الوقت باءت بجن كنيسة روما والقسطنطينية ووسعت بينما شقة الخلاف .

على ان الانجازات السياسية التي حققتها الحملة الصليبية الأولى سرعان ما بدأت تتداعي ، وبدأ المسلمون يستلصقون اراضيهم من قبضة الصليبيين . فبعد استيلاء المسلمين على الرها عام ١١٤٤م ، تحركت أوروبا يدفعها شعور بالعار والرغبة في الانتقام ، وخرجت الحملة الصليبية الثانية وعلى رأسها لويس السابع ملك فرنسا ، وكوتارد الثالث ملك ألمانيا بغية استرداد الرها . وقد انتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل ، على حين بقيت الرها مدينة اسلامية .

وقد يتبادر الى الذهن ان الرها لم تكن تمثل أهمية دينية كبيرة بالنسبة للغرب الأوربي ، لكنه بعد استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس والعديد من المدن الأخرى عقب معركة حطين سنة ١١٨٧م . انطلقت الدعوة الى خروج صليبي جديد في سبيل ارجاء الغرب الأوربي ، وتولى الامبراطور فريديك الأول ببربوسا قيادة القوات الألمانية ، كما قاد ريتشارد قلب الأسد قوات إنجلترا ، على حين كان فيليب أغسطس يقود قوات فرنسا . وتحرك الى الشرق أيضا عدد كبير من المبع نبلأ أوروبا . ولكن سرعان ما تحولت التوقعات الكبيرة التي كانت منتظرة من الحملة الصليبية الثالثة الى يأس واتهامات حادة للزعامة الصليبية . ذلك أن العامين اللذين استغرقتهما الجهود الأوربية لم تكن لتقارن بالانجازات الهزيلة التي حققتها الحملة ، وبدأت الشكوك تساور البعض حول الالهام الالهي الذي يزعمه الصليبيون ويدعونه (٢) .

وكان الأمل لا يزال باقيا في استخلاص الضريح المقدس من أيدي المسلمين . وقد تجنّى هذا المشروع البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ٢١٦) الذي وضع

(٢) يوشع برلور ، عالم الصليبيين ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، محمد خليفة حسن . (القاهرة ، ١٩٨١) ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

للكنييسة وللبابوية برنامجا ضخما ، على رأسه محر آثار حروب صلاح الدين في الشرق (٣) .

ومن ثم فقد بدأت في منتصف ١١٩٨م الدعوة للحملة الصليبية الرابعة . ولكن قادة هذه الحملة بدلا من الاتجاه بها نحو مصر بوصفها مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين ، انحرفت الحملة عن هدفها الأساسي فاتجهت ضد القسطنطينية واستولى عليها الصليبيون سنة ١٢٠٤م . وتم تأسيس امبراطورية لاتينية على أشلاء الدولة البيزنطية ، وتم اختيار بطريك كاثوليكي لتولى رئاسة كنيسة القسطنطينية .

ربما رأى البعض ان هذه الحملة قد حققت للبابوية اهم اهدافها وهو اخضاع كنيسة القسطنطينية للكنيسة الأم في روما . ولكن للنتائج السلبية كانت اضعف بكثير من هذا الإنجاز ، لأن تأييد كل من البابا والقيادات السياسية في أوروبا لهذا العمل قد وجه ضربة شديدة الى مفهوم الحركة الصليبية لدى العامة الذين كانوا يتطلعون الى تحرير الضريح المقدس . وكان ذلك ايذانا بفنور الحماسة الصليبية ولتضح ايضا ان المصالح الاقتصادية والتجارية اخذت تحتل المكانة الاولى في تفكير المعاصرين . فضلا عن ان قيام امبراطورية لاتينية في القسطنطينية والبلقان قد استهوت الكثيرين من فرسان الصليبيين في بلاد الشام .

وقد ادى هذا بالضرورة الى تزايد السخط بين العامة على القيادات السياسية الأوروبية نتيجة لفشلها في استعادة بيت المقدس بوجه خاص ، وعدم قيامها بواجباتها تجاه الحركة الصليبية بوجه عام . وهكذا كان لابد من نفخ روح جديدة وحياء جديد للحركة الصليبية بطريقة تلهب حماسه الأوروبيين . كان لابد من حدث جديد أو وسيلة لالهاب مشاعرهم مثلما كان خطاب البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت منذ قرن من الزمان . وربما كان هذا التفكير والتخطيط من فعل صفار رجال الدين أو الدعاة الجاثلين فظهرت حملة الأطفال الصليبية لتكون بعثا جديدة لخطاب البابا أوربان الثاني ، وفي

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ (القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٩٢٩ .

نفس الوقت تكون تعرية للقيادات السياسية والدينية ، وإجبارها على العمل مرة أخرى من أجل المسيح والأرض المقدسة والحركة للصليبية .

وإذا كان الفضل السياسي أمرا ولربما كسبب لحركة الأطفال الصليبية فإن هناك احتمالات لعدة أسباب أخرى ، ربما كانت كلها أو بعضها هي التي أنتجت هذه الحركة . هذه الأسباب تخرج كلها تقريبا من واقع القديين للشعب الذي عم الغرب الأوربي في العصور الوسطى . وقد عبر العامة عن تدينهم بنصور وأشكال متعددة . من ذلك أن العامة والمهملين - ذوى الأصول الوضيعة - قد شاركوا في معظم الحملات الصليبية . وكثرتوا يعدون أنفسهم المختارين من الله ، ربما ظنوا أن المسيح قد عاش فقيرا ، ولذلك غاذه يفضلهم معشر الفقراء عن غيرهم ويخصهم ببركاته المتخذة في الرؤى والأحلام الدينية - للقدسة - وكانت هذه الرؤى والأحلام تلوح لهم عندما يتعرضون لأزمة من الأزمات . أو يولجهمون موقفا ميؤوسا منه . فعندما استبد اليأس بالصليبيين وهم داخل أنطاكية في مقاومة جيش الأمير كربوقا ، وانحطت روحهم المعنوية نتيجة لنفاذ الأموال وفرار بعض المحاربين ، وبدأ أنهم في حاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة ، إذ يحدد الفلاحين الفقراء من الجيش البروفنسالي ، واسمه بطرس بارثولوميو يخبر الكونت ريمون بأن القديس أندرياس ظهر له خمس مرات ، وأمره أن يكشف للكونت عن الموضع الذي اختفت فيه الحربة التي اخترقت جنب المسيح منذ أحد عشر قرنا ، وحدد له المكان في موضع بجنوب كاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية (٤) . وتم العثور على الحربة لأن الرؤيا

(٤) عن الرؤيا والعثور على الحربة المقدسة ، انظر .

Raymond of Aguilers, *Historia Francorum qui ceperunt*
Iherusalem (RHC, Occ., III), pp. 253-255; Anon,
The deeds of the Franks and the Other Pilgrims to
Jerusalem; ed. R. Hill (London, 1962), pp. 59-60;
Fulcher of Chartres, A History of the expedition to
Jerusalem 1095-1127, ed. H. Fink (Konxville, 1969),
pp. 99-100. Fulcher of Chartres, A History of the expedition
to Jerusalem 1095-1127, ed. H. Fink (Konxville, 1969),
pp. 99-100.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ (بيروت ١٩٦٥) ، ص ١٠٣ .

جذبت موقعها بالضبط . وقد أدت هذه الآلية السماوية إلى رفع معنويات الجيش الصليبي . كذلك تراءى لأحد القسيسين واسمه سبتيفن أنه شهد المسيح والعذراء ، وسمع من المسيح أن رجال الجيش إذا ندموا على ما ارتكبوه من الآثام ، وعادوا إلى الحياة المسيحية الصالحة ، فسوف يسبغ عليهم رعايته وحمايته خلال خمسة أيام (٥) . ثم ظهر للقديس اندرياس مرة أخرى ليطن قرب حدوث معركة مع الترك . وأوصى بالصيام خمسة أيام للتكفير عن الذنوب ، على أن يقوم الجيش بعدها بالهجوم . وكان هناك آخرون ادعوا بأن أحلامهم حفلت باللائكة والحواريين وأنها تدعم ما رواه البروفنسالي (٦) .

وكان لهذه الرؤى والأحلام فعل السحر في نفوس الصليبيين فانتمشت آمالهم وارتفعت روحهم المعنوية ، وتمكنوا من الانتصار على الجيش الاسلامي . كذلك عندما بدأت المصاعب تواجه الجيش الصليبي أمام مدينة بيت المقدس ، فلم يكن هناك ما يلائم هذا للفصل الأخير من ملحمة الحملة الصليبية الأولى أكثر من إشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة ولشترك القديس جورج في المأرك (٧) .

ومع ذلك فهما كانت أهوال الحرب بالنسبة للناس العاديين ، فلاحظ أن المجاعة والوباء كانت هي المصدر الأساسي لليأس ، فالمرض المؤلم الذي لا ينتظر شفاؤه بأي علاج انساني كان يدفع بجموع العائدين إلى الانفجار الهستيري الذي يحركه الأمل في التدخل الإلهي . وهناك روايات كثيرة عن

Raymond of Aguilers, *Historia Francorum* (RHC, Occ., (٥)
III), pp. 255-256; Anon, *The deeds of the Franks*,
pp 57-58; S. Runciman, *A History of the Crusades*,
I (New York, 1964), p. 244.

William of Tyre, *A History of deeds done beyond the* (٦)
Sea, I, eng. trans, E.A. Babcock and A.C. Krey
New York, 1943), p. 282.

Anon, *The deeds of the Franks*, 90; H.E Mayer, *The* (٧)
Crusades, eng. trans, Gillingham (Oxford, 1972),
p. 60.

براور ، عالم الصليبيين ، ص ٥٨ ،

هذه الحركات المعبرة عن اليأس الشعبي ، ففي سنة ١١٤٥ تم بناء كنيسة القديس بطرس St. Pierre-sur-Dives في نورماندى بعد عدة سنوات من العمل . واذ توقعت الجماهير حدوث المعجزات فقد تولدت صوب الكنيسة وأحاطوا بالنذبح يدعون بدعوات يائسة لأم الرحمة (٨) .

واذ تآخر شفاؤهم ولم يحصلوا في التو على ما كانوا يرغبون فيه مزقوا ثيابهم وأفترشوا الأرض عرايا ناسين كل الخجل رجالا ونساء وأطالا مع بعضهم البعض . وبعد أن تصدوا هكذا على الأرض أخذوا يزحفون صوب المذبح يصيحون متوسلين مرة أخرى بأم الرحمة حتى يحصلوا على استجابة لتوبتهم (٩) .

مرة أخرى في أكسفورد بعد سنوات قليلة حدث مشهد مماثل ، ففي سنة ١١٨٠م نقل رفات القديس Frideswide إلى مقبرة جديدة وسرت إشاعة عبر البلدة عن حدوث المعجزات . وفي لحظات قليلة حاصرت الكنيسة جموع من المعانين من شتى أنواع المرض . وكان معظمهم أناس ذوى أصول اجتماعية متواضعة جاؤوا من المدن والريف المجاور يسعون إلى هذا المزار للشفاء . وكانت هذه الجموع تعاني من الشلل والاستسقاء والعمى والجنون والأمراض الجلدية والصداع وآلام وجروح الرأس والمعدة والأطراف . وكانت الكنيسة تمتلئ ليلا ونهارا بالمرضى وأقاربهم الذين تجمعوا حول القبر ، ينامون بجواره ، ويلمسونه ، ويتمسحون في غباره . وكلهم أمل أن تحدث معجزة من السماء تشفى جموع المرضى مما ألم بهم (١٠) .

وهناك أمثلة أخرى من نوع الاختلال العقلي للجماهير التي تنمو عندما يتحول الحماس الدينى إلى فوضى ، وكان العقلاء دائمي التنبيه إلى خطورة ذلك . فقد وجدت في بريطانيا في العقد الخامس من القرن الثاني عشر حالة غريبة بطلها هذا الأمل الأبله Eon de l'Etoile (Eudo de Stella)

R. W. Southern, Western Society and the Church in the (٨)

Middle Ages (Penguin 1976), p. 305.

Southern, Western Society, pp. 305-306.

(٩)

Southern. Western Society, p. 306.

(١٠)

الذى سمع في الكنيسة احدى التراتيل الدينية التى تقول « عن طريقه هو الذى سوف ياتى ليدين الأحياء والأموات والعالم بنار » ولما كان نص الترتيلة باللغة اللاتينية هو .

«Per Eum qui venturus est judicare vivos et mortuos et seculum per ignem»

فقد اعتقد أن الضمير Eum إنما يعود إليه (١١) . ومن ثم فقد نظر Eion الى نفسه باعتباره ابن الله قد اتى ليدين الأحياء والأموات ، واجتنب نحوه اتباعا من الرجال في مثل بلهه وتبائه ، اعتبرهم ملائكة وحواريه . ولكن سرعان ما انحدر Eion واتباعه الى عصابة من اللصوص نهبوا الكنائس والأديرة وبناتوا يقتنون الملابس الفاخرة ويقيمون الولائم العظيمة . وعاشوا حياة يحسدون عليها حتى أن هؤلاء الذين جاءوا لاعتقاله قد بهرتهم هذه الحياة الفاخرة وبدلا من القبض عليه ، انضموا الى جماعته (١٢) وفي النهاية تم القبض عليه وأرسل الى مجمع ريمس سنة ١١٤٨م ليمثل أمام البابا إيجينيوس الثالث Eugénus III . وكان إيون Eion يحمل في يده عصا من الأشجار ، وأشار الى أنه في حالة اتجاه شعبة الفصن نحو السماء فإن الله سيهيم على ثلثي العالم ، بينما يظل الثلث الأخير في يد سلطانة ، وإن اتجهت شعبة الفصن نحو الأرض فإن الله سيهيم على ثلث العالم بينما يسيطر هو على الثلثين الباقين . وانفجر كل من في المجلس في الضحك عند سماعهم ذلك . وانتهى امر هذا الدعى بإيداعه السجن فلم يلبث أن توفي بعد ذلك بقليل . أما أتباعه فقد عوملوا بقسوة ، وكان مصير الثلاثة الذين أطلق عليهم للحكمة والمعرفة والعدالة وآخرين من ذوى الأسماء الزنانة هو الإلقاء في النار ، لأنهم فضلوا أن يلقوا الموت حرقا على التخلي عن عقيدتهم .

وهناك مثال آخر للهوس الدينى حدث في فرنسا عام ١١٨٢م ، وإن

N. P. Zacour, «The Children's Crusade», in Setton, A (١١)
History of the Crusades, II, p. 328.

Zacour, The Children's Crusade, p. 328. (١٢)

Zacour, The Children's Crusade, PP. 328-329. (١٣)

كان هذا الحدث قد بدأ كحركة اصلاحية اكتسبت عطف الكنيسة والادارة الحكومية ، الا انها سرعان ما انقلبت الى حركة فوضوية • ففي جنوب وسط فرنسا حيث رأى نجار مغمور يدعى دوراند Durand of le Puy رؤيا امرته فيها السيدة العذراء ان يدعو الناس الى السلام واعطته قطعة صغيرة من جلد الرق عليها صورة للعذراء تحمل للطفل يسوع بين يديها ، وعلى جلد الرق ايضا الدعاء التالي « ايها المسيح الذى حملت ذنوب العالم ، هب لنا السلام » وسرعان ما تجتمعت حول دوراند حركة كبيرة كرسست نفسها للقضاء على اللصوص وقطاع الطريق في الاقليم (١٤) • تمتعت الرابطة الجديدة بتأييد كل طبقات المجتمع • ومع ذلك فسرعان ما انقلبت ضد المؤسسات الحكومية ، ففقدت تأييد النبلاء والكنيسة وصارت حركة منبوذة وخارجة عن القانون • وطوردت حتى تم القضاء عليها (١٥) •

على انه يجب الا يغيب عن تفكيرنا ان اهل العصور الوسطى كانوا قوما متدينين ، وكثيرا ما كانوا من السذاجة بحيث يمتدحون في الخرافات ، وكانت الرواية المقدسة تشكل جزءا لا يتجزأ من تربيتهم ، بصرف النظر عن معرفتهم الخاصة بمقائد الدين (١٦) • وكانت التسلية الرئيسية لغالبية الفلاحين تتمثل في خدمة يوم الأحد الصبائية التى كان يقوم بها تسييس نصف متعلم او موعظة يلقيها أحد الرهبان الجائلين (١٧) • وبلغ من سلطان الدين على هذه الطبقات ان ظهرت في شمال (نورماندى وبورجندى) مجموعات من التائبين، ساعدت في بناء العديد من الكنائس ، وكانت هذه المجموعات تسير في مواكب تضم الرجال والنساء والاطفال يحملون الشموع والاعلام ويغشون الاغاني والترانيل الدينية ، ويفضل ما كان معهم من عربات حملوا لوازم البناء واسهموا في تشييد واصلاح اماكن مقدسة كثيرة في منطقة شارتر ومنطقة كان • وقد تكرر ظهور قوافل التائبين التى شهدها منتصف القرن الثانى عشر ، ويصف

Roberti canonici S. Mariani Autissiodorensis Chronicon (١٤)
(MGH, SS., XXVI), p. 247; Zacour, The Children Crusade,
p. 329.

Zacour, The children Crusade, p. 329.

(١٥)

(١٦) برلور ، عالم للصليبيين ، ص ٤٢ •

(١٧) نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة البدلية والنهاية ،
القسم الثانى ، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم (القاهرة ١٩٨٣ م)

ص ٧٣٨ •

أحد كهنة دير القديس بترس Saint Pierre بالقرب من كان هذه القوافل وعن المعجزات التي حدثت أثناء تجوالها ، أو التي حدثت أثناء بناء أسوار كنيسته بأنها كانت تتكون من خليط من الفاس ، رجلا ونساء وأطفالا . وأن بعض هذه المراكب كانت تتألف من الأطفال (١٨) .

وكان لهؤلاء الأطفال المشيعين (التائبين) تأثير من نوع غريب على جمهور الأتقياء ، لأن واحدا منهم وهو القديس بنزيه Saint Benezet قد أضيف على جنوب فرنسا سمة من التشريف والتبجيل بفضل مواهبه وقداسته وما حققه من معجزات ، وكان هذا القديس قد بدأ منذ كان طفلا صغيرا في بناء كوبري أفنيو الشهير على نهر الراين . وذهب إليه القساوسة والعلمانيون لرؤيته وسماعه والتبرك به (١٩) .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الكنيسة كانت مهتمة بالقضاء على نطة الألبيجنسيين في جنوب فرنسا (٢٠) ، فإنها أطلقت دعائتها ومبشورها للدعوة إلى الحرب الصليبية ضد الهرطقة والمارقين وأيضا ضد الموحدين في إسبانيا . وقد لاقى هذه الدعوة استجابة عريضة خصوصا في ألمانيا وشمال فرنسا . وهكذا فإن عام ١٢١٢م كان الوقت الذي بلغت فيه الحماسة الدينية ذروتها (٢١) .

وبينما كانت المعتقدات والمفاهيم الدينية تسيطر على عقول العامة كان يتردد بين الأوساط الكنسية والعلمانية على حد سواء ، أن نهاية للعالم

Paul Alphandery, «Les Croisades D'Enfants,» Revue de (١٨)

l'histoire des religions, LXXIII (1916), pp. 272-273;

Mayer, The Crusades, p. 203.

Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 273. (١٩)

(٢٠) عن الحملة الألبيجنسية ، لنظر ، سعيد عبد الفتاح عاشور ،

أوروبا المصور الوسطى ، ح١ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

Mayer, The crusades, p. 203; Peter Raedts «La (٢١)

Croisade des enfants a-t-elle eu lieu ?» L'Histoire, xxxvii, Juil-

let/Aout (1982), p. 33. ,

قد حانت ، فقد قال البابا أوربان الثاني في خطابه الشهير في كليرمونت أن المسيح للدجال سوف يظهر بين عشية وضحاها (٢٢) . وقد سيطرت فكرة نهاية العالم على الغرب المسيحي ، حتى أنه في الوقت الذي كانت توضع فيه الترتيبات الأخيرة للحملة الصليبية الثالثة ، تم لقاء بين ريتشارد قلب الأسد ، وديولتيم رئيس دير كورازو الذي قام بشرح معنى رؤيا القديس يوحنا ، فأشار إلى أن الرأس السبعة للوحش ليست سوى هيرود ، وقسطنطينوس ، ومحمد ، وميلسموت (الذي يقصد به فيما يبدو عبد المؤمن ، مؤسس مذهب الموحدين) وصلاح الدين ، ثم أخيرا المسيح الدجال ، الذي صرح ديولتيم أنه قد جرت فعلا ولادته في روما منذ خمس عشرة سنة ، وسوف يجلس على الكرسي البابوي . فبادر ريتشارد إلى الرد بأن المسيح الدجال ليس في هذه الحالة ، فيما يبدو ، سوى البابا كليمنت الثالث نفسه (٢٣) . ويتضح من ذلك أن الكنيسة قد أكدت بوجود المسيح الدجال بين المعاصرين وأن خروجه بات وشيكا . وفي عشية عام ١٢١٢م استمر الناس في الاعلان عن قرب تحقق (رؤيا القديس يوحنا بنهاية العالم) وأن المسيح للدجال قد بلغ الآن سن الرشد وأوشك على الظهور ، ومن ثم فانه ينبغي على المسيحيين الاحتشاد لتخليص الأرض المقدسة لينالوا الشهادة ، ليحيوا بعد ذلك في مملكة القديسين (٢٤) .

لقد تسرب الهوس والجنون الديني إلى معظم الفئات بذكر أحد المعاصرين (من رجال القرن الثالث عشر) أن آلافا من النساء جرين عرايا عبر القرى والمدن لاثذات بصمت عميق (٢٥) . وفي مدينة لوتيش Luttich كان يتجمع الكثير من الناس ، ويكثرون من الصياح في تشنجات هستيرية (٢٦) ، الأمر

Alphandery, les croisade d'enfants, p. 277. (٢٢)

Runciman, A History of the Crusades, III. p. 41. (٢٣)

Alphandery, les croisade d'enfants, p. 278. (٢٤)

Nudae etiam mulieres crica idem tempus nichil (٢٥)

Loquentes per villas et civitates cucurrerunt.

Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 3. (٢٦)

الذى حده باحد المؤرخين المحضين لاني لاقول ، بلانه كانت هناك دائما مسحة
(مسحة) من الجنون تسيطر في الهواء ، (٢٧) .

وفي وسط هذا الجو المشحون بالرؤى والأحلام المقدسة والتي ساعد على
انتشارها وتصديقها ، الجهل الذى تعاني منه الغالبية العظمى من سكان الغرب
الأوربي ، وحالات اليأس من الأمراض المستعصية والوبئة ، والاعلان عن قرب
يوم القيامة . هذه الاسباب جعلت الناس تتجه ببصرها نحو السماء في انتظار
انخلاص يحدث معجزة . ومن ثم فقد انتشر للعديد من الدعاة الجائلين الذى
كانوا على درجة كبيرة من النشاط والانتشار خصوصا في فرنسا وألمانيا ، وكان
هؤلاء الدعاة يحضون الناس على التوبة لخلاص ارواحهم . في نفس الوقت
ثم يكتفون مطلقا عن التبشير بالحروب الصليبية ، ودعوة العامة والهلب مشاعرهم
بضرورة استعادة بيت المقدس من ايدي المسلمين ، وذلك بابرار المشاركة
المثيرة للرجال والنساء في الحملات السابقة . فقد كان لكل مهتما بضرورة
التغلب على الفشل الذى اصاب الحركة الصليبية ، وضرورة طرد المسلمين
من الأرض المقدسة (٢٨) .

واذا كان المبشرون الجائلون يقدمون عظاتهم الى العامة ، فلاشك

Zacour, The children crusade, p. 328.

(٢٧)

(٢٨) في دراسة عن الشعر والتاريخ ، يقول صاحب الدراسة ان القصائد
والأغاني « لم تكن سوى انعكاس أمين للتفكير الشعبي في القرنين الحادى
عشر والثانى عشر . ولابد أن نعترف بأن العامل الدينى كان موجودا في الحركة
الصليبية ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب الخفي ، ولم
يكن تدينا عقلانيا حقيقيا » . أما الأغاني التى تناولت الدعوة للحروب الصليبية
خاصة بعد استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس عام ١١٨٧م فقد كانت بمثابة
رجع الصدى للصدمة التى اصاب الغرب . وبدأت أغنيات وقصائد الحروب
الصليبية تتحدث عن المتخلفين وبدأت صياغات الترغيب بالفقران وخدمة
الرب الذى عانى على الصليب ، ثم التهديد بسوء العقاب في يوم الحساب الأخير
تتسرب الى هذه القصائد . »

قاسم عبده قاسم « الشعر والتاريخ ، دراسة تطبيقية على شعر الحركة
الصليبية » المجلد التاريخي ، العدد ٢٩ ، ١٩٨٣م .

أنهم كانوا يتخفون من سيرة المسيح نفسه ومن آباء الكنيسة والشهداء موضوعا لواعظهم . أن المسيح الذى ضحى بنفسه من أجل خلاص البشرية قد أتى بالمعجزة وهو لا يزال طفلا ، وعاش حياته فقيرا ، فمما لاشك فيه أن فكرة للحياة والموت مثل المسيح ، ومن أجل المسيح ، بدأت تسيطر بدورها على عقول العامة (٢٩) .

لقد أثبتت الأحداث أن الأباطرة والملوك وكبار الإقطاعيين والجيوش الهائلة قد فشلت في تخليص الأرض المقدسة ، وذلك بسبب كبريائهم وذنابلهم . لقد سيطرت القدس وتلك هى رذائل العظماء .

لقد أصبح تحرير القدس والأرض المقدسة في حاجة الى معجزة . والمعجزة لم تكن لتتم الا مع حماسة الانتقاء من الاطفال والفقراء ، لان الاطفال الذين وهبهم الله البراءة والطهارة والعامة للذين عاشوا في الفقر يستحقون العيش في وثام مع المسيح (٣٠) .

وهكذا كان المناخ مهيبا امام ستيفن الفرنسى ونيقولا الألمانى لكى يرى كل منهما رؤياه المقدسة لقيادة جيش من الاطفال لتحرير بيت المقدس من قبضة المسلمين .

وتبدأ قصة صليبية الاطفال في ربيع وصيف سنة ١٢١٢م (٣١) .

Alphandery, les croisades d'enfants, pp. 278-279; (٢٩)

Raets, La croisade des enfants, p. 37.

Alphandery, les croisades d'enfants, p. 279; (٣٠)

Mayer, The crusades, p. 204; Raets, la croisade des enfants, p. 37.

(٣١) بالرغم من غرابة هذا الحدث وأهميته الا ان بعض المؤرخين لم يهتموا بتدوين أحداثه أو التعليق عليها ، واكتفوا بإشارات مقتضبة ، مثل حج الاطفال ، خروج الاطفال ، حملة الاطفال ، تجمع عظيم للأطفال للذهاب للأرض المقدسة . انظر .

Continuatio claustroneoburgensis tertia (MGH, SS., IX),

حيث خرجت جماعات غفيرة من الأطفال تجوب فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وكان بعض هؤلاء الأطفال في سن صغيرة جدا . وكانوا يحملون الصليبان والأعلام والشموع والأجراس ويرددون الأناشيد والأغاني التي يقولون فيها أنهم سوف يخلصون الصليب الحقيقي الأسير عند المسلمين الشرقيين . كان بعض هؤلاء الأطفال يعرفون وجهتهم فكانوا يقولون أنهم خارجون إلى الأرض المقدسة أو خارجون إلى الله ، أما الآخرون فكانوا يلتزمون الصمت ، وحينما كان يسألهم سائل عن وجهتهم كانوا يقولون أنهم لا يدرون شيئا .

إن الفكرة الأولى لهذه الحملة الصليبية تعود إلى الطفل ستيفن وهو أحد الرعاة الصغار من قرية كلوى Cloyes بالقرب من فيندوم Vendome ويحكى عن هذا الطفل أنه ترك قطيعه لكي يتبع أحد المواكب الدينية ، وعند عودته رأى حيواناته المتفرقة تعود إليه وتركع في خشوع . ولم يكن هذا الحدث فريدا من نوعه ، فقد حدث قبل ذلك للقسيس ماميس القيساري Saint Mammes ولعدد آخر غيره (٣٢) . ولكن الجديد في الأمر ، والذي كان مثيرا حقا ، هو ما رواه ستيفن نفسه . فقد روى أن المسيح قد تجلى له بشخصه بينما كان ذلك الراعي الصغير يرعى غنمه ، وكان ظهور السيد المسيح في صورة رجل فقير ، وتقبل منه الخبز الذي أعطاه إياه على سبيل الإحسان ، ثم أعطاه المسيح رسالة موجهة إلى ملك فرنسا ، وأمره أن يمضى داعيا إلى حملة صليبية جديدة (٣٣) .

-
- p. 634; *Chronicon El Wacense* (MGH, SS., X), p. 37;
Annales Zwifaltenses (MGH, SS., X), p. 58; *Ellenhardi Argentinensis annales* (MGH, SS., XVII),
p. 101; *Heinrici Heimburg. Annals* (MGH, SS., XVII),
p. 714; *Annales Thuringici Breves* (MGH, SS., XXIV),
p. 41; *lores Temporum* (MGH, SS., XXIV), p. 240.

Alphandery, *Les croisade d'enfants*, p. 260. (٣٢)

D.C. Munro, «The children's crusade», *American Historical Review*, XIX (1914); p. 518; Alphandery, *les croisade d'enfants*, p. 260; Raetz, *La croisade des enfants*, p. 31, Mayer, *The crusades*, p. 204. (٣٣)

وما إن أعلن ستيفن رؤياه حتى تجمع حوله عدد لا بأس به من الرعاة في مثل سنة ، وجانبوا معا القرى والمدن المجاورة وهم يغنون بلهجتهم الفرنسية يا الهنأ أعلى من شأن المسيحية ومجدها ، يا الهنأ رد إلينا الصليب الحقيقي (٣٤) . وسرعان ما تجمع جمهور غفير خلف ستيفن الذي كان متوجها لمقابلة الملك فيليب . وقد وصل ستيفن بمقافلته الصغيرة إلى سان دينيه S. Denis فأثار مشاعر التدين العاطفي في نفوس مشاهديه . وذكرت المصادر أن الرب قد أظهر معجزات كثيرة من خلال ستيفن أمام الجماهير وشهد كثيرون على حدوثها (٣٥) . في نفس الوقت كانت هناك تجمعات كبيرة من الأولاد الذين عاملتهم الجماهير بوقار وتقديس عظيم في كثير من الأماكن نتيجة للاعتقاد بأنهم أيضا قد أظهروا المعجزات . وعلى طول الطريق انضمت إليهم حشود كبيرة من الأطفال بغية السير تحت قيادتهم للانضمام إلى الطفل المقدس ستيفن الذي اعترفوا به جميعا سيذا وأميرا لهم (٣٦) . وكانت هذه الجماعات تتكون من الأولاد والبنات وبعض الشباب وأشخاص أكبر سنا . وساروا في موكب متعاقبة عبر القرى والمدن والقلاع حاملين الآرايات ولشموع والصليبان وبأيديهم المباخر ، ويتغنون باللهجات المحلية ، وعندما كان يسألهم أبائهم أو أناس آخرون إلى أين هم ذاهبون ؟ أجاب كل واحد منهم كما لو كانت تحركهم روح واحدة د إلى الله ، (٣٧) .

«Domine Deus, exalta christianitatem. Domine Deus, (٣٤)

redde nobis veram crucem.»

Sigeb. Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 467;

Ex Annalium Rotomagensium Continuationibus (MGH, SS., XXVI), p. 501.

Alphandery les croisade d'enfants, p. 260; Rohricht, (٣٥)

Der Kinderkreuzzug, p. 4.

Munro, The Children's Crusade, p. 518; Rohricht, Der (٣٦)

Kinderkreuzzug, p. 4.

«Quasi uno edocti spiritu Singuli et univers responderunt : (٣٧)

Ad Deum».

لا شك أن الرسالة التي حملها ستيفن قد حيرت الملك فيليب أوغسطس الذي كان مشغولا بالعديد من الأمور والمشاكل السياسية ، فرأى أن يستشير أستاذة جامعة باريس في شأن هذا التجمع للهازل من الأطفال . وكان طبيعيا أن يقوم الملك بصرف الطفل ستيفن بعد أن زوده بنصحه بأنه يجب عليه أن يعود إلى منزله وأن يختبه إلى واجباته وأعماله الرعوية . ثم صدرت الأوامر بعودة الأطفال إلى آبائهم دون تأخير (٣٨) .

لم تثبط الاهانة الملكية همة الغلام ، وبدأ ستيفن في التبشير والدعوة إلى الحملة الصليبية عند مدخل دير القديس دينيه ، وأعلن أنه سوف يقود حملة من الأطفال لانقاذ العالم المسيحي ، وكان ستيفن قد وهبه الله قوة خارقة في الفصاحة ، تأثر به كبار السن ، وهرع إليه الأطفال ملبيين بدعوته ، واذ تحقق أول انتصار له أخذ يطوف بانشاء فرنسا ، يدعو الأطفال ، بل إن عددا كبيرا من الذين آمنوا بدعوته أخذوا يجشرون ويدعون باسمه إلى مشروعه . وجرى الاتفاق على أن يتم التجمع بعد حوالي شهر في فيندوم ، ومنها يستأنفون سيرهم إلى الشرق (٣٩) . غير أن هناك بعض الآراء التي ترى أن هذه الحركة قد انتهت في سان دينيه لأن الأطفال قد اضطروا تحت وطأة الجوع إلى العودة (٤٠) . أو أنه تم الإمساك بعدد كبير منهم وجندوا للقتال

Willelmi chronica Andrensis (MGH, SS., XXIV), p. 754;

Ex Annalibus Gemmeticensibus (MGH, SS., XXVI),
p. 510;

Munro, The children's Crusade, P. 518; Zacour, The
Children's Crusade, pp. 330-331.

Alphandery, les croisade d'enfants, p. 261; Mayer, (٣٨)
The crusades, p. 204; Raets, La croisade des en-
fants, p. 31.

Runciman, A History of the crusades, III, p. 140. (٣٩)

Ex annalibus Gemmeticensibus (MGH, XXVI), (٤٠)
p. 510;

Munro, The children's crusade, pp. 518-519.

ضد الأليجنسين (٤١) والرواية الثالثة تقول أن الملك بعد أن استشار أساتذة
باريس أصدر أوامره بعودة الأطفال إلى منازلهم (٤٢) .

لاشك أن الملك فيليب قد أصدر أوامره بعودة الأطفال إلى ذويهم ، ولكن
هل تم تنفيذ هذا الأمر ؟ هناك رأى يقول انه لم يستجب لأمر الملك بالعودة
الافئة قليلة من الأطفال . ومن ثم فقد باهر بعض رجال الدين وبعض العلمانيين
المستعيرين بايقاف هذا المشروع المخوف بالخاطر ، الا ان الجمهور تصدى لهم
ومنهم بالقوة ، فقد رأت الجماهير ضرورة استكمال مسيرة الأطفال . ووجه
انعامه اتهاماتهم إلى رجال الدين قائلين لهم اذا كنتم لا تعتقدون في مشروع
الأطفال وتريدون اعاقبتهم عن استكمال مسيرتهم ، فان ذلك لن يكون الا بدافع
الحسد والغيرة (٤٣) . وقد نتج عن مساندة العامة لحركة الأطفال
وقوع بعض الاضطرابات ، ففي قرية روكورت Rocourt قام السكان بنهب
أملاك كهنة سان كوينتن وذلك لسد احتياجات الأطفال الصليبيين في هذه
المنطقة (٤٤) .

Zacour, The children's Crusade, p. 330. (٤١)

وذلك اعتمادا على قول مؤرخ مورتمير بأن النذوب الروماني قد عين في العام
التالي جموعا كبيرة من أجل للصليب لحملة صليبية جديدة .

Sequenti anno contigerunt. Nam Legatus Romanus
Gallie Fines ingressus, copiosam multitudinem
in crucifix nomine cruce Signavit.

Sigeb. Auct. Mortui Maris ((MGH, SS., VI), p. 467.

ولكن ذلك لا يعني أن الأطفال قد تم تجنيدهم في هذه الحملة .

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 5; Alphandery, les (٤٢)
croisade d'enfants, p. 261; Munro, The children's
crusade, p. 519.

Alphandery, les croisades d'enfants, p. 261. (٤٣)

Alphandery, les croisades d'enfants, pp.261-262. (٤٤)

ومن التأثير للدهشة ، أنه في خلال شهر ولحد لنضم الى دعوة سان دينيه ثلاثين ألف طفل (٤٥) ، لم يتجاوز الولد منهم الثانية عشرة من عمره . وبالنظر الى اتساع الحركة وانتشارها نجد ان المؤرخين يشيرون اليها بانها قد امتدت لتشمل معظم بلاد الغال ، او انها كانت في مملكة فرنسا ، وان الأطفال قد اتوا من مدن وقلاع وقرى وحقول من مقاطعات متعددة من بلاد الغال (٤٦) . وكانوا خليطا متنوعا من الفلاحين السذج والرعاة الذين سمع لهم آباؤهم عن طيب خاطر بأن يمضوا في هذه البعثة الكبيرة ، اما الأطفال الذين لم يسمح لهم آباؤهم بالرحيل فقد بكوا بكاء مرا (٤٧) . وكان منهم ايضا صبيان انحسروا من اسرات شريفة، تسللوا من دورهم ولحقوا بمستيفين وأتباعه «الأثرياء الصغار» كما نعتهم المؤرخون ، ومن بينهم أيضا ، فتيات صغيرات ، وبضعة قسوس شبان ، فضلا عن جماعة قليلة من الحجاج ، وبعض الأتقياء من البالغين . ومن الحق أيضا ان جماعات أخرى لم تنضم اليهم الا لتشارك في الهدايا والصدقات ، كما انضم الى المسيرة أيضا بعض الفاسقين والعاشرات . وقدمت الجامعات متزاحمة الى المدينة يرأس كل منها قائد يحمل العلم الفرنسي

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., (٤٥)
XXIII), p. 893.

ويبدو ان الأطفال كانوا من الكتلة حتى ان أحد المؤرخين يقول ان الله وحده الذي يعلم عددهم .

Ex annalium Rotomagensium continuationibus (MGH, (٤٦)
SS., XXVI), p. 501.

Sigeb. Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 467;

Ex annalibus S. Medardi Suessionensibus (MGH, SS.,
XXVI), p. 521;

Ex annalibus Gemmeticensibus (MGH, SS., XXVI),
p. 510;

Ex annalium Rotomagensium continuationibus (MGH,
SS., XXVI), p. 501.

Reineri annales (MGH, SS., XVI), p. 665. (٤٧)

القديم ذو اللون الأحمر والذي كان من عادة ملوك فرنسا أن يتسلّموه من مقام
مير سان دينيه عندما يخرجون للقتال . وقد اتخذها ستيفن وزملاؤه رمزا على
تصميمهم لاستعادة المدينة المقدسة (٤٨) . ويصف أحد المؤرخين هذا للتجمع
المحمل للأطفال وعن تقبل الناس لهذه الظاهرة بقوله أنه كان يبدو لمعظم الناس
أن الله كان على وشك أن يفعل شيئا عظيما وجديدا من خلال هذه الجموع
الثلاثائية البريئة التي تجتمعت مع بعضها (٤٩) . ويقول مؤرخ آخر أنها كانت
نخيرا لأحداث المستقبل ، ويعنى تلك الأحداث التي وقعت في السنة التالية
والتبشير للحملة الصليبية الجديدة (٥٠) .

شرعت الحملة في مغادرة فينيدوم متجهة لى مرسيليا ، بعد أن باركها
اصداؤها من القسس ، وبعد أن تنحى جانبا آخر الآباء الذين اشتد أساهم
لفراق أبنائهم . وسار معظم الأطفال راجلين ، أما ستيفن الذي كان يرى فيه
الجميع رئيسا وقائدا لهم فقد أعوا له عربة تفتنوا في زخرفتها وزينتها ،
تعلوها مظلة لتحميه من الشمس ، ولم ينكر أحد من الأطفال على نبيهم الأهم
أن تتوافر له الراحة أثناء سفره ، بل تم إعداد حراس مسلحين لحراسته ،
وعاملوه على أنه قديس ، حتى أن أي فرد كان يعتبر نفسه من المحظوظين إذا
تمكن من الحصول على شعرة من شعره ، أو خيط من رداؤه ، لأنهم اعتبروا
هذه الأشياء من المقدسات الدينية القيمة التي ينبغي اقتناؤها (٥١) .

كانت للرحلة شاقة ، إذ كان الصيف شديد القيق ، واعتمد الأطفال في

Runciman, A History of the crusades, III, p. 140; (٤٨)

Alphandery, les croisades d'enfants, p. 262.

Munro, The children's crusade, p. 519. (٤٩)

Sigeb. Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 417.; (٥٠)

Munro, The children's crusade, p. 519.

Runciman, A History of the crusades, III, PP. 140 141; (٥١)

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 5; Munro, The children's Crusade, pp. 519-520.

طعامهم على ما يتصدق به الناس عليهم ، وأضحى الماء شحياً نادراً ويئس كثير من الأطفال عن إمكانية مواصلة الرحلة الساقة ، فتركوا القافلة محاولين العودة إلى منازلهم . كما مات عدد كبير من الأطفال على جانبي الطريق . ورغم ذلك فإنه كان تجمعاً عظيماً من عدة آلاف من الأطفال الذين تدفقوا في النهاية على مدينة مرسيليا (٥٢) . وبات الأطفال ليلتهم ، وفي صبحية لليوم التالي احتشسوا على ساحل البحر ليشهدوه وقد انشق أمامهم ليمبروه إلى الأرض المقدسة ، وهي النبوة التي تنبأ بها ستيفن الذي اعتقد أن الله سيزوده بمعجزة كالتي منحها لنبيه موسى عليه السلام ، واعتقد أنه سيخرج باتباعه لتخليص الأرض المقدسة سيراً على الأقدام ، مثلما خرج موسى ببني إسرائيل عبر البحر الأحمر . ولما لم تحدث المعجزة استبد اليأس بالأطفال ، وتحول بعضهم لمهاجمته وعلا صياحهم بأنه قد خدعهم وأخذوا يهودون من حيث أتوا . ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الأطفال ومعهم بعض الحجاج والقساوسة ظلوا ينتظرون على شاطئ البحر معتقدين أنه بعد مرور فترة مناسبة ستحدث المعجزة (٥٣) .

وحدث بعد بضعة أيام ، أن تاجرين من تجار مرسيليا أشارت الروايات إلى أن اسم أحدهما هيو الحديدي Hugo Ferreus والآخر وليم الخزير Guilelmus Porcus عرضاً على الأطفال أن ينقلهم عبر البحر إلى فلسطين دون أن يكلفهم أية نفقات حباً في الرب . ولما وثق الأطفال ومن معهم من حجاج آخرين في العرض الذي قدمه التاجران ، ركبوا سبع سفن كبيرة انطلقت بهم في عرض البحر (٥٤) . أما هؤلاء الأطفال فقد انقطعت أخبارهم ولم يعرف أحد المصير الذي آتوا إليه حتى سنة ١٢٣٠م حين وصل إلى فرنسا أحد

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., (٥٢)

XXIII), p. 893.

Runciman, A History of the crusades, III, 141. (٥٣)

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., (٥٤)

XXIII), p. 893.

القسيس قادما من الشوق ، أخذ يروي قصة غريبة ، اذ قال انه أحد صغز القسيس الذين سبق أن صحبوا ستيفن الى مرسيليا . وأنه استقل معهم السفن التي قدمها للتاجران ، ولم تنقض الا بضعة أيام عليهم في البحر ، حتى تعرضوا لقسيس سييء ، فتحطمت سفينتان على الصخرة المسماة Rectus في جزيرة سان بيتر (٥٥) جنوب سردينيا ، وغرق كل الركاب ، أما السفن الخمس الأخرى فقد توجهت الى ميناء بوجيه على ساحل الجزائر وإلى الاسكندرية ، حيث اسواق الرقيق (٥٦) . وقام التاجران المرسيليان ببيع للصبية الى قادة المسلمين وتجار الرقيق . وقد اشترى وإلى الاسكندرية الجانب الأكبر من الحمولة (٥٧) ، ووفقا لرواية القسيس لازال منهم على قيد الحياة نحو سبعمائة (٥٨) .

على أن بعض هؤلاء الأطفال الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة كانوا احسن حظا ، لأن امير مصر وقتذاك وهو الملك الكامل الأيوبي ، كان شديد الشغف باللغات والآداب الغربية ، فاستراهم وابقاهم عنده للعمل مترجمون وكتاب ومعلمون ، ولم يحاول ان يحملهم على اعتناق الاسلام ، فاقاموا في القاهرة في أسر مريح مين (٥٩) . ومن هؤلاء الأطفال أيضا اشترى الخليفة الناصر اربعمائة جميعهم من الكهنة ، وثمانين منهم كانوا من اللقساوسة . وقام الخليفة بعزلهم عن الآخرين ، وعاملهم بكرم على غير ما كان متوقعا ، ذلك لأن هذا الخليفة كان قد تلقى تعليمه في باريس متخفيا في هيئة كاهن (٦٠) .

Ibid, p. 893. (٥٥)

Ibid, p. 893. (٥٦)

Ibid, p. 893. (٥٧)

Ibid, p. 894. (٥٨)

Runciman, A History of the Crusades, III, p. 144. (٥٩)

De quibus califas 400 in parte sua emit, amnes clericos, (٦٠)
quia ita eos ab aliis segregare voluit, inter quos
erant 80 presbiteri, et honestius Omnes Suoi More

=

وفي نفس السنة التي بيع فيها الأطفال ، اجتمع امراء المسلمين في بغداد حيث قاموا بخيخ ثمانية عشر طفلا لأنهم رفضوا التخلي عن عقيدتهم المسيحية .
أما الباقيون فقد تربوا وعاشوا في الرق والعبودية .

وعندما تم الاتفاق بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني اللذين كانت تربط بينهما صداقة متينة ، وتم عقد معاهدة ١٢٢٩م . كان من بين بنودها اطلاق سراح هؤلاء الأطفال اللذين مازلوا في الأسر . وتبعاً لذلك جرى اطلاق سراح هذا القسيس ، وتقرر السماح له بالعودة الى فرنسا .

وبعد ان اورد Albrici قصة التاجرين وما فعلاهم بالأطفال الفرنسيين يعود في النهاية ويقرر انه قد تم شنتهما فيما بعد بسبب تأمرهما مع المسلمين ضد الامبراطور فردريك الثاني . وهكذا جعلتهما الرواية في آخر الأمر يؤديان جزءاً ما ارتكبا من جرائم (٦١) .

غير ان بعض المؤرخين رفضوا قبول ان يكون الأطفال الفرنسيين من اتباع ستيفن قد وصلوا الى ميناء مرسيليا ، تقول دانا مونرو ويؤيدها زلور ، ان هذه القصة تعتمد فقط على الدليل الذي قدمه أحد القساوسة للذي

tractavit. Ist est califas, de quo superius dixi, quod
in habitu clerici parisiis studuit.

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS.,
XXIII), p. 893.

Duo quoque Supradicti traditores Hugo Ferreus et (٦١)
Guilelmus Porcus postea venerunt ad principem
Sarracenorum Sicilie Mirabellum, et cum eo tra-
ditionem impertatoris Frederici facere voluerunt,
Sed imperator de eis dante Deo triumphavit et Mi-
rabellum cum duobus filiis et istos duos traditores
in uno patibulo suspendit.

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS.
XXIII), p. 894.

لدهى أنه عاد من الشرق ، رغم أن هذه القصة مليئة بالأخطاء الواضحة ، مثل ذلك قوله أن ثمانين من الأطفال كانوا تسالوسة ، وأن المسلمين قد غلبوا الأطفال للتخلي عن عقيدتهم المسيحية . ويمكن تعزيز هذا الرأي بأن ما نسبته هذا القسيس إلى الخليفة وعن تلقيه العلم في باريس سنة ١١٩٥م متخيا في زى أحد الكهنة أمر يصعب تصديقه ، وإذا كان هذا القسيس قد قضى فترة عبوديته في مصر ، فكيف به إذن يعطى تفاصيل ما حدث في بغداد . وتضيف دلنا مونري بأنه لا أحد من المؤرخين قد أشار إلى جماعة الأطفال في أى مكان ما بين باريس ومرسيليا ، كما لا يوجد مؤرخ واحد من جنوب اللوار كتب أية اشارات عن الحركة ، ومن ثم فإن المعاصرين كانوا على حق ، وأن الأطفال الفرنسيين قد عادوا إلى منازلهم بعد أن طافوا يغنون في مولكهم لفترة من الوقت (٦٢) . ويضيف زاكور الذى يحاول الاحتياط لنفسه ، ولا يخفى حقيقة وصول الأطفال الصليبيين إلى مرسيليا ، ولكنه ينفى فقط أن يكون هؤلاء الأطفال من الفرنسيين جاوا من باريس وضواحيها ، ويعتمد في ذلك على رواية لثنين من المعاصرين اللذين يقرران أن الصليبيين الذين وصلوا مرسيليا قد جاوا من الأراضي المنخفضة ومن وادى الراين ، وكانوا من الفرنسيين والألمان (٦٣) .

ولما كان هناك رأى يقول بأن البابا جريجورى التاسع قد شيد في وقت لاحق كنيسة الأبرياء الجدد على جزيرة سان بترو التي تحطمت عليها السفينتين وغرقتا بالأطفال (٦٤) ، فقد اتخذ أحد المؤرخين من اكتشاف الأتريين لأطفال هذه الكنيسة سنة ١٨٦٧م دليلا على صحة الأخبار التي وصلت عن حملة ستفين . ولكن زاكور يتشكك أيضا أن تكون الأطلال التي اكتشفت هي بالأصل أطلال للكنيسة المذكورة (٦٥) . ولذلك يحاول أن يبحث عن دليل آخر لتأكيد

Munro, The children's Crusade, p. 520; Zacour, The (٦٢)

Children's Crusade, p. 337.

Zacour, The children's crusade, p. 337. (٦٣)

Chronica Alabrii monachi Trium Fontium (MGH, SS., ٢٦٤)

XXIII), p. 893.

Zacour, The Children's Crusade, pp. 337-338. (٦٥)

وجهة نظره. محاولا التشكيك في صحة الرواية التي تتهم التجارين المرسيليين بشحن الأطفال وبيعهم في أسواق الرقيق . ويشير إلى أن كلا من ميو الحديدي ووليم للخزير كانا شخصين معروفين تماما - من المتبايرين - وبالنسبة للأون فقد كان قاضيا ونائبا عن الفيسكونت . وبهذه الصفة كان لزاما عليه أن يعالج المشكلة التي فرضتها وصول قافلة الأطفال الصليبيين إلى الميناء . أما وليم للخزير فإنه لم يكن تاجرا مرسيليا ولكنه كان القائد البحري لأسطول مدينة جنوة ، كما أنه خدم الامبراطور فردريك الثاني كقائد لأسطوله (٦٦) ، ثم اضطر إلى الفرار من صقلية بعد أن غضب عليه الامبراطور سنة ١٢٢١م .

ربما كان Albrici صاحب رواية للتجارين على علم بهذه الأحداث ، وكان يعلم أيضا أنه في نفس هذا الوقت تقريبا قبض فردريك الثاني على القرصان المسلم ابن عبس وشنقه هو وأولاده في بالرمو . وقد ربط Albrici بين هذه الحوادث التي لاعتلاقة لاحداها بالأخرى لنخرج بقصة للتجارين المرسيليين للشريبرين اللذين باعا أطفال المسيحيين للمسلمين ، وتآمرهما فيما بعد ضد الامبراطور ، وفي النهاية يولجها في النهاية الحتمية حيث تم شنقهما . ثم يخرج بعد مناقشة ذلك بأنه لا يوجد دليل على أن احدا منهما قد شنق ، أو أن أيهما منهما كان يعرف الآخر (٦٨) ويستطرد في المناقشة قائلا بأن رواية Albrici قد تكون على درجة من القوة إذا ما قبلنا اقتراح رينولد روريش Reinhold Rohricht بأن Albrici قد اختلطت عليه الأسماء ، واستخدم اسم وليم للخزير Porcus المشهور.

Zacour, The children's Crusade, p. 338. (٦٦)

Willelmus Scilicet admiratus cumipsum capere vellet, (٦٧)

Sicut divine placuit voluntati, manus eius aufugit, et a

liminibus regni coactus indebite Se paravit.

Marchisii Scribae annales (MGH, SS., XVIII), pp. 146-

147; Zacour, The Children's Crusade, p. 338.

Zacour, The Children's Crusade, p. 339.

(٦٨)

جدلا من اسم وليم يوسكويرس ، Posqueres المصور وذلك تحتى العقبات
التي تعترض قبول هذه الرواية . ولكن زكور لا يستسلم مقررًا بأن هناك من
الأدلة ما يثبت بأن وليم يوسكويرس وهو الحديدى كانا مشتركين في عام
١١٩٠م في حصار مدينة عكا ، وقد كافا جاي لوزجان اهل مرسيليا على
جهودهم بمنحهم الامتيازات التجارية في عكا (٦٩) .

ان زكور ربما كان متحقا في وجهة نظره ، ولكن في حماسته لتأييدها قد ناقض
نفسه في أول دليل ساقه إلينا، فيذكر في البداية ان وليم وهو شخصان مشهوران ،
١. لوانهما قاما بمثل هذا العمل القبيح ، 'اذن لعلم معظم المعاصرين بذلك ،
ولكنه يعود بعد ذلك ليؤكد بآفته لا يوجد دليل يثبت أن كلا منهما كان يعرف
الأخر ، وهذا ينفي عنهما صفة الشهرة . ثم أنه يقرر أيضا أن هيو كان نائبًا
عن الفيسكونت في مرسيليا ، وبهذه الصفة كان لزاما عليه أن يعالج المشكلة
التي أوجدها وصول الأطفال الصليبيين إلى الحفاء . ومن الواضح أنه ليس
هناك ما يمنع هيو حتى وهو بهذه الصفة من التآمر ضد الأطفال . أنه يحاول
تكتيب رواية تآمر للتاجرين المرسيليين لعدم وجود الأدلة الكافية لاثبات
صحتها ، في نفس الوقت فإن الأدلة التي ساقها غير كافية لتبرئة ساحة كل
من وليم وهيو من الاتهامات التي لصقت بهما ، ولا سيما وأن استنراقهما في حصار
عكا سنة ١١٩٠م لا يعتبر دليلا على عدم قيامهما بالتآمر ضد الأطفال سنة
١٢١٢ م .

وطالما أن كلا من الروائيتين في حاجة إلى الأدلة والبراهين ، فإن ذلك
لا يدفعنا إلى رفض قصة صليبية الاطفال الفرنسية كلية ، لأنه كما ثبت
بالفعل كان هناك اطفال من الفرنسيين وصلوا إلى ميناء مرسيليا ، وكما تقول
المصادر المعاصرة انهم كانوا من الفرنسيين والألمان (٧٠) ، فلاشك اذن أنه كان

Zacour, The Children's Crusade, p. 339. (٦٩)

Chronicae regiae Coloniensis Continuatioprime (MGH, (٧٠)

CC., XXIV), pp. 17-18.

هذا بالإضافة إلى أن كثيرا من المصادر التي تناولت الحملة الألفنية

=

يغلب عليهم الطابع الفرنسي ، لأن كل الأطفال الألمان تقريبا - كما سيأتى ذكرهم - قد عبروا ألمانيا الى إيطاليا • كما أن هناك من الشواهد ما يؤكد وصول الأطفال الفرنسيين الى شاطئ البحر فيقول أحد المؤرخين أن الأطفال كانوا مصرعين صوب البحر (٧١) ويقول مؤرخ آخر أن الأطفال كانوا سيمبرون للبحر للبحث عن الصليب الحقيقي (٧٢) • كما أن متى الباريسي يقرر بأن الجموع التى صاحبت ستيفن قد هلكت لما على الطريق أو فى البحر ، ويضيف مؤرخ مجهول بأن الأطفال كانوا يسيرون صوب البحر (٧٣) •

وإذا كان الاعتراض قد بنى أساسا لرفض فكرة قيام بعض للتجار بصرف النظر عن أسمائهم ببيع أطفال المسيحيين للمسلمين ، فإن هناك دليلا جديدا يؤكد قيام بعض للقرصنة ببيع بعض أطفال الحملة الألمانية ، من الأطفال الفرنسيين والألمان للمسلمين (٧٤) •

كما أنه يصعب تصديق استسلام الراعى الصغير الذى صمم على مقابلة ملك فرنسا - ولم يكن ذلك بالأمر العادى - ثم عدم استسلامه لانصراف الملك عن دعوته وعدم تأييده لها ، وخروجه من لقاء فيليب وهو أكثر حمية

= قد ذكرت بأن الأطفال قد تجمعوا من اقاليم ألمانيا وفرنسا ، لكن دون الإشارة الى تولجدهم فى ميناء مرسيليا •

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172; *Chronicon Ebersheimense* (MGH, SS., XXIII), p. 450; *Reineri annales* (MGH, SS., XVI), P. 665; *Annales Colonienses maximi* (MGH, SS., XVII), p. 826.

wilhelmi chronica Andrensis (MGH, SS., XXIV), p. 754. (٧١)

Ex annalibus S. Medardi Suessionensibus (MGH, SS., XXVI), p. 521. (٧٢)

Munro, *The Children's Crusade*, p. 519; Alphandery, *Les Croisade d'enfants*, p. 262. (٧٣)

..., et illic aliqui navibus recepti et a piratis divecti, Sar-Venduntur. (٧٤)

Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450.

وحماسة يدعو إلى مشروعه الذى استجاب له حوالى ثلاثين ألف من الأطفال
فول بعد هذا النجاح يمكن قبول فكرة أن مشروع ستيفن قد انتهى ببعض
الزيارات الطولية لبعض المدن والقرى ؟

وطالما أن ستيفن ورفاقه قد ساروا في مراكب متعددة يطوفون فرنسا ،
فربما وصلوا في طوافهم الى وادى الراين حيث انضم اليهم بعض الألمان
ثم اندحدروا منه صوب البحر الى ميناء مرسليليا . وهنا نجد المؤرخة دانا مونرو
— أول المسككين في الرواية — تعود فتذكر في تطبيقها على ذلك بأن وصول
الأطفال الى ميناء مرسليليا يثير من جديد قصة الأطفال الفرنسيين (٧٥) .

وهكذا فإن وصول الأطفال الفرنسيين الى مرسليليا حقيقة مؤكدة ،
وربما كانت المبالغة فقط في قصة القسيس الحائد ، أو بعض التفاصيل التي
تتعلق بمكيدة التاجرين . ولكن كما سبق القول فإن ذلك لا يدفعنا الى رفض
الرواية كلية .

على أية حال لم تكن صليبية الأطفال الفرنسية هي الحركة الوحيدة
التي خرجت من أوروبا في صيف عام ١٢١٢ م ، إذ يبدو أن انباء دعوة ستيفن
للحرب الصليبية قد وصلت ألمانيا خلال بضعة أسابيع من رحيله من سان
دينيه ، فأبى طفل المانى اسمه نيقولا Nicholas من قرية بالقرب من كلونى
أن يتفوق عليه ستيفن للفرنسى ، فقام بالتبشير لدعوة مماثلة وادعى أنه
ينزل عليه الوحي مثل الأنبياء ، وأنه كان يتلقى الرسالة من ملك من السماء .
وأعلن مثلما فعل ستيفن أن بإمكان الأطفال أن يتفوقوا على الكبار ، وأن
البحر سوف بنفج امامهم فيهيى لهم طريقا يجتازونه الى الأرض المقدسة ،
وبينما كان لزاما على الأطفال الفرنسيين أن يستخدموا القوة لفتح الأرض
المقدسة ، كان على الأطفال الألمان أن يحققوا غرضهم بتحويل الكفار الى
الى المسيحية (٧٦) . وسرعان ما تجمع حوله حشد ضخم من الأطفال تدفقوا

Munro, The children's Crusade, p. 522. (٧٥)

Runciman, A History of the crusades, III, p. 141. (٧٦)

عاشور ، للحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٥٥ — ٩٥٦ .

عليه من القرى والمدن الألمانية في جماعات تتكون من العشرينات والخمسينات والمئات (٧٧) مصممين وعازمين على انبات نخلهم فيما فشل فيه الكبار (٨٨)، وذلك بالاستيلاء على الأرض المقدسة (٧٩) • لم يقل الرب • قاسوا أيها الأطفال الصغار حتى تأتوا الى ، لأن في هذا مملكة السماء •

اشتهر نيقولا بما اشتهر به بطرس الناسك من الفصاحة الطبيعية والقدرة على العثور على تلاميذ فصحاء للمضى في دعوته والتبشير بها في أنحاء بلاد الراين • ولم تمض بضعة اسابيع حتى تجمع حشد هائل من الأطفال تجهز للمضى الى ايطاليا ومنها الى ساحل البحر المتوسط والتفوا حول نيقولا القائد الملهم الذى سيقودهم كعبريين جدد الى الأرض الموعودة (٨٠) ليقم في اورشليم

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (٧٧)
MGH, SS., XXIV), p. 17.

Reineri annales (MGH, SS., XVI), 665; *Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima* (MGH, SS., XXIV), p. 17-18. (٧٨)

Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355; *Gesta Treverorum continuata* (MGH, SS., XXIV), pp. 398-399; (٧٩)

Annales Colonienses miximi (MGH, SS., XVIII), p. 826;
Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426.

... Se transfretare debere, et Terram Sanctam, Sicut (٨٠)
fili Israel ex Egypto exeuntes terram illiam obtinuerunt, ita et ipsi eam sorte possiderent.

Richeri Gesta Sesta Senoniensis Ecclesiae (MGH, SS., XXV), p. 301.

او كما يقول مؤرخ آخر انهم اعلنوا أنهم سيتمكنون من السير فوق الامواج دون ان تبطل اقدامهم •

Asserebat se posse sicco vestigio maris undas transvadare...

Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450.

مملكة سلام إيدية (٨١) . ومعظم المصابر التي تحدثت عن قافلة الأطفال الألمانية ، تتحدث عنها كحملة صليبية ، أو كحجاج إلى الأرض المقدسة ، ووصفوا الأطفال بأنهم كانوا يحملون للصليب والكتب المقدسة وكان نيقولا نفسه يحمل صليبا على شكل حرف Tau اليونانية (٨٢) . وكان الأطفال أحدث والأكثر فقرا هم الغالبية السائدة في هذا الجيش ، ويبدو أنهم كانوا أساسا من الرعاة والمزارعين لأنه طبقا لما سجله المؤرخون من تسارعات أنهم قد تركوا محاريثهم وعرباتهم وقطعان ماشيتهم ، وسارعوا للانضمام إلى المراكب السائرة عبر الإقليم (٨٣) . ومن بين العشرين ألفا الذين انضموا إلى نيقولا كان يوجد بعض النساء والبنات والتسعين والخدم من الجنسين وأبناء بعض النبلاء، كما انضم إليهم عدد من ذوى السمعة السيئة من المتشردين والماعزات (٨٤) ، بل إن أحد المؤرخين يذكر أنه كان بينهم بعض الأطفال الرضع (٨٥) . كذلك اندس بينهم بعض اللصوص وقاموا بسرقة النقود التي تبرع بها المؤمنون والأتقياء للأطفال . وقد تم تنفيذ عقوبة الإعدام شغفا في أحد هؤلاء اللصوص في مدينة كلوني (٨٦) .

تركزت حملة الأطفال الألمانية منطقة الراين في صيف ١٢١٢م . وكان

Annales Colonienses maximi (MGH, SS., XVII), p. 826. (٨١)

Gestorum Treverorum Continuatio IV (XXIV), p. 399. (٨٢)

Annales Marbacenses (MGH, SS. XVII), p. 172; *Reineri annales* (MGH, SS., XVI), p. 665. (٨٣)

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172; *Annales Placentini Gueffi* (MGH, SS., XVIII), p. 426; *Annales Colonienses Maximi* (MGH, SS., XVII), p. 826; *Reineri Annales* (MGH, SS., XVI), p. 665; *Chronicon Ebersheimense* (MGH, SS., XXIII), p. 450; *Ogerii Panis Annales* (MGH, SS., XVIII), p. 131. (٨٤)

Annales Placentini Gueffi (MGH, SS., XVIII), p. 426. (٨٥)

Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XII), pp. 826-827. (٨٦)

الناس ينظرون بعين الرضى والعطف على هؤلاء الحجاج الصغار ، ويتطوعون بتقديم الطعام وللتقود لهم ، ولم تجد هذه الحملة الا مقاومة بسيطة من جانب الآباء (٨٧) وبعض رجال الدين (٨٨) ، غير ان هذا لم يتسبب في تأخيرهم او تثبيط مهمهم . وكان الطريق الرئيسى للأطفال من وادى الراين مخترقين غرب سويسرا وممرات الألب الى ايطاليا (٨٩) . وقد اشير الى مرور بعض قوافل الأطفال بمدينة سبير Spires (٩٠) في ٢٥ يوليو ، ووصلوا الى بيكانزا (٩١) في ٢٠ أو ٢١ أغسطس ، وفي يوم السبت ٢٥ أغسطس ظهروا امام اسوار مدينة جنوة (٩٢) . كانت رحلة شاقة للأطفال تكبدوا فيها كثيرا من الضحايا اثناء اجتيازهم الغابات والمناطق الجبلية ، بسبب ما عانوه من التعب والمصاعب وشدة حرارة الطقس ، وندرة المياه وقلة الطعام ، فمات عدد كبير من الأطفال على الطريق ، وانسحب عدد آخر ، عابوا الى منازلهم اما بسبب عدم قدرتهم على تحمل مشاق الطريق

(٨٧) يقول مؤرخ كلونى ان الأطفال رفضوا الاستجابة لدعوة الآباء والأقارب والأصدقاء بالعودة .

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXVI), p. 17.

ومؤرخ آخر يقول : حاول كثير من الآباء منع الأطفال ولكن دون جدوى
Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

ومؤرخ ثالث يقرر ان الأطفال لم يستجيبوا لتوسلات الآباء والأمهات .
Reineri Annales (MGH, SS., XVI), p. 665.

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172. (٨٨)

Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 827. (٨٩)

Annales Spirenses (MGH, SS., XVII), p. 84. (٩٠)

Annales Placentini Guelphi (MGH, SS., XVIII), p. 426; (٩١)

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 18.

Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII), p. 131; Munro, (٩٢)

The Children's Crusade, p. 522; Zacour, *The Children's Crusade*, p. 334.

أو بعد أن سلبهم للصوص اللومبارديون امتنعهم وتقدمهم (٩٣) . وهكذا لم يتبق مع نيقولا عند دخوله مدينة جنوة الأسبعة آلاف تقريبا (٩٤) . أهدت السلطات الجنوبية أول الأمر استعدها للترحيب بالحجاج الصغار ، غير أنهم بعد مراجعة أنفسهم ارتابوا في أن تكون تلك مكيدة للمانية للاستيلاء على المدينة ، ولهذا فلم يسمحوا للحملة إلا بقضاء ليلة واحدة فقط . غير أن كل من أراد الاستقرار بصفة دائمة في جنوة سمح له بذلك (٩٥) . واذ توقع الأطفال أن البحر سوف ينشق أمامهم في صبيحة اليوم التالي ، وافق الأطفال على شروط الجنوبية . وفي الصباح لم ينشق البحر ولم يستجب لصلواتهم مثلما جرى للأطفال الفرنسيين في مرسيليا . واذ اكتشفوا هذه الحقيقة باسرع عدد كبير من الأطفال إلى قبول عرض الجنويين (٩٦) ، فاضحوا مواطنين جنويين بعد أن تخلوا عن منبروعهم ، وزعمت أسرات جنوبية عديدة فيما بعد أنها انحدرت من هذه الهجرة الأجنبية (٩٧) .

ويبدو أن عدم تحقق النبوءة التي بشر بها نيقولا جعل الأطفال ينقسمون إلى جماعات متفرقة أخذت تبحث لنفسها عن وسيلة تنقلهم عبر البحر إلى الأرض المقدسة ، أما الذين انتقلوا إلى ميناء مرسيليا (٩٨) ، أو مدينة فينيديم *Vienneiam* القريبة من الشاطئ فقد تم شحنهم في بعض السفن ، وحملهم القراصنة وباعوهم في أسواق الرقيق الشرقية (٩٩) . كما لتجهت مجموعة أخرى إلى بيزا واستقلوا سفينتين للشحن ، ولم يسمع شيء عن أخبارهم

Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 827. (٩٣)

Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII), p. 131. (٩٤)

Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142; Rohricht, *Kinderkreuzzug*, p. 7. (٩٥)

Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142. (٩٦)

Alphandery, Les Croisades d'Enfants, p. 266; *Runciman, A History of the Crusades*, III, p. 142. (٩٧)

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 18. (٩٨)

Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450. (٩٩)

بعد ذلك (١٠٠) ، أما المجموعة الثالثة التي وصلت برنديزي ، فقد اكتشف رئيس أساقفة المدينة الكائد التي تدبر ضد الأطفال واستطاع ان يقنعهم بالمدول عن القيام برحلتهم (١٠١) ، وربما يكون قد منعهم من ركوب السفن . بيد ان الغالبية العظمى من الأطفال بعد ان استبد بهم اللأس قد توجهوا بقيادة نيقولا الى روما ، وهناك تم اعفاء الأطفال للصغار والرجال المسنين من الوفاء بنذرهم ولكن سمح لهم فقط بتأجيل الوفاء به الى وقت لاحق (١٠٢) . وقد بذل البابا أنوسنت الثالث قصارى جهده لمنع الأطفال من الابحار خارج إيطاليا فأرسل اثنين من الكرادلة الى تريفيز Treviso لمنع الأطفال من ركوب البحر (١٠٣) ، وضرورة العودة الى منازلهم .

وهكذا لم يبق أمام للصليبيين الصغار سوى العودة من حيث اتوا . فساروا على الطريق عائدين فرادى أو في مجموعات صغيرة صامتين محزونين ،

Richeri Gesta Senoniensis Ecclesiae (MGH, SS., XXV), (١٠٠)
p. 399.

(١٠١)

يعلق أحد المؤرخين على ما أصاب الأطفال بقوله انه قد بيع الكثير منهم كرقيق في أماكن متعددة .

Continuatio Admuntensis (MGH, SS., IX), p. 592.

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, (١٠٢)
SS., XXIV), p. 18; Annales Marbacenses (MGH,
SS., XVII), p. 172.

Papa Innocentio, missis cardinalibus, apud Tarvisium (١٠٣)
Ytaliae repellitur.

Annales Sancti Rudberti Salisburgenses (MGH, SS.,
IX), p. 780.

عن تجول الأطفال بين المدن والقرى الإيطالية . انظر .

Munro, The Children's Crusade, pp. 522-523; Zacour,
The children's Crusade, p. 334; Rohricht, Der Kin-der
kreuzzug, p. 7; Alphandery, Les Croisade d'en-
fants, p. 265.

يجرون أنيال الهزيمة والعار . أما الأمايى الذين زودهم باحتياجاتهم أثناء مسيرتهم المظفرة فقد صموا آذانهم عن توسلاتهم وأغلقوا الأبواب في وجوهم في عودتهم ، بل إن هؤلاء الأطفال صاروا هدفا لسخرية الناس وأضحكة الجميع ، وبدأوا في عبور جبال الألب ، في شهر أكتوبر أو نوفمبر وهم متعبون ممزقو الثياب ، حفاة الأقدام ، مع قلة ما يتحصلون عليه من الطعام ، فقتل البرد منهم مئات عديدة . وقد استغل القوادون عودة الفتيات الصغيرات فغروا بهن وأوقعوهن في شرك الرذيلة (١٠٤) . ومن عجيب الأمر أن نرى تلك الفتيات اللاتي خرجن وقد امتلأن حماسة دينية منقطعة النظير ، ذراهن وقد سقطن هذا السقوط المفاجئ . وبدلا من أداء الحج في الأرض المقدسة ، صرن يحملن أطفال العار على صدورهن (١٠٥) .

وصل البعض إلى بيوتهم بالكاد ، وتشتت عدد منهم في كل مناطق إيطاليا حيث اضطروا للحنن لاعالة أنفسهم ، أما بعض أولاد الأشراف والنبلاء فقد استقبلتهم العائلات الإيطالية ولستقروا معهم وتزوجوا منهم .

أما مصير الطفل نيقولا نفسه فيقال إنه قد أوفى نخره وأبحر إلى الأرض المقدسة وأنه شارك في الحملة الصليبية الخامسة واشترك في القتال أثناء حصار دمياط ، وأخيرا عاد إلى وطنه ، وآخرون يقررون أنه مات في إيطاليا .

Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXVIII), p. 450; (١٠٤)

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172;

Gestorum Treavorum Continuatio IV (MGH, SS.,

XXIV), p. 339; *Annales Colonienses Maximi* (MGH,

SS., XVII), p. 827; Munro, *The Childrens Crusade*,

p. 523;

Rohricht, *Der Kinderkreuzzug*, p. 7; Zacour, *The Children's Crusade*, p. 335.

Rohricht, *Der Kinderkreuzzug*, p. 7.

(١٠٥)

Continuatio Admuntensis (MGH, SS., IX), p. 592.

(١٠٦)

أما أهالي كلونى فقد صدمتهم الأحداث ولتهموا والد فيقولوا بأنه هو
لذى شجعه على هذا المشروع ، وحكموا عليه بالشنق (١٠٧) .

وهناك سؤال قد يتبادر الى الأذهان ، ما هو موقف آباء الأطفال
من هذه الحملة ؟ وكيف وافقوا على اشتراك أبنائهم في هذا العمل الجنونى ؟

ويجب أحد المؤرخين على ذلك بقوله يجب ألا يخفى عنا أن هؤلاء
لم يتركوا دائماً منازلهم لدموع آبائهم ، أو أنهم تركوا الأمن والدفع حول
مُدعاة الأسرة ، ولكن الحالة السائدة بين فلاحي أوروبا في ذلك الوقت جعلت
الآباء يستريحون من التلخص من أعباء بعض الأنواء غير النافعة ، فالحياة
في شمال أوروبا كانت بالغة الصعوبة ويؤكد كانتور الحالة السيئة التى كان
يعانى منها الغرب الأوروبى في بداية القرن الثالث عشر قائلاً أنه يجب ألا
يعمينا التحسن النسبى في أحوال الفلاحين الاقتصادية وخصوصاً في فرنسا
وألمانيا ، حيث كان القن في تلك البلاد في طريقه لأن يصبح مزارعاً صغيراً
مستقلاً . فان المزارع ظل عبر سنوات طوال يطق على كوكبه المتداعى شبح
الموت جوعاً (١٠٨) .

إن العامل الاقتصادى إذن كان من أهم أسباب خروج حملة الأطفال ،
وإن خروجهم الى الأرض الموعودة كان أحياء جديدا لحملات العائمة (١٠٩) خرجت

Gestorum Treavorum Continuatio IV (MGH, SS., (١٠٧)
XXIV), p. 339.

(١٠٨) كانتور ، التاريخ الوسيط ج ٢ ، ص ٧٣٧ - ٧٣٨
Raets, La croisade des enfants, p. 32.

(١٠٩) يجب الاحتياط عند وصف حملة الأطفال بأنها إحدى حملات العامة
ولكن من حيث السلوك والهدف فإن هناك فروقا واختلافات جوهرية بين
حملات العامة التى خرجت وكلها أمل في الاستيلاء على ثروات المسلمين ،
والتي كانت تنصف بالعرف والعسوة واللبانة حتى مع لخوانهم المسحيين ،
وبين حملة الأطفال المسالة التى كان يعتقد أفرادها في أن لرب سيحقق
معجزاته من خللهم مشر الأبرياء .

من أوروبا للهروب من الفقر والبطس وفي نفس الوقت تمرد على النظم الاجتماعية في الغرب الأوربي ، لأنه إذا كان الرب قد اختار الفقراء لنخيطس القدس فهذا يعنى انهم الفئة المقربة من الرب وأن فقرهم لم يعد مصدرا للخجل (١١٠) ، انهم لهذا السبب وبالرغم من أن الفقر كان حملا ثقيلا إلا أنه سيتحول بهم الى رسالة عليا وذلك بتحرير القدس المدينة التي مات فيها المسيح وبعت والتي سيعود اليها في اواخر الزمان ليحكم على الأحياء والأموات . ان تحرير المدينة المقدسة بالنسبة لهم هو بداية الزمن الأخير حيث تتحقق وعود الرب ويفتخر كل الياس والمذاب الذي يسحق الانسانية . أن السرب سيقيم في القدس الالهية مع تسعة وسيمسح كل آلامهم ، وإن يكون هناك موت ولا ألم ولا دموع (١١١) . لقد وعد الرب شعبه ان كل الذين عانوا من الفقر مع المسيح سيكافأون بمستقبل زاهر .

ولذا كان اللحم بالأرض التي تفيض لبنا وعسلا قد أغرى أسلافهم في سنة ١٠٩٦م ، فقد مارس هذا اللحم سحره على أبنائهم . وكان هناك الكثير من الآباء الذين لا يملكون سوى التمنيات الطيبة لأبنائهم ، فقد يجدون الخلاص الذي لن يتوفر لهم في حجرة مهملية في المدينة أو كوخ ريفي بسيط .

وفي دراسة عما إذا كانت كلمة Pueri اللاتينية التي ذكرت في المصادر التي تناولت حملة الأطفال والتي تترجم بصفة عامة بأطفال أو شبان صغار ، تعنى هذا المعنى الذى يعبر عن مرحلة من العمر أو ما إذا كانت تعنى فئة اجتماعية معينة يميل البعض الى اعتبارها ترمز الى طبقة اجتماعية ، وأنها ترمز الى أى شخص يكون في وضع من التبعية أو الخدمة بل إنها يقصد بها الطبقة الكاسحة والدينيين المجاورين وكذلك الأبناء المحرومين من الأيراث واضطروا الى العمل لكسب قوتهم (١١٢) . ولكن هذا الرأى مردود عليه بأن معظم من أرحوا لهذه الحملة قد حددوا سن الأطفال المشتركين فيها وذلك عندما

Raets, La Croisade des enfants, p. 37.

(١١٠)

Raets, La Croisade des enfants, pp. 33-34.

(١١١)

Raets, La Croisade des enfants, p. 32.

(١١٢)

يذكرون أنه اشترك معهم بعض البالغين ، وهذا يعني أن أكثرهم كان دون البلوغ (١١٣) .

حقيقة لقد انتهت صليبية الأطفال نهاية مؤلمة ، تثير العطف والشفقة ولاشك أنها تركت آثارا واضحة على معاصريها وأبلغ دليل على ذلك القول المحسوب للبابا انوسنت الثالث عندما قال ان هؤلاء الأطفال وضعونا في موقفنا مخجل ، لأنه بينما نحن مستغرقين في النوم ، فقد اندفعوا لتحرير الأرض المقدسة (١١٤) . غير أن البابا انوسنت الثالث لم يكن من البساطة بحيث يترك هذا الحدث يمر دون الاستفادة منه ، لأنه في أعقاب ذلك مباشرة في عام ١٢١٣م أرسل مبشريه للدعوة لحملة صليبية جديدة ضد المسلمين لاستعادة بيت المقدس . وظل مندوبه روبرت كورسون ، طوال سنة ١٢١٣م يطوف بإرجاء فرنسا ، والغريب في الأمر ، وما يؤكد ما عرضناه في تمهيد الظروف التي أنتجت حملة الأطفال الصليبية ، ان جموعا بالغة الضخامة من الشيوخ والأطفال والبرصى والمقعدين والنساء ذلت السمعة السيئة احتشدوا سويا

(١١٣) يذكر مؤرخ كلوني أنهم كانوا ألقا كثيرة من الأطفال ما بين سن السادسة ومن الرشد ..

Multa milia puerorum a 6 annis et supra usque ad virilem etatem...

Chronicae Regiae Coloniensis continuatio prima, (MGH SS., XXIV), p. 7.

بينما يذكر مؤرخ آخر أن المشتركين في الحملة كانوا من الأطفال وبعض الحمقى من البالغين .

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172.

وتذكر دانا مونرو أن ثمانية من المصادر قد وصفت المشتركين في الحملة بأنهم كانوا من الرجال والنساء والبنات والصبيان .

Munro, The Children's Crusade, p. 521.

Papa auditis hiis rumoribus, ingemiscens ait : Hii pueri (١١٤)

ri nobis in properant, quod ad recuperationem terrae Sanctae eis currentibus nas dormimus.

Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

لنيسنوا الحرب المقدسة (١١٥) ، ثم بدأت تظهر الرؤى المقدسة ، ففي سنة ١٢١٦م اثناء جئوة الحماس في للتبشير والاعداد للحلة الصليبية ، بدأ يتردد ما صدر عن الشعب من رؤيات عن الصليبان المأبحة في الهواء ، والتي دأعت بتفاصيلها ، كما أن البابا انوسنت الثالث نفسه كان معتقدا بأن نبوءة دانيال على وشك أن تتحقق ، بعد أن لاحظ أنه كاد يمضي على رؤية الوحش ، السنوات المحددة بها ، وعددها ستمائة وست وستون سنة ، كما أنه انقضى فعلا على على مولد محمد - عليه السلام - ستة قرون ونصف قرن (١١٦) .

كان هناك فريق من الناس الذين لظهوروا تماثلا واضحا مع الأطفال وشسفتوا عليهم واعتبروا أن هذه الحركة كانت نتيجة للالهام السماوي (١١٧) أو رسالة من أحد الملائكة (١١٨) أو الى الرؤى المقدسة (١٢٩) . أما الفريق الآخر فقد تصوروا أن هذه الحملة لم تكن من فعل الله ولكنها كانت من عمل الشيطان (١٢٠) ، حينما اجتهدوا في وضع تفسيرات للنهاية المؤلة التي آل اليها مصير الأطفال ، فانهم يتوصلون فقط الى قصص خرافية - من امثال ذلك ما يحكى أن عجزو الجبل قائد القتل والسفاحين ، قد أطلق سراح اثنين من رجال الاكليروس كانوا في سجنه بعد أن أهرمهم بأن يجمعوا له كل أطفال فرنسا . وقد استطاع هذان الرجلان عن طريق الأعمال السحرية أن يجمعا الأطفال البؤساء الى هذه الحملة الصليبية الخاطئة (١٢١) . وثمة

Runciman, A History of the crusades, III, p. 144; Ma- (١١٥)
yar, The crusades, p. 206.

Runciman, A History of the Crusades, III, p. 145. (١١٦)

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172. (١١٧)

Gesta Treverorum Continuata (MGH, SS., XXIV),
p. 398.

Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426. (١١٨)

Munro, The Children's Crusade, p. 517. (١١٩)

Mayer, The Crusades, p. 205. (١٢٠)

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 8; Alphandery, Les (١٢١)
Croisade d'enfants, p.269.

راى يقول : لقد كان ستيغن الفرنسى طفلا لم يشب عن الطوق ولكن حياته كانت تتسم بالخسة والدناءة والرذيلة ، وإن الشيطان قد صمم على إهلاك رفاته (١٢٢) .

أما أكثر التعليقات إثارة للدهشة تلك التى أراد بها توماس فولر الذى كتب بعد أحداث حملة الأطفال بأربعة قرون يحاول أن يبين أن الشيطان هو الذى كان وراء خروج هذه الحملة لأنه أى الشيطان كان يريد أن ينعش نفسه بدماء الأطفال ليريح معدته الضعيفة المتخمة بقتل الرجال (١٢٣) .

هكذا تحولت صليبية الأطفال من تعبير عن واقع اجتماعى ودينى وسياسى للغرب المسيحى فى العصور الوسطى ، إلى مجموعة من الأساطير تعبر بدورها عن الجو الفكرى والنفسى البائس .

وقبل أن ننهى حديثنا عن هذه الحملة الصليبية يجب الإشارة إلى أنه ليست هذه أول مرة يظهر فيها الأطفال فى تاريخ الحروب الصليبية ، فقد دخلوا تاريخ هذه الحركة مع آبائهم ، لأن النداء الذى صدر فى أول عام ١٠٩٥م للدعوة للحرب المقدسة ، لم يحدد السن أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية وقد لصطحب الفقراء وهم راحلون إلى الأرض المقدسة عائلاتهم ، الكبير منهم والصغير على عربات متواضعة . وتردد كتب تاريخ الحروب الصليبية للعبارة الشهيرة التى قالها جيوبرت من نوجنت Guibert of Nogent « كان الأطفال يتساقطون كلما راوا مدينة جميلة فى الطريق : هل هذه هى اورشليم » . حقيقة الأمر لم يكن لغالبيتهم سوى دور سلبي ، فقد ماتت معظم الأسر الفقيرة من الجوع أثناء الطريق ، وبسبب العطش عبر صحارى آسيا الصغرى ، وقد هلك أيضا أطفال آخرون أثناء الحملات الصليبية الثانية والثالثة .

Zacour, The children's Crusade, p. 340. (١٢٢)

Thomas Fuller, The History of the Holy Warre Cambridge, 1940), p. 152. (١٢٣)

Alphandcry, Les Croisade d'enfants, p. 266. (١٢٤)

ومع ذلك فقد حدث في مرات عديدة أن حمل الأطفال أسلحة بدائية وكونوا مجموعات هاجموا بها أطفال المسلمين . وقد وصف Guibert of Nogent معارك الأطفال تحت أسوار أنطاكية (١٢٥) . كذلك يصف ابن شداد وابو شامة ، القتال الذي دار بين طفلين من أطفال المسلمين وطفلين من أطفال الصليبيين أمام عكا (١٢٦) .

كما أنه من الأخبار المثيرة حقا عن تاريخ الحركة الصليبية أن البابا أوربان الثاني قد أمر في سنة ١٠٩٩م بوضع اسم Nicolas le Peregrim في عداد القديسين . وكان نقولا هذا أحد دعاة الأطفال القادمين من بلاد اليونان سنة ١٠٩٤م . وقد جاب نقولا كل المزارات الدينية في إيطاليا حاملا معه صليبا على هيئة Tau اليونانية . وتبعته مجموعات من الأطفال كانوا يرتلون معه للتسبيحات المقدسة (١٢٧) .

وإذا كانت حملة الأطفال قد برهنت على مدى ما يمكن للهرس الديني والتعصب والجهل أن يفعله في مجتمع ما ، فإننا لابد أن نقرر أن هذا التيار الديني العاطفي لدى شعوب الغرب الأوربي ، كان هو الطية التي امتطتها الكنيسة والعلمانية في العصور الوسطى لتحقيق مآربها السياسية . وبينما فهم الناس في أوربا آنذاك مثل هذه الأمور على أنها وسيلة للخلاص المادي والروحي ، نظرت الكنيسة إلى الفكرة للصليبية باعتبارها إحدى أدوات السياسة البابوية ، في الدخول وفي الخارج على حد سواء . ولم تختف هذه الموضات المتوهجة في التاريخ الأوربي الوسيط ، فقد تجلت في سماء المجتمع الأوربي عدة مرات منها ما حدث سنة ١٢٣٧ ، ١٢٥١م ، ١٢٨٤م (١٢٨) .

أعلنا من روح التدين الهستيري .

Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 267. (١٢٥)

(١٢٦) بهاء الدين ابن شداد ، النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ، ١٩٦٤) ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ٢ (القاهرة ، ١٢٨٨) ص ١٤٣ .

Alphandery, Les Croisade d'enfants, pp. 267-268. (١٢٧)

Zacour, The Children's Crusade, pp. 340-341; Rohricht, (١٢٨)

Der Kinderkreuzzug, p. 8.

الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية

للمكتور قاسم عبده قاسم

استاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب الزناتريق

الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية

الظاهرة التاريخية لا تثبت من فراغ ولا تظهر فجأة من طيات الجهن ، وإنما هي نتاج تفاعل طويل ومستمر ، عبر الزمان ، لمجموعة من العوامل والعلل والأسباب والكيفيات . فإذا ما تم التفاعل ، وباتت الظروف التاريخية مواتية ، تجلت الظاهرة على مسرح التاريخ . وهذا هو ما يجعل مشكلة السببية في التاريخ من أعقد المشكلات التي تواجه المؤرخين . فليس بمقدور أى من المؤرخين أن يرصد كافة الأسباب والدوافع وراء ظاهرة تاريخية ما . ولكن كل مؤرخ يحاول أن يتقصى الأسباب التي تتبدى واضحة له . وهنا يكون محكوماً بخلفيته الثقافية وموقفه الفكرى . ولعل هذا يفسر لنا السبب في اختلاف مدارس التفسير التاريخي في عصرنا الحديث . ولأن المؤرخ اليوم مطالب بأن يجيب على السؤال الذى يبدأ بكلمة « لماذا » ، بدلا من أن يحكى لنا « ماذا » حدث ، فإنه سوف يسعى بالضرورة وراء الدوافع والأسباب .

والحركة الصليبية مثال جيد للدلالة على صديق هذه المقولة . إذ أوضح المؤرخون اللاتين المعاصرون للحركة الصليبية منذ بدايتها أن هذه الحركة كانت نتاجا لمجموعة عوامل معقدة للغاية . كما أن هذه الحركة نفسها كانت ظاهرة بالغة التعقيد . ومن ثم فإن أية محاولة لشرحها أو تفسيرها في ضوء عامل واحد : مثل الحماسة الدينية ، أو جوع زعماء الصليبيين الى الأرض ، أو الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للقاهرة التي عانى منها الفلاحون ، أو رغبة التجار في الحصول على الامتيازات للتجارية ، أو تأرب البابوية السياسية . . أو غيرها - هذه المحاولة سيكون مآلها الفشل على الرغم من أن كل دافع من هذه الدوافع كان واضحا في الحركة الصليبية بالفعل . ومن ناحية أخرى ، فليس بمقدورنا أن نميز بخط فاصل بين أهداف الزعماء وأهداف العامة الذين أسمتهم المصادر اللاتينية « الحجاج الفقراء » ، لأن كلا من الفريقين قد اظهر من دلائل التدين ومن مظاهر الطمع الدنيوى ما يجعلنا نتخبط في حيرة إذا وضعنا أنفسنا رهن التصور الساذج بأن تصرفات كل فريق من

للمشاركين في الحملة الصليبية الأولى كانت تسهر على نهج واحد ، وتتميز بالاتساق والانسجام والتوافق . فقد كان الصليبيون هم أبناء الغرب اللاتيني الذين تحمسوا لحمل شارة الصليب بعد خطبة اربان الثاني في كليرمون سنة ١٠٩٥ (١) كما كانوا هم الذين عاثوا فسادا في الطريق صوب القدس ، ونهبوا واحرقوا المدن والقرى المسيحية في المجر والبلقان . وكانوا هم الذين وصمتهم أناكومنينا بالجشع وحب المال (٢) . كذلك كانوا هم الذين بدأوا في نهب وحرق مدينة القسطنطينية بالشكل الذي اغضب الامبراطور البيزنطي ثامرهم بعبور المضيق الى آسيا الصغرى (٣) . وكان اولئك الصليبيون هم الذين الهبهم الحماسة الدينية بعد ان أضناهم الحصار في انطاكية بسبب ما اشيع بينهم عن العثور على الحربة التي طعن بها المسيح عليه السلام ، كما كانوا هم أصحاب السمعة السيئة في عدم اللؤاء بعهود الأمان التي قطعونها ، وهم الذين أشاعوا عن انفسهم قصص الرعب وذبح البشر واكلمهم بعد شيهم على النيران (٤) . كان الصليبيون هم الذين ارتكبوا ابشع المذابح

Fulcher of Chartres, A history of the expedition to (١)
Jerusalem, 1095-1127, (Edited and translated by
Harold S. Fink, Knoxville 1969), p. 68; Gesta Fran-
corum et Aliorum Hierosolimitanorum, (ed. and
translated by : Rosalind Hill — U.S.A. (1962),
p. 2.

(٢) تقول أناكومنينا : « ... الجنس اللاتيني في كل الأوقات موصوم
بجشع غريب ونهم للثروة والمال ... » ، انظر :

The Alexiad of Anna Comnena, (transl. from Greek
by E.R.A. Sewter, Penguin 1979), p. 308.

Gesta, pp. 3-4. (٣)

(٤) ذكر وليم للصوري انه أثناء حوانث حصار انطاكية أمر بوهيموند
للنورماني بتعليق بعض الأسرى المسلمين فوق النار ، وأمر رجاله بأن يشيخوا
انهم سوف ياكلون اجساد من يقبض عليه من الجواسيس . انظر :
William of Tyre, vol, I, pp. 222-223.

بعد اقتحام مدينة بيت المقدس ، ثم ذهبوا لأداء صلاة الشكر في للضريح المقدس بوجوه تنطلق أرهافا وأيادى تقطر دما •

هذا التناقض في سلوكيات الصليبيين يولّيه تناقض آخر في انتماءاتهم الاجتماعية وإفكارهم ودوافعهم • فقد كانوا خليطا غريبا من الغاصرين والمتدينين ، من الحجاج واللصوص ، من الجنود وشذاذ الآفاق ، من النبلاء والفلاحين ، من المثاليين والهاربين من العدالة ، من الباحثين عن الخلاص • • كانوا رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا من شتى الطبقات والفئات الاجتماعية تحركهم مجموعة متناقضة ومتداخلة من الأهداف والدوافع •

وفي الحركة الصليبية ، كما في الحياة في أوروبا العصور الوسطى عموما ، يواجه المؤرخ خليطا مذهلا من التقوى والوحشية قد تحول تناقضاتها الصارخة دون أية محاولة لفهمها • وهى مثل أية ظاهرة تاريخية أخرى ، عبارة عن مجموعة من الأفعال الجزئية لآلاف الأفراد • وإذا كان هناك هدف عام تتحرك هذه الجموع باتجاهه ، فإن عمومية الهدف لاتمنع من أن تكون لدى كل طبقة دوافعها الخاصة ، بل وإن تكون لكل فرد أهدافه للشخصية • ومن ثم فإن أية محاولة لقولبة الدوافع في الظاهرة التاريخية داخل إطار فكرة مسبقة سيكون مآلها الفشل والاختلاق ، فالسببية ، كما ذكرنا ، من أهم وأعمد مشكلات البحث التاريخي • ذلك أن طبيعة الظاهرة التاريخية تجعل الزمن عنصرا أساسيا في تكوينها ، وهو ما يعنى تدخل الماضى في الحاضر بشكل يصعب تحديد مدام من ناحية ، وتغلغل أسباب ودوافع وعمل هذه الظاهرة للتاريخية في أعماق الزمن من ناحية أخرى • كذلك فإن الظاهرة للتاريخية لاتظهر بين عشية وضحاها ، ويترتب على ذلك ما سبق أن قرناه من استحالة إحصاء الدوافع والأسباب وراء الظاهرة للتاريخية بشكل جامع شامل •

وفيما يتعلق بالحركة الصليبية تبدو مشكلة السببية أكثر وضوحا بسبب الطبيعة المحيرة (المربكة لهذه الظاهرة ، فقد كانت حركة دينية بقدر ما كانت حركة سياسية ، كما كانت حركة اجتماعية اقتصادية مثلما كانت حركة فكرية وعسكرية •

وإذا كنا قد اشرنا ، الى صعوبة البحث عن الأسباب في الحركة الصليبية وروافدها الأساسية ، فإننا يجب أن نسير الى أن الهدف الايديولوجي العام والمعلن شيء ، والأسباب والدوافع الحقيقية شيء آخر . ذلك أنه في فترة الإعداد للحرب عادة ما يكون التركيز على الهدف الايديولوجي بقصد الحصول على للتأييد الشعبي العام ، وليست هناك ايديولوجية يمكن أن تجتذب جموع الناس مثل الايديولوجية التي تقوم على أساس ديني ، أو ترتدى مسوح الدين ، على الرغم من أن الدوافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، بل والأهداف الشخصية ، قد تكون في حقيقتها دوافع أكثر أهمية من الدافع الذي يحظى بمثل هذا الانتشار ، وفي الحركة الصليبية تمت صياغة الايديولوجية على أساس ديني . والحركة للصليبية مثال جيد على الاختلاف بين الهدف الايديولوجي المعلن للحرب ، والدوافع والأسباب الحقيقية التي تعتبر المحرك الفعال لمعطة الحرب لتحويلها الى وقع ملموس . ففي غمصار الحماسة والاثارة والحرارة التي صاحبت خطوات الإعداد للحرب ، منذ خطبة اربان في كليرمون حتى تحرك الجيوش على الطريق الى القدس والأرض المقدسة ، كان التركيز على الدافع الايديولوجي كبيراً (٥) . فقد تحدث اربان

(٥) لدينا عدة روايات من خطبة اربان في كليرمون ، فقد ذكر فوشيه وى شارتر أن البابا خاطب من تجمعوا لسماعه بقوله : « ايها الأخوة الاعزاء ، لقد جئت أنا اربان الأسقف الأعلى بإذن الرب ، وراعي العالم كله ، في هذا الوقت اليكم ياخداً الرب في هذه المناطق كرسول للعناية الالهية » . وأنه قال « ... الرب ، ولست أنا يهيب بكم كرعبة للمسبح ... أن تسارعوا الى استئصال شاةة هذا الجنس للشرير من أرضنا » .

Fullcher of Chartres, pp. 62-66.

كذلك ذكر رومير الراهب أنه قال « يا شعب الفرنجة ، يا من جئتم عبر الجبال ، يا من اختارهم الرب وأحبهم » .

Robert the Monk, (in Peters, (ed) The First Crusade, pp. 2-5.

انظر أيضاً : (in Riley — Smith (ed.) Guibert of Nogent, pp. 45-49.

في خطبته من أن الحرب ستكون في سبيل الرب ، ولافقاذ ضريح المسيح .
وفي اللوالبات المختلفة التي وصلتنا عن هذه الخطبة ترددت عبارات كثيرة
من الانجيل توحى بأن الحرب في سبيل الرب وشعب الرب . كذلك فإن
لدينا مجموعة من الخطابات التي أرسلها البابا بعد كليرون الى شتى أنحاء
الغرب الأوربي تحمل مزيدا من الدعاية للحملة المقترحة باعتبارها حربا
أمر بها الرب . ولدينا وثيقة عبارة عن خطاب من أربان الثاني الى الصليبيين
في إقليم الفلاندر ، وهو بتاريخ ديسمبر ١٠٩٥ ، يحث تعليمات البابا في
مصطلحات تؤكد على الجانب الديني في الحرب المقترحة (٦) . ولدينا ثلاثة
خطابات أخرى من سجل أربان الثاني أولها عبارة عن خطاب الى أتباعه
و بولونا بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٠٩٦ والثاني خطاب موجه الى الرهبان في
فالومبروسا Vallombrosa تاريخه ٧ أكتوبر ١٠٩٦ ، أما الثالث فتاريخه
على ما يرجح يرجع الى الفترة ما بين يناير ١٠٩٦ ويوليو ١٠٩٩ ، موجه
الى بعض الكونتات وفرسانهم حول الحملة المقدسة (٧) . هذه الخطابات
لم تكن هي الوسيلة الوحيدة للدعاية البابوية التي تنوعت وسائلها كما
سنسرى ، ولكن ما يهمنا هنا أن نشير الى أن الحركة الدعائية قد ركزت على
الجانب الايديولوجي القائم على أسس دينية .

وعندما أخذت حملة الحرب في الدوران ، بدأت تظهر الأهداف والدوافع
الحقيقية التي كانت متوارية خلف غبار الضجة الاعلامية للحرب . لقد تمت
صياغة الايديولوجية الصليبية على أسس ديني واضح ، وبهدف ديني محدد،
هو تخليص الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين . فهل كان الهدف الديني الذي
تمت على أساسه هذه الصياغة الايديولوجية هو الدافع الوحيد لهذه السلسلة

(٦) انظر نص هذا الخطاب في :

Peters (ed.), *The First Crusade*, pp. 15-16.

وهناك ترجمة أخرى لنفس الوثيقة باللغة الانجليزية ، انظر :

Riley - Smith (eds.), *The Crusades*, p. 38.

Ibid, pp. 38-40.

(٧)

من الحروب والحملات التي شغلت رقعة نسيحة من الزمان ؟ وهذا ما سوف نحاول دراسته في هذا البحث .

إذا كان بعض المؤرخين يعتبرون أن الحركة الصليبية كانت هي العامل الأساسي في التغيير التاريخي في أوروبا منذ القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر ، فإنا لا نستطيع أن نوافق على هذا الرأي . حقيقة أن الحركة الصليبية قد لعبت دورا في تطور أوروبا ، ولكن هذا الدور كان محدودا بحيث لا يمكننا أن نقول أنها كانت من العوامل المؤثرة في صياغة الحياة الأوروبية آنذاك .

وإذا ما تذكرنا أن الحركة الصليبية نفسها كانت نتاجا للتفاعلات التي أخفت تجرى على أرض الواقع الأوربي منذ القرن الحادي عشر ، وربما قبل ذلك بصورة أقل وضوحا ، لأدركنا أن هذه الحركة لم تكن عاملا سببيا قويا في تطوير أوروبا . إذ أن تأثير الحركة الصليبية لم يكن كافيا لتغيير اتجاه التطور في نظم الحكم والسياسة والاقتصاد والثقافة الأوروبية آنذاك ، وهو تطور كانت الحركة للصليبية إحدى ثماره . بل إن القرن الثالث عشر ، شهد بداية أعمال أوروبا للمثال الصليبي بسبب المشكلات الجديدة التي استغرت جهود الأوربيين في مجال الحكم والاقتصاد والفكر . والحركة الصليبية في تصورها كانت تعبيرا عن نماذج أساسية من الفكر والسلوك في الغرب الأوربي في تلك الآونة فهي تكتشف النقاب عن الناس في أوروبا العصور الوسطى في أفضل أحوالهم وفي أكثرها سوءا على حد سواء . هذه الحركة كانت بمثابة مسرح كبير تجلت فوقه خصائص أهل العصور الوسطى وخصالهم بصورة رائدة . وهذا هو السبب في اهتمامنا برصد الدوافع والأسباب التي حركت أولئك الناس لشن تلك السلسلة الطويلة من الحروب التي عرفت باسم الحروب الصليبية .

هكذا ، إذن ، ينبغي علينا أن نحاول رسم صورة حية للمجتمع الأوربي في القرن الحادي عشر ، بحيث نكشف عن القوى الاجتماعية التي كانت تؤلف

هذا المجتمع • لأن الحركة الصليبية بعد ذاتها كانت نقابا طبيعيا لهذه القوى الفاعلة في المجتمع الأوربي وتعبيرا عن تفاعلاتها •

وكان القرن الحادى عشر في أوربا بداية لفترة استمرت ثلاثة قرون تجلت خلالها سمات الحضارة الأوربية في المصور الوسطى بالقدر الذى جعل المؤرخين يصطلحون على تسمية هذه الفترة باسم العصور الوسطى العالية (أو الناضجة) High Middle Ages (٨) • فقد كانت تلك الفترة هى عصر الجنود والأبطال ورجال الدولة وزعماء الكنيسة • في تلك الأثناء كان الفلاحون الباحثون عن اراضى أفضل ، والمهاجرون الى المدن الجديدة للنائشة ، والتجار المسافرون على الطرق الأوربية وسعراء التروبادور المتنقلون بأغانيهم من قلعة الى أخرى ، والنسك المنسحبون من للعالم باغوائه وشروبه ، والمبشرون الجوالون ، والصليبيون والحجاج المتوجهون الى الارض المقدسة •• كان هؤلاء وأولئك جميعا بمثابة شهادات حية على أن وجه المجتمع الاوربي للغربى قد بدأ بتغير •

فى القرنين التاسع والعاشر كانت أوربا في موقف دفاعى ضد قوى الانسان والطبيعة على السواء • ولكن الأمر تغير في القرن الحادى عشر • ويمكن اتخاذ سنة ١٠٠٠ ميلادية كنقطة تحول في التاريخ الأوربي ، فقد بدأ عصر الزيادة السكانية ، التى تسببت في اضطرب الحياة الاجتماعية ، سواء في الريف أو في المدن النامية ، وبدأت حركة نشطة لاصلاح الأرض المهمة بقصد استزراعها في شتى انحاء أوربا الغربية • وبينما كان هناك من يحاولون للتنمية في الداخل ، كان هناك من يحاولون السعى وراء حظوظهم خارج الحدود • كان هذا القرن والقرن التالى له ، فترة التقدم والابتكار ، اذ بدأ

Philippe Wolff, The Awakening of Europe (transl. (٨)
from French by Anne Carter, Penguin 1968),
p. 208; Cantor, Med. Hist., pp. 265-70; Hoyt and
Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 304-
310; Painter, «Western Europe on the Eve o the
Crusades», p. 3.

الأوربيون يبنون المدن والكاتدرائيات ، كما بدأوا يكونون الثروات ويقترضون
الشعر (٩) • وفي هذا القرن أيضا خرجت الحروب للصليبية •

وقد كانت الحروب الصليبية جزءا من التوسع والنمو الأوربي في القرن
الحادى عشر ، كما انها افادت من الشكل الأولى للتفظيم الذى عرفته أوروبا
آنذاك • وفى غمار هذه الحركة الصليبية عبرت كل قوة من قوى المجتمع الأوربي
عن نفسها بطريقة حيوية للغاية • ولذا كانت الخلفية الايديولوجية التى
خرجت منها هذه الحركة قد شددت كافة القوى فى المجتمع الأوربي اليها ،
فلا حاجة بنا الى القول بأن دوافع هذه القوى للمشاركة فى المشروع الصليبي
لم تكن دينية فقط • وعلى الرغم من كل ما كتبه المؤرخون الأوربيون ، القدامى
منهم والمحدثون ، عن الحج والحرب المقدسة ، فانه سيكون من الخطأ ان نأمل
فى تفسير الحركة الصليبية فى ضوء الدين والنفسية الجماعية فقط • ذلك
أن الأسباب والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل والدوافع
الفردية الخالصة ، قد ساهمت مع الدافع الدينى (الذى كان اقلا أهمية)
فى دفع قوى المجتمع الأوربي للمساهمة فى الحملة المقترحة • فما هى تلك القوى
الاجتماعية الأساسية فى المجتمع الأوربي عشية الحروب الصليبية ؟

كانت هناك ثلاث طبقات رئيسية فى المجتمع الأوربي آنذاك ، فالنبلاء
(**الذين يحاربون**) ورجالا الكنيسة (**الذين يصلون**) كانوا يشكلون ضاغطين
الثلث ، ثم المزارعون من الأحرار والافتنان (**الذين ينتجون**) وكانوا بمثابة
قاعدة هذا الثلث الاقطاعى كما تصوره المعاصرون • ولكن الحقيقة ان التنبلاء
ورجال الكنيسة كانوا بمثابة جناحين (عسكري ودينى) لطبقة واحدة ، على
حين كان الفلاحون هم الطبقة الدنيا • وكان على أبناء هذه الطبقة ان يعملوا
أبناء الطبقة الحاكمة بجناحيها العسكري والدينى (الكنسى) • وقد رسم

Maurice Keen, The Pelican History of Medieval Europe (٩)
rope, (Penguin 1982), pp. 84-87; Bishop, The
Penguin Book of the Middle Ages (Penguin
1971), pp. 45-46.

هذا للتقسيم الثلاثي بدرجة جعلت المجتمع الأوربي ينكر على سكان المدن الجديدة (Bourg; Burg) اية مكانة قانونية بين طبقاته ، وهو ما جعل البورجوازيين (أى سكان البورج Burg) يتجهون الى شراء هذه الحقوق بأموالهم . وكان هذه الطبقة الجديدة فى المجتمع الأوربي آنذاك تتألف من أفراد جاءوا من خلفية اجتماعية غامضة أو مجهولة . ولراجع ان بعضهم كانوا من ابناء الشرائع الدنيا من الفرسان الذين لا يملكون ارضا ، والبعض الآخر من المزارعين الاحرار كما شاع بين الناس فى ذلك الحين ان بعضهم كانوا من الأتقان الذين استطاعوا شراء حريتهم . وكان هؤلاء البورجوازيون يكسبون عيشهم من صناعة المنسوجات ومن التجارة (١٠) .

ومن الناحية الاقتصادية كان النظام القطاعي يفرض نوعا من التخصص على طبقات المجتمع ، بيد انه كان تخصصا من نمط بدائي فح . فلم تكن الطبقة النبيلة المحاربة تعمل بالانتاج ، على حين لم يكن مطلوبا من الطبقة المنتجة ان تتخلى عن نشاطها الانتاجي لكي تشارك الطبقة النبيلة فى اعباء القتال . ولأن الفلاحين الأتقان والشرائح الدنيا من المزارعين الاحرار ، وسكان المدن الناشئة ، كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة فى المجتمع الأوربي ، فقد اتاح ذلك وجود قوة عمل كبيرة فى ظل النظام القطاعي ، ولكن هذا العمل كان قاصرا على الأرض ونتاجها المباشر . ومن ناحية آخر ، فان التجارة وحركة البضائع كانت مآتزال ضعيفة بسبب الرسوم والضرائب القطاعية العديدة التي فرضها السادة القطاعيون ، ومن ثم لم يكن هناك مكان للتجار فى الريف القطاعي ، وهو ما دفع بالتجار الى سكى المدن الجديدة . بيد انه لم يكن ممكنا ضمان الأمن والمكانة الاجتماعية فى المجتمع القطاعي سوى فى ظل السلم القطاعي

(١٠) عن هذا الموضوع انظر :

Henri Pirenne, *Economic and Social History of Medieval Europe*, (London 1972-9th ed.), pp. 42-49;
Cantor, *Med. Hist.*, pp. 267-268.

الذى يضم المساهم الاقطاعيين وافصاليهم (١١) •

كان الطابع الريفي هو الغالب على الحياة الأوروبية في القرن الحادى عشر (١٢) ولذلك كانت احوال المجتمع الأوروبى تأثر تماما بأحوال الاقتصاد الزراعى (عماد النظام الاقطاعى) • فقد كانت هناك أزمة في الاقتصاد الزراعى حوالى سنة ٨٥٠ ميلادية ثم اخذت هذه الأزمة تشدد وتتصاعد حتى وصلت ذروتها سنة ١٠٠٠ ميلادية تقريبا (١٣) •

وتصنفا الحوليات والمبونات التاريخية التى ترجع الى مطلع القرن الحادى عشر بأوصاف حية للجماعات التى انسبت مخابيها في تلك الانحاء • هذه المجاعات حيثت نتيجة لفشل الانتاج الزراعى في اللاحق بالزيادة السكانية • ويرى مارك بلوك (١٤) أن من السذاجة أن ندعى أننا نفهم الناس في مجتمع ما ، دون أن نعرف أحوالهم الصحية : بيد أننا مضطرين الى الاستقراء والاستنباط في حالة أوروبا العصور الوسطى بسبب افتقارنا الى الأدلة وقصور

(١١) مع اللقل للتي شهدا للقرنان التاسع والعاشر في أوروبا ، كانت الحاجة الاجتماعية الحقة هي الحماية وتوفير الأمن الذى لم يكن يستطيع توفيره سوى الأقوياء ، ولكي يقوم الأقوياء بهذه المهمة فقد كانوا بحاجة لمن يعملون لأطعامهم هم ورجالهم • وهكذا لم يعد يربط المجتمع ببعضه الالتزام بالصالح العام ، وإنما التزم كل فرد بالقسم الشخصى الذى قطعه لشخص آخر • وكان سلام المجتمع يتوقف على مدى وفاء أولئك الافراد بما قطعوه على انفسهم من عهد ، انظر : Keen, Pelican Book, pp. 51-57.

انظر أيضا : G. G. Coulton, The Medieval Scene, (Cambridge 1930), pp. 4-6.

Painter, «Western Europe», p. 9. (١٢)

Mayer, The Crusades, p. 22; Keen, pelican Book, p. 123; (١٣)

Duncoif, «The First Crusade : Clermont to Constantinople», in Setton (ed.), A hist. of the Crusades, pp. 253-255; Bradford, The Sword, pp. 30-31.

Marc Bloch, Feudal Society (The University of Chicago Press 1961), pp. 72-73. (١٤)

وسائل البحث • ولاشك في أن وفيات الأطفال في أوروبا القرن الحادى عشر (وقبل ذلك وبعد) كانت عالية • وبغض النظر عن أخطار الحروب الاقتصادية ، كانت الحياة في أوروبا آنذاك قصيرة وكثيية • ومن بين الكثيرين ممن حصدهم الموت في سن مبكرة ، كان عدد كبير يموت بسبب الأوبئة التى غالبا ما كانت تنشب مخابها في المجتمع الذى لم يكن يملك سلاحا فعلا لمقاومتها • كذلك كانت البجاعة وحشا فتاكا آخر يعصف بالفقراء من أبناء هذا المجتمع • فإذا أضفنا الى هذه الصورة للقاتمة أحداث العنف الناجمة عن الحروب الاقتصادية أدركنا مدى انعدام الأمن في حياة الناس آنذاك • وفي رأى بلوك أن المستوى الصحى المندى ، وافتقار المجتمع الى الأمن كان من أهم أسباب القلق الماطفى الذى تميزت به المجتمعات الاقتصادية في أوروبا عشية الحروب الصليبية •

حقيقة أن الأحوال بدأت تتحسن نسبيا بعد القرن العاشر ، وبدأت في القرن الحادى عشر حركة من النمو ومحاولات الخروج من الأزمة ، ولكن الصورة لم تتغير كثيرا • ولنفرض أن لدينا آلة تساعنا على أن نعود التفقرى عبر قرون للصخب والحروب لنلقى نظرة على الريف الأوروبى قرب نهاية القرن الحادى عشر ، فما الذى سنشاهده هناك ؟

أن أول ما يستوعى لنتباهنا هو ذلك العدد الكبير من الغابات التى تجرى إزالتها في سنى انحاء أوروبا لتوسيع الرقعة الزراعية • فقد كانت الغابات الكثيفة تحيط بالأراضى الزراعية حول القرى في كل مكان ، باستثناء المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة • وكانت أصولت فئوس الفلاحين وأصولت المناشير المستخدمة في إزالة هذه الغابات بمثابة النغمة الدالة على أن أوروبا قد بدأت مرحلة جديدة من النمو السكانى ، إذ كانت الأشجار تزال لتزورع مكانها المحصولات التى يحتاجها السكان كما أن لأشجار هذه الأشجار كانت تستخدم لبناء المساكن الجديدة في المدن للنامية • وعلى حواف الحقول كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من وقت لآخر لكي يزرعوا محصولا أو اثنين في الأرض التى خصبها الرماد • وقد شهد القرن الحادى عشر نسبيا في مجال الزراعة ،

سواء من حيث زيادة الرقعة الزراعية ، أو من حيث الأدوات التي يستخدمها
للفلاحون .

وإذا ما أخذنا في اعتبارنا النمو السكاني الذي شهدته أوروبا في ذلك
الحين ، ولاحظنا أيضا أن غالبية السكان كانوا من الفلاحين ، فإننا يجب
أن نبالغ في قيمة هذا التقدم النسبي . فالحقيقة أن هذا التحسن الذي طرأ
في مجال الزراعة لم يؤت ثماره في تحسين أحوال الفلاحين المعيشية ، فند
كان المستفيدون قلة من الفلاحين الذين يملكون محراثا ويملكون أيضا الثيران
التي تجره . أما الغالبية فلم تتحسن أحوالهم (١٥) .

وعلى العموم ، كانت حياة الفلاحين عابسة وغير آمنة ، فقد خربت
مساكنات كبيرة من الأرض للصالحه للزراعة بسبب الغزوات الجرمانية في
الفترة السابقة ، ثم غزوات الفيكنج والمجربين والمسلمين في القرن العاشر ،
فضلا عن الحروب الاقطاعية التي كانت تهدد بتمزيق اواصر المجتمع الأوربي .
ومن ناحية أخرى ، كان السادة الاقطاعيون غالبا ما يعارضون محاولة إزالة
الغابات والزراعة مكانها ، لأن هذه الغابات كانت هي المكان الذي يمارسون فيه
رياضة الصيد التي كانت شاغلهم الأساسي في غير أوقات الحرب والقتال .
كما أن للقرية التي لم تكن تتمتع بحماية أحد النبلاء الاقطاعيين غالبا
ما كانت تتعرض للسلب والنهب على أيدي المصابيات الاقطاعية المتحاربة ،
بل أن القرى كثيرا ما كانت تتعرض للحرق من جراء الغارات الاقطاعية ،
وعلى الرغم من أن الكنيسة قد حاولت أن تلعب دورا في حماية الفلاحين من
خلال حركة السلام . فان جهودها في هذا المجال لم تأت بالنتائج المرجوة .
اذ أن حركة السلام التي دعت اليها الكنيسة لم تكن تحظى بمساعدة أي

Wolff, The Awakening of Europe, pp. 198-202; Can- (١٥)
tor, Med. Hist., pp. 265-270; Painter, «Western
Europe», p. 3.

من كبار الأمراء الاقطاعيين مالم تكن لهذا الأمير مصلحة شخصية في لقرار
السلام (١٦) .

ومن ناحية أخرى ، كان الناس في ذلك الزمان أقرب الى الطبيعة منا في
العصر الحديث ، بمعنى أنهم كانوا تحت رحمتها ، فقد كانت الطبيعة أقل
استثناسا ونعومة مما تبدو اليوم . فأرض الريف التي كانت الجراى والمناطق
للبر تشكل شطرا كبيرا منها ، كانت مليلا على أن تاتير الانسان في الطبيعة
ضئيل ومحدود . فالحیوانات المتوحشة ، مثل الذبابة والذئب ، كانت تجوس
في هذه المناطق البرية في حرية تامة ، بل انها كانت تتجول بحرية أيضا في
الحقول المزروعة حول القرى . ولما كانت تلك هى الحال في الريف الأوروبى
في تلك الفترة ، فان الصيد للبرى لم يكن رياضة ترفيهية بقدر ما كان وسيلة
أمنية ضرورية لصماية الريف ، كما كان الصيد لحدی وسائل الحصول على
الطعام أيضا . كذلك كان الناس لايزالون يلتقطون ثمار الأشجار للبرية ،
ويجمعون عسل النحل للبرى ، مثلما كان الحال في زمن الانسان الأول . وكان
الخشب هو المادة الرئيسية المستخدمة في صناعة الأدوات والمعدات . وبسبب
الافتقار الى وسائل الاضاءة ، كانت ليالى الريف في غرب اوربا اشد ظلمة من
ليالى الريف الحالى ، كما كان البرد وطاة حتى بين جدران القلاع (١٧) .
باختصار كانت البدائية سمة أساسية من سمات للحياة الاجتماعية ،

Wood, The Age of Chivalry, pp. 96-7; pp. 96-7; Cowdrey (١٦)

«The Genesis of the Crusade», p. 14; Bryce D. Lyon

(ed.) The High Middle Ages 1000-1300 (U.S.A.

1964), pp. 3-7.

ويورد لنا هذا الكتاب نصا من مصرع شارل الطيب كونت الفلاندرز ، وهو
يحاول اقرار السلام . وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة التي كتبها
Galbert of Flanders ترجع أحداثها الى ما بين سنة ١١١٩ ، وسنة ١١٢٤م فان
قربها من زمن الحملة الأولى يجعلنا نعتد عليها لتصوير محاولات لقرار
السلام .

Coulton, Med. Scene, pp. 23-26.

(١٧)

فقد كان للناس ما يزلون تحت رحمة قوى الطبيعة ، وليست هناك وسيلة لقياس تأثير مثل هذه البيئة على عقول الناس ، ولكن المرجح أنها كانت من أسباب غلظتهم وبلادة حسهم .

كان شطر كبير من سكان الريف الأوربي من الأرقاء ، كما كان الأتقان يشكلون قطاعا هاما من سكان للريف . وكان الأتقان ، الذين يقفون في السلم الاجتماعي بين الأحرار من جانب آخر ، يمثلون شريحة اجتماعية تتزايد أعدادها باطراد في بعض مناطق أوروبا ، وتتناقص أو تكاد تختفي في بعض المناطق الأخرى . فبسبب عدم اقتصادية نظام اللق في إنجلترا تناقص عدد العبيد وزاد عدد الأتقان ، على حين تزايدت أعداد العبيد في جنوب فرنسا وأسبانيا (١٨) . وبنهاية للربح الثالث من القرن الحادي عشر كان نظام السيادة قد رسخ في كل من فرنسا وإنجلترا وغرب ألمانيا . وفي هذه المناطق ، كان كل رجل يعمل في فلاح الأرض ، تقريبا ، قد بات ملزما بشكل من أشكال الخدمة أو الإيجار تجاه السادة الاقطاعيين . أما في سكسونيا وبعض مناطق شرق ألمانيا ، فقد كان الفلاحون مايزالون يعتمدون على الملك بشكل مباشر ، ولكن النظام المعروف باسم نظام السيادة Seignorial System كان يستشري بسرعة بسبب الفوضى السياسية الناجمة عن النزاع بين الإمبراطور الألماني وإمراء سكسونيا المشاغبيين ، ولكن ، حتى في الأماكن التي ساد فيها نظام السيادة الاقطاعي ، كانت هناك اختلافات واضحة في الظروف والأحوال .

(١٨) وينبغي أن نلاحظ أن الكثيرين غالبا ما يتحدثون عن النظام الاقطاعي ، كما لو كان نظاما واحدا في جميع أنحاء أوروبا ولكن الحقيقة أن كل منطقة أفرزت خصائص خاصة بها ، كما أن المدى الزمني للتطور الاقطاعي ، اختلف من منطقة لأخرى ومن ثم ينبغي أن نتوخى الحذر في رصد التطورات التي مرت بها المجتمعات الاقطاعية في الغرب الأوربي وأن ندرك أن ما حدث في المنطقة التي تعرف باسم شمال فرنسا حاليا ، لا يصدق بالضرورة على ما حدث في مناطق أخرى ، أنظر حول هذا الموضوع :

Keen, The Pelican Book, pp. 57-58.

وكذلك ، نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص ٣٣١ - ص ٣٤٤ .

قضى جنوب إنجلترا ، ومعظم مناطق فرنسا ، وفي الألزاس واللورين ، كانت للأغلبية الغالبة من الفلاحين أكتافا مرتبطين بالأرض دون أن تكون لهم أية حقوق تجاه سادتهم الإقطاعيين . في هذه المناطق كانت العلاقة بين القن وسيدته مثل العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، فالسيد بالنسبة للقن يمكن أن يكون عدوا كما يمكن أن يكون صديقا ، ولكنه ضرورى لحياة القن في كسل الأحوال . وكان مقيدا إلى الأرض ، ولم يكن يتدر على أن يغير ساداته سوى بارتكاب جريمة ، أو أيا غامر بالهرب ، أو شراء حريته بالمال (إذا قبل السيد بيعها) . أما في شرق وشمال إنجلترا ، فقد كان هناك قطاع كبير من الفلاحين ، ربما أكثر من النصف ، أحرارا يؤدون إيجارا وبعض الخدمات المندوبة للسادة كذلك كانت هناك جمهرة كبيرة من الفلاحين الأحرار في بعض مناطق فرنسا . وفي شرق ألمانيا كانت تجرى محاولة لنزع ملكيات الفلاحين الأحرار وتحويلهم إلى أكتان ، ولكن هذه المحاولة بأت بالفشل (١٩) . ولكن الأمر الواضح في حياة أولئك الفلاحين عموما هو أن البؤس والجهل والخشونة كانت من السمات البارزة في حياتهم ، بغض النظر عن الفروق للضئيلة الناجمة عن اختلاف وضعياتهم القانونية .

كانت مساكن القرويين عبارة عن أكواخ حقيرة من الطين والأغصان والأعشاب ولها فتحات في السقف يخرج منها الدخان المنبعث من مواقدهم ، وتدخل منها مياه الأمطار أحيانا . أما ملابسهم فكانت من جلود الحيوانات أو من صوف الأغنام ومصنوعة بطريقة بدائية رثة ، وكان طعامهم بسيطا ومن النتاج المحلى مثل ملابسهم . وما كان يستحيل الحصول عليه في القرية كان يمكن الحصول عليه من الأسواق الموسمية في أقرب بلدة . ولم يكن الفلاحون آمنين من غائلة الموت جوعا ، إذ أن وسائل النقل كانت مكلفة للغاية كما كانت الطرق وعرة وغير آمنة ، وعلى هذه الطرق كانت النسيحران هي القوة المحركة لوسائل النقل والمواصلات ، وهو ما يعنى أن أى نقص في

Coulton, Med. Scene, pp. 23-26; Painter, «Western (١٩)

Europe» p. 6; Keen, The Pelican Book, p. 58.

المحصول الملقى • في منطقة ما ، كان يؤدي الى حدوث مجاعة (٢٠) • وعلى الرغم من أن أحد الباحثين يرى أن أحوال أوروبا في القرن الحادي عشر لم تكن على درجة من السوء تضارع ما تصوره للحواليات المعاصرة ، فإنه يعترف بأن المجاعات التي وردت أخبارها في تلك الحواليات كانت محلية ومحدودة (٢١) •

كانت الحرفة الأساسية لمعظم سكان أوروبا في ذلك الحين هي الزراعة بطبيعة الحال • وكانت اساليب الزراعة ما تزال متخلفة وعاجزة عن اللحاق بالزيادة السكانية ، فقد جرت العادة على تقسيم اراضي القرية الى حقلين كبيرين تتم زراعتهما بالتناوب ، فيزرع أحدهما ويترك الآخر لاراحته • ثم طرأ تطور جديد حين أخذ الفلاحون يقسمون اراضي القرية الى ثلاثة حقول ويترك الحقل الثالث بلا زراعة بشكل دوري • ومن المهم أن نشير الى أن نظام الحقلين كان معمولاً به في فرنسا وانجلترا جنبا الى جنب مع نظام الحقلين كان معمولاً به في فرنسا ولنجلترا جنبا الى جنب مع نظام الحقول الثلاثة في فترة المصور الوسطى العالية (٢٢) • وكانت الفلاحة ، سواء في أرض السادة ، أو في اراضي الفلاحين الأحرار والأقنان ، تتم على أسس تعاونية ، ذلك أن حرث الأرض كان يتطلب ثمانية ثيران ، على حين لم يكن للفلاح يمتلك عادة أكثر من ثلاثة ثيران • وبالنسبة لجمع المحصول كان الفلاحون يقسمون أنفسهم الى مجموعات تقوم كل منها بجمع المحصول في شريط حقل • وقد فرض هذا نوعاً من التكافل والتعاون في الأعمال الزراعية ، وكانت المحاصيل تقسم بين الفلاحين حسب ملكياتهم • ولاشك في أن هذا النظام كان يسبب بعض المشاكل ، ولكنه كان أفضل من أن يتروك كل فرد بعمله وحيداً (٢٣) •

Coulton, op. cit., p. 33-34 ; Painter, op. cit., pp. 4-6. (٢٠)

Duncalf, «Clermont to Constantinople», p. 256. (٢١)

Coulton, Med. Scene, pp. 29-30; (٢٢)

Ibid, p. 30. (٢٣)

ولم يطرأ سوى قدر قليل من التحسن على وسائل الزراعة ، كما كان
 للفلاحون جاهلين تماما بوسائل تقوية التربة وزيادة خصوبتها ، مما أدى إلى
 عدة نتائج سلبية أخرى (٢٤) . وفي ظل النظام الإقطاعي كانت الزراعة
 تنحى إلى التنوع بدلا من التخصص في محصول واحد . ويرجع هذا إلى طبيعة
 نظام الاكتفاء الذاتي للقرية أو للضيعة الإقطاعية التي كانت أن تكون عائلا
 قائما بذاته ، ففيها كانت تتم زراعة كافة المحاصيل التي يحتاجها سكانها ،
 كما كانت فيها كل الصناعات الصغيرة اللازمة لحياتهم البسيطة . ولم يكن
 للفلاحون هم أصحاب الحرفة الوحيدة في الريف الأوربي في تلك الفترة . إذ
 أن لدينا نص يرجع تاريخه إلى حوالي سنة ١٠٠٠ ميلادية (٢٥) يرسم
 لنا صورة ولغمية (من وجهة نظر الفلاحين) عن الأعمال التي كانت تمارس
 في الريف الأوربي ، وعن الطريقة التي كان أصحاب هذه المهن يمارسون بها
 أعمالهم . فقد كان للحن يعمل على المحراث ، ويرعى الأغنام والثيران ، كما
 كان هناك من يصيدون السمك أو يستخرجون الملح ، فضلا عن الأساكفة
 والخبازين والتجار المحليين . وللنص في شكل حوار بين السيد الإقطاعي
 وأصحاب هذه الحرف وهو يكشف عن مدى مساق كل مهنة من وجهة نظر
 أصحابها . ويكشف هذا النص عن أن الحرف اليدوية كانت موجودة في الريف
 الأوربي إلى جانب بعض حرف الخدمات وأن كان تأثيرها في المجتمع الريفي
 محدودا بدرجة كبيرة .

Wolf, *The Awakening of Europe*, p. 199. (٢٤)

Roy C. Cave and Herbert H. Coulson (eds.); *A Source* (٢٥)

Book for Medieval Economic History (Billo and

Tannen, New York 1965), pp. 46-48.

ويرى كولتون أنه كان لابد أن يكون بالقرية حداد متطوع ، فإذا لم
 ينطوع أحد يرغم السيد أحد الفلاحين على القيام بهذا العمل الذي كان ضروريا
 للجماعة ، كما كان لابد من وجود نجار بالقرية . أما لاحتك فلم يكن وجوده
 شائعا في القرى ، كما لم تكن بالقرية أية حوانيت ، انظر :

Coulton, op. cit., pp. 31-32.

ومن حيث المستوى الثقافي، كان الفلاحون ، بصفة عامة ، انطازا وابدائين خشنين ، كما كان الجهل هو السمة الغالبة عليهم . وكانت هذه « الكتلة الخرساء » في مجتمع أوروبا الغربية آنذاك محل احتقار للطبقات الأخرى في المجتمع . هذا الجهل وهذه البدائية التي تميز بها الريف الأوربي في العصور الوسطى كان نتيجة طبيعية لحياة العزلة التي عاشتها القرية الأوروبية في تلك الأوتة . ويزمنا قدر كبير من القدرة على التخيل حتى نستطيع أن نتمن حقيقة العزلة والتوقع في الريف الأوربي في العصور للوسطى . فقد كان متوسط سكان القرية اربعمائة نسمة ، منهم على أكثر تقدير مائتين وخمسين من البالغين . وكان سكان القرية جميعا يعيشون حياتهم كلها في القرية التي نادرا ماكانوا يغادرونها ونادرا ما كان يفد إليها احد من خارجها . ١٠٠٠ أى أنهم كانوا يعيشون حياتهم ، من المهد الى اللحد ، بين عدد من الناس يعرفونهم بالاسم ويحدثونهم يوميا (٢٦) . وفي ظني أن هذا مؤشر كاف لأن يجعلنا نتصور مدى ضيق أفق أولئك الفلاحين ، وكيف كان يمكن أن تؤثر فيهم أية دعاية باسم الدين .

وبالنسبة لغالبية سكان أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية كانت القرية هي الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والدينية أيضا . فقد كان القروى يجد متعته وتسليته في اعياد القرية ، كما كان قسيس القرية يقوم بالطقوس الدينية لهم . لقد كانت للكنيسة أهمية كبرى في حياة الفلاحين ، إذ كانت الكنيسة هي النافذة التي يطل منها الفلاحون على العالم ، لأنها كانت وسيلتهم للثقافة والحضارة . فعلى مدى قرون عديدة كان رجال الكنيسة ، هم فقط ، الذين يعرفون القراءة والكتابة في أوروبا العصور الوسطى . وكان القسيس هو الذي يقدم لرعاياه في القرية قدرا ضئيلا من المعلومات عن عالم الفكر ، وبما أنه هو نفسه كان عاريا من العلم ، فإن معلوماته كانت ضحلة بالضرورة .

Wolff, The awakening of Europe, p. 202; Coulton, The (٢٦)
Medieval Scene, pp. 33-34.

كان طبيعيا أن يحتكر الكهنسيون للتعاليم الدينية ، بيد أن نشاطهم الفعلي في القرية كان أقل كثيرا من وجودهم . فقد كان من النادر أن يقوم المساوسة النشيطون بتلقين رعاياهم القرويين تعاليم الانجيل سواء بالكلمة او بالقوة . وكانت حوايط الكنيسة ، بما عليها من صور ورسوم بمثابة الانجيل بالنسبة للفقير . الذى لم يكن يعرف للقراءة والكتابة او حتى يقدر على امتلاك نسخة من الكتاب المقدس (٢٧) .

وغالبا ما تقربد عبارة « عصر الايمان » لوصف تلك الفترة في تاريخ أوروبا . ولذا كنت هذه العبارة تعنى ان مفهوم الناس عن العالم كان مثقلا بالعناصر الغيبية ، وأن هذا المفهوم والتصور الذى رسمه الناس آنذاك لمصير الانسان كان انعكاسا للفكر المسيحى الغربى بما فيه من عناصر لاهوتية وأخرى غيبية وأخرى - اذا كانت هذه العبارة تعنى ذلك ، فانها تكون عبارة صحيحة تماما لوصف تلك الفترة من تاريخ الغرب الأوروبى على حد تعبير مارك بلوك (٢٨) . لقد كانت الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية ابعد ما تكون عن تحديد نظامها العقيدى بشكل كامل ، كمالا ان المهايم الكاثوليكية لم تكن قد رسخت تماما بين عامة الناس . كان مساوسة الأبرشيات لا يصلحون لوظائفهم سواء من الناحية الاخلاقية . فقد كان تعيينهم يتم ارتجالا ، ولايتلقون التدريب الكافى للقيام بمهامهم ، وغالبا ما كانوا يتلقون دروسا غير منتظمة على يد قسيس ذى حظ من التعليم قليل . ونادرا ما كانوا يقومون بمهامهم فى الريف حيث كانت غالبية المسيحيين الكاثوليك .

كانت الحياة الدينية فى الريف تتغذى على العديد من المعتقدات والممارسات التى كانت من تراث السحر القديم ، ومن نتاج الحياة الأوربية التى كانت مائزاة حافلة بالأساطير ، وكان لهذه تأثير كبير على العقيدة

Painter, «Western Europe», p. 6; Colton, Te Med. (٢٧)
Scene, pp. 37-39.

Marc Block, Feudal Society, p. 80. (٢٨)

الرسمية • فقد كان الناس مايزالون يرون في السماء العاصفة جيوش الأشباح
تقر بهم : جيوش الموتى كما كان يقول العامة ، وجيوش الشياطين الشريرة
كما كان يقول المتعلمون ، الذين لم ينكروا أبدا مثل هذه الرؤى ، وإنما كانوا
يبحثون عن تفسير لها • لقد كان الدين آنذاك مزيجاً من الخرافة وطقوس
عبادة الطبيعة • وكان القرويون يجمعون ما بين التقوى والاعتقاد في الخرافات
، فقد كان الريف يجمع بالعيون الخفية والأشجار صائنة المعجزات ، كما تأن
سكان هذا الريف يجنون للعديد من القديسين الذين لم تعترف الكنيسة بهم
أبدا (٢٩) •

ومن ناحية أخرى ، فأننا يمكن أن نفسر الاستجابة الشعبية الهائلة
للدعوة التي أطلقها البابا اربان الثاني في كليرمون سنة ١٠٩٥ في ضوء الجرو
النفسي والفكري الذي كان سائدا في الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر •
فقد كان الجهل مايزال يسيطر رداءه على المجتمع الريفي الطابع في غرب أوروبا
كما أسلفنا القول • ولا يمكن أن نتوقع في عصر تسوده الخرافات والرؤوس
ملتبهة بالحماسة الدينية الماطفية أن ترد للظواهر الطبيعية الى أسبابها
الحقيقية ، وليس الى التدخل الإلهي ، وإنما ينبغي أن نتوقع أن ي اخترع رجال
الكنيسة المعجزات التي يخدمون بها البسطاء • وكثير الحديث عن النجوم التي
تنساقط من السماء مثلما يتساقط البرد ، وعن الأضواء الشمالية الباهرة التي
كانت تسطع بنورها فوق خط السماء بشكل خارق ••• وراجت حكايات عن
الشهب الملتهبة بمساراتها فوق رؤوس الناس وشاعت أخبار الأطفال الذين
يولدون بإطراف مضاعفة ، والأطفال الذين تكلموا عقب ولادتهم • كما تناقل
الناس الروايات عن الرعاة الذين رأوا مدينة تتألق في كبد السماء وهم يرون
قطمانهم ليلا • ونسمع عن قسيس يشاهد وهو في الطريق سيفا ضخما ملقا
في السماء ، تحمله الريح ، ونس آخر يرى في وضح النهار معركة بين فارسين في
السماء ، يضرب أحدهما الآخر بصليب كبير بحيث ينتصر عليه •••• كانت

Painter «Western Europe», pp. 6-7; Marc Bloch, Feudal (٢٩)
Society, pp. 80-81.

هذه الأخبار تلقى اهتماما كبيرا من الناس وتحظى بتصديقهم لها . فقد كتب عدد من المعاصرين عن هذه الاخبار الاعجازية كما لو كانت وقعت بالفعل (٣٠) . وفي هذه الظروف لعب المحشرون الجوالون دورا هاما ، وانكروا خيран التعصب ضد اصحاب الديانات الأخرى . وحول الناس التجربة الدينية الى تجربة شخصية عاطفية بفعل الأفكار الألفية والاخرية التي الهبت مشاعرهم وخيالهم . وكان بطرس الناسك وامثاله افراسا لهذا المجتمع الذي حكمه التدين والتعصب المقيت . ولم يكن هذا الموقف النفسى والفكرى وقفا على الفلاحين والعامّة ، ولما كان هو القاسم المشترك بين الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة في الغرب الأوربي عشية الحروب الصليبية ، بيد ان تأثيره على البطاء والعامّة كان أبعد أثرا وخطر وقما بطبيعة الحال .

أما الذين يحاربون ، أى الفرسان من ابتداء الأسر الاقطاعية ، فقد تطورت بهم الأحوال في القرن الحادى عشر ، بحيث جاءت الدعوة الصليبية فرصة ذهبية لهم . ذلك ان ظروف الحياة للشاقة في كثير من أنحاء الغرب الأوربي جعلت المغامرة في السرقة امرا جذابا لهم . وكانت الزيادة السكانية التي شهدتها أوروبا ابان القرن الحادى عشر (٣١) من أهم الأسباب التي حفزت

Ralph Glaber, *Historiarum Libri Quinque* (The Five Books of His Histories) in Bryce D. Lyon (ed.) *The High Middle Ages*, pp. 34-39.

Alphandéry, *La Chrétienté*, pp. 24-26; Thomas Keinghtly, *The Crusades, or, Scenes, events, and Characters from the times of the Crusades*, (4th, ed. London) 1870), pp. 27-28.

(٣١) عن هذا الموضوع بالتفصيل انظر :

J.C. Russell, «Population in Europe 500-1500», in the *Fontana Economic History of Europe, The Middle Ages*, editor Carlo M. Cipollar (William Collins Sons and Co. Glasgow 1978), pp. 25-70.

إبناء الطبقة الإقطاعية إلى البحث عن أرض جديدة في الخارج ، فقد كانت الأرض هي مصدر الثروة والسلطة . لقد كانت نفس الحوافز التي قادت فرسان الغرب الأوربي للبحث عن حياة جديدة في الأرض التي لتتزعزع من السلاف في ألمانيا ، ومن المسلمين في إسبانيا وصقلية هي التي حفزتهم إلى السير صوب الأرض المقدسة . وكان من السهل اتناع الناس في غرب بلاد الغال بترك بلادهم التي لبتليت بالحروب الإقطاعية لحيانا ، وبالمجاعات والأوبئة أحيانا أخرى (٣٢) . كما أن القصص التي يرويها الكتاب المقدس عن خصوبة الأرض المقدسة ، شجعت إبناء هذه الطبقة على الانخراط في سلك الحملة الصليبية .

كذلك ، فإن غروب شمس القرن الحادي عشر جاء في وقت كانت فيه حدود الدوقيات والكونتيات في الغرب الأوربي تسد ثبقت ، وقام بينها نطط بدائي من التوازن السياسي . وهو ما يعني أن فرصة الإقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن قد باتت ضئيلة بالفعل ، كانت فرنسا ، على نحو خاص ، تعاني من حالة « الجوع إلى الأرض » التي كانت هي النغم للميز في الحياة الإقطاعية آنذاك . وكان الفرسان الذين يدفعهم « الجوع إلى الأرض » يدخلون في علاقة تبعية مع سيد أو اثنين من السادة الإقطاعيين حتى يمكنهم الحصول على المزيد من الإقطاعات . فإذا نشبت الحرب بين السيديين يضطر الفارس إلى الاختيار بينهما ، فيقاتل إلى جانب من يرجح انتصاره حتى يتخلص من وروطته (٣٣) . ففي فرنسا ، كان حق وراثـة الإقطاع قاصرا على الابن الأكبر فقط لضمان عدم تفتت الملكية الزراعية في الأسرة بالقدر الذي يضعف من قوتها وسلطانها للقائم على ملكية الأرض . وفي جنوب فرنسا على وجه خاص وجدت أنماط من الملكية المشتركة داخل العائلات الإقطاعية عرفت باسم *Fraternitia, fréroche* وهو شكل من أشكال الملكية المشاعية بين الأخوة أو أفراد الأسرة ككل ، ولكن الابن الأكبر هو الذي يتولى إدارة الأرض والإشراف

Cowdrey, «The Genesis of the Crusades», p. 13; (٣٢)

Keen, The Pelican Book, p. 123.

(٣٣) كانتور ، التاريخ للوسيط ، ص ١٣٤ - ص ٣٤٣ ،

Mayer, The Crusades, p. 22.

عليها • وبذلك يتعرض الاخوة الأصغر للضغوط الاجتماعية ، وكان عليهم ان يختاروا بين الانخراط في السلك الكنسي ، أو الانضمام لمنظمة عسكرية رهبانية • أو ينضمون الى جموع الفرسان الذين لا يملكون لقطاعا ، وكانت فرصة مثل أولئك الفرسان تنحصر في الزواج من إحدى الوراثة ، وهي فرصة ضئيلة بطبيعة الحال ، أو في الانضمام الى عصابات البارونات للمصوص (٣٤) •

ومن ناحية أخرى ، فإن النظام الإقطاعي كان قائماً على القوة العسكرية وكانت القوة هي للعامل المحرك في هذا المجتمع وفي ظل النظام الذي انبثق عن المؤسسات العسكرية والذي ظل يجعل قدراً كبيراً من بصماتها ، كان لكل بارونية ، وكوفتية ، ودوقية ومملكة جيشها الخاص • ولكن النظام الإقطاعي فشل في اقرار السلم لأنه قائم على افتراض أنه ستكون هناك حالة حرب دائمة • وقد فشلت محاولات الكنيسة في أن تفرض للسلام على هذا المجتمع • على الرغم من بعض مظاهر النجاح الجزئي في هذا الصدد • إذ كان القتال هو الوظيفة الرئيسية للرجل الارستقراطي في ظل النظام الإقطاعي • فقد كان يتم اعداده منذ صباه على حياة القتال الحقيقي • وكانت مهنة الفارس الرئيسية المحببة الى قلبه هي القتال • فإذا كان من البارونات ، فإنه يقاتل لكي يحتفظ بسيطرته على انفصاليه ، ولكي يستولي على ما يمكنه الاستيلاء عليه من جيرانه • وإذا كان فارساً صاحب إقطاع ، فإنه كان يتبع سيده الى القتال لأن هذا كان واجباً ، ولأنه كان يطعمه الحصول على جزء من الغنائم • أما للفارس الذي لا يملك أرضاً فقد كان يحارب ليكسب عيشه ، إذ كانت الحرب نشاطاً اقتصادياً مربحاً في ذلك الزمان • بل إن سيدني بينتر (٣٥) يرى أن الحرب بالنسبة للفرسان رياضة كانت محببة ولم

Cowdrey, «The Genesis of the Crusades», p. 13. (٣٤)

Sidney Painter, A History of The Middle Ages 284-1500 (٣٥)

(New York 1954), p. 118; «Western Europe», p. 14;

Keen, The Pelican Book, p. 57; Bishop, The Penguin

Book, p. 86.

تكن تزيد في خطورتها عن رياضة كرة القدم في عصرنا الحالي . ويقول ان ملابس الفارس المدرعة كانت تكفل له الحماية الكاملة من أسلحة المشاة ، كما كانت تقويه ضربات سيوف الفرسان وطمعات رماحهم ، فضلا عن أنه لم يكن هناك فارس يرغب في قتل فارس آخر لأن الجثة لم تكن تساوى شيئا . وإذا قتل الفارس جاره وجد وريثه يواصل الصراع محله ، ولكنه اذا أسره ، استطاع أن يحصل على ضيعة غنية ، أو قلعة حصينة كغدية للأسير .

لقد كانت الحرب هي مهنة الطبقة العليا ، كما كانت متعة الرجال من أبناء هذه الطبقة ، إذ كانت أوقات السلم تمر كثيرة رتيبة داخل جدران القلاع العابسة ، فلم يكن لدى أبناء هذه الطبقة أية مشاغل ثقافية أو بدائية غير الصيد . لقد كانت المعركة هي قمة حياة الفارس ، وكثيرا ما كانت هي النهاية التي تنتهي بها هذه الحياة (٣٦) . وباختصار كان الفارس المعادي حتى نهاية القرن الحادي عشر متوحشا ممجيا متعطشا للدماء . (وقد ظلت هذه الصفات من مميزات الأسابية طوال القرن الثاني عشر الأمل (٣٧) . بيد أنه في الوقت نفسه كان متدينا على طريقته الخاصة ، إذ كان يتقبل تعاليم الكنيسة دونما مناقشة ، كما كان حريصا على خلاص روحه ، وله قسيسه الخاص الذي يقوم بعمل الطقوس له ، ويستمتع الى اعترافاته (ومن المثير للانتباه أنه كان على استعداد أن يعرض نفسه لأشد الأخطار في سبيل الإيدلى باعتراقاته هذه لتأسيس مستقل) . ولكن الفارس الاعطامى ، من ناحية أخرى، لم يكن يفهم المسيحية فهما جيدا . وقلائل هم الذين كانوا يفهمون الدين من بين نبلاء ذلك الزمان ، ولكن من كانوا يلتزمون بتعاليمه منهم كانوا اثنا عدا . لقد كان فرسان الغرب الأوربي ، على الأجملة ، لا يفهمون من الدين سوى أنه حيازة للذخائر المقدسة ، أو الهبات التي كانوا يقدّمونها بسخاء على

Bishop, The Penguin Book, pp. 86-ff.; Cowdrey, «The (٣٦)

Genesis», pp. 14-15.

(٣٧) حول هذا الموضوع انظر : تالسم عبده قاسم « صورة الفاتن الصليبي في المصادر العربية » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع والعشرون ، ١٩٨٠ ، ص ٩ - ص ٣٧ .

الأديرة والكنائس تكفيرا عن ذنوبهم • إذ كان التكندر عن الذنوب أيسر لهم
من الالتزام بالفضيلة (٣٨) •

وإذا اخفنا في اعتبارنا طبيعة التنشئة الاجتماعية للفرسان من جهة •
وحقيقة تدينهم القاصر من جهة أخرى ، أدركنا ان أولئك النبلاء قد وجدوا
أنفسهم في وضع غير مريح بسبب الضغوط التي كانت تمارسها الكنيسة لفرص
حركة السلام • لقد كان النبلاء ، شأنهم شأن رجال الدين والفلاحين ، يؤمنون
بالمسيحية ولكن على طريقتهم كما أسلفنا القول • إذ كان الدين يكسب حياتهم
معناها ، لأنهم لم يكونوا ليقدرون على تحمل الصراعات الرهيبة التي كانت
تمر بها حياتهم اليومية لو لم يكن هناك وعد بحياة أخرى أفضل بعد الموت •
حقيقة ان النبلاء كانوا قد نشأوا على الحرب ورضعوا تقاليد القتل ولكنهم
كانوا يريدون الخلاص لأرواحهم أيضا • ومن ثم فإنهم رلوا في حركة السلام
كأثرة حلت بهم • ذلك ان قبولها كان يعني ، في التخليط الأخير ، انكار
الأسس التي يقوم عليها وجودهم كطبقة محاربة ، على حين كان التناكر
لحركة السلام يعني المخاطرة بفقدان الخلود مع الرب ، وهو الأمل الذي كان
الجميع يتحركون في اطاره • وبدأ الأمر وكأنه لغز مستحيل أمام أبناء هذه
الطبقة • فلم تكن غالبيتهم الغالبة لترضى عن هذا الدور الاجتماعي الذى خصهم
به النظام الإقطاعي بديلا • ومن ثم جاءت فكرة الحملة الصليبية فرصة ذهبية
بالنسبة لهم ، فهي ترضى ميولهم العسكرية وتعطشهم للقتال ، كما انها
تخفي بمباركة الكنيسة وتتم تحت راية للصليب •

وهناك الكثير الذى يمكن قوله عن تأثير النظام الإقطاعي على الكنيسة
في العصور الوسطى • وبهذا نأتى الى « الذين يتعبدون » • فقد كان للسياسة
التي اتبعها كارولنجيون اثرها من حيث صبغة الكنيسة بالصبغة الإقطاعية
الى حد ما • إذ كان شارل ماوتل يجبر الكنيسة على ان تمنح انقطاعات من

Painter, A hist. of the Middle Ages, pp. 19-20; Western (٣٨)
Europe», pp. 14-15; Wood, The Age of Chivalry,
p. 100.

أراضيها للفرسبان بشرط أن يصبحوا انفصالا له *Vassi dominici* وبعد شارل لم يعد الملوك الكارولنجيون يصادرون أملاك الكنائس ، ولكنهم كانوا يجبرون الكنائس على منح الاقطاعات لانفصالهم . وجاء وقت صار فيه بعض الأساقفة ومقدمى الأديرة انفصالا للتاج الكارولنجي ، ثم استخدموا بعض أراضيهم كاقطاعات يمنحونها لانفصالهم مثلما فعل الأمراء العلمانيون . واذ تورطت الكنيسة في العلاقات الاقطاعية على هذا النحو ، صارت المناصب الكنيسة تمثل اغراء للأفراد الذين لا يميلون الى العمل الروحي ، ولكنهم يرون في الكنيسة وسيلة يتوسلون بها للحصول على السلطة والثروة (٣٩) .

ومنذ القرن العاشر تنبه بعض المتدينين الى هذا الوضع ومحاذيره . وعلى امل ان يتحسن النظام المديري قام الدوق وليم ، أمير اكويتانيا ، بتأسيس دير كلوني سنة ٩١٠م . وكان ممنوعا على هذا المدير أن يمتلك ارضا بمقتضى الخدمة الاقطاعية اذ كان على كل من يهب ارضا لدير كلوني أن يهبها دون قيد أو شرط ، وانما في مقابل أداء الراهبان الصلوات لخلاص روحه فقط . وبطون القرن الحادى عشر كانت هناك عدة أديرة تابعة لدير كلوني وتنهج نهجه الذى كان صيغة معدلة من للنظام البندكتى ، وسرعان ما صار للأديرة الكلونية نفوذ ضخم . وفي القرن العاشر قادت الأديرة الكلونية حركة احياء ضخمة ، بهدف تحرير الكنيسة من قيود العلاقات الاقطاعية ، وبعث الحياة المديرية من مرقدما الذى نامت فيه طويلا بعد ترهل النظام البندكتى . وفي القرن الحادى عشر وصلت الحركة الكلونية الى ألمانيا حيث تعاطف معها الحكام الألمان من ملوك أسرة أوتو ، مثل كونراد الثاني (١٠٢٤ - ١٠٣٩ م) ، وهنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦ م) الذى كان يتصرف باعتباره راعيا وحاميا للحركة الكلونية في بلاده (٤٠) .

Brian Tierney and Sidney Painter, *Western Europe in the Middle Ages 300-1475*, pp. 135-138.

كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٢٨ .

(٤١) المرجع نفسه ، ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣ ،

Bradford, *The Saga of the Crusades*, pp. 15-16.

وفي القرن الحادى عشر بدأت حركة اصلاحية واسعة تستهدف القضاء على كثير من المساوىء التى استشرت فى اوصال الكنيسة الكاثوليكية . ومن اهمها السيمونية (اى بيع الوظائف الدينية) وتدخل الحكام العلمانيين فى تعيين رجال الكنيسة . كانت هذه الحركة الاصلاحية ، التى يطلق عليها بعض المؤرخين المحدثين « الثورة الجريجورية » (٤١) تستهدف اصلاح الكنيسة والعالم . وبينما كان اصلاح الكنيسة يعنى فى المحل الاول ان تكون الكنيسة ملكا للأساقفة ، اى ان تتحرر من سيطرة العلمانيين ، كان اصلاح العالم يعنى اخاد الحروب الاقطاعية التى باتت سمة من سمات مجتمع غرب اوروبا . وكانت حركة السلام التى تهدف الى ائهاء الحروب الاقطاعية من اهم الاسباب العلية لحركة الاصلاح نفسها . هذه الحركة الاصلاحية ، فى شقها الاول الذى يهدف الى تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية ، افرزت نزاعا مريرا بين البابوية والامبراطورية الالمانية ، واندمجت شرارة هذا الصراع بين جريجورى السابع وعزرى الرابع لى تستمر على مدى سنوات طوال . وكان لهذا الصراع اثره فى توجه البابوية بدعوتها الى المجتمع الفرنسى على نحو خاص كما سنرى .

هذه هى القوى الاجتماعية فى الغرب الأوروبى عشية الحروب الصليبية ، وهى قوى تحدد الدور الاجتماعى لكل منها . لقد وصف استيف فرنسى المجتمع المعاصر بقوله : « بيت الرب ذو جوانب ثلاثة ، فالبعض يصلى فيه ، والبعض يحارب فيه ، والبعض يعمل فيه » (٤٨) . وهكذا كان العالم المسيحى

(٤٤) نسبة الى جريجورى السابع ابرز اقطاب هذه الحركة الاصلاحية والذى تنسب اليه مجموعة النقاط التى تحدد سمو السلطة البابوية على الامبراطورية ، ولدينا مجموعة وثائق حول هذا الموضوع ، انظر :

Pope Nicholas II, Decree on Papal Elections (1095) Dictatus Papae (1075); Letter of the Synod of Worms to Gregory VII (January 1076); Deposition of Henry IV By Gregory VII (February 1076) in Lyon (ed.), The High Middle Ages, pp. 87-102.

Bishop, The Penguin Book of the Middle Ages, p. 167. (٤٢)

في العصور الوسطى مقسما بشكل حاد لأقسام ثلاثة هي : الفلاحون ، والنبلاء والقساوسة (إذ كان سكان المدن الناشئة ما يزالون عديمي الأهمية في ذلك المجتمع) . وكان البشرون يحبون أن يشبهوا المجتمع بالجسد الانساني ، فيشبهون القساوسة بالرأس والعيون ، والنبلاء بالذراعين واليدين ، والعامّة بالارجل والاقدم . وباعتبار أن القساوسة هم رأس المجتمع وعينه ، غفد زعموا لانفسهم حق توجيه المجتمع وحكمه . ولكن « الذين يحاربون » لم يسلموا لهم بهذه الحقوق المزعومة ، ومن ثم حدث تفاعل كبير بين هاتين القوتين . وقد وصل هذا التفاعل الى مداه في القرن الحادى عشر بحيث ائرمز الحركة الصليبيّة . إذ كان هذا القرن بداية لفترة النمو والتقدم النشط في اوربا . وكان الفضل في هذا للتداخل والتفاعل بين المؤسستين الكبيرتين في المجتمع الاوربي آنذاك ، اعنى الإقطاع والكنيسة (٤٣) لان تداخلهما ادى الى قوة المجتمع ونضجه ، دون أن يعوق ذلك التطور الذاتى لكل منهما . فالحركة الصليبيّة ، في جانب منها على الأغل ، كانت افرازاً للإقطاع والكنيسة وتفاعلهما سويا .

ففى منتصف القرن الحادى عشر بدأت فترة من أخطر فترات التاريخ الاوربي ، إذ أن للسنوات الثمانين التى تمتد منذ منتصف هذا القرن حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر ، كانت هى الفترة التى شهدت حركة الإصلاح الدينى (الجريجورى) ، كما كانت هى فترة النمو التجارى ، ونمو المدن . كانت المجتمعات الحضريّة قد ازدهرت من جديد في الشمال الايطالى ، وبدأت تنمو في الأقاليم البعيدة عن البحر المتوسط . وازدهرت المدن التجارية الايطالية بفضل تجارّتها مع القسطنطينيّة . وفى الوقت نفسه بدأت جنوا وبيزا تمارسان نشاطهما التجارى مع موانئ البحر المتوسط مثل مرسيليا وبرشلونة ، وتاربون . كما بدأت للهجمات على اساطيل المسلمين وموانئهم

Painter, «Western Europe on the Eve of the Crusades» (٤٣)
p. 29.

في كورسيكا وسردينيا ، بل وفي تونس (٤٤) .

أخذ الناس يتبادلون النقود على نطاق أوسع من ذي قبل . وثمة دليل على أن الحجاج والصليبيين كانوا يحوزون النقود عن طريق الاقتراض أو بيع املاكهم . كما أن الثابت أن الكنيسة كانت ترهن وتشتري املاك الصليبيين الذين كانوا بحاجة الى المال من أجل الرحلة الطويلة . ومن المؤكد أن لندن كانت مدينة كبيرة تسكنها عائلات ثرية عند نهاية القرن الحادى . وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد ظلت الحضارة الغربية في ذلك الحين حضارة قوامها الطابع الريفى بإفرازاته الفكرية والاجتماعية والسياسية .

وإذا رسمنا الملامح العامة للمجتمع الذى أفرز الحركة الصليبية ، وحددنا القوى الاجتماعية الفاعلة في هذا المجتمع ، يبقى أن نحاول رصد الدوافع والأسباب التى حفزت كلا من هذه القوى للمشاركة في الحركة الصليبية . بيد أننا يجب أن نلاحظ أن إيديولوجية الحرب المقدسة كانت قد باتت راسخة في وجدان الغرب الأوربي بحيث لم يكن هناك ، وقت خروج الحملة ، من يبحث عن المبرر الأخلاقى لشن هذه الحرب . « فالحرب المقدسة » كانت غطاء مناسباً لكل المشاركين في هذه الحركة ولكن هذا الغطاء لم يكن يعنى أن أهدافهم كانت واحدة أو أن فهمهم للإيديولوجية الصليبية كان واحداً . بل إن العكس تماماً هو الذى حدث ، فقد كان للفهم الشعبى « الذين يحملون »

Painter, «Western Europe on the Eve of the Crusade», (٤٤)
pp. 9-10; Cantor, Med. Hist., pp. 271-272.

ومن المهم كذلك أن نشير الى أن هذه الفترة شهدت انتعاشاً للحرف اليدوية بشكل مطرد ، فقد زاد عدد الحرفيين الذين كانوا يقدمون لجماسهير المدن النامية حاجاتهم من الكساء والأثاث وغيره . وكان أولئك الحرفيون هم بناة المساكن الجديدة وصناع الاثاث الضرورى لبيوت ذلك الزمان .
انظر :

Wolff, The awakening of Europe, p. 202; Sylvia Thrupp
«Medieval Industry 1000-1500», in the Fontana
Economic History, pp. 221-273.

مناقضا تماما لفهم كل من الكنيسة والنبلاء لهذه الايديولوجية • كذلك فهم للنبلاء الايديولوجية للصليبية على نحو مخالف لفهم رجال الكنيسة لهذه الايديولوجية • وقد ادى هذا ، بطبيعة الحال الى اختلاف اهداف كل من القوى الاجتماعية التى ساهمت فى هذه الحركة •

كانت الدعوة الى الحروب الصليبية دعوة تناسب للعصر تماما • فقد كان المجتمع الاقطاعى المشبع بالفخر ، والتمصب ضد غير المسيحيين ، والراغب فى الخلاص من خلال اعمال توافق اخلاقياته *mores* الملمانية - كان هذا المجتمع مستعدا لان يستجيب للدعوة التى يمكن تفسيرها فى ضوء مصطلحات الخدمة الاقطاعية ، وللتنافس الاقطاعى • ولكن المشكلة تمثلت فى كيفية عبور الفجوة التى تفصل بين المثل والقيم التى تلهم كبار الكنسيين وتلك التى تحرك العلمانيين • وقد ناضل الباباوات والدعاة البابويون لبناء جسر من الفهم المشترك فوق هذه الفجوة ، ولكنهم فشلوا فى بنائها (٤٥) • فحين طرحت الكنيسة الايديولوجية للصليبية كان تهدف الى شىء ، ولكن العلمانيين فهموا شيئا آخر •

لقد كانت الحروب الصليبية تجديدا تاريخيا كبيرا فى الغرب الأوروبى • فقد كانت هى أول حرب يخوضها الغرب تحت راية ليديولوجية معينة • وكان طبيعيا ان تفسد الايديولوجية وتزيف بمرور الوقت على حد تعبير بيشوب (٤٦) • ولكن تظل الحقيقة ان اعتناق القوى الاجتماعية المختلفة لهذه الايديولوجية كان تعبيرا عن صراع هذه القوى ضد بعضها البعض من ناحية ، كما كان تعبيرا عن التفاعلات الناجمة عن هذا الصراع نفسه من ناحية أخرى • وكانت الحركة الصليبية لفرزا للتفاعل بين الكنيسة والنظام الاقطاعى كما سبق القول ، ومن ثم فانها كانت تسمى الى تحقيق اهداف هاتين المؤسستين الحاكميتين فى المجتمع الغربى • والكنيسة تجسدها البابوية ، على حين تجسد الطبقة المحاربة والطبقة للزراعة للنظام الاقطاعى • وحين

Riley — Smith The Crusades, p. 10.

(٤٥)

The Penguin Book of the Middle Ages, p. 104.

(٤٦)

خرجت الحركة الصليبية الى حيز الوجود شاركت في دفع عجلتها قوى أخرى مثل النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية والجمهوريات التجارية الإيطالية ، مما حقق لهذه الحركة صبغتها المالية المسيحية • ولنحاول رصد الدوافع التي حفزت كلا من هذه القوى التي أدارت عجلة الحروب الصليبية •

وفيما يتعلق برأس المجتمع وعينه ، أى للكنيسة ، فإننا لانشك كثيرا في أن البابا اربان الثاني قد أوضح أن تحرير القدس هو هدف الدعوة التي وجهها الى سامعيه في كليرمون في نوفمبر ١٠٩٥ م • وعلى الرغم من أن الخطبة التي ألقاها اربان لم تصلنا في نصها الأصلي ، فإنه يبدو أن تحرير القدس كان هو محور خطبة البابا • بيد أن تحديد الهدف البابوي انطلاقاً من هذه الخطبة الدعائية لا يحسم القضية المتعلقة بدوافع البابا وأهدافه من وراء مشروع الحملة المقدسة • حقيقة أن محور الخطبة كان هو تحرير القدس ، ولكن الأهداف والدوافع البابوية الحقيقية كانت تتجاوز الهدف الذي جمعه اربان الثاني محورا لخطبته في كليرمون نحو أهداف أكثر علمانية •

وإذا كنا قد أشرنا من قبل الى أن تحديد الأسباب والدوافع وراء الظاهرة التاريخية امر صعب بوجه عام ، فإن الأمر يصبح أكثر صعوبة حين نعدم الدليل الوثائقي أو ينحصر وجوده في شكل شذرات متفرقات • وهذا هو الحال فيما يتعلق بدوافع البابوية في للحركة الصليبية • ذلك أن البعض يعتقد أن السبب كان هو الرغبة في تأمين الحج الى بيت المقدس ، على حين يرى فريبق آخر أن الرغبة في نجدة مسيحيي الشرق كانت هي السبب ، ويرى فريبق ثالث أن حرب اربان الثاني كانت بهدف توجيه طاقة أوروبا الزائدة في فترة النمر الى خارج القارة لتأمين حركة السلام ، كذلك يعتقد البعض أن البابا كان يريد تأسيس دولة إقطاعية في فلسطين تحت سيطرة البابوية ، ويظن البعض الآخر أن الهدف الحقيقي كان هو زيادة نفوذ البابوية وهيبتها • وهناك أيضا من يرى أن الهدف كان هو توحيد كنيسة الشرق الاثوذكسية والغرب الكاثوليكية تحت الزعامة البابوية •

ويجدر بنا قبل أن نحاول مناقشة كل دافع من هذه الدوافع أن نعرض
 لأهم الفقرات التي وردت في روايات المؤرخين المعاصرين عن خطبة اربان الثاني
 في كليرمون . حقيقة أن كل مؤرخ من المؤرخين اللاتين المعاصرين قد أورد لنا
 للنص الذي تصور أن البابا كان ينبغي أن يقوله ، وهو ما أدى إلى خلافات
 أساسية في الصياغة والأسلوب ، ولكن هناك اتفاقاً على بعض الأمور بين هذه
 الروايات بالقدر الذي جعلنا نشعر أنها قد وردت بالفعل في خطاب اربان ،
 ومن ثم غي تعبر عن بعض دوافع البابوية . فقد جاء في رواية فوشيه
 الشارترى (٤٧) ، الذي يعتبر كتابه من المصادر الثلاثة الأساسية في تاريخ
 الحملة الأولى ، أن البابا قد ذكر سامعيه بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم
 بحفظ السلام ، ومراعاة حقوق الكنيسة ، وقال لهم أيضاً : « ... مايزل
 ينتظركم عمل جديد ظهر بتوجيه رباني ، وهو عمل عاجل وملح يربط بينكم
 وبين الرب ، ومن خلاله يمكنكم أن تكتشفوا عن نواياكم الطيبة . إذ يجب
 أن تتبادروا بتقديم المساعدة لآخوتكم القاطنين في الشرق ، أولئك الذين يحتاجون
 لمساعدتكم التي ألحوا في طلبها كثيراً . لأن الترتك ... قد هاجمهم كما يعلم
 للكثيرون منكم ... فإذا تركتموهم يتمادون أكثر من ذلك ، فستكون الهزيمة
 الكاملة من نصيب شعب الرب من المؤمنين » .

كذلك فإن روبير الرامب الذي كتب في الربع الأول من القرن الثاني
 عشر ، والذي يحتل أنه كان من شهود كليرمون . (٤٨) يتحدث عن الموضوع
 نفسه بعبارات مشابهة ، إذ يقول أن البابا ذكر سامعيه بأن المسلمين غزوا
 أملاك المسيحيين في الشرق ، وأخذوا بعضهم أسرى ، كما قتلوا على بعضهم

Fulcher of Chartres, pp. 62-63.

(٤٧)

Roberti Monachi, Historia Hierosolymitana, in RHC, (٤٨)

Occ., III, pp. 727-30.

انظر نص للترجمة الانجليزية لخطبة اربان في رواية روبير الرامب :
 Peters (ed.), The First Crusade, pp. 2-5 ; Riley-Smith (ed.), The
 Crusades, pp. 42-45.

بالتعذيب ، وإنهم دمروا الكنائس أو حولوها الى مساجد . ثم اخذ البابا يداعب مشاعر الفخر والزهو حين ذكر الفرنجة بتقواهم وبإمجاد أسلافهم أمثال شارلمان ولويس وغيره ، ثم قال لهم : « هذه الأرض التي تقطنونها تحيط بها البحار وقمم الجبال ، وهي تضيق عن استيعاب أعدادكم الكبيرة كما أنها بلاد ليست موفورة الثراء إذ أنها لاتنتج إلا ما يكفي زراعتها بالكاد ، وبما أنكم تقتلون بعضكم بعضا ، بحيث تهلكون من جراء الأذى المتبادل ، فلتنبذوا الكرامة من بينكم ، ولتخمدوا منازعاتكم ، ولتوقفوا حروبكم ، ولتتخلوا عن كافة مظاهر الشقاق والخلاف . سيروا على طريق الضرب القيس ، وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير ، وكونوا أنتم سادتها . فهذه الأرض التي يقول الكتاب المقدس أنها « تفيض باللبن والعسل » قد منحها الرب ملكا للمؤمنين ... »

ورواية بلديريك ، كبير أساقفة بول ، الذي كان حاضرا في كليرمون والذي يركز على أخوة المسيحيين في الشرق والغرب (٤٩) ، تقول أن البابا ذكر لجمهور السامعين أن الأسف والحزن العميق سوف ينتابهم حين يسمعون عن الأذى والاضطهاد والمذاب الذي يتعرض له المسيحيون في القدس وانطاكية ، وغيرهما من مدن الشرق ، ثم يحدثهم عن مدينة القدس التي عانى فيها المسيح من أجل شعبه ، ودفن فيها ، ثم يقول : « اسمعوا واعوا ، أنتم يا من تتحلون بشاراة الفروسية ، ويملؤكم الغرور والكبرياء ، فتهاجمون أخوانكم ، وتمزقون بعضكم بعضا . ليست هذه هي الجندية الحقيقية في سبيل المسيح الذي يدعو الى حماية رعاياه ... لذا كنتم تنشدون خلاص أرواحكم ، فلتطرحوا جانباً هذه الفروسية ، ولتتقدموا في جسارة كفرسان المسيح حقا ، وتنفذوا بأقصى ماos يمكنكم من سرعة للدفاع عن الكنيسة الشرقية ... »

RHC, Occ., IV, 12-16.

{٤٩}

انظر نص الترجمة الانجليزية في :
Peters, Op. Cit., pp. 6-10 ; Riley-Smith, Op. Cit., pp. 49-53.

اننا نقول هذا ايها الأخوة ، فمضى ان تكفوا أياديكم للقاتلة عن تدمير اخوانكم . فلتجعلوا من أنفسكم خصوما للأمميين في سبيل مصلحة اخوانكم في الدين . وفي ظل زعامة يسوع المسيح ، قائدين ، يمكننا ان تناضلوا في سبيل قدسكم ، في خط قتال مسيحي ، اشد قوة ، بل وبفجاح أكثر من نجاح ابناء يعقوب في الزمن القديم . ناضلوا في سبيل هزيمة الأتراك وطردهم . . . انه لأمر جميل ان تموتوا في سبيل المسيح وفي المدينة التي مات فيها من اجلنا . . . كما أن املك العدو ستكون لكم ، عندما تستولون على كنوزهم وتعودون الى نوبيكم منتصرين . اذا ما خضبتكم دماؤكم ، فان المجد الأبدي سيكون من نصيبكم »

كذلك فان جيوربرت مقدم دير نوجنت Guiber of Nogent (٥٠) ، الذي يحتمل انه كان بين الحاضرين في كليرمون ، قد اورد لنا رواية أخرى عن خطبة اربان الثاني بديها بالحديث عن فضل القدس وكيف ان البابا ذكر الحاضرين بأن المكابيين في الزمن القديم قد حاربوا من أجل المعبد ، فاستحقوا اللناء ، وتبواوا أعلى مراتب التقوى . ومن ثم « . . . فان من حثكم أيضا يا جنود المسيح ان تدافعوا عن حرية بلادكم بالسلاح . واذا كنتم ترون ان مسكن الحواريين القديسين وغيرهم من القديسين يستحق مثل هذا العناء ، فلماذا تتقاعسون عن انقاذ الصليب والدم والمهبرة ؟ . . . لقد خضتم غمار حروب كثيرة غير عابثة . . . وسببتم لبعضكم البعض الأذى والدمار ، لا لسبب سوى الفخر واللباهة مما جعلكم تستحقون الموت الأبدي واللعة الأكيدة ، ونحن نقدم لكم الآن حربا فيها ثواب الاستشهاد المجيد الذي سوف يستحق اللناء ، الآن والى أبد الأبدن . . . فكروا فيمن يقومون بالحج عبر البحر ، وحتى لو كانوا من الاثرياء ، فتأملوا ما ينفعونه

Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos, RHC, (٥٠)
Occ., IV, pp. 137-40.

انظر للترجمة الانجليزية في :

Peters, op. cit., pp. 10-15 ; Riley-Smith, op. cit., pp. 45-49.

من ضرائب وما يتعرضون له من عنف ، لأنهم مضطرون لدفع الضرائب والأتاوات حتى يسمح لهم بالدخول من كل بوابة من بوابات المدينة ٠٠٠ ،

هذه هي الروايات الأربع الأساسية للخطبة التي ألهاها أربان الثاني في كليرمون . (٥١) ومن خلالها نلاحظ أن ثمة اتفاقا على أن هدف الحملة التي اقترحها البابا كان بيت المقدس ، لتحريرها ورفع الآلام المسببة والاضطهاد عن المسيحيين في الشرق ، وتأمين طريق الحج . فكل من فرشييه الشارترى ، وروبير الراهب ، وبلدريك الدولى ، وجيوبرت النوجنتى يتفقون على هذه الأهداف ، كما أنهم جميعا يتحشون عن وجوب لقرار السلام في الداخل وتوجيه الجهود العسكرية ضد المسلمين في الشرق . فضلا عن الوعد بالغفران ، ذكر روبر الراهب أن أرض فلسطين « التي تفيض باللبن والعسل » ستكون ملكا للمشاركين في هذه الحملة ، على حين ذكر بلدريك الدولى أن « أملاك العدو سوف تكون لكم » .

هكذا ، إذن ، نستطيع أن نقرر أنه يمكن تفسير موقف البابوية في ضوء هذه الأهداف جميعا . كما يمكننا من استقراء الظروف التاريخية أن نحدد أهدافا أخرى . لقد استغلت البابوية الحركة الصليبية كإداة من أدوات السياسة الخارجية لستهدفت من ورائها تحقيق عدة أهداف ، منها ما هو ملن واضح كما ثبت من قراءة خطبة أربان في رواياتها المختلفة ، ومنها ما يمكن فهمه من استقراء الظروف التاريخية .

ومن المؤكد أننا يمكن أن نقول أن الحملة الصليبية ، كإيديولوجية ، « فلة كنسية » Un fait eccléaiastique مثلما يقول بعض المؤرخين (٥٢) .

(٥١) أفضل مناقشة لخطبة أربان الثاني بكليرمون هي تلك التي قامت بها « دانا مونرو » اعتمادا على روايات المؤرخين المعاصرين ، انظر : D.C. Munro, «The Speech of Pope Urban II at Clermont» American Historical Review, II (1905), pp. 231-242.

Bradford, The Sword, p. 31.

(٥٢)

ولكننا سنلاحظ أنها قد صارت أمرا واقعا ، وحسم أمرا بفضل الدافع
الدينيوية . لقد كان اربان الثانى يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تحقق
أهدافا أربعة فضلا عن هدفها المعلن وهو توحيد العالم المسيحى بعد الانزاعات
الريرة التى سببت انقسامه حول الإصلاح الجريجورى ، وثانيا ، أن هذه
الحملة ستزيد من هيبة البابوية فوقت كان فيه انصار الامبراطور الألماني موجودين
في كل مكان حتى في روما نفسها . وثالث هذه الأهداف أن هذه الحملة ستنتهى
الانشقاق بين كنيسة الشرق والغرب . أما الهدف الرابع من هذه الحملة
فيمكن النظر اليه من خلال الحقيقة القائلة بأن اربان نفسه كان فرنسيا ، فقد
كان يعلم تماما أن الامبراطور الألماني لن يشارك ، وأن الحاكم الانجلو -
نورمانى (وليم روفوس) لن يشارك أيضا ، كما اشرنا من قبل ، وكان لابد
أن يعتمد على جيوش الامارات الاقطاعية الفرنسية بشكل اساسى .

وإذا كانت دوافع البابوية (التى كانت تمثيلا وتجسيدا للذين يصلون)
وأهدافها من وراء الدعوة الى الحملة الصليبية مختلفة ومتداخلة على هذا النحو ،
وإذا كانت الدوافع الدينيوية واضحة ، بهذه الصورة ، فإن دوافع أولئك الذين
أخذوا شارة الصليب من العلمانيين كانت على نفس الدرجة من التنوع والاختلاف
سواء كان هؤلاء من الفرسان (الذين يحاربون) أو من عامة الناس والفلاحين
(الذين يعملون) .

ولا شك في أن كثيرين من فرسان لغرب الأوربي ، عشية الحروب الصليبية
كانوا يتحرقون شوقا لقتال المسلمين ، كما كانت جوانحهم تضطرم بالحماسة
الجارفة والشرق المحموم لانتزاع الأرض المقدسة من المسلمين . ونتيجة للجو
الساخن الذى خلقه الدعاية المسعورة ، التى أثكت البابوية نيرانها ضد
المسلمين ، كانت نفوس غالبية الفرسان تمور بالرغبة في قتل المسلمين الذين
اشاع دعاة البابوية والمبشرون الجوالون أنهم يدمرون الكنائس ويقتلون
المسيحيين في الشرق ، وأنهم يسببون كثيرا من الضيق والأذى للحجاج
المسيحيين المسافرين الى الاراضى المقدسة . لقد لجأت البابوية الى كل الحيل

الدعائية في صياغة الايديولوجية الصليبية ، فقد لجأت الى الكذب وتزوير الوثائق ، والمبالغة ، وترويج قصص الأعلام المقدسة والرؤى الاعجازية . وساهمت الظروف التاريخية في غرب اوروبا آنذاك في نضج هذه الايديولوجية والواقع أن المؤرخين اللاتين ، والمؤرخين السريان والأرمن قد حرصوا على الترويج لمثل هذه الأمور . فقد ذكر متى الرهاوي أن كبار قادة بلاد الفرنجة قد ساروا بكل ما في وسعهم من قوة وقدرة لكي ينتقموا من المسلمين « ٥٥ » ولكي يستعيدوا المدينة المقدسة اورشليم من أيدي الكفار ، وليرفعوا أيدي المسلمين عن المقبرة المقدسة التي يرقده فيها المسيح « ٥٥ » ، كما أن ميخائيل السورباني يقول في هذا الصدد « ٥٥ » حين تعرض كثيرون لهذا الأذى ، اخذت الحماسة بصور الملوك والكونتات وخرجوا من روما « ٥٥ » وبغض النظر عن اعتماد هذه الأقوال عن الحقيقة كما أوضحنا في الصفحات السابقة ، فإنها كانت اخباراً سائعة في المجتمع الأوربي بالقدر الذي جمعن الكثيرين من الناس في الغرب (ومنهم الفرسان بطبيعة الحال) يأخذونها مأخذ الجد . ومن هنا كان الشعور العدائي المتصاعد ضد المسلمين في أوساط الفرسان اللاتين آنذاك واحداً من أهم دوافع هؤلاء للاشتراك في حملة اربان الثاني .

ومن المهم أن نوضح أن هذا للشعور العدائي كان ناجماً عن عدم معرفة الغرب بحقيقة المسلمين ، إذ كانت رؤية الغرب الكاثوليكي للمسلمين مستمدة من قصص للرعب التي اشاعها عنهم رجال الكنيسة ، ومن الأفكار التي روجت لها الأساطير التي ساهمت في صياغة الايديولوجية الصليبية ، مثل اسطورة حج شارلمان الى فلسطين ، وحروبه وانتصاراته هناك ضد المسلمين (٥٦) ،

• Matt. d'Edessa, RHC., Arm., I, p. 25

(٥٤)

Michel le Syrien, tom. III, p. 182.

(٥٥)

(٥٦) انظر تطويل كونت ريان لهذه الاسطورة في :

AOI, tom. I, pp. 9-22.

ومن الملاحم التي شاعت في أغنيات الأثر Chansons de geste التي تتحدث عن بطولات الفرسان المسيحيين ضد المسلمين مثل انشودة رولان ، (٥٧) فضلا عن روايات الحجاج القادمين من الشرق والتي حملت طابع المبالغة (رغبة في اكتساب ثقة المجتمع واحترمه) . وما كان المبشرون الجوالون والدعاة الكنسيون يروجونه بين الناس . والدليل على ذلك أن الوحشية التي كان الفرسان القادمون عبر جبال البرانس لمساعدة المسيحيين الأسبان يظهرها ، كانت تتناقض بشكل واضح مع تصرفات الفرسان المسيحيين أنفسهم ، فقد كان أميراً أشبيلية المسلم ، مثلاً ، حليفاً لألفونسو السادس Alfonso VI أمير قشتالة (ت ١١٠٨ م) ، كما أن السيد القنبيطور Cid Campeador ، الذي جعله الأساطير محارباً مسيحياً مثالياً ضد المسلمين ، لم يكن في حقيقة أمره سوى جندي مرتزق يبيع سيفه لمن يدفع من المسلمين والمسيحيين على حد سواء . (٥٨)

على أية حال ، فإن أهدافاً ومطامع دنيوية عديدة كانت وراء مشاركة أبناء هذه الطبقة في أخذ شارة الصليب . ولاشك في أن البعض قد أخذوا شارة الصليب على أمل أن ينالوا الغفران عن خطاياهم ويدخلوا بذلك في رحمة الرب . بيد أن البعض الآخر ، لاسيما من كبار الأمراء الإقطاعيين الفرنسيين كانوا يتحرقون شوقاً للمغامرة في الخارج بعد أن باتت فرصة الغزو والتوسع

وعن هذا الموضوع أيضاً انظر :

Thomas Bulfinch, The Age of Chivalry and legends of Charlemagne, or, Romance of the Middle Ages, (New American library, New York 1962).

(٥٧) عن هذا الموضوع انظر : جوزيف نسيم يوسف : انشودة رولان : قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من حول ونقاش ، في : ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط (تحرير قاسم عبده قاسم ورافقت عبد الحميد ، المجلد الأول ١٩٨٢ ، دار المعارف) ، ص ٧٥ - ص ١٠٤ .
(٥٨) الظاهر أحمد مكي ، ملحة السيد - دراسة مقارنة (دار المعارف ١٩٧٩ ، ط ٠ ثانية) ص ٧٩ - ص ١٤٢ .

ضئيلة داخل الوطن . وفضلا عن ذلك فإن ارتفاع معدل الزيادة السكانية كان يعني أن هناك عدداً متزايداً من الفرسان الذين لا يملكون أرضاً في فرنسا على استعداد لأن يدلوا ببلوهم في حملة تتيح لهم الحصول على الضياع والأمالك في فلسطين . (٥٩) وقد لعب البابا على أوتار هذا الأمل بشكل صريح في خطبته في كليرمون . ولاشك أن الأطماع الدنيوية قد حركت أبناء هذه الطبقة ، فقد داعبت خيال من يملكون صورة الضياع الجيدة التي يمكنهم إضافتها لأمالكهم في الوطن لتزيد من ثراء عائلاتهم ، وترتقى بهم درجات في السلم الاجتماعي . أما الذين لا يملكون ، فقد كانت صورة الضياع التي يمكنهم امتلاكها في « الشرق العجيب » بحيث تعوضهم عن جوعهم إلى الأرض والذي عانوا منه كثيراً في الوطن - كانت هذه الصورة تلهب مشاعرهم فعلاً . وهكذا نخلص إلى أن هدفاً أساسياً من أهداف طبقة الفرسان كان هو امتلاك الأرض التي كانت مصدر الثروة والسلطة في ذلك الزمان .

ومن ناحية أخرى ، كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر فريسة للقلق والاضطراب من جراء قيود حركة السلام . وكان واضحاً أن أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة ترحبها البابوية لشن حرب ضد المسلمين في الشرق ، إذ كان ذلك يكفل لهم الستار الديني المناسب لأرضاء نزعاتهم العدوانية . ومن هذه الطائفة كان ريمون أمير تولوز الذي كان يئن تحت وطأة الإحساس بقضاؤل فرصة المغامرة في الوطن ، وجودفرى دوق اللورين الأدنى . وقد شاعت قصص وأساطير كثيرة حول انضمام جودفرى للحملة ، ولكن الحقيقة أن هذا الأمير المغامر كان قد دمر الأديرة في المناطق المجاورة لأمالكه في بوايون ، وكانت أمه إيدا المتدينة هي التي فرضت عليه أن يقدم بعض اللبونات للكنائس لتحسين سمعته قبيل الرحيل في الحملة الصليبية . أما هو ، فقد قرر الرحيل عندما سوت الحماسة الصليبية

Cantor, Med. Hist., p. 320 ; Bishop, The Penguin (٥٩)
Book, p. 105.

في كل مكان ، وعندما رأى جيرانه من النبلاء يستمعون للرحيل . (٦٠)

كذلك كان بعض الفرسان الذين شاركوا في الحملة يطعمون في استعادة الهيبة التي خسروها في أوطانهم من خلال انتصار عسكري يحرزونه في الحرب المقدسة بفلسطين . ومن هؤلاء كان دوق نورمانديا الذي كان هو الابن الأكبر لوليم الفاتح . أما الكونت ستيفن حاكم بلوا Stephen of Blois فقد شارك في الحملة الأولى لأن زوجته الطموح ، ابنة وليم الفاتح ، قد دفعته الى ذلك رغبة منها في ألا يتخلف زوجها اللاهي العايب عن المشاركة في أعظم أمجاد العصر : أي الحملة المقدسة المتجهة الى الشرق . كذلك وجد البعض في المشاركة في الحملة الى الشرق فرصة للهروب من العدالة . ويقول وليم الصوري . (٦١) ان البعض قد انضموا للآخرين حتى لا يتركوا أصدقاؤهم والبعض افضحوا للحملة حتى لا يظن الناس انهم كسالى ، وآخرون لأسباب رضاء فقط ، أو هربا من دلائهم

وكانت هناك اعتبارات عملية أخرى حظيت باهتمام النبلاء ، فقد أكد البابا على ان املاك وعائلات المحاربين من افراد جيش المسيح militia Christi ستكون معفاة من السلطة العلمانية مؤقتا ، وستوضع تحت حماية القانون الكنسي . وأعلن البابا كذلك ان أي عنف ضد جنود يسوع المسيح ستكون عقوبته الحرمان . وفي مقابل ذلك كان الفرسان ملتزمين تجاه الكنيسة بالوفاء بنفوسهم بالمشاركة في للحملة الى الشرق . ومن ناحية أخرى ، كان هذا يعني مزيدا من السيطرة للكنيسة على حساب السلطة العلمانية ، إذ ان وضع املاك الفرسان تحت حماية الكنيسة كان يؤدي الى حرمان الحكام العلمانيين من الخدمات الاقتصادية التي كان هؤلاء الفرسان يؤدونها لهم بمقتضى

Duncan, «Clermon to Constantinople», pp. 266-269. (٦٠)

جوزيف نيسيم ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (دار المعارف ١٩٦٣ ، ٧٠٧) ص ١٥٣ - ص ١٥٦ .
William of Tyre, vol. I, p. 93.

القانون الإقطاعي ولفترة غير محدودة • (٦٢)

وإذا كانت المثالية والرغبة في الغفران ، أو الجوع إلى الأرض ، أو تحب المغامرة •• وما إلى ذلك من أسباب هي الدوافع التي حركت « الذين يحاربون » للمساهمة في الحملة البابوية ، فإن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية القاهرة والمحبة في غرب أوروبا آنذاك هي التي جعلت الكثيرين من « الذين يعملون » أي عامة الناس من الفلاحين وسكان المدن ، يهاجرون إلى الشرق في ظل الكنيسة ورعايتها • ولأن أحلام المتهورين في المجتمع الأوربي آنذاك لم تكن تتحقق سوى في القليل النادر ، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم لن يخسروا شيئاً بذهابهم إلى الشرق ، إذ لم يكن ينتظرهم في الوطن سوى الموت جوعاً أو قهراً تحت سيطرة سادتهم الإقطاعيين • ولكنهم كانوا يأملون في أن تتحسن ظروفهم المعيشية في الأرض « التي تفيض باللبن والعسل » ، بغض النظر عن الوعد الذي بذله البابا بالخلاص في الحياة الأخرى • (٦٣)

إن اختلاف دوافع الطبقة المتهورة في المجتمع الإقطاعي في غرب أوروبا عن دوافع كل من الفرسان ورجال الكنيسة ، على الرغم من أنهم جميعاً تحركوا في إطار الأيديولوجية الصليبية ليؤكد أن الأيديولوجية تستخدم في مرحلة التجهيز للحرب لكي تحرك المجتمع كله صوب هدف وعلى أساس فكرة وإخلاقي ولحد • وعندما تبدأ عجلة الحرب في الدوران تكشف كل طبقة عن أهدافها الخاصة التي تختلف بالضرورة مع أهداف الطبقات الأخرى ، وربما

-
- Duncalf, «The councils», p. 247-249 ; Boase, Kingdoms and strongholds ; p. 16 ; Michaud, Histoire de Croisades, tom. I, pp. 9-10 ; Bradford, The Sword, p. 31.
Boase, Kingdoms and strongholds, pp. 16-17 ; Brad- (٦٣)
ford, The Sword, p. 15 ; Bishop, The Penguin Book, p. 105 ; Cantor, Med. Hist., p. 322.

انظر أيضاً : يوشع برلور ، عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعليق قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن - دار المعارف ١٩٨١ م) ص ٤٤ - ص ٤٥ •

تتناقض معها . فبينما سعت الطبقة العليا في المجتمع الاقطاعي الأوربي (الكنسيون والفرسان) للى تحقيق مزيد من السلطة والسيطرة والقوة من خلال هذه الايديولوجية التي افرزت الحركة الصليبية ، كان هدف السامه من المزارعين والأقنان وسكان المدن الفقراء هو التحرر من ريقه السيطرة الاقطاعية والكنسية في مجتمع عرف التخصص في الوظائف الاجتماعية للطبقات بشكل يقضى على أمل أبناء الطبقة المتهورة في التحرر ، ومن ثم جاءت فكرة الحرب المقدسة لتحرير قبر المسيح فرصة هائلة لتحرير المتهورين ، اذ لم يكن من المحتمل أن يحرر قبر المخلص قوم يرسفون في أغلال القنية .

ويرى جروسية أن الحملة الشعبية قد خرجت ضد أهداف الكنيسة (٦٤) من الذهاب (٦٥) . ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من أن تعوقه هذه يتصور أن يخرج أبناء الطبقة المنتجة لكي يشاركوا في هذه الحرب . وعندما أدرك أن جماهير العامة والفلاحين ستكون عقبة في سبيل الحملة بذل الجهد لمنهم من الذهاب (٦٥) . ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من أن تعوقه هذه الاجراءات اذ كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في الغرب الأوربي آنذاك في صالح الحركة الصليبية . ولكن دولفم للفلاحين والعامة كانت تتناقض تماما مع أهداف الكنيسة والذباب ، اذ رأى « الذين يعملون » في الحركة فرصة مروية من اسار الطبقة الاقطاعية ومن المجاعات والأوبئة التي كان الغرب يعاني منها في للقرن الحادى عشر .

كانت جماهير الفلاحين الذين يلتفون حول المبشرين الشبهيين غارقة في غياهب الجهل والفناء ، كما كانت جموعهم واقعة تحت وطأة العجز واليأس من الظروف المعيشية للسائدة ، ففي سنة ١٠٩٥ م نفسها حدثت مجاعة رهينة شملت معظم أنحاء الغرب الأوربي وقد وصف سيجبيير الجامبوى Sigebert de Gembloux هذه السنة بأنها « ٠٠٠ سنة مصائب ، تفشت فيها المجاعة

Grousset, Histoire des Croisades, I, p. 11.

(٦٤)

(٦٥) انظر نصوص خطابات اربان الثانى في هذا الشأن في :

Riley-Smith (ed.), The Crusades, pp. 37-40; Cf. Duncalf, «Clermont to Constantinople», pp. 253-255.

في كل مكان ، واخذ الفقراء يهاجمون الأغنياء لكي يسرقوهم واخذوا يشعلون النار في ممتلكاتهم ٠٠٠ ، (٦٦) لقد كانت الأرض علجة عن أن تعمل سكانها ، ولم يكن ممكنا الابتقاء على جماهير الفلاحين فوق الحقل للشحيرة . وهذا هو ما يمكن ان نفسر به خروج الأعداد الغفيرة وراء المبشرين من أمثال بطرس الناسك والثر الخلس ٠٠٠ وغيرهم فيما عرف باسم الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين .

لقد كان العصر هو عصر للتبشير الشعبي . ولكن عددا كبيرا من الذين شاركوا في الحملة للشعبية (وفي حملة الفرسان أيضا) لم يكونوا يقدرين على التمييز بين اورشليم السماوية واورشليم الأرضية . ومن ثم كانت الصورة الغيبية عن القدس السماوية التي تختلط بواقع القدس الأرضية تؤثر تأثيرا عميقا في وجدانهم ، لاذ كانوا يظنون انهم ماضون الى الأرض التي لا يوجد بها فقراء Pauperes ، والتي رسمها سفر الرؤيا ، على حين كانت رطبهم الحقيقية تسعى صوب القدس الحقيقية على أرض فلسطين ، هذه للصورة الأخوية التي اختلطت بالواقع المادي في عقول جماهير الصليبيين كانت في حقيقة امرها نتاج تراث طويل في الفكر الاجتماعي المسيحي . لقد كانت دعوة ارباب اللاني تعنى بالنسبة ان شاركوا في الحملة للشعبية شيئا لم يكن البابا نفسه يفهمه على حد تعبير نورمان كانفور (٦٧) ، فقد كانوا يتوقون الى التحرر من نير الاحباط والفقير اللذين خيما على حياتهم للتعسة . ولكتشفوا في عبارات نغمات أخوية خلاصية كانت ابعد ماتكون عن نظرة البابا اللندنيوية . كان ثمة اعتقاد شائع بان العالم يقترب من نهايته ، وان الحياة الدنيا التي خلقها الرب ، والتي تحولت الى مكان للمنازعات بين قوى الشر والظلام ، سوف تنتهي بالدمار . وستكون علامة دمارها انفجار الصراع

Bradford, The Sword, p. 30-31 ; Boase, Kingdoms (٦٦)
and strongholds, pp. 16-17.

Cantor, Med. Hist., pp. 322-323.

(٦٧)

النهائى بين الشر والخير ، وسوف يذهب للشيطان الى الجحيم ومعه كل الذين اختاروا حزبه ، على حين يذهب الأبرياء والعاملون للتمتع بحياة خالدة ومجيدة مع الرب . (٦٨) لقد ربط الفقراء انفسهم بأولئك الابرياء العاملين ، وشاع بينهم ان نهاية العالم القريبة سوف تنقلهم الى اورشليم السماء حيث يستمتعون بالنعيم الخالد . هذا التراث هو الذى جعل القدس السماوية تختلط بالقدس الأرضية فى احلام المهوورين من أبناء الغرب الأوربي وهو تراث كان يمثل ركيزة الفكر الغربى الشعبى فى القرن الحادى عشر ، أى عشية الحروب الصليبية . (٦٩)

هكذا ، نصل الى صورة حقيقية ، قدر المستطاع ، للدوافع والأهداف التى حفزت قوى المجتمع الأوربي فى القرن الحادى عشر للمشاركة فى حملة اربان الثانى . وفى تصورنا أننا نستطيع ان نقرر ان الحسم فى مصير الحركة الصليبية كان من نصيب العوامل الدنيوية على الرغم من ان الايديولوجية التى تحرك الجميع فى اطارها قد نسجت على أساس دينى ، وحددت هدفا دينيا مثيرا هو تحرير الأرض التى خطا يسوع المسيح فوق تربها . لقد كانت دوافع القوى الاجتماعية فى الغرب الأوربي للمشاركة فى هذه الحرب خليطا من الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية انصهرت جميعا فى بوتقة الايديولوجية التى افرزت للحركة الصليبية .

والحقيقة ان كثيرين من الناس فى الغرب مايزالون ينظرون الى الحروب الصليبية نظرة رومانسية ، لأن مشهدها يجسد العقيدة وهى تسير للقتال بأسلحتها الشرعة تتألق تحت الشمس ، كما ان الجيش الصليبي نفسه يبدو فى عيونهم جيشا من الرجال النبلاء الذين هببتهم تقاليد الفروسية على

L'An mille, pp. vii-ixi; Mayer, The Crusades, pp. 12-13; (٦٨)

Runciman, A History of the Crusades, vol. I, p. 115.

Alphandéry, la Chétienté, pp. 23-24 ; Bishop, The (٦٩)

Penguin Book, p. 105 ; Bloch, Feudal Society, pp. 81-85.

الرغم من ميولهم الحربية وحبهم للقتال • (٧٠) ولكن الحقيقة أن الصورة
للفعلية للحروب الصليبية تحمل كثيرا من الملامح القاتمة • وقصة الحروب
الصليبية حافلة بمشاهد الطمع والخسة ، وصور الخزي والعار ، فقد كان
الصليبيون قوما همجيين متوحشين ، حتى بمقاييس ذلك الزمان ، لا يراعون
عهدا ولا يصونون وعدهم في كثير من الأحيان • بل أن العلاقات بين الصليبيين
أنفسهم كانت غاصة بالحد والخلافات • وعلى الرغم من أنه كان يفترض أن
الصليبيين هم جند الرب الحاربون في خدمته ، فالواقع أنهم قد صدروا
أحقادهم وحروبهم الاقطاعية إلى الأرض التي شهدت خطوات المسيح •

أن الحوادث والأفكار المعقدة المتشابكة التي أدت إلى ميلاد الحركة
الصليبية في رحم الايديولوجية التي حركت كافة القوى الاجتماعية ، وتفسيرات
المؤرخين لأسباب وفتائج هذه الظاهرة التاريخية تقدم للمتهمين بدراسة
المجتمع الانساني نموذجا فريدا عن مدى ما يمكن أن ينتج عن حركة القسوى.
الاجتماعية من استجابات • ففي أوروبا الغربية أواخر القرن الحادي عشر ،
كانت دعوة أربان الثاني تطرح أمام المجتمع الذي فرقه الانقسام هدفا عاما
يمكن لكل قوة من القوى الفاعلة في هذا المجتمع أن تعبّر عن نفسها من خلاله •
وحين تحرك المجتمع صوب هذا الهدف العام ، كشفت كل قوة من القوى
الاجتماعية عن فهمها الخاص للايديولوجية التي تحركت في إطارها •

Wood, The Age of Chivalry, pp. 94-95 ; Cantor, Med. (٧٠)
Hist, p. 317.

الفتح النورماني لـانجلترا :

ملحمة فريدة في تاريخ إنجلترا ونورمانديا في العصور الوسطى

للمكتور محمد محمد الشيخ
استاذ تاريخ العصور الوسطى
بآداب الاسكندرية

الفتح النورمانى لـانجلترا ملحة فريدة فى تاريخ انجلترا ونورمانديا فى العصور الوسطى

تعرضت الجزيرة البريطانية للغزو الجرمانى فى النصف الثانى للقرن الخامس الميلادى ، قامت به مجموعة من القبائل الجرمانية المتحالفة هى : الانجليز والسكسون والـجوت (١) ، وساعد على نجاح ذلك الغزو ما حدث من قيام الامبراطورية الرومانية بسحب آخر فرقها وحماتها قرب منتصف ذلك القرن سنة ٤٤٢ م (٢) ، وترتب على هذه الموجة العاتية من الغزو ان تقهقرت اللغة اللاتينية ، وتراجعت الديانة المسيحية ، وتأخرت المدن الكبيرة ، ومحييت النظم الرومانية وقضى على ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان فى تلك البلاد (٣) .

ولكن على الرغم من ذلك ظلت الجزيرة البريطانية تحتفظ بعناصر سكانها القدامى ، فقد بقى الـايبيريون السمر والـكتيون والـجاليون والـكتيون للبريتون . كل هؤلاء واولئك لم تذهب بهم للريح أو تجهز عليهم الكارثة ، بل ظلوا يمثلون عنصرا من عناصر سكان الجزيرة البريطانية (٤) .

Davis : «The British Isles from the earliest times to the Middle ages» in B. H. VII, p. 3497. (١)

Katz : The Decline of Rome and the rise of Med. Europe. (٢)
p. 92, Lot : The End of the Ancient world, p. 203.
Camb. Med. Hist. V. 1, p. 388.

Trevelyan : Hist of England. part I, p. 33. (٣)

(٤) فشير : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ج ١. ص ٣٨. (مترجم)

ويغطي الظلام عن بريطانيا في نهاية القرن السادس الميلادي (٥٩٧م) عند قدوم القديس أوغسطين ، فتبدو وقد تغيرت معالمها فصارت جرمانية وثنية وتغير اسمها فأصبح انجلترا بدلا من بريطانيا وحل مجتمع جرمانى بدائى محل مجتمع كلتي وغت اللغة جرمانية خالصة والاله المعبود اسمه اودين والزراعة هي عصب للحياة فيه (٥) .

ولما كانت غزوات الجرمان لبريطانيا قد تمت تحت قيادة نفر من رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، فقد غدا أولئك للزعماء ملوكا متوجين بعد الاستقرار ، واتخذ كل مملكة قائمة بذاتها ، وأسفر ذلك عن قيام ممالك قبلية مختلفة سميت بالممالك السبع **Heptarchy** ، وهي الممالك التي أقامت العناصر الثلاثة المشتركة في الغزو ، فقد أقام اللجوت مملكة ولحده وكون السكسون ثلاث ممالك أخرى ولخصص الانجليز بالثلاث الباقية (٦) .

ولقد اندلعت الحروب الطاحنة بين تلك الممالك ، واهتم ملوكها بأثارة البغضاء وشن الحروب فيما بينهم . وسمت همة بعضهم لنيل الزعامة في تلك الدويلات الجرمانية وتصفية املاك جيرانهم واحتواء ممالكهم (٧) . فاذا أنزل اقدمهم الهزيمة بالآخر احتوى أرضه وأضافها الى مملكته وألزمه بدفع اتاوة معينة وإذا استطاع أحد هؤلاء الملوك الحاق الهزائم بكل اعداده ومنافسيه حصل على سيادة انجلترا كلها (٨) .

ولقد عقدت الزعامة لمملكة وسكس **Wessex** في مطلع القرن التاسع

Davis : op cit. pp. 3504-5. (٥)

Royer : Concise Hist. of Britain, pp. 8-9.

Rayner : op. cit. pp. 10-11. (٦)

(٧) فشر : نفسه ص ٣٩ ٤٠ ، ديفز : أوروبا العصور الوسطى ص ٣٢ (ترجمة د . حمدي) .

(٨) ديفز : نفسه ص ٣٢ ، فشر : نفسه ص ٣٩ - ٤٠

الميلادى (٩) . منذ عهد الملك لجبرت Egbert (٨٠٢ - ٨٣٩ م) ، الذى يعتبر أول ملك يحكم كل إنجلترا ، وحين تولى الملك الفريد العظيم (٨٧١ - ٨٩٩ م) حفيد لجبرت ، كانت إنجلترا مهددة من غزوات الدانينيين أو الفيكينج وهى الغزوات التى كانت تقضى على ما كان لانجلترا فى ذلك الوقت من هدوء . واستقرار (١٠) ، وعلى الرغم من عظم وطأة الدانينيين الا ان الفريد العظيم استطاع ان يفتد مملكته من خطرهم ويمنعهم من الاستيلاء على الجزيرة برمتها (١١) ، لاذ انزل بهم الهزائم سبع مرات ، والحق بهم هزيمة بحرية كبيرة قرب اولخر القرن التاسع (٨٩٦م) ، ومن اجل ذلك ونظرا لعنائته الشديدة بالبحرية الانجليزية التى صار لها شأن عظيم فيما بعد ، اعتبر الفريد العظيم مؤسس البحرية الانجليزية . (١٢)

وإذا كان لألفريد العظيم من فضل فلانه نجح لأول مرة فى جمع الممالك الانجليزية على هدف واحد من خلال مقاومته للعنيفة للدانينيين فنجح فيما فشلت فيه الكنيسة من توحيد الانجليز وجمعهم على هدف واحد ، فضلا عن اصلاحاته التعليمية والكنسية التى اضافت كثيرا الى الناحية لقومية (١٣) ، ولهذا عد عهده بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الانجليزية قاطبة ، وعند وفاته فى نهاية القرن التاسع تجرأ خلفاؤه واخذوا يستردون البلاد من الدانينيين . جزءا جزءا ، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءا أقاموا فيه مقلا تحول بمرور الوقت الى مدينة مهيمنة حتى انتهى الأمر بتوحيد إنجلترا

Davis : «The British Isles» B. H. VII, p. 5307. (٩)

Schjoth : «Great days of the Northmen,» B.H. VII, (١٠)
p. 3354.

Cantor : Med. Hist., p. 325. (١١)
Trevelyan : op. cit., p. 71.

Painter : A Hist. of the Middle ages., p. 92. (١٢)

Southern : The making of the middle ages, p. 167, p. 18. (١٣)

Rayner : op. cit., p. 16.

Davis and Arthur : «The British Isles» B.H. VII, p. 3837.

كلها تحت حكم ملك والد هو الملك ادجار Edgar (٩٥٩ - ٩٧٥) ، الذى يمكن وصفه بأنه كان بحق ملكا لانجلترا * (١٤)

وفى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى بدأ النظام القطاعى يقوى فى كيان المجتمع الانجليزى فى الوقت الذى تولى فيه ملوك ضعاف ، لم يكن بوسعهم السيطرة على النبلاء من جهة والتصدي للداثيين من جهة اخرى (١٥) ، فكلما وصلت موجة جديدة سنة ٩٨٠ م تخاذل حكام انجلترا ، وابدوا الاستعداد لدفع الاموال للداثيين ليرحلوا من البلاد ، ثم ما لبثت انجلترا ان تعرضت لموجة جديدة عاتية من موجات الفكينج قدمت هذه المرة فى شكل غزو اسكندنافى يمثل الأمة الاسكندنافية بالترابطة (١٦) * فأسفرت هذه الموجة عن هروب الملك الانجليزى اثليرد Ethelred الى نورمانديا وقيام كانتوت ابن ملك الدانين على عرش انجلترا سنة ١٠١٦ (١٧) * وظل كانتوت فى حكم انجلترا الى سنة ١٠٣٥ ، واتخذ لندن عاصمة تجارية لامبراطوريته ، ولم يعد عرش انجلترا الى البيت المالك القديم الا فى سنة ١٠٤٢ م حين نجح ادوارد الثالث * المعترف ، ١٠٤٢ - ١٠٦٦ م وهو ينتمى الى بيت الفريد العظيم فى استرداد عرشه بعد فترة قضاها فى المنفى لدى قريبه دوق نورمانديا (١٨) . وبعد وفاته ونزع وليم دوق نورمانديا ببعض الحجج والذرائع للاستيلاء على انجلترا لتحث معركة هاستنجز Hastings أو تلك اللحمة الفريدة فى تاريخ القطرين الأوربيين فى العصور الوسطى * (١٩)

Trevelyan : op. cit. p. 81.

(١٤)

Rayner : op. cit. p. 18.

Cantor : Med. Hist. p. 207.

(١٥)

Schjoth : op. cit. p. 3556.

(١٦)

Trevelyan : op. cit., pp. 98-9.

(١٧)

Haskins : op. cit., p. 74.

(١٨)

Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.

(١٩)

Schjoth : op. cit., p. 3552.

Haskins : The Normans in European Hist. p. 75.

هذا ما حدث في لنجلترا قبل الغزو النورمانى لها سنة ١٠٦٦ ، اما فرنسا فالمعروف ان امبراطورية شارلمان قسمت بين احفاده ابناء لويس التتى الى ثلاثة اقسام (٢٠) ، بمقتضى اتفاقية فردان سنة ٨٤٣ نال لويس الجرمانى الجزء الشرقى منها ، كما حاز لوثر الجزء الأوسط وحظى شارل الأصلى بالجزء الغربى وادت معاهدة فردان الى نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لمستقبل التاريخ الأوروبى فى العصور للوسطى (٢١) . غير ان اختفاء هؤلاء الملوك ابتداء من الربع الأخير من القرن التاسع حمل فى طياته بذور ضعف هذه الامبراطورية وبداية تداعىها خاصة بعد أن اندلع الصراع رهيبا بين افراد البيت الكارولنجى . وعدد الفيكنج سواحلها واخترقوا تلك السواحل عبر مصبات انهارها وضربت البلاد فى فوضى واضمحلال (٢٢)

وفى مطلع القرن العاشر الميلادى كان يحكم فرنسا شارل البسيط أحد ورثة البيت الكارولنجى ، لكن الظروف فى فرنسا لم تكن مواتية لكى تضمن لهذا الشاب حياة هادئة ، فقد كانت هجمات النورمان تؤرق الفرنسيين وتقضى مضاجعهم ، لاسيما فى الجزء الغربى والشمالى من البلاد (٢٣) ، ولهذا حبن استأنف النورمان غزوهم لفرنسا فى أوائل القرن العاشر ، تصدى لهم الملك الجديد وكبار النبلاء ، فى همة وعزيمة وحماسة طاغية ، حتى نجح الفرنسيون فى إلحاق مزيمة كبيرة بالنورمان تحت أسوار شارتر فى ذلك الوقت ترجعوا

Snyder : Documents of German Hist. p. 29. (٢٠)

See : «Annales Bertiniani» in «Monumenta Germania (٢١)

Historica Scriptores» Ed. by Georg H. Pertz.

and others, Hanover and Berlin 1826-1905.

1, p. 440 - in Documents of German Hist. p. 29.

See : «The Anals of Fulda M.Y.H. Scriptorum 1, p. 40. (٢٢)

Davis : A Hist : of Med. Europe p. 174.

Hoyt and chodrow : Europe in the Middle Ages, p. 185.

Camb. Med. Hist. V, III, p. 322. (٢٣)

الى الوراء وقبل زعيمهم روللو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط عرفت بمعاهدة سان كلير على نهر الهابت في يوليو سنة ٩١١ م (٢٤) وتعتبر هذه المعاهدة أبرز أحداث تاريخ النورمان بهذه البلاد ، ونقطة البداية في تأسيس المملكة النورمانية بغالة ، كما جاءت سنة ٩١١ م - على قول المؤرخ هاسكنز Haskins - في منتصف قرن وربع من الغزو والاستقرار النورمانى في اقليم نورمانديا . (٢٥)

فلقد رأى لالك الفرنجى شارل البسيط - بعد سلسلة من المغامرات النورمانية بغالة - ان يمنح روللو بمقتضى هذه المعاهدة الجزء الشرقى الذى عرف فيما بعد باسم نورمانديا كإقطاع له ولرجاله نظير ارتباط هذا بالتبعية له وحلفه يمين الولاء (٢٦) ، واعتناقه المسيحية هو وقومه ، وكان استقرار روللو Rollo واتباعه في نورمانيا بداية عهد جديد للشعب الاسكندناوى في ذلك الاقليم . (٢٧)

وطبقا لذلك لم يجر في البداية اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة ، وما يحيط بها لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين اللذوبان فيما حولها ويعطونها الفرصة لتأكيد ذاتيتها وإبراز سماتها بعيدا عن جاراتها ، وهكذا أخذت نورمانديا تشكل ببطء كيائها كبلد افرنجى وكمستعمرة نورمانية لتبدو كدوقية شبه مستقلة تلمب نورما في القرنين الحادى عشر والثانى عشر (٢٨) . وتحول روللو الى المسيحية وتبعه قومه ، وأبداء من

Cantor op. cit., p. 254.

(٢٤)

Oman : The Dark ages p. 501.

Haskins : op. cit., pp. 26-7.

(٢٥)

Schjorth : «Great days of the Northmen» B.H. VII, (٢٦)

p. 3550.

Hallam : View of the State of Europe during the middle (٢٧)

Ages, p. 16.

Haskins : op. cit., p. 45.

(٢٨)

سنة ٩١١ م أصبح النورمان في زمرة مسيحي البلاد الغربية ، وجرى تعميم روللو نفسه وتبعه قومه • (٢٩)

ولقد جرى اعتبار معاهدة سان كلير عملا أملاه العقل وسداد الرأي لأنها وضعت حدا للاغارات النورمانية ، واعادت للسلام الى ربوع البلاد والهدوء الى منطقة السين ، واهبت فرنسا بدماء جديدة سرعان ما اخذت تندمج في فرنسا ، لتلعب دورها في الحقبة التالية لاسيما وان روللو تقصر في المام الذاتي لهذه المعاهدة (٩١٢ م) ، وجرى تعميده وفقا للمسيحية الكاثوليكية وتسمى باسم روبرت (٣٠) • وكان لبنة وليم طويل السيف Long Sword طرازاً أكثر رسوخاً في المسيحية والفرنجية • (٣١)

وفي اواخر القرن العاشر ٩٨٧ ، انتهى البيت الكارولنجي في فرنسا وبلغ الحكم الى أسرة جديدة هي أسرة كابيه في فرنسا وهي الأسرة التي ظلت تحكم فرنسا ردحا طويلا من الزمن (٣٢) • في الوقت الذي جرت فيه الأمور في القسم الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية في اتجاه آخر ، حيث نهضت الأسرة السكسونية في ألمانيا بتأسيس الامبراطورية الألمانية وما عرف بعد ذلك بالامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي ورثت جانباً كبيراً من امبراطورية شارلمان ودولة الفرنجة في العصور الوسطى • (٣٣)

وببداية القرن الحادى عشر ، وبعد أن توقفت الهجرة الاسكندنافية استقطعت نورمانديا أن تعتمد على نفسها ، ووقفت على اقدامها منفردة •

Camb. Med. Hist. V. III, pp. 315-20.	(٢٩)
Schjoth : op. cit., p. 3550.	(٣٠)
Haskins : op. cit., pp. 45-6.	(٣١)
Camb. Med. Hist. V. III, p. 80.	(٣٢)
See : Epistolae Gerbert. Ed. J. Havet 1889, p. 231	(٣٣)
chronicon Novaliciene-trans. Davis.	
in C.M.H. 3, pp. 213-14.	

ولم يمض قرن واحد على بداية الاستقرار بنورمانديا حتى كان النورمان قد تكيفوا مع البيئة المجاورة واندمجوا الى حد بعيد فيها ، (٣٤) بل حاز دوق نورمانديا منزلة سامية بالنسبة لغيره من ائصال ملك فرنسا ، (٣٥) وعنى بدايات ذلك القرن ايضا اصبح النورمان فرنسيين في لغتهم وفي قوانينهم ، لكنهم كانوا معتزين كثيرا باستقلالهم الداخلى ، وعلى استعداد ليحاربوا الفرنسيين اذا تعرض ذلك الاستقلال للخطر . (٣٦)

وطبقا لهذا المفهوم اعتبر النورمان دولتهم عضوا في مجموعة الدول الداخلة في طاعة ملك باريس ، مع تمتعها بالاستقلال الداخلى والحكم الذاتى ، وكانت لغة حديثهم هى الفرنسية ، ولغة كتابتهم هى اللاتينية ، واسلوب ثقافتهم القانونية هو اسلوب الحكمة الفرنسية العليا باستثناء بعض المصطلحات الفنية في قانونهم ، التى كانت لها اصول اسكندنافية (٣٧) . فقد اسنفر النورمان بنورمانديا واتخذوا من روان عاصمة لهم وبدأوا في الاندماج في البيئة المجاورة كل ذلك دون ان يفقدوا حماسهم للقتال وجهم للمغامرة (٣٨) ، وطبقوا القانون الفرنجى وتحولوا الى الحديث بالفرنسية ، ولعل ذلك هو الذى جعل الدوق الثانى من اوراق نورمانديا ولیم الأول (طويل الصيف) يضطر الى ارسال ابنه الى بايو ليتعلم اللغة الاسكندنافية لانها لم تكن لغة حديث في رولن عاصمة نورمانديا . (٣٩)

وتنجلي هذه الفترة المبكرة من تاريخ النورمان ومملكة نورمانديا او دوقية نورمانديا بظهور الدوق الرابع من ائوالها وهو ريتشارد الطيب Richard the Good وابنه روبرت الذى عرف بروبوت العظيم ، وهو الدوق الخامس من ائوالها ،

Haskins : op. cit. p. 40.

(٣٤)

Cantor : op. cit., p. 254.

(٣٥)

Pollock, Maitland : Hist. of English law. p. 66.

(٣٦)

Haskins : op. cit., p. 66.

(٣٧)

Schjoth : op. cit. p. 3550.

(٣٨)

Haskins : op. cit., p. 49.

(٣٩)

والذي قدر له أن يموت وهو عائداً من الأراضي المقدسة بعد قيامه بالتحج
اذ توفي في أسبيا الصغرى سنة ١٠٣٥ م ، وكان روبرت هذا ولدا لدوق
نورمانديا الشهير وليم العظيم ، الذي عرف فيما بعد بوليم للفتاح (١٠٣٥ -
١٠٨٧ م) • (٤٠)

والواقع أن وليم - دوق نورمانديا السادس - كان أشهر أدواق تلك
الامارة على الاطلاق لما تحققت على يديه من أعمال كان أبرزها إقامة امبراطورية
نورمانية مدت سيطرتها الى إنجلترا (٤١) ، وشغل وليم في سنى حياته
الأولى بنفسه مع انفصاله الاقطاعيين وجيرانه في غالة ، وما حدث من أمور
بينه وبين ملك فرنسا • وبانتهاء هذه المشكلات بدأت نورمانديا تنعم بفترة
سلام وازدهار حقيقي في ظل دوقها الشاب وليم العظيم • (٤٤)

والواقع انه ليس هناك جدال من الناحية القانونية ان دوق نورمانديا
كان فصلا اقطاعيا للملك الفرنسي ، تحكم وتربطه به التزامات الصداقة
والخدمة النابعة من أداء دوق نورمانديا يمين الولاء للملك الفرنسي • (٤٣)
حقيقة كبرى ما انتهكت مثل هذه الصلات الاقطاعية في مجتمع القرن الحادى
عشر والثانى عشر ان لم تكن قد نزعتهما تماما ، لكننا نقابل في هذه الحالة
بتناقضات خطيرة بين ما هو نظرى وما هو واقع فعلى (٤٤) ، فموقع نورمانديا
في وادى نهر السين وقربها من الدولة الملكية قد أوجد فرصا لاتفتشى للاحتكاك
ولقد تجنب الطرفان في أول الأمر ولادة نحو قرن من الزمان توتر العلاقات
وتدهورها فمعدت معاهدة صداقة ومحالفة تستند الى المصالح المشتركة

Ibid. pp. 52-3.

(٤٠)

Schjoth : op. cit., pp. 3550-3.

(٤١)

Ibid. p. 3550.

(٤٢)

Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 72-7.

(٤٣)

Full Rechin : «Chroniques des Comtes d'Anjou»

(٤٤)

pp. 63-4.

بينها (٤٥) . غير أن هذه العلاقات الطيبة ما لبثت أن تبدلت قرب منتصف القرن الحادى عشر ، ولابد وأن نمو قوة وتأثير نورمانديا فى المنطقة يعطى تفسيراً كافياً لهذا التغيير ، ولذلك عضد الملك هنرى الثورة الداخلية ضد النورمان سنة ١٠٥٣ ، كما حاول القيام بغزو شامبل لنورمانديا فى نفس السنة ، بينما أحرق وخرّب ودمر ونهب ما صادفه فى طريقة فى قلب الممتلكات النورماندية سنة ١٠٥٨ ، لكن لجوء النورمان الى التريث وحسن توقيت الهجمات المضادة قد بدد جهود الملك ، لكن وليم رفض أن يقوم بهجوم مباشر ضد مليكه ، الذى ظل يعامله من قبله باحترام شخصى بوصفه لورده الاقطاعى (٤٦) ، وحتى بعد أن أصبح وليم نفسه ملكاً ظل فى أغلب الظن يقدم للخضعة الحربية التى كان يؤديها للملك وهو دوق ، وعلى كل حال غدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية الى حد بعيد حينذاك لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه (٤٧) ، وقد ظلّ العداء بين ملوك فرنسا وبين النورمان الى أن وجد هؤلاء متنفساً فى إنجلترا يرضى ويشبع جهم للمغامرة والتوسع فخفت حدة العداء بين الطرفين الى حد كبير . (٤٨)

ونتيجة لذلك فإن توسع نورمانديا كان لابد أن يتجه نحو إنجلترا بسبب التقارب من البلدين وبسبب الموقع الجغرافى ، والاستقرار الاسكندناوى فى كلا البلدين والمشروعات التجارية لتجار رومان ، وتشير الدلائل الى أن وليم العظيم كان قد بدأ يهتم بشئون إنجلترا منذ سنة ١٠٥٠ م وتطلع الى حيازة التاج الانجليزى منذ ذلك الوقت (٤٩) ، وكان زواج الملك الانجليزى ايثلرد Ethelred من Emma أخت الدوق ريتشارد الطيب سنة ١٠٠٢ ،

Mahrenholtz : «France through the middle ages» B.H. (٤٥)

VII, p. 2764.

Haskins : op. cit., p. 65.

(٤٦)

Ibid. p. 65.

(٤٧)

Mahrenholtz : op. cit., p. 3771.

(٤٨)

Cantor : op. cit., p. 257.

(٤٩)

وهو دوق نورمانديا الرابع ثمرة من ثمرات التقارب . بين البلدين (٥٠) ، وجه هذا الأزواج السياسي ليقوى الرابطة الأسرية بين البلدين الأمر الذي ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية ، ودخول إنجلترا في السياسة النورماندية في ذلك الوقت ، فقد تربى ابنهما إدوارد المعترف The Confessor في البلاط النورماني حتى أصبحت عاداته وعولفظة نورمانية أكثر منها انجليزية (٥١) . وجاء اعتلائه العرش الإنجليزي سنة ١٠٤٢ م بداية لازدياد التأثير النورماني في إنجلترا في الدولة والكنيسة الأمر الذي اعتبره فريمان صاحب الاتجاهات المناهضة للأجانب - البداية الحقيقية للغزو النورماني لإنجلترا (٥٢) ، وخاصة وأن المعترف توفي دون أن يعتب بفتح بذلك الباب أمام الأطماع النورمانية في إنجلترا .

وكان هناك بعد وفاة إدوارد المعترف اثنان يطالبان بالعرش الإنجليزي أحدهما هو هارولد بن جودوين godwin أكثر لرات إنجلترا قوة (٥٣) . والثاني هو وليم دوق نورمانديا . وكان هارولد قد أحجم عن تقديم أي مطلب بوراثه العرش قبيل وفاة إدوارد حتى يبدو أنه حصل على تأييد الملك قبل وفاته ، فضلا عن أنه جمع إلى جانب ذلك بين قوة اللباس والظهور بمظهر الرجل الأول أو القائد الأول في المملكة . (٥٤)

أما وليم دوق نورمانديا فبوصفه ابن خال الملك المتوفى ، فقد تطلم إلى عرش إنجلترا ، ودعم مطالبه بالاستشهاد بنص مبكر لإدوارد أو تصريح نسبته إلى إدوارد بأنه اللوريت الشرعي الوحيد لعرش إنجلترا (٥٥) . كما استشهد بقسم أويمين قال أنه استخلصه من هارولد ، ليس من المعروف

Davis and Arthur : op. cit., p. 3846. (٥٠)

Trevelyan : op. cit., p. 107. (٥١)

Freeman : Norman conquest. II, p. 166. (٥٢)

Trevelyan : op. cit., p. 111. (٥٣)

Haskins : op. cit., p. 73. (٥٤)

Davis and Arthur : «England before the Norman conquest» B. H. VII, p. 3646. (٥٥)

تماما مدى صحة هذا الادعاء ، وما اذا كان هذا القسم قد حدثَ خلال زيارة قام بها هارولد الى نورمانديا قبل ذلك بنحو عامين او ثلاثة أعوام (٥٦) ، ولكن مع ذلك فقد مكن هذا الادعاء وليم من التظاهر بأنه ليس الا مدافعا عن حقوقه ومن عهد نكث هارولد . ولقد منحته هذه المناورة ميزات كثيرة فبدا وكأنه يدافع عن قضية عادلة ، وشجعه على طلب معونة البابا لسكندر الثاني الذى رفعت اليه القضية برمتها . (٥٧) فى الوقت الذى لم يحفل فيه هارولد فى إنجلترا بذلك كله ، بل جرى اختياره ملكا بواسطة مجلس اللوتان Witan او مجلس الحكماء ، وبدا له ذلك اجراء قانونيا يعبر ويعكس ما يلقاه من تأييد كبير . (٥٨)

ويشير احد المؤرخين الحديثين (٥٩)، قضية هامة فى علاجه لهذه النقطة بالذات فيذهب الى انه لا يجب أن نقع فى خطأ تاريخى بالاعتقاد بأن هارولد كان بطلا قوميا او حتى مرشحا لحزب قومى ، اذ لم يكن شمة شئ يعنى القومية فى القرن الحادى عشر بالمعنى المعروف فى العصر الحديث لأن هذه الكلمة لاتعنى شيئا بالنسبة لانجلترا فى ذلك الوقت بسبب تفتتها وتجزئتها ، وما حدث فيها من خراب وبمار على يد الداننيين ، وما جرى فيها من نسزعة انفصالية داخلية (٦٠) ، فضلا عن أن مفهوم « الاجنبى » وتصور ما يمكن أن يكون اجنبيا لم يكن واضح المعالم فى اذهان المعاصرين ولازال عهد الملك كانوت Cnut الذى حكم إنجلترا على الرغم من أنه كان ابن ملك الداننيين يؤكد أن إنجلترا لم تكن تخشى أن يتولى عرشها ملك مولود فى الخارج (٦١) . حقيقة كانت المنافسة بين هارولد - نصف الدانى - ووليم

Haskins : op. cit., p. 74. (٥٦)

Cantor : op. cit., pp. 337-8. (٥٧)

Haskins : op. cit., p. 74.

Davis and Arthur : op. cit., p. 3846. (٥٨)

Haskins : op. cit., p. 74. (٥٩)

Ibid. p. 74. (٦٠)

Ibid. pp. 74-5. (٦١)

النورمانى تجرى كما لو كانت بسبب التعصب القومية الا انها لم ترق مطلقا الى مرتبة الكفاح القومى او للنضال القومى . (٦٢)

وكان ولیم قد قضى للفترة بين وفاة ادوارد المعترف وتوتيج هارولد في يناير سنة ١٠٦٦ الى عبور القتال الانجليزى في سبتمبر سنة ١٠٦٦ في الاستعدادات لغزو انجلترا (٦٣) ، ولذا كانت هذه الحملة ضخمة لايمكن ان ينهض بها التزامات الخدمة الحربية من انفصال ولیم الاقطاعيين ، فقد لجأ هذا الى استثارة حماسة النورمان وحبهم للمغامرة وبراعتهم . في استخدام الأسلحة ووعدهم بالأراضى الواسعة والغنائم الكثيرة ، ولم يجد غضاضة في قبول فرسان من أجزاء أخرى من فرنسا من بريتانى وفلاندرز وبواتو Poitou ومغامرين من اسبانيا البعيدة ومن صقلية . (٦٤)

وبعد ذلك واجهت ولیم مشكلة ثقل هؤلاء المحاربين الى انجلترا ، وذلك لأن نورمانديا لم يكن لها أسطول بحرى يمكن أن ينفى بهذا الغرض ، ولم يكن من السهل بناء سبعمائة سفينة في ستة أشهر ، ولهذا فقد لجأ ولیم الى انفصاله وأقاربه لحل هذه المشكلة فتعهد هؤلاء بإمداده بهذا العدد من السفن ولهذا لم تأت نهاية شهر أغسطس سنة ١٠٦٦ الا وكانت الحملة جاهزة للعمل وعند سانت فاليرى Saint Valéry تجمع الأسطول للعبور للنهائى الى الجزيرة البريطانية . (٦٥)

وفي أواخر شهر سبتمبر سنة ١٠٦٦ نزل النورمان على الساحل الانجليزى عند بنفسي Pevensey وساروا الى هاستنجز Hastings (٦٦) حيث التقوا في ١٥ أكتوبر بفرق هارولد التى كانت منتعشة بالنصر الذى

Ibid. pp. 74-5.

(٦٢)

Trevellyn : op. cit., pp. 114-7.

(٦٣)

Haskins : op. cit., p. 75.

(٦٤)

Ibid. p. 75, Rayner : op. cit., pp. 24-5.

(٦٥)

Schjoth : op. cit., p. 3552.

(٦٦)

أحرزته قبيل (٦٧) هذه الأحداث على النرويجيين في الشمال عند قنطرة Stamford bridge التي كانت تمثل حينذاك تلا محصنا جيدا يبعد عن هاستنجز وإلى الداخل نحو ثمانية أميال على طريق لندن : لتجرى بين النورمان وفرق هارولد معركة من أهم المارك ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتاريخ القطرين انجلترا ونورنانيا . (٦٨)

ويجمع المؤرخون الذين تناولوا معركة هاستنجز على أن هذه المعركة كانت من أهم معارك العصور الوسطى وأكثرها وضوحا لأنها معروفة تماما للمؤرخين وقل أن تعرف معركة بهذا القدر الذي عرفت به معركة هاستنجز ، (٦٩) وذلك لوجود عدد كبير من الكتابات النثرية التي كتبها المؤرخون الاخباريون اللاتين عنها ، فضلا عن المراثي المعاصرة لجاي أوف امينز Guy of Amiens وبودري أوف بورجيل Baudri of Bouguell وشسمر Roman de Rou الذي ألفه الرومان دي رومان دي رومان عن الرسوم الواضحة الجميلة والفريدة ممثلة في لوحات بايو The Bayeux Tapestry وهذا الأثر الأشهر يتكون من لفة من القماش طولها مائتين وثلاثين قدما وعرضها عشرين يوصة مرسومة بالألوان لسلسلة من تسع وسبعين منظرا أو مشهدا تقص تاريخ الفتح النورمانى لانجلترا ، منذ رحيل هارولد في رحلته المشؤومة حتى الهزيمة النهائية للجيش الانجليزى في ساحة القتال في هاستنجز ، وهذه المشاهد تشير إليها بغاوين مختصرة اختيرت بعناية وقسمت بتفصيل حقيقى له أهمية كبيرة بالنسبة لحياة العصر الثقافي والفكرية . (٧١)

Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.

(٦٧)

Haskins : op. cit., p. 75.

Edward A. Freeman : op. cit. p. 164-7.

(٦٨)

Stenton : Anglo Saxon England, pp. 576-80.

(٦٩)

Haskins : op. cit. p. 76.

Haskins : op. cit., p. 76.

(٧٠)

Ibid. p. 76.

(٧١)

وقد حفظ الأثر الهام في الكتدرائية ، ثم نقل إلى المتحف الوطني في بايو ويذهب للدارسون لهذا الأثر الفادر بأنه لاشك ينتمى إلى القرن الحادى عشر استنادا إلى ما يظهر فيه من أنواع السلاح ومن العادات التى تنتمى إلى ذلك القرن ، فضلا عن قرائن مادية أخرى معاصرة للحوادث التى تصفها وتصورها • (٧٢)

ويرقى الأدب المعاصر للمعركة ليوازى أهميتها التاريخية ، إذ توجد أهم المدونات الكلاسيكية في المجلد الثالث من مؤلف فريمان العظيم : **Freeman History of the Norman Conquest** حيث سردت القصة بمزج نادر بين التفصيل الخفيف والقصص الرشيق يذكرنا - كما يقال - معركة من الألياذة أو بمساجا من المساجات الاسكندنافية (٧٣) ، لكن يؤخذ على سرد فريمان لقصة هاستنجز أنه أضفى عليها قدر كبيراً من الجمال والفضامة وشحذ فيها قندراً كبيراً من الحساسة حملتها كما هو متوقع فيما وراء شواهد المصادر التاريخية ، ولهذا فكثير من الأمور الجهورية في تلك المعركة لا يمكن قبولها كسبب سند تاريخى (٧٤) • فقد انبرى باحث متعمق في التاريخ الأنجلو - نورمانى وهو راوند **Horace Round** ، لا ينقد كثيراً من نظرياتها الخريبة التى ظن فريمان أنها كانت عصب التكتيكات الانجليزية ، وأثبت راوند ضعفها ، كما هاجم كل من سباتز **Wilhelm Spatz** وأستاذه البركنى الشهير **Hans Delbuck** علاج فريمان للموضوع ككل بتحليل يمثل وجهة النظر العلمية للتاريخ الحربى • (٧٥)

ولعل خير ما قيل في نقد هذه الروايات عن هاستنجز أن الجندى الانجليزى والفارس النورمانى كانا عاجزين عن استيعاب النظام والاتحاد

Ibid. p. 76.

(٧٢)

Corpus Poeticum Boreale, 1, p. 281.

(٧٣)

وانظر مقتطفات من المساجات في كتابة **Haskins** المذكور لبتداء من ص ٣٩ ، وانظر أيضاً كتاب **Prevelyan** في كتابة المذكور ص ٧٥

Haskins : op. cit., p. 77.

(٧٤)

Haskins : op cit., pp. 77-8.

(٧٥)

Rayner : op. cit., pp. 24-5.

الذى تتطلبه اية استراتيجية حقيقية ، كما كانا عاجزين عن تشكيل الحائط الدفاعي وتنفيذ الهروب الخداعي أو التظاهرى . ولذا فان ما يمكن استنتاجه من تلك المعركة ان قتال العصور الوسطى كان اكثر فردية من قتال الجيوش القديمة والجيوش الحديثة ، وكان يفتقر الى اتباع المرونة والمناورة في الظروف المختلفة . (٧٦)

كما نقد الدارسون أيضا هذه الروايات لمبالغتها في اعداد الجيوش التي قادها كل من وليم وهارولد لعدم التورى التام للمؤرخين الاخباريين في معالجة مثل هذه المعارك في العصور الوسطى ، وأوضحوا مدى هذه المبالغات في اعداد الجند في ضوء قيود الحرب ومجالاتها والنقل والامدادات وغير ذلك (٧٧) . وكانت الروايات القديمة قد ذهبت الى ان وليم قد قاد جيشا مكونا من نحو خمسين أو ستين ألف فارس ، كما بالغوا في اعداد جند هارولد أيضا وانبتت للدراسات الحديثة ان جيش وليم لم يزد عن عشر هذا العدد أى خمسة أو ستة آلاف فارس على حين لم يزد جيش هارولد عن ذلك أيضا ان لم يقل عنه ، استنادا الى ان مكان اللقاء بين الجيشين يتسع لأكثر من اثني عشر ألف محارب في تشكيل متقارب جدا في تل هاستنجز (٧٨) .

وبصرف النظر عن كل ما حدث من جدال حول معركة ، هاستنجز ، فان خطوطها الرئيسية بدت واضحة المعالم تماما ، فقد احتلت فرق هارولد تلا محصنا تماما يبعد الى الداخل عن هاستنجز نحو ثمانية أميال على طريق

Haskins op. cit., p. 78.

(٧٦)

Trevelyan : op. cit., pp. 114-7.

Rayner : op. cit., pp. 245.

Oman : England before the Conquest, p. 641.

(٧٧)

Roud : Feudal England, p. 266, pp. 289-92.

Trevelyan : op. cit., p. 115.

Haskins : op. cit., p. 78.

(٧٨)

لندن (٧٩) ووقف في المعركة الكارلات المهرقة Housecarles بحصيم خائض متين من دروعهم ، ندعمهم للفرق الأخرى المسلحة تسليحا جيدا لاسيما الشينذات hegns ومن ورائهم وبعانهم وقف المجندون من أبناء الريف مسلحين بالرماح والهرلوات الحجرية وأسلحة للفلاحين ، لكن كان لديهم قليل من رماة السهام ، ولم يكن لديهم فرسان على الإطلاق اذ لم يكن الانجليز حتى ذلك الوقت تعد تعلموا ان يحاربوا وهم ركوب على الخيل اى انهم لم يدخلوا في جيوشهم نظام الفرسان (٨٠) ، ولهذا فقد اتخذوا من سفح التل مكانا للحماية من هجمات خيالة النورمان فبدأ وكان التكتيكات الانجليزية قد سهلت قيام دفاع متين . (٨١)

اما عن الخطوط للنورمانية فتكونت أولا من رماة السهام ، ثم من مشاة الجنود المسلحين بأسلحة ثقيلة ، ثم أخيرا الفرسان المدرعين ، ويقوم تجمعهم المركزى حول وليم والعلم الذى تنفاه من اللبابا (٨٢) ، وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين رجح ان عدد جنود وليم لم يكن يزيد عن ستة آلاف جندى الا أن البعض الآخر ذهب الى القول بأنهم ربما كانوا في نحو اثني عشر ألف جندى نصفهم على الأقل من الفرسان . (٨٣)

ولقد بدأت المعركة بهجوم تمهيدى قام به رماة السهام والمتساءة في الجيش النورمانى ضد الانجليز ، ثم تقدم للفرسان يصيبهم مغنى يدعى تيلفر Tallefer وصف بالشجاعة والقدام ، وكان يتغنى بغناء جميل قاذفا سيفه في الهواء ومتلقفا اياه منفصدا :

Schjoth : op. cit., p. 3552.

(٧٩)

Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.

Haskins : op. cit. p. 75.

Cantor : op. cit. p. 336.

(٨٠)

Haskins : op. cit., p. 80.

(٨١)

Ibid. p. 80.

(٨٢)

Davis and Arthur : op. cit., p. 3845.

من رولان ومن شارلمان

أوليفر وكل الانفصال

الذين ماتوا في الحرب عند رونسفال (٨٤) *

وعلى الرغم من كل هذا الحماس ، فقد تراجع الفرسان النورمان أمام
شدة القتال من قبل الانجليز وراحوا ينسحبون يتبعهم الانجليز ، غير أنهم
عندما رآوا وليام خاسر الرأس وقد خلع خوخته ليعرف ، التأم شملهم مرة
أخرى وعادوا الى التجمع من جديد . (٨٥) وحيث أن الكتل الانجليزية كانت
تقف صامدة خلفاً لحائطها الخرع ، فلم يكن هناك سبيل الى اختراقها وكسر
هذا الحائط سوى بخدعة الهروب المصطنع أو التظاهر بالانهزام ، حيث يعود
النورمان بسرعة ليحيطوا بجموع الانجليز ويجزئوهم الى جماعات صغيرة.
يلتفون حولها ، في الوقت الذي احدثت سهام النورمان الثغرات في الحراس
الانجليز House carles ، ونفذ من هذه الثغرات فرسان النورمان تجاه حرس
الكهنة المسلحين بفئوس الحرب ، ولم يلبث أن اشتد وطيس القتال ، واطلمت
الدينا فوق سماء المعركة وتكاثر القتلى . (٨٦)

وانجلي ذلك كله عن جرح هارولد جرحاً قاتلاً بسهم من السهام ،
وأفضل حرسه ، وتفرقت جموعه « وهنا قتل هارولد واستدار الانجليز ليهربوا ،
وهذه العبارة آخر عنوان في لوحات بايو أو التابستري ، واخذ النورمان في
سلب ما يمكن سلبه من القتلى من سلاح وعتاد ، واخذوا يسوقون خيل الفرسان
من المجندين . وهكذا على حد تعبير الروايات القديمة « قررت معركة واحدة

•Oman : op. cit. p. 641.

(٨٣)

Roud : op. cit., p. 265.

Haskins : op.cit. , p. 79.

(٨٤)

Ibid. p. 79.

(٨٥)

•Trevelyan : op . cit. , p. 117.

(٨٦)

Haskins : op. cit., p. 80.

•Rayner : op. cit., p. 25.

مصير إنجلترا وسطرت قدرا ، • (٨٧)

وبعد انتهاء المعركة كان على وليم أن يتم فتح هذه البلاد بأخضاع
لكسندر *Exter* ، وأن يقضى على مقاومة نورثمبرلاند بعد سلبها ونهبها .
وأخضاع بقية الولايات الانجليزية حتى يستقيم له الأمر ، والواقع أن هذه الأمور
لم تشغل إلا حيزا ضئيلا من فكر وليم ، فقد أنجزها بسهولة لاتماما للفتح وقرارا
للأوضاع فكتب بذلك صفحة جديدة في تاريخ تلك البلاد • (٨٨)

غير أن الأهم من ذلك والذي كان يشغل بال وليم فعلا هو عملية تنويعه
ملكاً على إنجلترا ليحتل مكان هارولد بأسرع ما يمكن تقريبا لما قد ينشأ
من معارضة لهذا التتويج • والواقع أن وليم لم يضع وقتا طويلا قبل أن يتم
هذا العمل ، ففي يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦ م توج وليم في لندن ملكاً على
إنجلترا (٨٩) حتى ليشير مؤرخ محدث إلى أن هذه للرواية الاخبارية التي
تختص بنبا تنويع وليم ملكاً وبأحداث السنوات الأخيرة ، إنما تنتمي إلى
التاريخ الإنجليزي أكثر مما تنتمي إلى التاريخ النورماني ، أي أن هذا الفتح
قد أصبح يخص التاريخ الإنجليزي أكثر من كونه يرتبط بالتاريخ
النورماني • (٩٠)

ولذا كانت النتائج التي ترقبت على هذا الفتح بالغة الأهمية بالنسبة
للمهزومين الانجليز ، فإن أهميتها بالنسبة للمنتصرين للنورمان كانت أبعد
أثرا ، فقد كانت فرصة مواتية لتوسع النورمان في كل مجالات الحياة في الجزيرة
البريطانية ، وللمحاربين النورمان كانت انطلاقا لآمال إخضاع بقية الجيوب
المعارضة والسيطرة على بقية البلاد (٩١) • ولرجل الدولة والمنظم كانت

Haskins : op. cit., p. 80. (٨٧)

Davis and Arthur : op. cit., p. 3846. (٨٨)

Haskins : op. cit., pp. 80-1. (٨٩)

Stenton : op. cit., p. 589. (٩٠)

Haskins : op. cit., p. 81.

Stenton : op. cit., p. 617. (٩١)

فرصة لاعادة ترتيب وتنظيم الحكومة المحلية ، وللأسقف ورجل الدين فرصة
ايضا لترتيب استشفية الجديدة وجعلها تسابير وتواكب وتلائم مع عمل الكنيسة
في القارة الأوروبية ، وللرهبان كانت فرصة أيضا ليؤسسوا أديرة جديدة ويديروا
الأراضى الواسعة التى غدت تابعة لأبيرتهم فيما وراء القنال • (٩٢)

ولقد اقتفى رجل المدينة والتاجر النورمانى اثر الجيوش النورمانية
في المستعمرة الجديدة في لندن ، وفي تجارة الموانى وفي مقاطعات الحدود الغربية ،
ولعل ذلك يعد نتيجة أخرى من نتائج الفتح النورمانى لانجلترا ، ترتبت
عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للشئون الاقتصادية والمالية تضاف الى
بقية النتائج السياسية والدينية والاجتماعية ، تأكيداً لما سبق قوله من ان
انقصار النورمان كان فرصة مولتية لتوسع النورمان في مختلف جوانب الحياة
في الجزيرة البريطانية • (٩٣)

ومن البديهي ان يحدث التغيير في المستعمرة الجديدة جهوداً وبشكل مبسط
جداً ، ويتركز حول وضع أشخاص جدد مكان آخرين لتنتقل السلطات الى
الغزة في يسر وسهولة (٩٤) ، فقد وضع رئيس أساقفة نورمانى في كانتبرى
مكان رئيس الأساقفة القديم Stigand ، ثم الانتشار فوق الرقعة الانجليزية
انتشاراً يكاد يشمل كل خريطة تلك البلاد ، ويعبر عن الوضع الجديد باعتبار
انجلترا بلداً نورمانياً ، حتى ليذهب بعض المؤرخين المحضين الى ان ذلك لم
يكن سوى عملاً لاعادة الاصلاح والتنظيم الذى تطلب كل مواهب النورمان في
اعمال البناء • (٩٥)

واصبغت جهود النورمان حينئذ بحماسة بالغة في كل مناحى الحياة في
مستعمراتهم الجديدة ، وانعكس ذلك بصفة خاصة في الأدب النورمانى الذى

Ibid. p. 634.

(٩٢)

Haskins : op. cit., p. 81.

(٩٣)

Rayner : op. cit., p. 32.

(٩٤)

Trevelyan : op. cit., j. 103.

Hoskins : op. cit., p. 81.

(٩٥)

عبر بصدق عن عظمة الانجازات النورمانية ومجد الامبراطورية الجديدة ، واعتبر
لنورمان انجلترا ملحقة بنورمانديا وتابعة لدولتهم قبل ان يفيقوا على حقيقة
جديدة جاءت عكس تصوراتهم وقلبت الوضع تماما فاصبحت نورمانديا تابعة
للتاج البريطاني . (٩٦)

اما اهم نتائج هذا الفتح بالنسبة لانجلترا ، فان الغزو النورمانى قد
حمل على استمرار السياسة الانجليزية والثقافة والمدنية الانجليزية برغم كل
شئ ، وحول انجلترا جهة اللغوبوزج بها دفعة واحدة في التيار الرئيسى للمشئون
الأوربية (٩٧) ، والمشكلات السياسية لأوربا والمشئون الكنسية والمؤثرات
الثقافية والفكرية بعد أن كاد الغزو الدانى يفصل بينها وبين القارة ويشدها
بعيدا الى الشمال . (٩٨)

لكن الاتحاد مع نورمانديا قد حول انجلترا الى الجنوب وجعلها جزءا من
فرنسا ، فتألفت لغة فرنسا وأدبها وفنونها أيضا ، وأصبح قانونها الى حد بعيد
قانونا فرنجيا ، وغدت مؤسساتها أكثر رسوخا في النظم الاقطاعية مع أن
الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورمانديا ، وحمل اليها التأثير الفرنسى في
اشكال نورمانية (٩٩) ، خاصة في المجالات التي برز فيها النورمان أو تفوقوا ،
لاسيما في مجال الحكومة والنظم الاقتصادية والاجتماعية ، اذ تطابق الاقطاع
الانجليزى والقطاع النورمانى الذى تميز فيه البارونات بالضعف في ظل القوة
المركزية الأقوى . ليس بخلف أن الملكية النورمانية القوية هي التي حولت الدولة
الانجلو - سكسونية المفككة الى الأمة الانجليزية ، فلم تتحول انجلترا الى
دولة أوربية الا بعد أن بلغت الثمن بجعلها بلدا نورمانيا . (١٠٠)

Ibid. pp. 81-82.

(٩٦)

Haskins : op. cit., p. 82.

(٩٧)

Trevelyan : op. cit., p. 102.

(٩٨)

Haskins : op. cit., p. 82.

(٩٩)

Haskins : op. cit., p. 82.

(١٠٠)

Royne : op. cit., p. 34.

وإذا القينا نظرة اخيرة على هذا الانجاز ، يتضح ان الفتح النورمانى لانجلترا يعتبر بحق العمل التتويجى للتاريخ النورمانى . حقيقة كان ذلك النجاح راجعا فى اغلبه لحسن الحظ ولعدم وجود الأسطول الانجليزى ولتوفيق السياسة الفرنسسية ، وللاخطاء التى وقع فيها الانجليز . ولكن لابد أن يؤخذ فى الاعتبار قوة وحسن تنظيم نورمانديا وشخصية قائدها وليم ، الذى كان دبلوماسيا صاهرا ومحاربا فذا وقائدا موهوبا ورجل دولة من الطراز الأول (١١١) .

فيفضل مواهبه العظيمة وحسن تنظيمه استطاع بعد الفتح أن يحول « هزيمة الانجليز الى بداية صنع الامة الانجليزية العظيمة » ، وهو انجاز قل أن يدانيه فيه أحد ، وموهبة سياسية رفعت الى مصاف الرجال العظام فى التاريخ . ولقد شاركه فى مواهبه وقدرته السياسية بارونات النورمان اذ تعاون الجميع فى بناء الدولة فى انجلترا ، وأمدتهم هذه التجربة الجديدة بحقل خصب لمزولة قسراتهم السياسية ، ومهارتهم العظيمة فى الحكم وهى القدرات التى كانت قد ظهرت قبل ذلك بجلاء فى نورمانديا . (١٠٤)

وبفتح انجلترا على يد وليم العظيم الذى أخذ لقب وليم الفاتح بدأ عهد جديد فى تاريخ النورمان ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ نورمانديا مثلما بدأت مرحلة هامة خطيرة فى تاريخ انجلترا . وبدأ النورمان يؤسسون امبراطورية عظيمة توسعت فيما حولها فضمت انجلترا وانجو وبدأت حقبة هامة فى تاريخ هذا الشعب فى العصور الوسطى .

Travelyan : op. cit., p. 102.

(١٠١)

Rayner : op. cit., p. 34.

Haasins : op. cit., p. 82.

(١٠٢)

Freeman : op. cit., p. 166.

(١٠٣)

Schjoth : op. cit., p. 3552.

(١٠٤)

المصادر والمراجع

- «Annales Bertiniani» in «Monumenta Germania Historica Scriptores», Ed. by Georg H. Pertz and others. Hanover and Berlin 1826-1905.
- Annals of Fulda — M. G. H. Scriptorum, in Hist. of Medieval Europe, by Davis.
- Corpus Poeticum Boreale - in Haskins : The Normans in European Hist. (New York 1959).
- Epistolae Gerbert Ed. J. Havet 1889, Chronicon Novaliciense (trans. Davis in C.M.H.).
- The Book of History :
 Davis : «The British Isles from the earliest times to the Middle Ages» V. VII.
 Davis and Arther : «The British Isles» V. VII.
 Mahrenholtz : «France through the middle Ages» V. VII.
 Schjoth : «Great days of the Northmen» V. VII.
 MSchjoth « Great days of the Northmen» V. VII.
- Camb. Med. Hist. 8 Vols. (cambridge 1924).
- Cantor : Medieval History. (New York 1964 Sec. Printing.)
- Davis : A History of Medieval Europe (London 1970).
- Fliche : L'Europe Occidentale de 888 à 1125 (Paris 1930).
 — Le règne de Philippe 1er roi de France. (Paris 1912)'.

- Freeman :
 - History of the Norman Conquest (Oxford 1870-79).
 - Series of «Twelve English Statesmen (London 1888).
- Hallam :
 - View of the State of Europe during the middle Ages.
- Haskins :
 - The Norman in European History (New York 1959).
- Katz :
 - The Decline of Rome and the rise of Med. Europe (New York 1955).
- Oman :
 - The Dark ages 479-918 (London 1962).
 - England before the Conquest.
- Painter :
 - A History of the Middle Ages from 284 to 1500 (1952).
- Pollock, Maitland :
 - Hist. of English law.
- Rayner :
 - Concise Hist. of Britain (London 1939).
- Snyder :
 - Documents of the German Hist. (New York 1975).
- Southern :
 - The making of the middle ages (London 1967) .
- Stenton :
 - Anglo-Saxon England sed. Ed.

- Heroes of the Nations» (1908).
- Trevelyan :
 - Hist. of England Part 1.
 - (London 1926).

المراجع العربية

- فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والعرينى والعدوى)
- دينر : أوروبا في العصور للوسطى (ترجمة د • عبد الحميد حمدي)
- محمد الشيخ : — الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى
- دار الكتب الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٧٥
- دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس
- مؤسسة للثقافة الجامعة الاسكندرية سنة ١٩٨١
- سعداوى : تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة الوسطى
- دار النهضة العربية — القاهرة سنة ١٩٦٨
- د • سعيد عاشور : أوروبا العصور للوسطى
- الطبعة. السادسة ١٩٧٥

الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

للدكتور / محمد عبد الحميد عيسى

كلية التربية - جامعة عين شمس

الحضارة الاندلسية : مرحلة التكوين

« التاريخ صانع الانفسان ، والبشر صناع التاريخ » بهذه العبارة الخالدة استهل المؤرخ الاسباني ذائع الصيت ، كلاوديو سانشيث البرتوس كتابه القيم « اسبانيا لغز تاريخي » (١) لينطلق منها الى دراسة العوامل المتبادلة بين الانسان والبيئة في صنع للتاريخ ، وليبين لنا ان اسبانيا التي نعيش اليوم ما زالت وستظل لغزا ما لم نعتد في دراستها على كل تاريخها ، وخاصة تاريخ تلك القرون الثمانية التي عاشتها في ظلال الاسلام. حيناً وفي صراع معه اغلب الاوقت ، لأنها - أي اسبانيا - بعظمتها وجلالها وبما فيها من عيوب ونقائص وليدة ذلك الصراع المستمر خلال الأعوام الثمانمائة (٢)

وليس ذلك موضوع دراستي ، لكنني اريد ذلك للإشارة الى ذلك اللغز التاريخي او على وجه التحديد الى اسبانيا الاسلامية ، لاندلس التي أراها وبحق لغزا تاريخيا محيرا ، الهم حملة الاقلام كثيرا ، وسيظل يهدم دائما بوحيه واسرارها مما يجعل للكتابة في هذا المجال سحرا لايقاوم رغم تقادم الزمان ومضى الأيام .

لقد ارتفع الاندلس حضاريا ، في المصور الوسطى الى درجة رفيعة المستوى وإلى مكانة سامقة اعترف بها الاصدقاء والاعلاء على حد سواء . فهي اندلس التاريخ وهي الاندلس المفقود وهي الاندلس الموعود ، وهي كما قال فيها ابن خفاجة :

يا اهل اندلس لا تتركوا ماء وظل وإنهار رأسجار
ما جنة الخلد الا في بياركم ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعدها ان تدخلوا ببقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

ويقول آخر :

ان اللجسة في الأندلس مجتلى حسن ورييا نفس
فسنا صبحتها من شنب وبجي ظلمتها من لفس
فأذا ملعبت الريح صبا صحت : واشوقى الى الأندلس (٣)

وهي أيضا في نظر المؤرخين الاسبان : هذا الاندلس ، مركز وفنار
أشرق ذات يوم ، وكانت أشراقته مطمح الأطماع ، ومحف الألبصار النهضة الجامعة الى
العلم ، في اى فرع من فروع المعرفة ، آه كم كانت تلك الفترة زاهية
ومقسسة ، (٤) .

ولا اهدف الى حصر ما قيل في هذه الحقبة التاريخية ، لأن ذلك ليس
سرا بئى هو أمر شائع في كافة للكتابات المتعلقة بهذا العصر ، انما السر
الحقيقي هو ذلك التنازع والخلاف في تحديد الأسباب والعوامل التى أدت
الى قيام هذه الحضارة ، وليس ذلك بالأمر الشاذ ، فالحضارة الاندلسية
بما سطرت على جبين التاريخ سواء في مجال الكم أو الكيف جديرة بأن تثير
الخلاف بين المؤرخين وان تبعث على الجدل والنقاش الدائمين ، وذلك أيضا
أحد اسرار عظمتها الخالدة .

يضاف الى ذلك ان النهاية الأسوية التى لحظت بهذه الحضارة قد
سكنت المزيد من الزيت على نار الآراء المشتعلة ، وفشت صنابير عدة من
الدراسات والأبحاث التى تتناولها .

انصبحت جهود الباحثين والدارسين في مجال الحضارة الاندلسية على
إبراز أصولها ، ودرجة تطورها وكذلك علاقتها بالثقافة والحضارة القوطية
والرومانية ، مدى صلتها بالثقافة الشرقية ، دورها للتأثير على الحضارة
الأوربية في العصور الوسطى ومدى التأثير فيما بعد على النهضة الأوروبية
الحديثة . وفى كل مجال من هذه المجالات تباينت آراء العلماء واختلفت ،
وحاول كل منهم تأييد وجهة نظره التى يخيئها ؛ فاستشهدون عامة ،
والاسبان منهم خاصة ، يحاولون اضفاء دور هام للأحوال الثقافية والحضارية

المساندة في إسبانيا القوطية ، كما يحاولون لسناد دور أساسى في هذه الحضارة إلى العوامل البيئية الإسبانية الى حد التطرف الذى يقال ان لم ينكر دور العرب المسلمين في صنع هذه الحضارة .

ويزداد الحديث في إسبانيا يوما بعد الآخر عن أهمية الفترة السابقة أى عصر الرومان والقوطا في بناء الحضارة الإسلامية في الاندلس ، ويؤكد ذلك - على سبيل المثال - الفكتور سلفادور غوميث نوغاليس - دون الاعتماد على وثائق واضحة - فيقول خلال حديثه عن الفلسفة في إسبانيا الإسلامية « ليس سهلا على الاطلاق الإشارة الى وثائق تاريخية للدلالة على هذا التأثير بالنسبة للفلسفة الإسبانية الإسلامية ، وذلك لسببين واضحين هما : الاهتمام المتزايد لعدد كبير من المؤرخين العرب بلخفاء ما في أصولهم وكتاباتهم مما يرجع لإسبانيا قبل الإسلام وذلك بغرض عدم إثارة الشك حول معتقداتهم وافكارهم ومن هنا فإن اجتهادهم في الصمت عن كل ما هو إسباني أصلا في كتاباتهم ومعتقداتهم يعتبر شيئا بديهيًا » .

أما الصعوبة الثانية فإنها تأتي من أن الكثير من المصادر الثقافية الإسلامية تتحدث عن إسبانيا ، لا عن الطريق المباشر للإسبان ، ولكن عن طريق مصادر شرقية استطاعت أن تنقل هذه الأفكار في مضمون ثقافي مختلف عن الإسباني ، بمعنى أنه أصبح من الصعب جدا - على سبيل المثال - للتقريب بين ما خلفه الرومان في الحضارة الإسلامية عن طريق بيزنطة أو عن طريق المستعمرات الرومانية الموجودة في إسبانيا . (٥)

ويواصل نوغاليس عرض أفكاره قائلا : إذا كان قد سمح بالقول بأن حضارة إسبانيا الإسلامية تتمتع بصفات خاصة ، وشخصية مستقلة فعلينا أن نحلل الى أى مدى تأثرت هذه الشخصية بالعوامل البيئية المحضة أو بالماخ الذى ربطها بالأناس ذوى سجايا مختلفة « ويذهب في هذا الى الاستشهاد بما قاله سانشيث البرنوس في كتابه « إسبانيا قبل الإسلام - إسبانيا الإسلامية » ، والأذى عرض فيه أعداء العرب الذين قدموا الى شبه الجزيرة

الإيبيرية في بداية الأمر حتى يصل الى قول المؤرخ الإسباني P. Perez بأنه « لم يدخل في التركيب الاجتماعي للمسلمين الإسبان من العناصر العربية الأصلية الا جرعات متناهية الصغر » (٦) ثم يواصل البروفيسور نوغالييس حديثه الى أن يختتمه بعبارة سانثيث البرنوس للقاتله : نتيجة لهذا كله فمن المفروض أن للتأثير العربي في العادات والثقافة كان سلبيا خلال عشرينات وعشرينات المسنين في بلد كإسبانيا ذات الأصل والحياة والثقافة الغربية » (٧)

والطريق طويل بين المؤرخين الإسبان في درجة وضع المسلمين الإسبان ضمن إطار الحضارة الإسبانية ، الى أن يصل الأمر الى تبني علامتهم الكبير خوليان ريبيرا J.R. فكرة الأصل الإسباني لمسلمي إسبانيا ، فهو يرى : أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح ، انما دخلوا - كما هو معروف - على هيئة جفود ، ولم ينتقلوا اليها كاسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا العبيوت وينجبوا للنسل ، وكانت الإسبانيات اللجانج الآخر في تكوين نك الأسر ، وانجاب ذلك النسل ، وقد أقبل على هذا الزواج المختلط اول امير عربي ولى امر الاندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير - كما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمرؤهم سنة الزواج بالإسبانيات، وليس من المبالغة القول بأنه قد ثبت أن جميع امراء وحظاء الاسرة الاموية في الاندلس كانوا أبناء لغير عربيات ، ولذا كان الولد - في الحقيقة - «بنا» لأبيه كما هو ابن لأمه ، ولذا كانت خصائص الوراثية يأخذها الوليد عن اسرة أمه ، كما يأخذها عن اسرة أبيه ، اذا كان ذلك ، امكن القول بأن العرب الاندلسيين قد ذابوا في الجنس الإسباني حتى لم يعد للوليد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الإسباني الذي يكاد يكون خالصا » (٨)

ويتصدى المؤرخون والكتّاب العرب للدفاع عن عروبة الاندلس ، وعن نسبة الحضارة الاندلسية الى الحضارة العربية ، وحتى لا تفقد هذه الحضارة درة ثمينة ولؤلؤة نادرة وعقد فريدا مثلما هي للحضارة الاندلسية فينبغرى الدكتور احمد هيكل للرد على خوليان ريبيرا مقددا نظريته في معظم اجزائها التي ، وان كانت تعز بالاندلسيين وتحاول كسبهم الى التراث الإسباني .

إلا أننا لا نستطيع أن نجد الاندلسيين من عربيتهم ، ولا نستطيع أن نسلّم بالتجربة التي أجراها على الأسرة الأموية وحاول من خلالها أن يثبت ذوبان الدم للعربي في الدم الأسباني ، وذلك لأننا لا نتصور أن كل الذين جاءوا إلى الاندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق ولأننا لا نتصور أن الوفود إلى الاندلس كان من نصيب للرجال دون للنساء ، ولأننا أيضا لا نتصور أن كل عربي في الاندلس كان يتجب دائما من أسبانية جديدة ، وأن نتائجهم دائما كان من رجال يتزوجون بدورهم من أسبانيات .

ثم ينطلق الدكتور هيكل إلى اثبات أنه إذا كان الاندلسيون من حيث الأصل سعبنا تجرى فيه دماء عربية ، ودماء أسبانية ، وأن كانوا مولدين جنسا ، فهم عرب في قوميتهم ، وأنهم عرب في عقبيتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم ، ويختتم قائلا : وليس لنا إلا أن نشكر للمستشرق الأسباني ومن جازاه إعجابهم بأبناء عمنا الاندلسيين ومحاولة الصاقهم بهم وضمهم وتراثهم إلى ما للأسبان من تراث .

أما عن تأثير حضارة ما قبل الإسلام في أسبانيا الإسلامية فيتصدى لها الدكتور الطاهر مكي بعنف شديد فيقول في مقالة له عن الحضارة الأندلسية:

لم يجد المسلمون في البلاد المفتوحة حضارة متكاملة ، وإنما بقايا حضارة غربية ، تعيش بمنزلة منزوية ، وعناصر متعددة ، كل واحد منها يخشى الآخر ويستعبد القوى منها للضعيف ، ثم يواصل حديثه عن التركيب السكاني البلاد ، ذكرا العصر القوطي وما يمكن أن تجد فيه من تفاوت بين طبقات الحكام والحكومين إلى أن يصل إلى قوله : هذا العصر القوطي بكن عوامه لم يخلّف وراءه حضارة متفيزة في أي جانب ، لا نعرف له ثقافة ولا كتاب ولا أدبا ، والمكتوبات قليلة ، ولدينا عنها إشارات شاحبة ، ويتحدث عنها الباحثون لفترضا ، لم يصلنا منها شيء ويظن أنها كانت ملحقة بالاديرة (١٠)

ولست في مجال عرض باقى الآراء التي وصلت إلى حد دراسة الأدب الأندلسي كجزء من الأدب للعباسي أمعانا في دمج الحضارة الأندلسية ضمن

الحضارة الشرقية ، ولنعد بعد أن أخذنا القول بعيداً إلى حضارتنا هذه التي على الرغم من كل ما يقال عن عوامل تأثرها بالشرق الاسلامي ، أو اعتقادها على الثقافة الرومانية القوطية أو جمعها بين هذين المصيرين ، إلا أنها قد فرضت نفسها على التاريخ كحضارة أندلسية ليست شرقية ولا غربية وإنما انتسحت بثباتها الخاصة ، واكتسبت ملامحها المستقلة التي تميزها عن الحضارات المعاصرة لها أو التي استمدت أصولها منها •

ولا شك أن هذه الحضارة ترجع إلى عناصر انسانية متباينة من ناحية الأصل العرقي ، كما أنها من إبداع ماعات انسانية تختلف فيما بينها من الناحية الثقافية والدينية ، وهي بذلك تطرح علينا سؤالاً هاماً جداً عن المبنى الذي يقصد به القول « الحضارة الاندلسية » •

هل هي الحضارة التي تطورت على أرض الأندلس - أرض الاندلس فقط - بصرف النظر عن الأصل العرقي أو الموطن الأصلي لن ابداع أو من ساهم في بناء هذه الحضارة ؟ وفي هذه الحالة ، هل نستثنى من ذلك ، تلك الجهود التي بذلها الاندلسيون على أرض غير اندلسية أثناء رحلاتهم ، أو في المناطق التي اتخذوها موطناً لاقامتهم ، ومن ثم نخرج كتابات الحميدي ، وأبى بكر الطرطوسي وأثير الدين بن حيان وغيرهم ممن كتبوا بعيداً عن أرض الأندلس . ومن ناحية أخرى هل الحضارة الاندلسية ، نتاج ابداع الاندلسيين سواء في داخل أرض الأندلس أم خارجها ؟ وفي هذه الحالة فإننا ننتوقف أمام صعوبة تحديد الأندلسي ، وهل هو المولود على أرض الأندلس ، أم من اتخذها موطناً وداراً ، من سخطها مع الفتح أو بعده ، من هاجر إليها عبر القرون الطويلة من أمثال زرياب وأبى على القالي ، وصاعد البغدادي وغيرهم ، وهم ولا شك من اعلام هذه الحضارة وعمدها ونجومها البارزة •

نقطة أخرى - غاية في الأهمية - هل نقصر القول في الحضارة الاندلسية على فتاج المسلمين هناك أم يمتد التعرف ليشمل جهود أبناء الملتين المسيحية واليهودية والذين ادوا ضمن إطار هذه الحضارة دوراً رائعاً ومجهوداً لا ينكر •

ان ذلك كله هو الذي يعطى الحضارة الاندلسية طعما خاصا ومثقا متميزا
عن ما عاصرها من الحضارات ، كما انه يعطيها نكهة خاصة عن الحضارة
الاسلامية في المشرق لأنها حضارة ساهمت في تكوينها اجناس متباينة من
البشر ، واجزاء مختلفة من الطبيعة ولذلك فان ظلها يمتد ليشمل كل ما ابدعته
قراشع الاندلسيين على ارض الاندلس او خارج هذه الأرض ، كما انه يتسع
ليضم أفئدة من قدموا الى الاندلس مع الفتح او بعده او من هاجروا الى
هناك بعد ان حرروا مناخ الابداع في بلادهم الأصلية ووجدوا في الاندلس الأرض
والمناخ اللذين اطلقا ملكاتهم وخطا أسماهم في تاريخ الحضارة الانسانية
ويتسع أيضا ليضم بين جوانحه ما كتبه أبناء الديانات السماوية الثلاث
اليهودية والمسيحية والإسلام .

اعتاد المؤرخون والكتاب على تقسيم الحضارة الاندلسية الى فترات
زمنية متناسبة والفترات التي ينقسم اليها التاريخ السياسي للاندلس وكتبت
بعض المؤلفات عن الحضارة الاندلسية في عصر معين ، انظر
مثلا كتاب الدكتور حسن علي حسن « الحضارة الاسلامية في المغرب
والاندلس : عصر المرابطين والموحدين » (١) .

وأميل الى تقسيمها الى ثلاث فترات رئيسية دون أن يعني ذلك الفصل
بين هذه الفترات اللهم الا بغرض الدراسة لا أكثر .

١ - فترة التكوين : وهي الممتدة تاريخيا من عام ٩٥ هـ الى ١٨٠ هـ
٧١٤ - ٧٩٦ م .

٢ - فترة النمو والتطور : من ١٨٠ هـ الى ٣٠٠ هـ ٧٩٦ - ٩١٢ م .

٣ - فترة النضج والازدهار : وهي ما بعد عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ م .

فترة التكوين : تبدأ بسودة القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد الى بلاد
المشرق وتولى عهده العزيز بن موسى امور الاندلس في عام
٩٥ هـ / ٧١٤ م ، وتستمر حتى نهاية عصر الأمير هشام بن

عبد الرحمن الداخل ، المتوفى سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م وهي فترة
شغل تاريخها للسياسي كثير من الحروب والغزوات سوا
لاستكمال فتح الاندلس ، أو في محاولات فتح جنوب فرنسا، كما
انها حفلت بالثورات الداخلية والصراع بين القبائل العربية
والإيرانية .

وشهدت هذه الفترة كذلك من الناحية السياسية ، استقلال الاندلس عن
جسم الدولة الإسلامية حين تمكن عبد الرحمن الداخل في عام ١٢٨ هـ ٧٥٦ م
من الاستيلاء على قرطبة وقضائه جل فترة حكمه في صراع مع العناصر المخوثة ،
وفي تثبيت عرش بني أمية في الاندلس ويمكن تبين ذلك كله بتفصيل واسع
في التاريخ السياسي لهذه الحقبة التاريخية .

ومع ذلك فإن هذه الفترة هي التي شهدت وضع الجذور الأولى للحضارة
الإسلامية في الاندلس ، حيث أن الجيوش التي دخلت إلى الاندلس ، وإن كانت
في غالبيتها من الأبربر - إلا أنها كانت مصحوبة بجموع كبيرة من العرب، وخاصة
الجيوش التي عبرت مع موسى بن نصير ، ويقدرها المؤرخون بثمانية عشر ألفا
من العرب وكان هؤلاء العرب يحملون معهم على الأقل - غير ثقافة البيئة العربية
ثقافتهم الدينية من حفظ القرآن الكريم أو بعض سوره وأجزائه ، وحفظ بعض
الأحاديث النبوية ، وكذلك بعض ما كان يجري في بلادهم الأصلية من أشعار
أو أحاديث أدبية ، وفي هذا المجال فأنني أود الإشارة إلى نقطة أساسية
بالنسبة لثقافة العرب القادمين إلى الاندلس ، وتمثل هذه النقطة في أن الجيوش
التي وصلت إلى هناك ، إنما هي من الجيل الإسلامي الرابع ، واقتصاد بذلك
أن الفتح الإسلامي لاندلس قد تم خلال الأعوام المشورة الأخيرة من للقرن
الأول الهجري ، أي ما يزيد على قرن من الزمان منذ ظهور الديانة الإسلامية
وما يقرب من حوالي ٧٥ عاما من الاستقرار في بلاد الشام ومصر وأرض
الرافدين ، ولا شك أن الأجيال التي دخلت الاندلس هي التي تربت ونمت
في أحضان تلك الأجواء الثقافية النامية في تلك البلاد . ومن ناحية أخرى ،
فإن الفترة السياسية كانت تشهد نوعا من الاستقرار في عهد الخلفيتين

عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وشهدت تبعا لذلك نوعان الأزدهار الثقافي في المشرق ، وقد يساعدنا على تصور الحالة الثقافية التي جاء بها العرب الى اسبانيا مع الفتح مباشرة او بعده .

من ناحية اخرى ، يتفق المؤرخون على ان الجيوش الاسلامية التي توجهت لفتح الشمال الافريقي ، وبعد ذلك الاندلس ، كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين . واذا لم يكن مؤكدا وصول بعض الصحابة الى الاندلس الا انه من المؤكد عبور بعض التابعين لختلف المؤرخون في اعدادهم واسمائهم ، وينسب الحميدى عن عبد الملك بن حبيب من « ١٧٩ هـ - ٨٥٣/٧٩٦ م » ملاحظة يقول فيها : ودخل الاندلس من التابعين « سوى من لا يعرف نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم الى مرسى بن نصير (١٢) وعبارة ابن حبيب « سوى من لا يعرف » تبين ان هناك غيرهم قد دخلوا الى الاندلس وربما جاء بعض التابعين بعد الفتح بفرض المشاركة في الجهاد .

ولقد كانت المهمة الأساسية لهؤلاء التابعين هي نشر الدين الاسلامي واللغة العربية بين المسلمين للجدد ، وفق تلك الألفاظ التي افترضها المسلمون ومن هنا فانه من الممكن القول - دون مبالغة - ان الحياة الفكرية في الاندلس قد بدأت بعد اعوام قليلة من الفتح ، وان « اتسمت بطابع القلة والبساطة وتركزت في تعلم اللغة العربية والدين الاسلامي » (١٣) . ومع بدايات القرن الثامن الهجري ، لثامن الميلادي ، شهدت منطقة شمال افريقيا والاندلس ، ثورة البربر ضد العرب مما حدا بالخلفاء الأمويين الى ارسال جيوش عربية كثيفة الى هذه المناطق لخماد هذه الثورة ، وعبرت منها الى الاندلس قوات كثيرة العدد منها الطلعة المعروفة تاريخيا باسم طلعة بلج القشيري ، وكان جلها من عرب الشام وتمكنت هذه القوات من لخماد ثورة البربر في الاندلس وساهمت في تكثيف الوجود العربي هناك ومن تم سرعة تعريب هذه المنطقة .

كما ان هذه الفترة - من ناحية اخرى قد شهدت في بلاد المشرق الاسلامي ازدياد ثورات الخوارج والشيعة ، واحتدم الصراع بين الدولة والآخرين

عليها ، وفي ظل هذه الظروف ، ربما كانت البلاد المغرب والاندلس ملجأ أهل خطراً ، فلجأ إليها بعض الفارين من وجه العقولة ، يحملون معهم آراءهم وأفكارهم الدينية وانتقلت هذه الأفكار ، بطبيعة الحال ، إلى الاندلس لتلعب دورها في الصراع الدائر هناك ، ولتساهم في نفس الوقت في توليد الأفكار ، وتصارع الآراء الذي يشكل الأساس - دائماً - لبناء الحياة الفكرية والتطور الثقافي .
(انظر فجر الاندلس ص ١٤٨ وما بعدها) .

والى جانب هذه العوامل التي نعتقد أنها جذبت الكثيرون من العرب وغيرهم إلى اسبانيا ، فإننا نضيف إلى ذلك طليعة جغرافية الاندلس ، بموقعها ومناخها ، والتي لقيت قبولا كبيراً من العرب حتى أنهم سبّوها في كتاباتهم وأسعارهم ببلادهم الأصلية وطلقوا على المدن الاندلسية أسماء منهم الشامية ويقول عنها أبو عبيد الله البكري : الاندلس شامية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطورها وذكائها ، هرازية في عظم جبايتها صينية في جواهر معادنها ، عذنية في منافع سواحلها . (١٤)

ومن هنا فإنني أتفق مع تصور الاستاذ الدكتور حسين مؤنس في أن الاندلس قد جذبت إليها أعداداً هائلة غير معروفة من العرب ، نستطيع أن نلمسها في صيحاتهم المدوية في أرجاء الاندلس ، وثوراتهم التي لا تكاد تنقطع كما نثبين ذلك في السرعة الكبيرة التي تم بها انتشار الاسلام في الاندلس .
وتحويل الغالبية العظمى من سكانه إلى الدين الجديد .

ويمثل انتشار الاسلام واللغة العربية في الاندلس خطوة هامة في مجال قيام حضارة أندلسية ، وتجمع كل المصادر التاريخية على سرعة هذه العملية بصورة لاقتها للفرح بحيث نجد أنه حين حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز اخملاء الاندلس من المسلمين خوفاً عليهم أو « خشية تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية (١٥) أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة (١٦) رد عليه السمع بن مالك يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مدابنهم ، وشرف محاسنهم ، وذلك في عام مائة من الهجرة ٧١٩ ميلادية أي بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عملية الفتح ، وعودة القائدين موسى

وطارق الى المشرق . وتتليل ذلك يرجع في الختام الأول - حسب آراء المؤرخين - الى قضاء الاسلام على الأوضاع السيئة التي سادت على العصر القوطي بحيث لم تعد هناك طبقة متحكمة متمثلة في الأسر الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض ، واسرع العبيد لكي يتحرروا من العبودية الى اعتناق هذه الديانة من جهة أخرى فان بعض الولاة اعتبروا نشر الاسلام مهمتهم الأساسية ، ومثالنا على ذلك الولي عقبة بن الحجاج السلولي الذي كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في تكلية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يمرض عليه الاسلام حيناً ويرغبه فيه ويبصره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل الفا رجل (١٧) ، ولقد كانت السياسة التي اتبعها الولاة مع السكان الأصليين ، والقائمة على تركهم احمراراً في معتقداتهم ذات اثر كبير في تأليف قلوبهم ، ودعوتهم بطريقة غير مباشرة الى اعتناق الاسلام ، ويعترف بذلك المؤرخ الاسباني « التاميرا » Altamira حيث يقول « بأن العرب لم يحترموا فقط ، بصورة مؤكدة العقائد الدينية ، وانما احترموا ايضاً الحياة الخاصة للشعوب التي خضعت لهم » .

ثم يواصل قائلاً في نفس الصفحة : « لقد وصلت غالبية الشعب الاسباني تحت الحكم الاسلامي ، حياتها المعادية بما كان لها من كونهات وقضاء وقساسة وحافظوا على كنائسهم ، وباختصار تسديد ، حافظوا على كل استقلالهم المعنى ، ولم يأخذ منهم الأمراء والحكام الجدد ، الا الجزية السريعة المفروضة » . (١٨)

في المجال التشريعي :

لا شك أن هذه العلوم هي اول ما ترد على ارض اسبانيا ، لأن اقوال التابعين واعمالهم ، وآراءهم في توزيع الغنائم والاسلاب هي المصادر الأولى للعلوم التشريعية على ارض الاندلس . وبعد مضي فترة الفتح فلا تمك في استمرارية هذه القواعد أو الآراء وسريانها على عصر الولاة اني أن نلتقي بالقضاة الأوائل الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم من أمثال مهدي ابن مسلم ، وعنترة بن فلاح ، وخالد بن يزيد التجيبي ومعاوية ابن صالح الحضرمي . أما الأول من هؤلاء فقد وضع نصاً ثورياً فقهاً سننسير اليه عند الحديث عن الفثر - يقرر فيه مجموعة من القواعد التشريعية الهامة ،

والتي يجب أن تسود في مجال الفقه والتشريع . أما معاوية بن صالح ، فلقد تمتع بشهرة ولسعة ، وخاصة في الشرق في علم الحديث ، وهو أحد الأوائل الذين نشروا هذا العلم على أرض الأندلس .

تبنت الأندلس في مجال التشريع المذهب الأوزاعي وهو مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي تولى عام ٨٨ هـ ٧٠٧ م وقضى معظم حياته في بلاد الشام وتوفي عام ١٥٧ هـ / ٧٧٧ م دفن في بيروت .

كان الأوزاعي من أبرز الفقهاء الذين ظهروا بالشام وكان يرى لتباع السلف ، ولا يعبدى برأيه إلا في حالة عدم وجود نص ، وكان يعتمد على أقوال السابقين حيث يقول : اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما يسعهم (١٩) .

وأول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس هو صمصمة بن سلام المتوفى عام ١٨٠ هـ وهو فقيه من أصحاب الأوزاعي ، وكانت الفتيا دائرة عليه أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية (٢٠) ، لكن الدكتور محمود علي مكي يرى أن أول من أدخل المذهب الأوزاعي إلى الأندلس هو قاضي الجيرة أسعد بن عبد الرحمن السبكي المتوفى نحو سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م (٢١)

عاش هذا المذهب في الأندلس فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنه اعتبرا من عهد الأمير هشام الرضى والحكم الأول فإن المذهب المالكي كان قد بدأ يأخذ طريقه إلى الحياة التشريعية في الأندلس إلا أن المذهب الأوزاعي ظل محتفظا ببعض الأوفياء له من أمثال : زهير بن مالك اللبلى ، المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤م والذي « كان فقيها على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية » (٢٢) .

ومع دخول الأمويين واستقرار الأمور لهم في الأندلس ازداد انسحاب العلوم الشرقية إلى الأندلس ، ومنها بطبيعة الحال المزيد من العلوم التشريعية ، ورحل الأندلسيين إلى الشرق وتعلموا على مالك بن أنس بالمدينة ، وعادوا معهم كتابته المشهور « الموطأ » وبدأوا في نشر مذهبه في الأندلس ابتداء من عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وأوائل من مكثوا هذا المذهب ، الغازي بن قيس ، الموفى ١٩٩ هـ / ٨١٥ م ، وزيد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ،

المتوفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ وعيسى بن دينار قاضى طليطلة المتوفى ٢١٠ هـ / ٨٢٥ .
وأخيراً تلك الشخصية البارزة يحيى بن يحيى الليثى المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م
ويقول ابن فرحون عن عيسى بن دينار ويحيى الليثى : وبه وب يحيى انتشر
علم مالك بالاندلس ، ورجعت الفتيا الى رأيه ، (٢٣) .

في المجال الأدبي :

تكمّن الصعوبة حقيقة في تحديد بدايات النشاط الأدبي على أرض
الاندلس سواء في مجال الشعر أو في مجال النثر ، ويرجع ذلك الى اختلاف الآراء
في هوية الاندلس ، كما سبق أن أوضحنا ، وإلى أن الفاتحين شعروا أو نشروا
خلال هذه الحقبة أنما طاروا على الاندلس ، ولهم أصولهم الشرقية الواضحة ،
وثم يجد الباحثون فروقا أصولية تميزهم عن الأدب العربي عامة ، ولا يمنع
ذلك بطبيعة الحال من دراسة ما وجد فعلا على أرض الاندلس في تلك الفترة
الباكورة ، لأن ذلك (الموجود) أيا كان للراى في هويته وأصوله فهو موجود
على أرض الاندلس ، وهو الأساسى لما كان بعد ذلك من أدب ، لا ينسك اطالقا
في كونه أدبا لاندلسيا .

والحقيقة التى نبدأ بها تناول هذا الموضوع هى ندرة الشواهد الأدبية
أو بعبارة أدق عدم وصول شواهد أدبية كافية الى إيماننا هذه ، وقد يرجع
ذلك الى عاملين :

اولهما : الحالة السياسية للفترة وما اعتراها من صراعات وحروب
متواصلة .

وثانيهما : الإيقال في البعد تاريخيا ، حيث نتناول بالدراسة فترة تبتعد
عنا بما يقرب من اثني عشر قرنا من الزمان .

ولنا أن نتصور أنه كما صاحب جيوش الفتوح الاسلامى عدد من علماء
الدين ، فإنها ولا شك قد ضعت جوانحها بعض الأدباء من الشعراء أو القصاصيين
أو النسابيين ، أو بعض حملة نصيب من الثقافة السائدة حينذاك في بلاد
الحجاز والشام ومصر ، وكان هذا لا قدر من الثقافة - ولو كان قليلا - الأساس
الذى تطورت عليه فيما بعد ثقافة الاندلس .

وكذلك لا شك في أنه قد ورد إلى الاندلس بعد الفتح واستقرار الامر بعض ممن كانوا يقروضون الشعر ، وحفظت لنا المصادر نتقا قليلة من اشعارهم ، ومن هؤلاء للشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار ، وجاء إلى الاندلس واليا في سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م على عهد هشام بن عبد الملك . وكان الصراع في الاندلس محتد ما بين القيسية واليمينية وكان هشام يميل إلى القيسية ، فلما اشتدت عليه الأزمات شاور العباس بن الوليد فنصحه بالعودة إلى تأييد اليمينية وقال له : يا امير المؤمنين ليس يصلح آخر هذا الأمر الا بما صلح به أوله فأصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية » (٢٤) ينسب بذلك إلى نصر اليمينية للامويين في معركة مرج راط .

وفي نفس الوقت جاءته رسالة أبي الخطار بقصيدة شعرية يقول فيها :

أفانم بنى مروان قيسا دماغا

وفي الله ان لم تنصفوا حكم عدل

كانكم لم تشهدوا مرج راط

ولم تطلوا من كان ثم له الفضل

رقيناكم حر الوغى بصغورنا

وليس لك خيل تعد ولا رجل

فلما رايتم راقد الحرب خبىا

وطاب لكم منها المشارب والأكل

تنافلتم عنا كان لم يكن لنا

بلاء وانتم ما علمت لها فعل

فلا تجزعوا ان عضت للحرب مرة

وزلت عن المرقاة بالقدم والنعل (٢٥)

ومن أجل ذلك ، ولى هشام حفظة بن صفوان الكلبى على إفريقية ،
وأمره أن يولى ابن عمه أبا الخطار على الأندلس ، وقدمها - كما قدمنا -
سنة ١٢٥ م ، ومن الطبيعي أن هذا الأمير الساعى قد قرض للشعر على أرض
الأندلس واستشهد به فى إدارته للبلاد أو فى صراعه مع الخارجيين على
سلطته .

والدليل على ذلك أن الحميدى قد نصب له أبياتا أخرى يقول فيها :

خليت ابن جواس يخبر انى-

سعت سعى لهرى، غير غافل

قتلت به تسعين تحسب أنهم

جنوع نخل نخيل صرعت بالمسائل

ولو كانت الموتى تباع لشترته

بكى وما استثنيت منها انامى (٢٦)

وقال الدكتور أحمد هيكى بأنه لقب « بمنقرة الأندلس » (٢٧) .

وممن طرا على الأندلس من الشعراء فى هذه الفترة أيضا أبو الأجرى
جمونة بن الصمة ، الذى عرف بهجائه للصميل بن حارم زعيم القيسية
واحد زعماء الأندلس المعروفين ، ثم رحل بعد ذلك الى مدنه ، ولم يحتفظ
المصادر التاريخية بالكثير من شعر هذا الرجل ، ويقول منه الحميدى نقلا عن
ابن حزم : وإذا ذكرنا أبا الأجرى جمونة بن الصمة لم نبار به الا جريرا
والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على أوثر
مذاهب العرب ، لا على طريق المحشين ، وينقل اليها من شعره :

ولقد ارانى من هوى بمنزل

عال ورأسى ذو غدائر أفسر

والعيش أغيد ساقط أنفسانه

ولاء اطيعه لسا والرتع . (٢٨)

وكان لهذا الشاعر سمعه في بلاد المشرق حتى يقال ان ابا نواس سأل
عنه عباس بن ناصح الاندلسي ، وطلب ان يسمع شيئاً من شعر جعونة
وذلك حين التقيما معا في المرق (٢٩) .

على جانب ذلك هناك بعض الأبيات التي قيلت في الصراع الذي كان
يجرى هناك ، ومنها مثلاً ما أورثته المصادر حين الحديث عن الصميل بن حاتم
وأثناء حصاره في سرقسطه ، أرسل في طلب للنجدة فقام إليه بعض العرب
ومعهم عبد الله بن خالد وعبيد الله ابن عثمان وهما رأس الأموية في الاندلس ،
فلما بلغوا وادى طليطلة بلغهم ان الحصار أشد وأضر بالصميل ، فقدموا
رسولاً من قبلهم وقالوا له : لنحل في جملة المحاربين للصور ، فإذا قربت منه ،
أرم بهذه الأحجار ، وفي كل واحد منها بيتان وهما :

الا أبشر بالسلامة يا جدار
أتاك للفوت ولنقطع الحصار

أتتك بنات أعوج ملجعات
عليها الأكرمون وهم نزار (٣٠)

أما الصميل نفسه ، فتحتفظ لنا المصادر ببقيت من الشعر قاله حين رأى
ماله ينتهب على يد الطائفين بعد انتصار عبد الرحمن الداخل وهو :

ألا أن مالي عند طي ويصع
ولا بد يوماً ان ترد للودائع (٣١)

وذكر على أدهم البيت مضيئاً إليه :
سلوا هنا عن فعل رمحي ومنصلي

فان سكتوا أثنت على اللوائح (٣٢)

وإذا كانت المصادر مجدبة فيما لحقت به من أخبار شعراء الفترة فليس
ذلك مما يدفع إلى القول بعدم وجود هؤلاء الشعراء أو ظو الفترة من قرض

الآبيات وذلك لان الظروف المضطربة والصراع القبلي ، والتنافس والتناوب والانتارة عوامل مشجعة للناس على الصياغة والنظم ، فاذا أضفنا الى ذلك طبيعة الأرض الجديدة المغايرة لما عرفه العرب ، واثر ذلك في تفجير ينابيع السحر لأمكن لنا ان نتصور البدلية التي ارتقى عليها بعد ذلك لشعر الأندلسي .

وتأتى الفترة التالية ، والتي تتسم بوصول أفواج جديدة من العرب الى الأندلس مع ظروف سقوط لدولة الأموية في الشرق ووصول عبد الرحمن الداخل الى قرطبة سنة ١٣٨ / ٧٥٥ م ، وتزداد للشواهد الأدبية ، وتكثر الآبيات الواردة في المصادر .

ومن أهم شعراء هذه الفترة ، الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه ، والذي كان ساعرا مجيدا ، وناظرا بليغا ، ولم يكن من الغريب ان ياتى شعر الداخل مصورا لجونب حياته المنقلبة والمتباينة ، فتظم في الغربة والحزن كما انه نظم في الفخر والحماسة وأر بشعره ولكفاحه للذم من أجل لقامة دولة أموية في الأندلس خلفا لتلك التي بادت في دمشق . واقرأ للدخل هذه الآبيات الرقيقة في لحنين الى الأهل :

أيها المركب الميمم أرضى
أقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمي كما تراه بسأرض
ومؤلدي ومالكيسه بأرض

قد الربين بيننا غافترقنا
وطوى البين عن جفوني غمضى

قد قضى لله بالفراق علينا
فمضى باجتماعنا سوف يقضى (٣٣)

وهو الذى صاغ تلك العلاقة الفريدة بين نخلة زرعها العرب في أرض
الأندلس فجات يتيمة نوعها هناك غريبة ، وبين حالته فأنشد قائلا :

تبيت لنا وسط الرصافة نخطة
تناعت بأرض الغرب عن بلاد النخل

نقلت : شبيهى في للتغرب والنوى
وطول التناثى عن بنى وعن اهلى

نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والختاى مثلى (٣٤)

ولمبد الرحمن الداخل اشعار اخرى مدونة في المصادر التاريخية ، منها
ماقاله حين كتب اليه بعض من وفد عليه من قریش يستقصره فيما يجربه
عليه ، ويسأل الزيادة ، ويستطيل عليه بدالة القرابة • وكتب عبد الرحمن
قائلا :

شتان من قام ذا امتعاض
منقضى الشفرتين تصلا
فجاء قفرا وشمق بحرا
ساليا لجة ومحلا
فبز ملكا وشاد عزا
وسندرا للخطاب وفصلا (٣٥)

وهذا من ينسب اليه هذه الأبيات مع اختلاف في الكلمات حين ذكروا له
تفاحرا ما كان من الغمر بن يزيد مع عبد الله بن علي بن عبد الله العباسى (٣٦)

وذات يوم كان عبد الرحمن خارجا الى الثغر في بعض غزواته ، فوقع
غرائيق (طيور مائية بيضاء اللون ، طويلة السيقان ، لها قنارع ذهبية اللون)
في جانب مسكره ، واتاه بعض من كائن يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها ،
ويشبهه بها ، ويحضه على اصطيادها ، فأطرق عنه قليلا ثم جاوبه :

دعنى وصيد وتلعب التفرلق
فان همى فى لصطيد المارق
فى نفق كائن او فى حلق
اذا التظت هواجر الطرائق
البح (٣٧)

وحين قتل صديقه حيو بن ملامس الحضرمى ، وكان اثيرا لديه قال
يرثيه :

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها

اذا غاب عنها حيو بن ملامس

أخو للسيف قارى الضيف حقايراهما

عليه ونافى للضميم عن كل بائس (٣٨)

ولم يكن الداخل بالشاعر الأموى الوحيد ، لأننا نرى قريبه عبد الملك
بن عمر الروانى ، تنسب اليه أبياتا شبيهة بأبيات الداخل التى قالها فى
النفخة سواء من حيث المعنى أو أسلوب البقاء ، ومطلع هذه الأبيات :

يانخل كنت فريدة مثلى

فى الأرض نائية عن الأهل

تبكى وهل تبكى مكممة

عجبالم تجبل على جبل

.....

..... (٣٩)

ومن شعراء هذه الفترة أيضا عاصم بن زيد العبادي المعروف باسم « أبو المخشي » ، وكان والده ممن وفدوا على الاندلس في فترة الولاة ، ونزل منطقة البيرة ونشأ أبو المخشي في المنطقة ، وقرض الشعر حتى أصبح من الملح شعراء عصره ، بل وصل إلى كونه ساعر الدولة المروانية في الاندلس .

وإشعار هذا الرجل التي وصلت إلينا قليلة ، وتروى المصادر ميله لعبد الرحمن الداخل ومدحه له ، وكذلك انحيازه لسليمان بن عبد الرحمن مما عرضه لغضب هشام بن عبد الرحمن ، وكان بين الأخوين بعض التنافس ، ويقال بأن هشاما تمكن من لشاعر فقطع طرف لسانه وسمل عينيه ، وكانت تجربة قاسية صاغها الشاعر أبياتا حارة مؤثرة ، حركت قلب عبد الرحمن الشاعر لولسانه وأغضبته على ابنه هشام ، ويقال إن الأمير هشام نفسه قد ندم على فعله وحاول تفويض الشاعر ما أمكن .

ويرى مؤرخو الألب أن إبا المخشي يمثل الشعر الاندلسي في فترة التأسيس أصدق تمثيل ، فهو يمثل في ظهور بعض السمات الأندلسية الخاصة من تجديد في الموضوعات ، ومحاولة التجويد ، كما أنه يمثل في مسيرته الأدبية المحافظة لقلده لأشعار عرب ما قبل الاسلام . ويستدلون بأبياته التي حاول فيها معالجة تجربته الجديدة في فقدان البصر ، ومن أجمل ما قاله هذا الرجل :

وهم ضللتني في جوف ليال

كلا موجيهما عندي كبير

فبتنا والقطوب معلقات

وأجنحة الرياح بنا تطير

وله إبيات أخرى ذكرها وحظها الدكتور أحمد هيكال في كتابه عن « الأدب الأندلسي » (٤٠) ، وأورد له النكور محمود على مكي ترجمة كاملة ومعظم ما حفظ من أشعاره في رسالته عن المؤثرات الشرقية في الثقافة الأندلسية (٤١) ولن استطرد أكثر من ذلك في ذكر شعراء هذه الحقبة والذين كثر عددهم ليتضمن أمراء البيت الأموي من أمثال الأمير هشام وابنه الحكم الأول ، وليضم أيضا بعض الشخصيات المعروفة من أمثال عباس بن ناصح الجزيري ، والشاعر أبو الحسين وابنته حسانة التميمية ، ويكفي ذلك للدلالة على أن أسس الانطلاقة الشعرية قد توطدت وأن رحلة القوافي قد بدأت مسيرتها لتتسنى للنسر الأندلسي مجاريه ضمن ولحات للشعر العربي .

أما للنثر فإن طبيعة الأمور تحتم وجود ثروة نثرية كبيرة على الرغم من ندرة ما وصل إلينا من نصوص نثرية ، ونعتمد في قولنا بوجود ثروة نثرية ، على أساسين واضحين أولهما الحاجة الملحة إلى استخدام الكلمة الحسنة ، والأسلوب الواضح في مجال الدعوة إلى الإسلام ، وإقامة الشعائر الدينية وخاصة الصلاة الجامعة أيام الأعياد والجمع ، أما الأساس الثاني ، فهو الحاجة الماسة إلى استعمال الكلمة لها للحدث على الصروب الأهلية أو شجبتها ، كما أن الكتابة كانت حاجة ملحة في هذه الفترة تتطلبها ظروف الفتح والحكم والإدارة ، كما تتطلبها مناسبات رسمية وأخرى شخصية مثل كتابة المهود ، أو وضع شروط للصلح أو توجيه بعض المكاتبات .

وأول نثر عربي ابتدعه خيال المؤرخين ليرتبط بأرض الأندلس يتعشعش في تلك الخطبة الرائعة التي نسبت إلى طارق بن زياد ، والتي القاهها لشعاع حماسة جنوده قبل اللقاء الحاسم في معركة وادي لكة ، وتتلون تلك الخطبة في صيغتها التي وصلت إلينا ، عن عبارات ذلت صبغة عربية قحة ، ولكلماتها رنين قوي ، وأفكارها أفكار حربية ، تسجح الجنود على النصر وتحذروهم الهزيمة . لكن هذا النص الأدبي رغم أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأرض الأندلس ،

لا يمكن تضمينه هذه الدراسة وذلك للشك الكبير في صحته تاريخيا ، وعدم وجود أدلة قوية على نسبته لطارق بن زياد ، وأيضا لأن قائله ، وإن كان قد قاد عملية الفتح إلا أنه عاد إلى المشرق بعد ذلك ، وظل هناك حتى نهاية حياته ، وهناك أيضا بعض النصوص المنسوبة إلى موسى بن نصير وإلى مغيث الرومي ، لكن تلك النصوص مثلها مثل تص طارق بن زياد تتعرض لكثير من النقد ويعتقد أنها كتبت بعد عصرهم ونسبت إليهم .

ومن النصوص للنثرية الأولى التي وصلت إلينا ، صيغة الكتاب الذي قدمه عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير حاكم منطقة مرسية ، وتحدد فيها نوع المعاملة التي يجب أن تسود بين الفريقين ، ويبدأ الكتاب بالصيغة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد العزيز إلى تدمير ، إنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله ودمته أن لا يفزع عن ملكه ولا أحد من الثنصارى عن إهلاكه ، وإنهم لا يقتلون ، ولا يسيبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم » (٤٢) .

أما النص الآخر الذي تتجلى فيه روعة الأسلوب مع وضوح الفكرة فهو المنسوب إلى صياغة القاضي مهدي بن مسلم قاضي عقبة بن الحجاج السلولي والذي تولى الاندلس في سنة ١١٦ هجرية وظل بها حوالي ٥ سنوات ، إلى أن استشهد في جهاده في أرض خاله ، والرسالة من صياغة القاضي ، والذي طلب منه واليه لحجاج كتابة العهد فكتب رسالة ذات مستوى لغوي سليم ، موضحا بها بعض النقاط الهامة في « المساواة بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظة استماعه ، وإن يفهم من كل أحد حجته وما يبلى به ويستأنى كل عيبى اللسان ، خافى الأبيان ، فإن استقصاه الحاجة ما يكون لحق الله تعالى عليه قاضيا ، وللواجب فيه راعيا ، فقد يكون النحة بحجته وأبلغ في منطقه ، وأسرع في بلوغ المطلب ، والطف حيلة في الذهاب وأذكي ذكاء ، وأحضر جوابا من بعض ، وإن كان غير للصواب مرماه ، وبخلاف الحق منها » (٤٣) .

وكذلك احتفظت لنا المونيات بجزء من رسالة يوسف الفهرى آخر ولاية
الاندلس والتي وجهها الى عبد الرحمن الداخل حين نزل بأرض الاندلس يعرض
عليه بعض الشروط لكي يتجنب الحرب ، ولكن فشلت هذه الرسالة في إحلال
الصلح بين الطرفين وذلك بسبب غرور كاتبها خالد بن يزيد ، ويروى أن
صاحب كتاب أخبار مجموعة ، أن خالدًا حمل كتاب يوسف إلى عبد الرحمن
وكان « أديبًا عاقلاً ، إلا أنه زلّ ، وكان هو مملئ الكتاب فان له المجد والنفخ ،
وفديما ما أهلك دين الرجال ودينهم ، فقال : يا أبا عثمان : لتعرق أبطالك
قبل أن تحير فيه جواباً » . فغضب أبو عثمان وسبه ، وفشلت الوساطة ولخذ
خالد بن يزيد أسيراً (٤٤) .

ومن كتاب هذه الفترة لدينا أسماء خالد بن يزيد ، وإمىة بن يزيد وكانا
من كتاب يوسف بن ديد الرحمن الفهرى ، ثم انتقلا بعد ذلك إلى خدمة عبد
الرحمن الداخل .

وتصف للكتابات الأدبية نثر هذه الفترة الأولى من تاريخ الأدب
الاندلسى بأنه كان يحمل الخصائص الفنية للنثر الشرقى ، كما أنه نثر يميل
إلى الإيجاز ، ويعنى بقوة العبارة أكثر من غايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف
تلك المقدمات الطويلة أو الالتفات المتعددة مثلما هو الحال في العصر التتالية .

وكما كان وصول عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس علامة بارزة في تطور
الشعر فهو كذلك أيضاً في مجال النثر ، لأن الأمير كان شاعراً جيداً وناثراً
مفلحاً مخملاً . ومما ينسب إليه قوله حين قتل المفيرة ولد أخيه الوليد :

يا عجبى إلا من هؤلاء القوم ، سمعنا فيما يجمعهم في مهائد الأمن
والنعمة ، وخطارنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى
به حتى آمنوا وردت عليهم أخلاق النعم ، عزوا أعطائهم ، وشمخوا بآثافهم ،
وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى (٤٥) .

ولقد احتفظت لنا المصادر بالكثير من النصوص الشعرية المتعلقة بعبد

الرحمن للداخل ، ومنها خطبة قالها بعد انتصاره في معركة المصارة سنة ١٣٨هـ
ورسالة منه الى سليمان الاعرابي ، حاكم برشلونه الذي أعلن العصيان ،
وتحالف مع شارلمان .

ولم تقتصر الحياة الفكرية في الاندلس خلال ذلك التاريخ البعيد على
تلك الشواهد الأدبية شعرا أو نثرا ، وإنما بدأت العلوم الإسلامية التي كانت
قد نضجت في الشرق في الانسياب نحو الاندلس ، فبدأت تخلق طريةها
بثبات الى هناك الى أن حفر مجرى واسعا انتقلت خلاله معظم هذه العلوم
والآداب لتعيش على أرض الاندلس ، ولتصبغ هناك بطبيعة الأرض وسجيا
الناس ولتتحول الى جزء لا يتجزأ من الحضارة الاندلسية .

ومن أوائل من حملوا العلم الى الاندلس نجد زيادا بن عبد الرحمن المتوفى
سنة ١٩٩ هـ وهو أول من أدخل الاندلس فقه مالك بن أنس ، وكانوا يسمون
ذلك على المذهب الأوزاعي ، (٤٦) وهو أول من دخل الاندلس بالفقه والحلال
والحرام ، وهو أول من أظهر سنة تحويل الأوبية في الاستسقاء (٤٧) .

وفي أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الفارسي بن قيس الاندلس بالموطأ
عن مالك بن أنس رحمه الله ، وبقرأة نافع بن أبي نعيم . وفي أيامه دخل أبو
موسى الهواري عالم الاندلس ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ،
وكانت رحتهما من الشرق الى الاندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية
الاندلس ، ودخل الاندلس قبل دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان
من جلة أهل العلم ، ورواة الحديث ، وكانت له مكانة عظيمة ، لدرجة أن سئل
محمد بن وضاح : هل جمع أهل الاندلس علم معاوية بن صالح ؟ فأجاب
بالنفي فقيلا له : وما متعكم من ذلك ؟ قال : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل
علم فقليل له أضعتم والله علما عظيما (٤٩) .

وانتهت الى الاندلس أمهات الكتب في النحو منذ أول القرن الثاني
فأدخل جودي بن عثمان العباسي المتوفى سنة ١٩٨ كتاب الكسائي ، وكان قد
رحل الى الشرق ، وأخذ عن الرياشي والفرافرا والكسائي (٥٠) .

كذلك بدأ استخدام علم التنجيم في هذه الفترة المبكرة من تاريخ
الأندلس حيث أن هشام بن عبد الرحمن الداخل حينما تولى يث في طلب الضبي
النجم بالجزيرة فقال له لست أشك أنك قد عنيت بأمرى إذ بلغك ، فنادت
الله إلا أخبرتنى بما ظهر لك ، فقال له الضبي : ناديتك الله اعفيتنى من هذا
فأعفاه فلما كان بعد أيام كشف عنه ، فقتل له خاطر بعث فبعث فيه وقال له :
إن الذى أسألك ، لست الله اصدق به على الحقيقة ولكن أريد أن اسمعه ولئن
أوردت على ما يضمنى لا اعافيتك ولاكسونك ولاحيونك ، وكافئك كما كنت
أكافئك على أن تور على ما يسرنى ، فقال له الضبي : ما بين الستة والسبعة ،
فأطرق عنه ساعة ، ثم رفع رأسه إليه فقال له : يا ضبي والله لو أنها سجدة
في سبيل الله لهانت (٥١) •

البحال التربوى والتعليمى :

لا شك أن عملية التطور الثقافى والفكرى التى اشرفنا إليها قد مضت في
طريقها معتمدة على انتشار اللغة العربية والإسلام ، وتمتعها في نفوس أهل
الأندلس ، كما أنها قد صاحبها نشاط تربوى وتعليمى يحسن بنا أن نشير إليه
باعتباره مظهرا هاما من الحضارة الأندلسية كما أنه الأساس الراسخ الذى
بنيت عليه هذه الحضارة •

بدأت الحياة التعليمية في الأندلس بعد الفتح مباشرة ، وتمثلت في
بداية الأمر تعليم اللغة والدين الإسلامى ، وقام بهذه المهمة مجموعة من العلماء
الذين رافقوا الجيوش الإسلامية في عبورها إلى أرض شبه الجزيرة
الإيبيرية أو من هاجر إلى هناك بعد الفتح •

اتجه للتعليم - كما هو طبيعى ومنطقى - في بداية الأمر إلى الكبار
سواء من سكان الأرض الإسبانية أو من البربر حديثى العهد بالإسلام ، وهو
أمر كان يحرص عليه الذين اهتموا بتعلم لغة الفاتحين من أجل مصاحمهم الخاصة
أو ممن اعتنقوا الإسلام ، وحاولوا معرفة لغة دينهم •

وفي نفس الوقت فإنه لم تنقضى مدة طويلة حتى بدأت في الظهور أجيال جديدة من أبناء الفاتحين وزوجاتهم الاسبانيات ، ومع هذه الاجيال تجلت الحاجة الى تعليم الاطفال اللغة العربية والقرآن الكريم .

ولدينا من البيانات التاريخية ما يثبت وجود الكتب في الاندلس على عهد الولاة حيث يحكى أن الصحيل بن حاتم قد مر يوما بمعلم يعلم للصبيان وهو يقرأ «وذلك الايام بداولها بين الناس» ودار بينه وبين المعلم جدل غريب ، يمكن ان نفسره بكثر من معنى . (٥٢) ، كما أن للزبيدي في كتابه طبقات النحويين، ينقل لنا نصا قيما عن الغازي بن قيس ، المتوفى سنة ١٩٩ هـ ٨١٤م . يمكن لما ان نستنتج منه أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس سأل الغازي يمارس التأديب ، بل ان هذه المهنة كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس وان هؤلاء كانوا ينسحبون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب ان يتقاضوا في مقابلها اتعابا ، ويتجمعون للدفاع عنها (٥٣) .

وما من شك في أن عدد الذين تعلموا خلال هذه الحقبة كان كبيرا وبعض هؤلاء هم الذين اتبع لهم على عهد عبد الرحمن الداخل القيام بالرحلة الى الشرق ، وعادوا - كما أشرنا - حاملين معهم مزيدا من الثقافة الى الاندلس مما دفع بهذه الحضارة خطوت على طريق التطور والارتقاء .

في دجلال الأهرمان :

مما يلفت النظر في دراسة هذا الجانب من جوانب الحضارة الاندلسية عدم قيام المسلمين هناك بتأسيس مدن خاصة بهم رغم أهمية هذا العمل في الاستقرار في البلد الجديد وتحويله الى العربية لغة والاسلام دينا ، وتفسير ذلك تفسيراً علمياً يتطلب دراسة مستقلة عن دور المدينة الاسلامية في تعريف الاوطان للجديدة ونشر الاسلام بها ، وخاصة أن الامثلة السابقة لا تحد لنا بالضبط لماذا تم بناء هذه المدن ، ففي العراق ، وهو بلد كثيف السكان تم بناء البصرة والكوفة ، أما بلاد الشام فلم تبني بها مدن جديدة ، ومصر حظيت ببناء الاسطاط ، ولقرية بالقيروان أولا ثم تونس بعد ذلك .

وجاء بناء المدن في الاندلس فيما بعد في فترة الازدهار الحضارى وتمش
في اقامة اماكن خاصة للخلفاء مثل للزهراء والازاهرة ، أو اقامة مدن بحرية مثل
مدينة المرية .

أما أول مظاهر العمران التي قام بها المسلمون هناك فتتمثل في إنشاء
المساجد حيث تجمع المصادر التاريخية على أن أول شيء أقامه موسى بن نصير
هو مسجد الرليات في الجزيرة الخضراء التي يقول عنها الإدريسي : إنها أول
مدينة افتتحت في ذلك الوقت وبها على باب البحر مسجد « مسجد الرليات »
ويقال إنه هناك اجتمعت رايات القوم للراى « (٥٤)

كما أن حنش بن عبد الله الصنعاني - أحد التابعين الذين لاخلاف
حول دخولهم الاندلس مع الفتوح - قد قام بتأسيس عدة مساجد هناك ،
فيذكر الحميدى حين يترجم له أنه : غزا الاندلس مع موسى بن نصير وله بها
آثار ، ويقال : أن جامع مدينة سرقسطة من نفور الاندلس من بنائه ، وأنه
أول من أخطه . (٥٥) ويشير الدكتور عبد الرحمن على الحجى نقلا عن
المصادر الاندلسية الى تأسيس حنش الصنعاني ، بالتعاون مع غيره مساجد
مدن : البيرة وقرطبة وسرقسطة وربما غيرها . (٥٦)

ولذا كانت هذه المساجد قد اقيمت خلال مرحلة الافتتاح نفسها ، فانها
استمرت بعد ذلك طوال التاريخ الاندلسي ، فاهتم الولاة والامراء والافراد بها
ومثالنا على ذلك قيام عبد العزيز بن موسى بن نصير أول وال في الاندلس ،
وزعم أنه لم يحكم الا عدة شهور ، ببناء مسجد بأشبيلية أمام داره ، وهو
المسجد الذى قتل فيه حين خرج لامامة المسلمين . (٥٧)

وما يقوله « التباى » عن معاوية بن صالح أنه « من القضاء المتقدمين
خرج من الشام الى الاندلس فوصلها سنة ١٢٣ هجرية ، فاستوطن مدينة
مالقة ، وبني باسفل قصبتها مسجدا هو منسوب حتى الآن له . (٥٨)

وإذا لم تكن متوفرة لدينا المعلومات الفنية عن مساجد هذه الفترة البعيدة من التاريخ الاندلسي ، إلا ان ارادة الله لم تشأ ان تحرمها من الخلود حين صيأ لها عبد الرحمن للدخل لكي يبدأ في بناء مسجد قرطبة الجامع ، والذي أصبح فيما بعد مفخرة في البناء المدنى في الاندلس ، وكان ومازال درة غالية في مجال فن البناء الاسلامى والحضارة الاندلسية خاصة والاسلامية عامة .

بدأ عبد الرحمن بقاء هذا المسجد في عام ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، وجلب اليه الاعمدة والرخام المتقوش بالذهب واللازورد ، وتوفى قبل اتمامه ، ولكم له ابنه هشام ، وزاد فيه امراء بنو امية وخلفاؤهم من بعد حتى عدا أعظم مساجد الاندلس وبلغ ما انفق عليه عبد الرحمن للدخل وحسده زهاء ثمانين ألف دينار ، (٥٩)

ولتجه اهتمام المسلمين ايضا الى تحسين المرافق القائمة ، فقد تنبه والى السمع بن مالك الخولاني الى تهدم قنطرة قرطبة بعد ان استتار الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى امر بتجديد بنائها من صخر سور المدينة ، وأن يبني سور المدينة باللبن لاذ لا يجد له صخرا ، فوضع - اى السمع - بدا فبنى القنطرة في سنة لحدى ومائة (٦٠) ، وعبت هذه القنطرة والمسجد الجامع من أهم معالم مدينة قرطبة ، وإذا كان هذان البناءان من وضع فترة التأسيس الحضارى ، فان المدينة لم تضاف اليها بعد ذلك الا الزهراء وتميزها بالعلم حيث يقول الشاعر عن هذه المدينة الخالدة :

بأربع نافقت الابصار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنختان والزهراء ثالثتهما

والعلم أفضل شئ وهورابعها (٦١)

وشهد عصر عبد الرحمن للدخل اهتماما بالمدينة ، وركزا اهتمامه على

قرطبة التي حاول أن يجعل منها صورة لمدينة دمشق حيث مجد أجداده .

« فحسبها وزينها بالمتنشات الفخمة والرياض الليانة ، وكان أول ما أنشأ بها على عهده منية للرصافة التي أنشأها في شمال غربي قرطبة وأنشأ بها قصرا تحيط به الحدائق ، وجلب اليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وأفريقية وأسماها الرصافة تظليدا لذكرى الرصافة التي أنشأها جده حسام بالشام ، واتخذها مقاما ومنزلها ومقرا للإمامة ، وكانت حدائق الرصافة أما لحدائق الاندلس ، ومنها انتشرت بالاندلس غروس الشام وأفريقية » .

وفي سنة ١٥٠ هـ بنا عبد الرحمن بنأشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه مدى اعوام ، كما أنشأ في قرطبة وبالقى مدن الاندلس مساجد مطية عديدة » (٦٢)

وهكذا وضعت الأسس التي تطور عليها فن المعمار في الاندلس لكي يثمر لنا بعد ذلك عقودا من الاعمال الفنية المعمارية الخالدة والتي انتظمتها كتب تراث المسلمين الفني والمعماري . (٦٣)

شهدت هذه الفترة أيضا من مرحلة تكوين الحضارة الاندلسية جوانب أخرى حضارية لا يتسع لتمام هنا لذكرها والحديث عنها ، وذلك بسبب ضيق المساحة ، ومن هذه الجوانب للنظام القضائي والتنظيم الإداري ، الى جانب مسلك المسلمين في المجال الاقتصادي .

هوامش الحراسة :

Sanchez Albornoz :

(١)

Espana un enigma Historico, P.III, p. 21.

Sanchez albornoz :

(٢)

Historia de Espana Musulmana. 1 : 20

(٣) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ط ٤ ، ص ١٣٠ - ١٣١ ،

القاهرة ١٩٧٥ م .

Conzalez prats; Antonio :

(٤)

Altura en Las ciencias Médicas en el Rieno de Al-Andalus,
p. 20 Barcelona 1906.

Gomez Nogales : La Filozofia Musulmana, p. 9.

(٥)

(٦) نفس المصدر ص ١٣٠

(٧) نفس المصدر ص ١٣١

(٨) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ط ٢٨ ، ص ٣٥

(٩) نفس المصدر ص ٣٦ - ٣٧ .

(١٠) الطاهر مكي : حضارة الاسلام في الأندلس ، عدد خاص من مجلة

النهال يونية سنة ١٩٧٦ ص ٩٣ .

(١١) حسن علي حسن : الحضارة الاسلامية في الغرب والأندلس على

عصر الموحدين ، القاهرة ١٩٨٠

(١٢) انظر في ذلك كتابي عن « تاريخ التعليم في الأندلس » ص ٧١ -

٧٣ ، دار الفكر العربي ١٩٨٢

(١٣) لجمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦١

(١٤) انظر كتابي المذكور سابقا ص ٧٤

(١٥) ابن القوطية : لفتح الأندلس ، ص ٣٨ ، طبعة الابياري ،

القاهرة .

(١٦) مجهول المؤلف : اختيار مجموعة ، ص ٣٠ ، طبعة الابياري .

دار الكتاب المصري القاهرة ١٩٨٢ م .

(١٧) الخشنى : قضاة قرطية ص ٩ ، طبعة للهيئة العامة للكتاب بالقاهرة .

(١٨) Ho de Espana 4 de la civilization Espanola, Altamera
p. 229 30 Edician. Barcelona 1913.

(١٩) خليل داود الزرو : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني
من الهجرة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٠٤

(٢٠) الحميدى : جنوة الاقتبس ، ص ٢٢٧ .

(٢١) محمود على مكى :

Euzayos Sobre las aportaciones orientales
en la Espania musulmana.

رسالة دكتوراه منشورة باللغة الاسبانية بمجلة المعهد المصرى للدراسات
الاسلامية بمجريد في عديها التاسع والعاشر ؛ والحادى عشر والثانى عشر .
ص ١٣٠

(٢٢) ابن الفرض : علماء الأندلس ص ١٨١ ، والحميدى ص ٢٠٥ ،
وانظر أسماء أخرى أوردها كتابى في تاريخ التعليم في الأندلس ، ص ٧٥ .

(٢٣) ابن فرحون : الأديباج المذهب في تساريخ أعيان المذهب ، ح ٣
ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢٤) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٤٢

(٢٥) نفس المصدر ص ٤٢ - ٤٣ ، وأوردها الحميدى باختلاف بسيط
ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢٦) الحميدى : المصدر المذكور ص ١٨٩ .

(٢٧) أحمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦٢ .

(٢٨) الحميدى : المصدر المذكور ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢٩) لحد هيكل : المصدر المذكور ص ٦٢

(٣٠) ابن عذارى : البيان المغرب ح ٢ ص ٤٣

(٣١) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٥١

(٣٢) على أدم : صقر قريش ص ٧٤ .

- (٣٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ ، جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ص ٨٣
- (٣٤) ابن عذاري : المصدر المذكور ج ٢ ص ٦٠
- (٣٥) أخبار مجموعة ص ١٠٦ . ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٥٩ .
- (٣٦) علي أدهم : صقر قریش ، المختطف ١٩٣٨ .
- (٣٧) أخبار مجموعة ص ١٠٧ .
- (٣٨) علي أدهم : للكتاب المشار اليه ص ١١٥ .
- (٣٩) جودت الركابي : المصدر المذكور ص ٨٣ ، علي أدهم : الكتاب المشار اليه ص ١١٣
- (٤٠) لحد هيكال : المصدر المذكور ص ٩٨ - ١٠٢ .
- (٤١) محمود مكي : الرسالة المشار اليها ص ١٤٠ - ١٤٢ .
- (٤٢) عبد الرحمن علي الحجى : للتاريخ الأندلسي ص ٨٠
- حسين منس : نجر الأندلس ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٤٣) الخشني : قضاة قرطبة ص ٩ - ١١ ، حسين مؤنس : المصدر المذكور ص ٦٤٦ - ٦٤٨ .
- (٤٤) أخبار مجموعة ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٤٥) المقرئ : نفع للطبيب ج ٢ ص ٧٢ - ٧٣ ، طبعة لسان عباس .
- (٤٦) الحميدى : المصدر المذكور ص ٢٠٢ .
- (٤٧) الخشني : قضاة الأندلس ص ٢٧ .
- (٤٨) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٥٦ .
- (٤٩) ابن الفرضي : علماء الأندلس ج ٢ ص ١٣٨ - ١٤٠ .
- (٥٠) لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٧٣ .
- (٥١) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٦١
- (٥٢) انظر كتابي المشار اليه ص ٢١٩ .
- (٥٣) المصدر السابق ص ٢١٩ .

- (٥٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٧٧ • الحجى : المصدر السابق
ص ١٤٦ •
- (٥٥) تلميذى : المصدر السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ابن الفرضى :
علماء الأندلس ج ١ ص ١٢٧ •
- (٥٦) للحجى : المصدر المذكور ص ١٤٦ •
- (٥٧) المراكسى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب • التعليق رقم (١)
ص ٢٣
- (٥٨) النباهى : قضاة الأندلس ص ٤٣ •
- (٥٩) عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص ٢٠٠ - ٢٠١ •
- (٦٠) أخبار مجموعة ص ٣٠ - ٣١
- (٦١) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص ٣١٠
- (٦٢) عنان : المصدر المذكور ص ٢٠٠ - ٢٠١
- (٦٣) انظر فى ذلك كل من كتاب الدكتور عبد العزيز سالم « تاريخ
المسلمين وآثارهم فى الأندلس » وكتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان « الآثار
الاسلامية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » •

**قوانين الملكية الزراعية في الإمبراطورية البيزنطية
في القرن العاشر الميلادي : دراسة تحليلية**

للدكتور وسام عبد العزيز فرج
مدرس تاريخ العصور الوسطى
بأدلب المنصورة

قوانين الملكية الزراعية في الامبراطورية البيزنطية في القرن للعاشر الميلادي : دراسة تحليلية

يتفق معظم المؤرخين المحدثين في مجال الدراسات البيزنطية ان السبب في اصدار العديد من التشريعات التي تتناول الملكية الزراعية في القرن للعاشر الميلادي ، كان يرجع الى حالة الاضطراب التي سادت اقاليم الامبراطورية البيزنطية . فالنسبة لأوستروجورسكي Ostrogorsky كانت اطماع طبقة كبار الملاك الاثرياء في الاقاليم هي السبب الرئيسي في ظهور ما يعرف بـ «مشكلة الارض» في القرن العاشر الميلادي . وحين قام هؤلاء الاغنياء (dynatoi) بشراء اراضي صفار المزارعين الاحرار الفقراء (Ptôchoi أو Penêtes) زادوا في فقرهم وتضوا على حريتهم (١) .

اما المؤرخ الفرنسي لاميرل Lemerle فقد رأى ان اسباب الصراع بين الطبقتين لا ترجع الى اختلافها الاقتصادي بقدر اختلافها في المركز الاجتماعي . فبالنسبة له كانت طبقة dynatoi هم الاثرياء ، وطبقة Penêtes هم للضعفاء (٢) .

(١) لمرأي أوستروجورسكي في « مشكلة الارض » تلخيص في مؤلفه العام « تاريخ الدولة البيزنطية » . Ostrogorsky, State, 269-87. كذلك تناول أوستروجورسكي « مشكلة الارض » في بحثين آخرين هما : Ostrogorsky, *Quelques Problèmes* ; Ostrogorsky, *Ag-rarian Conditions*, 205-22.

(٢) من أهم كتابات لاميرل Lemerle في هذا المجال بحثه الشهير المطول في مشكلة الارض : Lemerle, *Esquisse*, 32-74, 254-84. للمزيد حول هذا الموضوع انظر : Syuzymov, *Le Village*, 65-74.

ورغم اختلاف أوستروجورسكى و لاميرل في ترجمة Penêtes ، Ptôchoi ، dynatoi ، فقد اتفق المؤرخان على أن هناك أدلة واضحة تشير إلى وجود صراع بين مصالح هاتين الطبقتين ، وأن طبقة صغار المزارعين الأحرار تعرضت في القرن العاشر الميلادي لخطر الفناء بسبب جشع كبار الملاك وقيامهم باحتلاك أراضيهم بمختلف الوسائل الشرعية وغير الشرعية . والسؤال الذى يفرض نفسه هنا لماذا تعرضت طبقة صغار المزارعين الأحرار لهذا الخطر في القرن العاشر الميلادي بالذات ؟ ولماذا اصدر اباطرة القرن العاشر الميلادي تشريعات استهدفت حماية مجتمعات صغار المزارعين من جشع الأثرياء ؟

من المعروف ان استقرار المجتمع البيزنطى كان يعتمد على جماعات للفلاحين الأحرار من صغار المزارعين الذين تعاملوا مع الحكومة المركزية مباشرة . وكانت القوة العسكرية والمالية للدولة البيزنطية تعتمد على ابناء هذه الطبقة الذين كانوا يقدمون الضرائب للحكومة المركزية بالتضامن ، كما كانوا يؤمنون الخدمة العسكرية بالانخراط في جند النيمات التى تتولى الدفاع عن الإغالييم . وطالما عاشت طبقة صغار المزارعين الأحرار آمنة ، توفرت لدفاعات الامبراطورية فى الأقاليم القوة متمثلة فى جند النيمات من ابناء هذه الطبقة ، وتوفرت لخزانة الامبراطورية السيولة النقدية متمثلة فى الضرائب الزراعية التى يدفعها ابناء هذه الطبقة بالتضامن . (٣)

ويرى الباحث أن هناك ثلاثة عوامل أدت الى تعرض طبقة صغار المزارعين للضعفاء لجشع كبار الملاك الأثرياء فى القرن العاشر الميلادي بالذات ، وبذلك الصورة الخطيرة التى اضطرت الاباطرة للتدخل لحماية للضعفاء :

العامل الأول : للتوسع البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى ، والاتجاه الشرقى لهذا التوسع :

Ostrogorsky, *Agrarian Conditions*, 216.

يلاحظ أن تاريخ بداية التشريعات التي صدرت في القرن العاشر الميلادي من أجل حماية مجتمعات صغار المزارعين الأحرار من جوع كبار الملاك ، كانت تعاصر تقريبا بداية الهجوم البيزنطي في اتجاه الشرق ؛ ولم يكن هذا من قبيل الصدفة . فمن المعروف أن الجيش البيزنطي بدأ مجرجه الكبير على ثغور دار الاسلام في سنة ٩٢٦ م . ولقد استمر هذا الهجوم بشكل متقطع لمدة قرن من الزمان تقريبا ، تقدمت خلالها حدود الامبراطورية الشرقية مزيدا الى الشرق . وكان هذا للتوسع البيزنطي في اتجاه الشرق من عمل طبقة الارستقراطية العسكرية وهي الطبقة التي اُنجبت يوحنا كوركواز John Kourkouas ويوحنا نزييمسكيس John Tzimiskes ونقفور فوقاس Nikephoros Phokas وغيرهم من قادة الجيش البيزنطي . (٤) وفي البداية كان الاتجاه شرقا يستهدف تأمين أسيا لأصغرى من اغارت المسلمين ، ولكن حين أدى النجاح الى المزيد من التقدم وحين تم تحقيق النصر ، أصبح الاتجاه لشراء الارض الزراعية مجالا مأمونا للاستثمار ، وعلى الفور اتجه الاقوياء لشراء المزيد من الارض . ويرى بعض المؤرخين أن السبب في اتجاه الاقوياء للاستثمار في مجال الأرض الزراعية يرجع الى أنه كان مجال الاستثمار الوحيد متاح امامهم ، لأن مجالات الاستثمار في التجارة والصناعة كانت بالنسبة لهم مقيدة . (٥)

إن الامبراطور الذي بدأ سياسة التوسع شرقا هو الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanos I Lekapenos وكان هذا الامبراطور من اصل بسيط مما جعله متعاطفا مع الفقراء . كذلك كان رومانوس من أبناء منطقة الحدود ، فلقبه ليكابينوس ، ربما يشير الى أن أسرته جاءت من قرية لاكاب Lakape التي تقع الى الجنوب الشرقي من قلعة زبطرة Sozépetra الواقعة على أحد روافد نهر الفرات . ماذا كانت لاكاب هي في الحقيقة موطن أسرة رومانوس الأول ، فإن هذا يعني أن رومانوس جاء من قرية استولى عليها

(٤) وسام : دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ج ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٣٦٥ ، ص ٣٦٩ .

(٥) Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 54.

البيزنطيون من المسلمين في حياة رومانوس نفسه . وإن هذا ليوضح اسباب اهتمام رومانوس باستقلال ضعف الخلافة العباسية كي يتوسع شرقا .

على أية حال فإن قيام رومانوس بتدنى هذه السياسة الخاصة بالتوسع في اتجاه الشرق ، مهما كانت دوافعها ، قد عملت بدون قصد لصالح الأقوياء في الصراع الاقتصادي والاجتماعي الذي وقع داخل الامبراطورية البيزنطية .

العام ٩٢٧ : المجاعة التي اصابته الدولة البيزنطية في سنة ٩٢٧ /
٩٢٨ م : لقد عملت الطبيعة أيضا لصالح الأقوياء حين حل بالامبراطورية شتاء قاس في سنة ٩٢٧ / ٩٢٨ م . (٦) فقد تسبب المناخ في حدوث مجاعة ، وارتفعت نسبة الوفيات . وتفق المصادر البيزنطية في مدح الامبراطور رومانوس ليكاينوس على الاجراءات التي اتخذها لمواجهة هذه المحنة . (٧) فمن أجل تخفيف آلام ضحايا تلك المجاعة في القسطنطينية ، أمر الامبراطور بنوفير أن لا مأوى له ، كما وزع الأموال على المحتاجين وجعل كنائس العاصمة تسلم في ذلك . ولكن المجاعة لم تقتصر على المدن بل اصابته الريف أيضا ، وكان لدى فقراء الريف اراض اضطروا لبيعها . وانتهز الأقوياء فرصة المصاعب التي واجهت صغار الزارعين واقتبلوا على شراء الارض . وتوضح التشريعات التي صدرت بعد ذلك أن بيع الاراضي في الريف أصبح نقطة تحول كبيرة وترتبت عليه عواقب وخيمة بسبب تلك المجاعة التي نجمت عن شتاء ٩٢٧ / ٩٢٨ م . وكما تقول لفتتحية للقانون رقم (٥) الذي أصدره الامبراطور رومانوس ليكاينوس سنة ٩٣٤ م :

« وحين رأى الأقوياء أن الفقراء مطحونون بسبب المجاعة ، اقتبلوا على

(٦) وطبقا لما ورد في القانون رقم (٥) الصادر في سبتمبر سنة ٩٣٤ م ، يتضح أن تاريخ بداية المجاعة يقع في السنة التي تبدأ بأول سبتمبر ٩٢٧ م وتنتهي بـ ٣١ من أغسطس سنة ٩٢٨ م . انظر : J. G-R, III, 247-48.
(٧) انظر : George. Mon. Cont., 908-9; Ido Grammaticus,

318-20; Theoph. Cont. 417-18; Pseudo-Symeon, 743-4.

شراء اراضيهم بابخس الأثمان مقابل قطع من العملة او بعض الدقيق او سلع اخرى ، وهكذا استغل الاقوياء للمصاعب التي وُجِعت للفقراء » (٨)

المعامل الثالث : بعض التشريعات التي اصدرها الامبراطور ليو السادس
(٨٨٦ - ٩١٢ م) :

لاشك ان للطريق انفتح امام طبقة الاقوياء بسبب بعض التشريعات التي صدرت في عصر الامبراطور ليو السادس والتي كانت بصفة عامة لصالح الاقوياء . فالمعروف انه قبل صدور تشريعات ليو هذه كانت سياسة الحكومة البيزنطية تقوم على حماية الملكية الزراعية لمجتمعات صغار المزارعين الأحرار . وكان القانون ينص على نقطتين هامتين من اجل هذا الهدف . الاولى : حد القانون وقيد حرية الفلاح في بيع ارضه وذلك بان اعطي الحق في الموافقة على البيع او رفضه للمزارعين الآخرين في مجتمع ذلك الفلاح سواء على المستوى الفردي او الجماعي . وكان الغرض من هذا الاحتفاظ بمجتمعات صغار المزارعين التي كانت تشكل مصدرا مضمونا للضرائب الزراعية ومصدرا للجند في حالة الاراضي العسكرية من ناحية ، والحيلولة دون وقوع هذه الاراضي في يد ملاك جدد من طبقات اخرى قد تجد للدولة صعوبة في الحصول على الضرائب منهم كما قد تجد صعوبة في تجنيد الجند من بين صفوفهم من ناحية اخرى . (٩) فملاك جدد من طبقات اخرى قد يكونوا متمتعين بامتيازات نص عليها القانون (كما هو الحال في حالة الاديرة مثلا) ، او قد يكونوا متمتعين بامتيازات اخرى بسبب قوة نفوذهم التي تجعلهم قادرين على التهرب من جباة الضرائب في الواقع المعلى .

اما النقطة الثانية التي نص عليها القانون في الماضي من اجل حماية صغار المزارعين الاحرار ، فهي السماح للموظفين العموميين في الدولة - خلال فترة شغلهم لوظائفهم - بعقد اية صفقات بيع او شراء او اية اعمال تجارية تعود

J. G. R. III, 247.

(٨)

Toynbee, *Constantine Porphyrogenitus* 147.

(٩)

عليهم بالربح . فموظفو الدولة الـبيزنطية كانوا ممنوعين بقوة القانون أثناء شغلهم لموظفـتهم من شراء أية أراض زراعية أو قطران من المنسية ، كما كانوا ممنوعين من القيام بأية انشاءات معمارية بدون موافقة صريحة من الامبراطور . كذلك كان الموظفون ممنوعين من قبول الهدايا طالما أن هذه الهدايا والمنح لاتتأكد كتابة من قبل مانحها بعد انقضاء فترة تسفل الموظف لوظيفته أو حتى بعد انقضاء خمس سنـوات أخرى . (١٠)

كان هذا هو القانون السارى قبل عهد الامبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) من أجل حماية صغار المزارعين من الاضرار . ولكن الامبراطور ليو السادس قام بإلغاء هذا التشريع . ففى قانونه رقم (٨٤) قام الامبراطور بإلغاء القيود المفروضة على موظفى الدولة للعموميين . فبالنسبة للموظفين المقيمين فى العاصمة تم إلغاء القيد المفروض عليهم والذي يفص على عدم السماح لهم بعقد أية صفقات بيع أو شراء ، على أساس أن أى طرف قد يتعرض للضرر فى العاصمة يستطيع رفع شكواه بسهولة الى الامبراطور نفسه . اما بالنسبة لموظفى الدولة المقيمين فى الأقاليم ، فقد قرر ليو السادس أن قائد الثيم من درجة الاستراتيجوس Stratigotes يظل خاضعا للقيود السابقة ، أى يمنع من عقد أية صفقات بيع أو شراء . اما بالنسبة للموظفين والضباط التابعين لقائد الثيم والذين يتولون عنه فى ثلوتية ، أو الدرجة ، فإن لهم الحرية فى عقد أى بيع أى شراء للأرض الزراعية أو لقطران المشية أو غيرها ، بشرط موافقة قائد الثيم الذى له سلطة مراجعة أى عملية بيع أو شراء يكون أحد الموظفين أو الضباط طرفا فيها . كذلك كانت لقائد الثيم سلطة فصل الموظف أو الضابط التابع له . (١١)

وفى قانونه رقم (١١٤) وضع الامبراطور ليو السادس نهاية لحق مجتمعات

(١٠) يرجع هذا القانون الى عصر الامبراطور جستنيان ، انظر :

Leo VI, *Les Nouvelles*, 282, n. 4.

Leo VI, *Les Nouvelles*, 282-83; Toynbee, *Constantine* (١١)

Porphyrogenitus, 147-48.

صغار المزارعين الاحرار في الموافقة على البيع او رفضه بالنسبة لآى عقار زراعى يقوم أحد صغار المزارعين بعرضه للبيع . فقد أعطى هذا القانون الفلاح الذى بملك قطعة صغيرة من الارض الزراعية والتي قام بدفع ضرائبها بانتظام ، حرية غير مقيدة في بيع أرضه . كذلك قرر ليو السادس ان الفترة التي يكون فيها من حق جيران البائع تسره الارض الزراعية واسندادها من مشتريها بالثمن الذى دفعه المشتري (حق الشفعة) ، يجب أن تحدد بفترة السنة اشهر الأولى من السنة الأولى من تاريخ حدوث البيع . (١٢)

ولقد دافع ليو السادس عن هذا اللقيد الخطير الذى فرضه على الحنفى التاريخي الخاص بالموافقة على عملية البيع او رفضها ، على أساس أن هذا الحق قد يساء استعماله . فجيران من يريد البيع قد يستطيعون استعمال حقهم في الاعتراض ويرفضون بالتالى عملية من أجل تأخير البيع حتى يجبروا البائع على أن يبيع لهم بثمن بخص . وإن هذا صحيح الى حد بعيد ، ولكن الباحث يميل الى الاعتقاد أن الامبراطور بادعاء تأمين سعر مناسب لأرض من يريد البيع ، كان في حقيقة الامر مهتما بمصلحة الرجل القوى والغنى الذى قد يكون في منافسة مع مجتمع القرية من أجل الحصول على أرض البائع . (١٣)

على أية حال ، أدت تشريعات ليو السادس سابقة الذكر الى فتح الطريق أمام الاقوياء وكبار الملاك واستطاعت هذه الطبقة القوية للتسلل الى مجتمعات صغار المزارعين الاحرار وعملت على القضاء عليها . كذلك أدت انتصارات الجيوش البيزنطية على الجبهة الشرقية ضد المسلمين الى أن أصبح الاستعمار في مجالى الارض الزراعية والرعية آمنا بعد زوال خطر الاغارات الاسلامية . واخيرا أدت شدة قسوة شتاء سنة ٩٢٧ م / سنة ٩٢٨ م والمجاعة التي اعتبته الى وقوع أضرار جسيمة في مجتمعات صغار المزارعين . فالمجاعة سببت تناقضا اجتماعيا خطيرا في الاقاليم ، وكانت الأحوال غاية في السوء ، لدرجة أن

Leo VI, *Les Nouvelles*, 376.

(١٢)

Toynbee, *Constantine Porphyrogenitus*, 148.

Mitard, *Le Pouvoir Impérial*, 217-23.

ولنظر ايضا :

صفار المزارعين اضطروا الى بيع اراضيهم بأقل من نصف قيمتها . وهكذا أصبح التهديد من جانب طبقة الأقوياء خطيرا على مجتمعات صفار المزارعين الأحرار . واضطرت الحكومة المركزية لإصدار تشريعات استهدفت حماية صفار المزارعين الأحرار وملكياتهم من جشع كبار الملاك والهيئات الدينية .

إن النصوص التي وصلت الى أيدينا هي نصوص لخمس عشرة وثيقة تتناول مشكلة الأرض وملكياتها ، ومحاولات الحكومة البيزنطية حماية طبقة صفار المزارعين الأحرار في الأقاليم . ومن هذه الوثائق ثلاث عشرة وثيقة أصدرها الإباطرة ، وإن كانت واحدة منها عبارة عن قرار صاغه أحد موظفي الإدارة الإمبراطورية في عهد الإمبراطور رومانوس الثاني Romanos II لمعالجة حالة وقعت في أحد اللثيمات وقام قاضي اللثيم بعرضها على الإمبراطور طلبا للرأى . أما الوثيقتان الأخريتان فهما عبارة عن شهادتين صادرتين من قبل الحكومة البيزنطية . وإن أقدم هذه الوثائق هي تلك الوثيقة المؤرخة بسنة ٩٢٢ م ، أما أحدثها فهي الوثيقة المؤرخة بعام ٩٦٦ م . كذلك تبدنا نصوص الوثائق بمضمون المرسوم الصادر سنة ١٠٠٣ م / سنة ١٠٠٤ م (١٤)

(١٤) نشرت هذه الوثائق الخمس عشرة أول الأمر في المجموعة المعروفة
Jus Graecoromanum, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal, باسم :
7 Vols. (Leipzig, 1857), in III, 220-318.

ثم أعيد نشرها مرة أخرى بعد ذلك في المجموعة المعروفة باسم :
Jus Graecoromanum, edd. J. and P. Zepos, vols.
(Athens, 1931), in I, 193-270.

والجديد بالذكر أن سفورونوس N. G. Svoronos الأستاذ بجامعة
باريس (Ecole Pratique des Hautes Etudes) يعمل حاليا على نشر هذه
الوثائق مع التقديم لها بدراسة تحليلية .

وللمزيد عن هذه التشريعات التي صدرت في القرن العاشر الميلادي
Testaud, Puissants ; Ferradou, Monastères; Gaignerot, انظر :
De bénéfices.

وعلى الرغم من أن هذه المؤلفات الثلاثة قديمة إلا أن النتائج التي تم

والجدير بالذكر أن مدى صحة تقدم تلك الوثائق منسوبة إليها، هذا إذا كان التاريخ
 المنسوب إليها في النص وبالشكل الذي وصل إلينا صحيحاً (١٥) ، فالتاريخ
 الذي تؤرخ به الوثيقة هو أبريل سنة ٩٢٢ م ، وهو في تقدير بعض المؤرخين
 تاريخ مبكر على الأحداث التي سببت المشكلة الاقتصادية الاجتماعية التي نتجت
 عن مجاعة سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م (١٦) وإذا قرأنا نصوص جميع الوثائق
 الخمس عشرة ، فسيتضح لنا أن تاريخ أقدم وثيقة ليس سنة ٩٢٢ م كما
 هو مدون بالفعل فيها بل يجب أن يكون سنة ٩٢٨ م / ٩٢٩ م . فمثلاً
 يلاحظ أن الما جستير ثيودور نيكابوليت *Theodoros Dekapolites*
 وهو موظف الأمانة الإمبراطورية الذي صاغ قرار الإمبراطور رومانوس الثاني
 (٩٥٩ - ٩٦٣ م) لعلاج حالة وقعت في أحد اللجيمات وقام قاضي اللجيم بعرضها
 على الإمبراطور طلباً للرأي - يقول : أن قانون قسطنطين السابع الصادر
 في مارس سنة ٩٤٧ م قد طبق بآثر رجعي يعود إلى عام المجاعة سنة ٩٢٧ م /
 ٩٢٨ م وهو التاريخ الذي بدأت منه سلسلة التشريعات التي تناولت ملكية
 الأرض « (١٧) ويذكر ديكابوليت في نفس الوثيقة أن هناك فترة تمتد
 ثمانية عشر عاماً بين قانون قسطنطين السابع الصادر في مارس سنة
 ٩٤٧ م وبين أول تشريع لإمبراطور تناول ملكية الأرض في القرن العاشر
 الميلادي (١٨) وبحساب سريع ينضح أن تاريخ صدور القانون الأول
 لرومانوس ليكابينوس هو عام سنة ٩٢٨ / ٩٢٩ م .

= لا توصل إليها لاتزال صحيحة ولها قيمتها . كذلك انظر أيضاً الدراسات
 الهامة التالية :

- Ostrogorsky, Pre-Emption Right, 117-26;*
Ostrogorsky, Stevergemeinde, 1-108; Charanis, Monas-
tic Properties, 51-118; Danstrup, Landed property,
22-62; Bach, Lois Agraires, 70-71;
Andreades, Petite Propriete, 261-66 ; Setton, Land
Tenure, 225-59; Svoronos, Synopsis, 143-55
J. G-R., III, 234-41.
Toynbee, Constantine Porphyrogenita, 148.
J. G-R., III, 282.
J. G-R., III, 284.

(١٥)

(١٦)

(١٧)

(١٨)

أكثر من هذا ، ففي مقدمة قانون باسيل الثاني رقم ٢٩ وللصادر في أول يناير سنة ٩٩٦ م ما يشير الى أن القانون الأول للامبراطور رومانوس ليكابينوس قد صدر في سنة ٨٢٨ / ٩٢٩ م . (١٩)

على أية حال ، اذا كان ما ورد في قرار رومانوس الثاني الذي صاغه الموظف الامبراطوري ثيودور ديكابوليت في التشريع رقم (١٥) ، وما ورد في افتتاحية تشريع باسيل الثاني رقم (٢٩) صحيحا ، فان هذا يعنى أن القانون رقم (٥) الصادر في سبتمبر سنة ٩٣٤ م باسم الاباطرة : رومانوس ليكابينوس قسطنطين السابع وستيفن Stephen وقسطنطين (ولدا رومانوس ليكابينوس) لا يمكن أن يكون هو القانون الأول . فتاريخ أول التشريعات التي تناولت الملكية الزراعية في القرن العاشر الميلادي يجب أن يكون سنة ٩٢٩ م ، فهذا التاريخ هو التاريخ الممكن والافضل للقانون رقم (٢) الذي صدر باسم الاباطرة : رومانوس ليكابينوس قسطنطين السابع ، وكريستوفر Christopher (ابن رومانوس ليكابينوس) . فهو ممكن لان كريستوفر كان امبراطورا مشاركا ربما من مايو سنة ٩٢١ م وحتى اغسطس سنة ٩٣١ (وهو تاريخ وفاته) . وهو التاريخ الافضل لان سنة ٩٢٩ م سنة قريبة لوقت حدوث المجاعة في عام سنة ٩٢٧ م / بشكل واضح جعل الماجستير ثيودور ديكابوليت يذكر قوله السابق بأن سلسلة التشريعات التي تناولت ملكية الأرض في القرن العاشر الميلادي بدأت منذ تاريخ المجاعة . وان سنة ٩٢٩ م هي تاريخ محتمل أيضا لسبب آخر ، فمن غير المرجح أن ينتظر الامبراطور رومانوس ليكابينوس مدة ست سنوات من ربيع سنة ٩٢٨ م حتى خريف سنة ٩٣٤ م قبل أن يتخذ أى إجراء يتصدى فيه للمشكلة التي تقتصر كل شيء في وقت المجاعة نفسها . وعلى هذا ، فان للقانون رقم (٢) المؤرخ بسنة ٩٢٢ م صحيح في مضمونه ولكن تاريخه بعام ٩٢٢ م خطأ والصحيح تاريخه بعام ٩٢٩ م . (٢٠)

لقد ابتداء الامبراطور رومانوس ليكابينوس التشريعات التي تناولت الملكية الزراعية في القرن العاشر الميلادي باصداره لهذا القانون رقم (٢) والذي

J. G-R. III, 308.

(١٩)

JG-R., III, 234-41.

(٢٠) انظر نص هذا التشريع في :

صدر باسم الإمبراطرة رومانوس ليكايفيخوس ، قسطنطين السابع ، وكريستوفر . وكان هدف هذا القانون - الذى رجحنا تاريخ صدوره فى سنة ٩٢٩ م - هو التخلّص من التناقص الموجود بين قانونين أولهما يقضى بأن الفلاح يجب ألا يعاقب أو توضع أمامه للمقبات من قبل أقاليمه أو شركائه إذا قرر أن يبيع أرضه لى فرد يختار . والقانون الآخر الذى يمنح الفلاح من بيع أرضه لى فرد باستثناء مواطنين من قريته .

ولقد أكد هذا القانون على نقاط ثلاث : (١) حق الشفعة لصغار المزارعين فى حالة بيع أراضي صغار مزارعين آخرين . (٢) قطع الأرض الممنوحة للجنود والمعروفة باسم *Stratitika Ktemata* أرض ممنوع التصرف فيها . (٣) العمل على إبعاد كبار الملاك بعيدا عن مجتمعات القرى التى لا يمتلكون فيها أراضي بالفعل .

ولقد أعطى هذا القانون أفضلية لخمس مجموعات من طبقة صغار المزارعين لشراء أراضي مزارعين من نفس طبقتهم ، وهم بالترتيب : أولا ، الأقارب الذين تتداخل أراضيهم مع أرض من يريد البيع ، أو أولئك المتضامنين مع من يريد البيع فى دفع ضرائب جماعية . ثانيا ، الشركاء الذين تربطهم بهن يريد للبيع روابط مشابهة . ثالثا ، الأشخاص الذين تتداخل مصالحهم فقط دون أن تربطهم أية روابط قرابة بمن يريد البيع . رابعا ، الأشخاص غير البعيدين عن يريد البيع ويمكن تحديدهم بأنهم أولئك الأشخاص المسجلين فى قائمة جابى الضرائب للولد . خامسا ، الأفراد الذين يشتركون مع من يريد البيع فى جزء من ملكيته .

والجدير بالذكر أنه إذا أراد واحد أو أكثر ممن يفتقون لهذه المجموعات الخمس أن يشتري الأرض المعروضة للبيع ، فعليه أن يدفع خلال ثلاثين يوما الثمن المأل أو ما يعرضه من يريد الشراء بحسن نية . فإذا لم يقدم أحد ممن يفتقون لهذه المجموعات الخمس على شراء الأرض المعروضة للبيع فإنه

يمكن في هذه الحالة أن يتقدم أحد كبار الملاك لشراؤها بشرط أن يكون مالكا لعقار زراعي في نفس مجتمع القرية بالفعل .

ولقد نص القانون أيضا على أن الأراضي العسكرية *Stratitika Ktemata* (٢١) ممنوع التصرف فيها ، وأن الأراضي التي انتقلت ملكيتها خلال فترة الثلاثين عاما التي سبقت إصدار القانون أو إذا انتقلت ملكية أرض عسكرية في المستقبل فأنها يجب أن تعود إلى صاحبها الأول دون رد المبلغ الذي تم دفعه عند الشراء ودون أي تعويض .

كذلك حرم القانون على كبار الملاك (الأقوياء) قبول أي منح أو عطايا في شكل أرض زراعية من الفقراء (الضعفاء) إلا إذا ربطتهم صلة قرابة واضحة .

يمكن القول أن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس قد مس المسائل الحيوية ، فقد حاول الاحتفاظ بمجتمع القرية الحر (وهو المصدر الرئيسي للضرائب) كما حاول الاحتفاظ بالأراضي العسكرية في حوزة الجند وأسرهم حتى تقوّم

(٢١) يظهر اصطلاح *Stratitika Ktemata* في نصوص التشريعات التي تناولت الملكية الزراعية في القرن العاشر الميلادي ، فقد ورد في القانون رقم (٢) الذي أصدره الإمبراطور رومانوس ليكابينوس سنة ٩٢٩ م (كما سبقت أن رجحنا X ، كما يظهر بوضوح في القسم الأول من القانون رقم (٧) الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين السابع والذي لا يحمل تاريخا محددا وإن كنا نرجح صدوره في أواخر عهد قسطنطين السابع . انظر : J G-R., III, 237, 241, 261-6.

والجدير بالذكر أن *Stratitotes* هو مالك قطعة من الأرض العسكرية ، وعليه الالتزام بتقديم جندي مقاتل تحت السلاح . ويجب أن يكون *stratitotes* أي مالك العقار الزراعي هو نفسه الجندي المقاتل ، فإذا تحزن ذلك فعليه أن يمول نفقات الاحتفاظ بجندي آخر من أفراد أسرته . انظر :

Ahrweiler, *Recherches*, 13; Antoniadis-Bibicou, *Études*, p. 101.

لكل أسرة مورد كافيا لتغطية نفقات جندي مقاتل تحت السلاح (وهو أساس جند الثيمات) . ويلاحظ أن كل التشريعات التي صدرت بعد ذلك في للقرن العاشر الميلادي قد تناولت بالتكرار والتعديل هذه المسائل الحيوية .

على اية حال ، بعد صدور القانون الأول الذي تناول ملكية الأرض في القرن العاشر الميلادي والذي رجحنا صدوره في السنة التي تلت مجاعة سنة ٩٢٧ / ٩٢٨ م مباشرة ، سرعان ما اضيف اليه تشريع آخر . ويتعلل هذا للتشريع الجديد في القانون رقم (٥) للصادر في سبتمبر سنة ٩٣٤ م ، (٢٢) والذي صدر باسم الأباطرة : رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، وسستيفن Stephen وقسطنطين (ولدى رومانوس ليكابيتوس) . (٢٣)

ولقد نصت مقدمة هذا القانون الجديد على أن الهدف من اصداره هو تصحيح انتهاكات ومخالفات معينة وقعت حديثا ، فضلا عن ذلك وضع علاج شامل ودائم للمشاكل المتعلقة بالأرض وملكيتها ، والعمل على سد الثغرات الموجودة في التشريعات السابقة . كما نص القانون على أن كل مالك لأرض زراعية له الحرية كاملة في التصرف في أرضه . فإذا حدث نقل جزئي أو شامل للملكية الزراعية ، أو إذا أعلن أحد صغار المزارعين عن رغبته في بيع أرضه ، فيصبح لسكان نفس القرية التي تقع فيها الأرض المعروضة للبيع أو لسكان القرى المجاورة حق شراء تلك الأرض . ويحرم على فئات معينة التمسك إلى مجتمع المزارعين الأحرار أو مجتمع القرية تحت أي ادعاء . والفئات المنوطة

(٢٢) انظر نص هذا القانون في : J G-R., III, 242-52.

(٢٣) تم تعيين ولدى الإمبراطور رومانوس ليكابيتوس إمبراطورين مشاركون في حياة والدهم ، تماما كما حدث مع كريستوفر Christopher من قبل . للمزيد عن الظروف التي تم فيها تعيين كلا من ستيفن Stephen وقسطنطين إمبراطورين مشاركين وتاريخ هذا الحدث ، انظر : George, Mon. Cnt., 902; Leo Grammaticus, 314; Theoph. Cont., 409; Pseudo-Symeon, 739.

من دخول مجتمعات المزارعين الأحرار هي : البطارقة Patrikioi أو كز
من يحمل لقب ماجستير Magistroi ، والموظفون المدنيون : وقواد الثيمات
وغيرهم من القادة العسكريين والموظفين المدنيين في الثيمات ، وأعضاء مجلس
الشسيوخ Senators ، وكل من يشغل في الماضي أو يشغل في الحاضر أية
مناصب رسمية في الثيمات ، المطارنة ورؤساء الاساقفة والاساقفة ومقدمي
الأديرة وغيرهم من كبار رجال الدين ، وكل الذين يتولون إدارة العقارات
التابعة للكنيسة أو التاج سواء بصفتهم الرسمية أو الشخصية • (٢٤)

لاشك أن هذه الفئات التي عددها القانون هي الفئات التي كانت تمتلك
المال والنقود والتي كانت تكون طبقة الأموية dynatoi .

وكما يتضح من القانون فإن أي فرد من طبقة الأفياء ، الذين حسد
القانون فئاتهم بوضوح ، يقوم بالاستيلاء أو بشراء أراض مملوكة لصفار
المزارعين الأحرار ، أو يستولي على قرية مملوكة لمجتمع صفار المزارعين الأحرار
(مستغلا محنة المجاعة وما صاحبها وتلاهما من مصاعب) فإن عليه أن يعيد
الأرض إلى مالكها الأصلي الذي عليه بالطبع أن يرد المبلغ الذي قبضه من
المتسرى • فإذا كان هذا المالك الأصلي فقيرا ، فإنه يمنح فترة سماح مدتها
ثلاث سنوات لتدبير المال الذي يجب رده إن اشترى منه الأرض • ويلاحظ
أنه في هذه الحالة يكون خروج المتسرى من الأرض بعد ثلاث سنوات أيضا •

ولكن إذا كان المبلغ الذي تم دفعه عند الشراء منخفضا بشكل واضح
أو إذا كان يقل عن نصف الثمن الحقيقي للأرض ، ففي هذه الحالة تعود الأرض
إلى صاحبها الأصلي دون أي رد للمال الذي تم دفعه عند الشراء ودون دفع
أية تعويضات أيضا •

(٢٤) عن قائمة الفئات الممنوعة من التسلل إلى مجتمعات المزارعين الأحرار ،
J G-R, III, 246. : نظر القسم الأول من القانون رقم (٥) في :

ولذا قام أى فرد من طبقة الأثرياء فى المستقبل بمخالفة هذا القانون فإن عليه أن يرد ما استولى عليه دون أن يسترد ما دفعه من مال عند الشراء ودون أية تعويضات • وإذا ثبت أن المخالفين لهذا القانون فى المستقبل من بين الفئات التى سبق تحديدها ، فإن عليهم أن يدفعوا للخزانة الامبراطورية غرامة اضافية تعادل قيمة الأرض •

ولقد ختم الامبراطور رومانوس ليكابينوس قانونه بالكلمات التالية :
« انفسا لم نترك سعيًا دون أن نغفله من أجل تحرير الاقاليم والقرى والمدن من العدو • لقد بذلنا قصارى جهننا وحاولنا بكل قوتنا أن نحسرو رعايانا من هجمات الاعداء فى الخارج • والآن وبعد أن حققنا تلك الانتصارات العظيمة ووضعنا نهاية لاعتداءات الاعداء فى الخارج فمأذا نحن فاعلون تجاه عدونا فى الداخل ؟ ومن يجوز ألا نتصدى له بكل عنف ؟ » • (٢٥)

على أية حال ، فى ضوء التفصيلات الواردة فى هذا القانون ، فإن الباحث يجد نفسه مدفوعا الى الاعتقاد بأن المجاعة لابد وأن تكون قد حبت تناقضا اجتماعيا خطيرا فى الاقاليم • فالأحوال كانت على درجة كبيرة من السوء حتى أن صغار المزارعين اضطروا لبيع أراضيهم بأقل من نصف قيمتها • وحتى أولئك الذين باعوا بأمان معقولة أى باكثر من نصف قيمتها الحقيقية ، فقد أصبح عليهم بموجب هذا القانون أن يعيدوا تلك الأموال الى المشتري الاصلى خلال ثلاث سنوات • ومن المحتمل أن العديد من الفلاحين لم يستطيعوا الوفاء بالمبلغ فى للفترة المحددة • ومن المحتمل أن هذا القانون الثانى مثله مثل القانون الأول (الذى أصدره رومانوس ليكابينوس والذى رجحنا تاريخه بعام ٩٢٩ م) لم يطبق بنفس التشدد الذى نجده فى نص القانون • وعلى هذا فإن مساحات ضخمة من الأرض التى استولى عليها الأثرياء خلال فترة المجاعة التى أصابت بيزنطة فى سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م لابد وأن تكون قد بقيت فى حيازة الأثرياء • (٢٦)

J G-R., III, 252.

(٢٥)

Ostrogorsky, Agrarian Conditions, 206.

(٢٦)

وان للدليل على ان هذا القانون الثانى الذى أصدره الامبراطور رومانوس ليكابينوس لم ينفذ بشكل دقيق ، هو قيام الامبراطور قسطنطين السابع (٢٧) باصدار قانون آخر هو القانون رقم (٦) الصادر فى مارس ٩٤٧ م . (٢٨) ولقد قدم قسطنطين قانونه بمقدمة تضمنت فقرة انتقدت جشع وأطماع الأتقواء dynatoi ، قال فيها :

« لقد نما الى علم جلالنا ان الأتقواء فى شتى تراقيا Thrakesion والأناضول قد نظروا بازدراء الى القانون الامبراطورى . . . ولم يتوقفوا عن التغفل والتسلل الى القرى عن طريق الشراء والانعح والعطايا والميراث ، وعن طريق تلك الادعاءات تسببوا فى هجرة الكثيرين الذين هجروا ممتلكاتهم ، وهؤلاء هم الفقراء ضحايا طغيان الأتقواء » . (٢٩)

ولقد استنورد قسطنطين السابع فى شرح الأسباب التى دفعته الى إصدار ذلك القانون . ولم يكتف الامبراطور باتهام طبقة الأتقواء بتهمة عدم تنفيذ التشريعات السابقة وإصرارهم على مخالفة القانون ، بل تطرق ايضا الى

(٢٧) أصدر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩ م) قانونه فى سنة ٩٤٧م بعد ان أصبح امبراطورا منفردا . والمفروض ان قسطنطين السابع لم يكن راضيا عن حرمانه من السلطة الحقيقية فى تصريف شئون الامبراطورية وهى السلطة التى تمتع بها رومانوس ليكابينوس واولاده طوال الفترة الممتدة من ٩٢٠ م وحتى سنة ٩٤٤ م . وعندما قام على والدهم وعزله بالفعل فى نهاية سنة ٩٤٤ ، تحرك الامبراطور قسطنطين السابع بتشجيع من زوجته ملين (ابنة رومانوس ليكابينوس) وقام بدوره بعزل ستيغن وقسطنطين شقيقى زوجته . وبهذه الضربة الموفقة أصبح قسطنطين السابع امبراطورا منفردا بعد ان ظل محتجبا عن السلطة الفعلية قرابة ستة وعشرين عاما .
عن مؤامرة ستيغن وشقيقه ضد ابيهم رومانوس ، وعن استنرداد قسطنطين السابع لسلطانه كاملا انظر :

Kedrenos, II, 324; Zonaras, III, 481.

J. G-R., III, 252-53.

(٢٨) انظر نص القانون فى :

J G-R., III, 252-56.

(٢٩)

أن القضاة أصبحوا الآن واقعين تحت ضغوط عنيفة كي يصدروا أحكاما في حالات تتعلق بملكية الأرض الزراعية • وبناء على ذلك ، قرر قسطنطين السابع أن الأراضي التي استولى عليها الأتقواء منذ عام المجاعة (٩٢٧ / ٩٢٨ م) وحتى سنة ٩٤٥م - وهي السنة التي أصبح فيها قسطنطين السابع امبراطورا منفردا - يجب أن تعود إلى اصحابها الأصليين • فاذا كان صاحب الأرض الأصلي (المزارع الصغير الحر) قد باع قطعة صغيرة من الأرض الزراعية التي لا تزيد قيمتها عن خمسين نوميسما إلى أحد الأتقواء الاغنياء فيجب على هذا المزارع أن يسترد أرضه دون أن يرد المبلغ الذي تم دفعه ثمنا لهذه الأرض ، ودون دفع أية تعويضات • اما اذا كان صاحب الأرض الأصلي ليس فقيرا الى هذه الدرجة ، ف عليه أن يسترد أرضه بعد أن يعيد المال الذي قبضه ثمنا لهذه الأرض في فترة لا تتجاوز ثلاث سنوات •

اما اذا كان المزارع الحر ضحية لاستعمال القوة لاجباره على بيع أرضه ، فله أن يسترد أرضه دون أن يرد المبلغ الذي دفعه ثمنا لهذه الأرض ، ودون دفع أية تعويضات ، حتى وإن كان المشتري لا ينتمي لطبقة الأتقواء •

كذلك قرر قسطنطين السابع أن حق التسفعة الخاص بالمزارعين الأحرار في حالة بيع أراضي مزارعين أحرار آخرين ، كما شرع رومانوس ليكابولوس ، قد اتسع مفهومه الآن ليشمل أيضا حالات بيع أراضي تخص طبقة الأتقواء (٣٠) وفي قانون آخر أصدره الامبراطور قسطنطين السابع ، وهو القانون رقم (٧) غير المؤرخ بتاريخ محدد ، تناول الامبراطور بصفة خاصة الأراضي العسكرية • (٣١)

(٣٠) انظر للنص الكامل لهذا القانون في : JG — B., III, 252—66
(٣١) من المعروف أن القانون رقم (٧) هذا ، قام بصياغته أحد موظفي الإدارة الامبراطورية وهو المدعو ثيودور ديكابوليت Theodoros Dekapolites ومن المرجح أن هذا القانون قد صدر قرب نهاية عهد الامبراطور قسطنطين السابع ، لأن هذا الموظف ثيودور ديكابوليت هو الذي صاغ بعد ذلك القرار في الحالات التي طلب فيها احقضاة التثيمات للأرض • وكان القرار الذي صاغه ثيودور هذا هو القانون الذي يحمل رقم (١٥) والذي صدر في عهد ابن قسطنطين

==

وجعير بالذكر أن مقدمة للقانون رقم (٧) ، الصابر في عهد الامبراطور قسطنطين السابع والذي صاغه ثيودور ديكابوليت ، تسجل أن اوضاع الجند في التميمات قد تدهورت . وربما لهذا السبب اعتم هذا القانون بالاراضى العسكرية Stratiotika Ktemata (٣٢) .

ويلاحظ ان الامبراطور قسطنطين السابع في قانونه رقم (٧) قد اعطى قود القانون (للمرة الاولى) لعرف غير مكتوب كان يمنع ملاك الاراضى العسكرية من بيع قطع الأرض الممنوحة لهم من أجل توفير نفقات جندى مقاتل تحت السلاح . (٣٣) ولقد حدد الامبراطور في هذا القانون قيمة قطعة الأرض التى تشكل الحد الأدنى لما هو ممنوع التصرف فيه . فحدد القيمة بأربعة ارباطل من الذهب كحد أدنى لتوفير نفقات فارس مقاتل ، ولتوفر نفقات البحار العامل في اساطيل التميمات البحرية الثلاثة (٣٤) . ولكنه حدها برطلين فقط لتوفير نفقات البحار العامل في الاسطول الامبراطورى لانه في هذه الحالة الاخيرة يستكمل البحار المال اللازم لنفقاته من دخل نقدى ثابت تدفعه له الخزنة الامبراطورية . (٣٥)

ولقد نص القانون على أن تسجيل الأرض العسكرية في قوائم التتمجيل يعنى انها أصبحت أرضاً ممنوع التصرف فيها حتى ولو كانت قيمتها تفوق الحد الأدنى الذى يجب أن يحتفظ به الجندى لتوفير نفقاته من سلاح وملبس وماكل . الخ .

انسابع وخليفته على العرش رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣ م) . ويلاحظ أن كلا القانونين رقم (٧) ، ورقم (١٥) يتناولان الحالة السيئة التى أصبح عليها جند التميمات ، انظر :

Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 155.

(٣٢) انظر نص هذا القانون رقم (٧) في : J G-R., III, 261-66.

Lemerle, Esquisse, 266; 47, n. 2.

(٣٣)

(٣٤) اساطيل التميمات البحرية الثلاثة هي اساطيل : ثيم كبيراهايوت

Cybrahaeote ، ثيم البحر الايجى Aigaion Pelagos ، ثيم ساموس

Samos

J G-R., III, 262.

(٣٥)

أما بالنسبة للأراضي العسكرية التي تزيد قيمتها عن الحد الأدنى الممنوع التصرف فيه والتي لم يتم تسجيلها ، فيمكن نقل ملكيتها بشروط • فمثلا إذا كانت قيمة الجزء المسجل من أرض من يريد البيع نقل عن الحد الأدنى الممنوع التصرف فيه ، فعلى من يشتري الجزء غير المسجل أن يكمل قيمة الجزء الممنوع التصرف فيه من أرض البائع حتى يصل إلى الحد الأدنى وذلك بأن يضيف إليه المساحة الضرورية •

أما إذا كانت الأرض العسكرية غير مسجلة بالكامل ، ففي هذه الحالة يحرم على المالك أن يبيع أحسن أجزاء أرضه التي تساوي قيمتها أربعة أرواق من الأذرع •

كذلك نص القانون على أنه ليس من حق أي فرد أن يشتري الأرض العسكرية ، فلا يجوز لأولئك المختصين لطيفة الإقواء شراء الأراضي العسكرية وأن المخالفين لهذه القاعدة سوف يفقدون أية أرض عسكرية قاموا بشراؤها دون أن يستردوا ما تم دفعه ثمناً لها •

كذلك خد هذا القانون أن ملكية الأراضي العسكرية تصبح حقا مشروعا في حالة مرور فترة أربعين عاما على امتلاكها دون أن يقوم عليها نزاع •

كما تضمن القانون المخالفات التي تدبر قواد الثيمات والعقوبات المفروضة في هذا الصدد • ومن أمثلة تلك المخالفات قيام قواد الثيمات بأخذ رشاوى مقابل ترك جنودهم بعيدا عن الخدمة العسكرية • ولنتهك قواد الثيمات لحق الجند في المعاملة الحسنة وذلك بمعاملتهم مثل الاقنان ، وقيامهم بالاستيلاء على أراضيهم العسكرية المخصصة للانفاق عليهم • الخ • (٣٦)

وكما سبق أن أوضحنا ، يلاحظ أن القانون الأول الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين السابع (القانون رقم ٦) الصادر في مارس ٩٤٧ م) كان موجها على وجه الخصوص لثيمي ترلقيا والناضول • ففي هذين الثيمين كانت تمنح الضياع والممتلكات الكبيرة لعائلات إقطاعية مثل عائلات : سكليروس Skleros أرجيروس Argyros موزل Musele ، بورتزيس Bourtzis

بوتانياتس Botaniates وغيرها • وعلى هذا فيجب ألا ندهش حين نسمع عن وقوع مخالفات كبيرة للتشريعات الخاصة بملكية الأرض في حين الثيمين ولم تكن مخلفات وانتهاكات القانون قاصرة على مدين للثيمين فقد اصدر الامبراطور قسطنطين السابع مرسوما يقضى بأن كل التشريعات يجب أن تطبق على كل الثيمات • (٣٧)

ومن الواضح أن الاجراءات القانونية لم تكن كافية لكبح جماح الاقوياء والحد من اطماعهم • ومن هنا كانت الحاجة الى اعادة اصدار وتكرار القوانين • ويلاحظ أن قسطنطين السابع قد ذكر في قانونه للتضامن المرتشين وهم تلك الفئة من الناس التي وقعت على عاتقها مهمة تطبيق القوانين الامبراطورية • لقد كان شيئا جسيما أن تصدر القوانين ولكن اذا كان تطبيقها بهذا الفساد الذي اشار له قسطنطين فإن تلك القوانين كان مقدرا لها الفشل بالتأكيد • وبالإضافة الى كل ما سبق يلاحظ أنه مع سقوط أسرة ليكابينوس ، اضطر قسطنطين السابع الى الاعتماد على عائلة فوقاس Phokas القوية التي كانت عدوا لعدوا لرومانوس ليكابينوس • لذلك فالباحث لا يندهش حين يعلم أن العديد من نصوص قوانين قسطنطين السابع لم تنفذ أبدا • ويجب ألا ننسى أن الضغط الذي مارسه الأقوياء على الحكومة المركزية وعلى ممثليها كان أكبر من أن يسمح بتنفيذ القانون حرفيا •

على أية حال ، قام خليفة قسطنطين السابع ، ابنه الامبراطور رومانوس الثاني (٩٥٩ - ٩٦٣ م) بالسير على نفس السياسة الخاصة بملكية الزراعية، فقد اصدر قانونين خلال فترة حكمه القصيرة جدد فيهما القيود التي وضعها اسلافه لمواجهة مظاهر كبار الملاك • وكان أحد مدين للقانونين هو ذلك التشريع الذي صاغه الموظف الامبراطوري ثيودور نيكبوليت والذي يحمل رقم (١٥) والذي يتناول علاج حالة وقعت في أحد الثيمات وقام قاضي للثيم بعرضها على الامبراطور طلبا للرأى • (٣٨) أما التشريع الآخر فهو القانون رقم (١٦)

J G-R., III, 253.

(٣٧)

J G-R., III, 282-84.

(٣٨)

الذى امر الامبراطور رومانوس الثانى باصداره فى مارس سنة ٩٦٢ م • (٣٩) والمعروف ان هذا للقانون كان موجها اساسا للسلطات فى ثيم ترلقيا الذى كان مسرحا لمخالفات مطيعة خطيرة • ويبدو ان طبقة الاقوياء كانت سريعة فى استيلائها على اراضى صغار المزارعين الأحرار فى هذا الثيم ، بسبب هذه الأوضاع المتدهورة قام الامبراطور قسطنطين السابع من قبل باصدار قانونه رقم (٦) فى سنة ٩٤٧ م • (٤٠)

لاشك ان التشريعات التى أصدرها كل من رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، ورومانوس الثانى بخصوص الارض وملكيتهما تتميز بسمعة تظهر بوضوح فى نصوص تلك القوانين الستة التى أصدرها • لقد كان الهدف الاساسى لهذه التشريعات هو :

أولا : العمل على مساعدة صغار المزارعين الأحرار لاسترداد اراضيهم التى انتقلت ملكيتها الى من ينتمون لطبقة الاقوياء ، وخصوصا تلك الاراضى التى تدخل فى نطاق الاراضى العسكرية • وذلك كي يحتفظ المزارع الحر بقيمة

J G-R., III, 285-87.

(٣٩)

(٤٠) كان ثيم ترلقيا فى غرب آسيا للصغرى خصبا شهد ازدهارا زراعيا فى الماضى ، الا انه تعرض منذ منتصف القرن السابع الميلادى للتدمير بسبب الهجوم البحرى الذى امر به للخليفة الاموى معاوية بن ابي سفيان فى الفترة من ٦٤٩ - ٦٦٨ م • كذلك تعرض هذا الاقليم للتخريب بعد ذلك بسبب اغارات مسلمى اسبانيا المستقرين فى جزيرة كريت منذ سنة ٨٢٨ م • وفى سنة ٩٤٧ م كان ثيم ترلقيا لا يزال معرضا لمثل تلك الهجمات ، والمعروف ان الحملة التى ارسلها الامبراطور قسطنطين السابع لاسترداد جزيرة كريت سنة ٩٤٩ قد فشلت • واخيرا استطاع نفقور فوقاس فى حملة سنة ٩٦٠ م - ٩٦١ م فتح مدينة كانديا Candia (فى مارس ٩٦١ م) وطرد المسلمين من الجزيرة التى ضمها للكيان الامبراطورى • ويرى الباحث انه يمكن ان نفترض حدوث انفتاح سريع لشراء الارض فى ثيم ترلقيا بمجرد ان اصبح هذا الثيم ذو الارض للخصبة مامونا للاستثمار بعد ان استرجعته بيزنطة •
عن استرداد بيزنطة لجزيرة كريت لنظر .

Theoph. Cont., 473-81. and 480-81.

لحد الأدنى التي تم تقديرها للاحتفاظ بجندى مقاتل تحت السلاح ، والعمل على منع نقل ملكية مثل تلك الاراضى فى المستقبل .

ثانيا : العمل على تجنب الحاق المزيد من المصاعب والاضرار باولئك الاشخاص الذين اشعروا ارض بوسائل شرعية والذين اصبحت عليهم الآن ان يعيئوها الى ملاكها الاصليين ، وخاصة فى تلك الحالات التى يكون فيها هؤلاء المشترين الجدد انفسهم من غير الاثرياء .

ولكن ما ان افتتحت عهد رومانوس الثانى حتى تغيرت سياسة الحكومة البيزنطية للرسمية بشكل جذرى ولعدد من السنوات التالية ، فقد اعتصب التاج لشان من طبقة الاثرياء هما نففور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) وبوحنا تزيمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦ م) ، وكان اغتصاب نففور فوقاس للعرش هو اولى انتصار للاستقرالية العسكرية فى صراعها مع الحكومة المركزية . لقد كان نففور اعظم ابناء اسرة فوقاس التى تعد بحق من اعظم أسر الاستقرالية العسكرية فى آسيا الصغرى . فهذه الاسرة التى سيطرت على الجيش لفترة طويلة ، كانت تملك للضياع الشاسعة فى قبدوقيا . (٤١)

وعلى هذا كان من الطبيعى ان يقوم ابناء هذه الطبقة بوضع الاجراءات التشريعية فى خدمة مصالحها بمجرد الاستيلاء على السلطة السياسية . ويلاحظ ان القوانين ، التى اصدرها نففور فوقاس ، تناولت مشكلة الارض بطريقة تتناقض مع الاتجاه الذى سار عليه المشرعون السابقون . فهذه القوانين التى اصدرها نففور فوقاس كانت مختلفة تماما فى اهدافها ولغتها وروحها .

لقد كان نففور فوقاس مهتما بحماية الفقراء من جشع الاثرياء . ولم يكن فى وسع نففور ان يكون غير مهتم باحوال جند الثيمات ، لان هؤلاء الجند كانوا هم العنصر الرئيسى فى جيش الامبراطورية البيزنطية " وكان الامبراطور نففور فوقاس نفسه جنديا محترفا كرس حياته للجيش ، وكان طموحا فى استخدام الجيش لاعادة فتح الاماليم التى استولى عليها العرب فى القرن

(٤١) كانت اسرة فوقاس تملك ضياعا شاسعة فى ثيمي قبدوقيا

Kedrenus, II, 494.

والاناضول فى آسيا الصغرى ، انظر :

السابع الميلادي . و في نفس الوقت كان لدى نقفور (على خلاف من سبقوه) اهتمام آخر لم يكن من السهل عليه أن يوفق بينه وبين اهتمامه بجند الثيمات من أبناء طبقة المزارعين الأحرار . لقد كان نقفور متما باسترضاء أبناء طبقته من الأتقواء أو على الأقل استرضاء الجناح للمسكرى من هذه الطبقة التي وضعته على العرش الامبراطوري . كذلك كان لدى نقفور اهتمامان آخران ، لقد هاجم بمنف الجند الأرمن في الجيش البيزنطي بسبب عدم استقرارهم وقيامهم بالتنقل من مكان إلى آخر ، (٤٢) كما هاجم الأتقواء من رجال الكنيسة . وان هذا القشتت في اهتمامات الامبراطور بين أهداف مختلفة هو السمة العامة تميز تلك القوانين الخمسة الخاصة بملكية الأرض التي أصدرها نقفور فوقاس . (٤٣)

وإذا لقينا نظرة سريعة على التسريعات التي صدرت في عهد نقفور فوقاس لوجدنا أن القانون رقم (١٩) للصار في سنة ٩٦٣ م قد عمل على الحد من قوة ونفوذ فئة من فئات الأتقواء ألا وهم رجال الدين ومؤسساتهم الدينية والكنسية . فقد حرم الامبراطور وقف أية اوقاف جديدة على الأديرة أو الكنائس والمؤسسات التابعة لها ، كما منع إقامة أية منشآت كنسية جديدة . وأوضح الامبراطور في هذا القانون أن من يريد أن يهب أرضا للدير أو الكنيسة يمكنه أن يحقق رغبته الدينية بإصلاح مان أديرة أو كنائس آيلة للسقوط وموجودة بالعمل . (٤٤)

لأنك أن دوافع نقفور فوقاس في منع وتحريم أية هبات من الأرض يمنحها أفراد في المستقبل للاديرة والكنائس لم تكن دوافع استعراكية بل كانت دوافع مالية . فسياسة نقفور القائمة على القتح والتوسع كانت مرتفعة التكلفة اذا تورتنت بتلك السياسة التي تتبعتها الحكومة البيزنطية قبل ان يأخذ رومانوس الاول بسياسة الهجوم سنة ٩٢٦ م ، والتي تغلب عليها صفة

(٤٢) تناول الجزء الأعظم من قانون نقفور فوقاس رقم (١٨) غير المؤرخ انتهاكات الأرمن ولجراحت الامبراطور بخصوصها ، انظر :

J G-R., III, 289-91.

Toynbee, *Constantine Porphryrogenitus*, 161.

(٤٣)

J G-R., III, 292-6.

(٤٤) انظر نص القانون في :

الدفاع وتجنب المواجهة • وكانت استراتيجية بيزنطة الدفاعية هذه قليلة التكلفة في المال والرجال • ولكن الوضع كان مختلفا في ظل سياسة الفتح والتوسع ، لقد كان نقفور فوقاس في حاجة شديدة الى المال وكان المصدر الأساس للايرادات العامة للحكومة هو الضرائب على الاراضي الزراعية والزراعية • لذلك كان الامبراطور مهتما بان تكون هذه الاراضي الزراعية منتجة • والمعروف ان الاراضي الممنوحة للمؤسسات الدينية كانت معفاة من الضرائب وكان هذا يحرم من الدولة من ايرادات كانت الحكومة في اشد الحاجة اليها الان من اجل الانفاق العسكري • ولما كانت هذه الاراضي المملوكة للمؤسسات الدينية أو لك التي تدار من قبلها تصبح ممنوع للتصرف فيها بمجرد الحصول عليها ، لذلك حاول نقفور فوقاس في قانونه رقم (١٩) الصادر سنة ٩٦٤ م ان يمنع اية زيادة في ملكية المؤسسات الدينية والكنسية •

وفي القانون رقم (٢٠) الصادر سنة ٩٦٧ م تظهر النوايا التي اضمهرها نقفور فوقاس وطبقة الاقوياء بالنسبة لطبقة صغار المزارعين الأحرار • (٤٥) فقد بدأ القانون بالمعارة التالية : « ان الأب العادل هو الذي يعطى اهتماما متساويا لأطفاله • (٤٦) ورغم ان نقفور قد أظهر اهتماما بجنده من المزارعين الأحرار حين أكد في هذا القانون على القيود المتعارف عليها ضد الاقوياء حماية لصغار المزارعين ، إلا انه سرعان ما عاد وأعلن انه كي يحافظ على « الاهتمام المتساوي بكل أطفاله » فقد قرر ان حق الشفعة المفوح لصغار المزارعين في حالة بيع اراضي مملوكة لأفراد ينتمون لطبقة الاقوياء قد أصبح ملغيا من تاريخ صدور هذا القانون واصبح بالنألي على الاقوياء ان يشتروا اراضي مملوكة لأبناء طبقتهم • وان كل الاراضي التي سبق ان اشتراها صغار المزارعون من أبناء طبقة الاقوياء بموجب حق الشفعة يجب ان تعود الى اصحابها دون اى تعويض •

كذلك ألغى نقفور فوقاس في قانونه رقم (٢٠) أيضا تشريعا آخر كان الامبراطور قسطنطين السابع قد حده • ففي القانون رقم (٧) الذي أصدره الامبراطور قسطنطين السابع والذي لم يحدد بتاريخ ، نص القانون ان الاراضي

J G-R., III, 296-99.

(٤٥) انظر نص القانون في :

J G-R., III, 296.

(٤٦)

التي انتقلت ملكيتها من الفقراء الى الاغنياء (الاقوياء) تصبح من حق الاغنياء اذا كان قد مضى على نفل ملكيتها اربعون عاما من تاريخ صدور القانون فاذا افترضنا ان القانون رقم (٧) هذا قد صدر في سنة ٩٥٩ م وهي آخر سنة في عهد الامبراطور قسطنطين السابع ، فان هذا يعني ان قسطنطين السابع كان حريصا على إلغاء كل عمليات بيع اراضي صغار المزارعين الاحرار التي تمت بعد سنة ٩١٩ م . والمعروف ان سنة ٩١٩ م تسبق عام المجاعة سنة ٩٢٧م ٩٢٨ م بحوالي ثمان أو تسع سنوات . والمعروف أيضا ان هذه المجاعة هي التي اعطت للاغنياء (الاقوياء) للفرصة لسرء اراضي صغار المزارعين بأبخس الاثمان وفي ظل ظروف القهر . (٤٧)

لقد وجد نفقور فوماس في تسريع قسطنطين السابع هذا مقالة واضرار بمصلحة الاقوياء . لهذا نص القسم الثاني من قانونه رقم (٢٠) الصادر في سنة ٩٦٧ م على إلغاء شرط الاربعين عاما . واعطى نفقور صلاحية وشرعية لعمليات بيع اراضي صغار المزارعين التي تمت قبيل عام المجاعة مباشرة . اما اراضي صغار المزارعين التي انتقلت ملكيتها الى الاغنياء منذ وقوع المجاعة سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م فيجب ان تعود الى اصحابها الاصليين .

وفي القانون رقمهم (١٨) غير المؤرخ بتاريخ تناول الامبراطور نفقور فوماس الاراضي العسكرية . فقد نص هذا القانون على انه اذا لم يترك مالك الارض العسكرية وريثا يريد الاستمرار في القيام بالتزامات هذا الميراث ، فيجب منع هذه الارض لتسخص آخر ليتعهد بالالتزامات المرتبطة بها والخاصة بالخدمة العسكرية . كذلك وضع نفقور شرطا جديدا من اجل الاحتفاظ بالجزء الذي يشكل الحد الأدنى الضروري لمواجهة نفقات والتزامات الاحتفاظ بجندى مقاتل . فقد نص القانون على ان الجندى الذي يدان لارتكابه جريمة قتل يجب ان ينال عقوبة الموت ، اما اسرة المجنى عليه فيمكن تعويضها من الممتلكات المنقولة التابعة للجاني . ولكن يجب الا يتم التعويض من ارض الجاني المخصصة لمواجهة نفقات الاحتفاظ بجندى مقاتل . فهذه الارض العسكرية يجب الاحتفاظ بها دون اى نقص . فاذا لم يترك الجاني اى ملكية منقولة ، فعلى

(٤٧) انظر نص القانون رقم (٩٧) في : J G-R., III, 261-66.

ورقة تقديم التعويض المناسب لورثته المجنى عليه على ألا تكون أرضاً
عسكرية • (٤٨)

على أية حال في قانونه رقم (٢٢) غير المؤرخ بتاريخ تناول نقفور فوقاس
الأراضي العسكرية • (٤٩) ونص القسم الأول من هذا القانون أنه إذا كان
الجندي قد باع جزءاً من أرضه الممنوع التصرف فيها والتي تعادل قيمتها
أربعة أوطال من الذهب فعليه أن يسترد هذه الأرض دون أن يعيد المبلغ الذي
دفعه المشتري ثمناً لها •

ونص القسم الثاني من نفس القانون على أن كل الأراضي العسكرية تصبح
ممنوع التصرف فيها في المستقبل • كما نص القانون على دفع الحد الأدنى
لتقيمة أراضي الجند الممنوع التصرف فيها من أربعة أوطال إلى اثني عشر
وطال من الذهب ، وهي زيادة كبيرة • إن قيام نقفور بهضبة قيمة الحد
الممنوع التصرف فيه ثلاث مرات لم يكن تصرفاً من أجل حماية الجندي المزارع
الحر • فالبقية قطعة من الأرض تساوي قيمتها اثني عشر وطالاً من الذهب هي
مساحة كبيرة ، وسيكون هناك القليل من تلك الضياع العسكرية ذات القيمة
المرتفعة • وكان تطبيق هذا القانون يعني التضحية بالجنود الفقراء لصالح
الافرنجيين الطامعين في زيادة ملكياتهم الزراعية • ومن المحتمل أن غرض نقفور
من رفع قيمة الحد الأدنى الممنوع التصرف فيه كان غرضاً عسكرياً وفنياً • فقد
بدأ نقفور في ذلك الوقت إصلاحه العسكري الذي استهدف تكوين تشكيلات
من الفرسان للثقيلة جيدة للتسليح والتدريب ، وكان الامبراطور مصراً على
تطوير هذه التشكيلات الهجومية • وكانت تكلفة الفارس المجرع جيد التسليح

(٤٨) تناول القانون رقم (١٨) أيضاً أساءات وانتهاكات الجند الأرمن
في الجيش البيزنطي وحدد القانون وضع الأرض العسكرية التي يملكها الجند
الأرمن في حالة تغييبهم عنها أو ارتحالهم إلى مواطن أخرى • انظر نص القانون
في : J G-R., III, 289-91.

J G-R., III, 299-300.

(٤٩) انظر نص القانون رقم ٢٢ في

مرتفعة بشكل غير عادى ، وكان على الفارس ان يتحملها بنفسه . (٥٠)

وفى القانون رقم (٢١) غير المؤرخ بتاريخ محدد قدم نقفور فوقاس تنازلا آخر لانباء طبخته من الأقوياء . ويوضح من هذا القانون مدى التراء الذى بلغه الأقوياء منذ ان أصبح مجال الاستثمار الزراعى آمنا ومرحا بعد تأمين آسيا الصغرى من خطر العرب المسلمين . ويعترف نقفور فى هذا القانون ان تشريعات اسلافه من أجل حماية ممتلكات صغار المزارعين لم تنفذ بشكل دقيق . فقد انتهك أصحاب الممتلكات الزراعية للضخمة القانون واستولوا بطرق غير مشروعة على اراض مملوكة لمجتمعات صغار المزارعين الأحرار بن وحرسوا على طلب المزيد . واصبح هؤلاء الاغنياء يملكون ارضا عن جد ضسيعا فى اراضى تلك المجتمعات القروية ، وهاموا ببناء منازل كبيرة ذات قيمة مرتفعة بتكلفة كبيرة فوق تلك الاراضى التى استولوا عليها بطرق غير شرعية . وينص قانسون نقفور رقم (٢١) ان هؤلاء المخالفين يمكنهم لاحتفاظ بتلك المنازل الفاخرة كما يمكنهم الاحتفاظ بملكية الاراضى التى تقع فيها هذه المنازل فى مقابل زهيد الا وهو : اما نفع قيمة الارض مضاعفة ، أو اعطاء صاحبها الاصلى ارضا ذات جودة مضاعفة وذات مساحة مضاعفة ايضا فى مقابل ذلك . (٥١)

على اية حال يلاحظ على التشريعات التى اصدرها الامبراطور نقفور فوقاس انها كانت دفاعية تجاه الفقراء وكلها معأتى الاسترضاء تجاه الاغنياء . فمقدمة القانون رقم (٢٠) مثلا تبدأ بذكر تأكيد الديانة المسيحية على واجب الحكام التصرف بعدل . وفى فقرتين أخريتين يدعى الامبراطور أنه عادل تجاه جميع الاطراف . كما يدعى ايضا ، انه لا يلغى التشريعات السابقة بل يحتفظ بتلك السمات العادلة فيها ويترك السمات التى تقابل حاجة دائمة لأمؤقتة . ان هذا الادعاء المتكرر بأنه يتصرف بالعدل يبدو أجوفا ، لأن ادعاء اعطاء وزن متساو لمصالح كل من الاغنياء والفقراء الأقوياء والضعفاء هو محاولة

(٥٠) عن تشكيلات الفرسان الثقيلة وتسليمها انظر :

وسام : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ج ١ ،

الاسكندرية ١٩٨٢ ، من ص ٢٨١ - ٢٨٨

J G-R., III, 299.

(٥١)

مقنعة للاحتفاظ بالتوازن مائلا لصالح طبقة الاغنياء والاقوياء . لقد عمل نفقور فوقاس على تهدئة واسترضاء الاغنياء بتقديم الأدلة الكافية التي تثبت ان اسلافه عملوا على اغلاق كل الطرق التي تزيد الثراء ، وانهم عملوا على نشر اللسعة في حالة بيع اراضي الاغنياء . لقد ألغى نفقور هذا النص ، وكل ما يعوق زيادة ثراء الاثرياء .

والجدير بالذكر أن الامبراطور يوحنا تزييمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦ م) الذى أعقب نفقور فوقاس على العرش ، كان أيضا عضوا بارزا في الجناح العسكري لطبقة الاقوياء فهو ينتمى لاحدى اسر الارستقراطية العسكرية في آسيا الصغرى . ولهذا فقد احتفظ يوحنا بنفس الاجراءات التشريعية ادخلها نفقور فوقاس .

ويمكن القول ان الجهود التشريعية التي قامت بها الأسرة المتدنية لتوقف الاضمحلال الذى اصاب اوضاع الملكية الزراعية في الامبراطورية والنسب استهدفت بالتأكيد حماية طبقة صغار المزارعين الاحرار ، قد اصبحت بنكسة لأول مرة بسبب كبار الملاك في الاقاليم . ولم تكن افضل تلك القوانين التي اصدروها سوى محاولة متواضعة لكبح جماح الاقوياء بدليل استمرار ظهور القوانين الخاصة بالارض الزراعية ، ولكن حين وصلت عائلتنا فوقاس وتزييمسكس الى العرش الامبراطوري ضاعت تلك الجهود للتواضعة نهائيا . وان روح تلك التشريعات التي صدرت في عهد نفقور فوقاس عملت على تشجيع الاقوياء على الاستثمار الزراعي في الاقاليم على حساب مجتمعات وقرى صغار المزارعين الاحرار .

لقد لاحتاج الأمر بلا شك ليد الامبراطور باسيل الثانى القوية كي تعيد تصحيح الأمور . والمعروف أن باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) لم يكن له اى رأى في تشريعات نفقور فوقاس الذى اغتصب حقه العرش منذ وفاة والده رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ م . على اية حال استطاع باسيل الثانى في سنة ٩٦ أن يسترد تاجه بعد وفاة يوحنا تزييمسكس واصبح امبراطورا كامل السلطان . الا ان الامبراطور الشاب كما ان يفقد عرشه مرة أخرى على اثنين من ابناء نفس طبقة الارستقراطية العسكرية الا وهما : برداس فوقاس

(ابن ٩خ نقفور فوقاس) ، وبرداس سكليروس (زوج أخت يوحنا تزيمسكس) ولجأ باسيل منحه الحروب الأهلية ولكتسب الخبرة من التجارب الميرة التي التي ولجها ٠ (٥٢) ولكنه قرر التصدي بالتشريع لطبقة الأثوياء الذين اغتصبوا حقه في العرش الامبراطوري طوال الفترة من ٩٦٣ - ٩٧٦ م ثم حاولوا اغتصاب هذا الحق مرة أخرى في الفترة من ٩٧٦ - ٩٨٩ م .

أصدر الامبراطور باسيل الثاني ثلاثة قوانين تناولت الملكية الزراعية بشكل أو بآخر خلال فترة حكمه التي طالت قرابة الخمسين عاما .

ففي قانونه رقم (٢٦) الصادر في ٤ ابريل سنة ٩٨٨ م ألغى باسيل الثاني القانون رقم (١٩) الذي أصدره نقفور فوقاس سنة ٩٦٤ والذي عمل على الحد من قوة ونفوذ رجال الدين ومؤسساتهم الدينية التبعية والكنسية وكان الالفاء بأمر رجعي من تاريخ إصداره ٠ (٥٣) ولأنه لمن التأثير للدهشة أن الكنيسة لم تحصل على إلغاء لقانون نقفور فوقاس رقم (١٩) قبل ذلك ٠ ولكن يلاحظ أنه في ٤ ابريل سنة ٩٨٨ م كان باسيل الثاني واقفا تحت رحمة الكنيسة ٠ ففي ذلك الوقت كان القيصر البلغاري صمويل سيدا لشبه جزيرة البلقان ، كما كانت قوات الناثيرداس فوقاس تحتل خريسيوبولس Khrisopolis وأبيدوس Abydos ٠ وكان باسيل ينتظر بقلق وصول الجند المرتزقة الروس الذين أرسلهم اليه فلاديمير Vladimir أمير كيف Kiev ٠ وفي مثل تلك الظروف كان على باسيل أن يعقد السلام مع الكنيسة بأى تمن ٠ (٥٤)

ولكن مع بداية سنة ٩٩٦ م كان موقف الامبراطور قويا بما فيه الكفاية

(٥٢) لنظر : وسام : الامبراطور باسيل الثاني « سفاح البلغار » (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) : للموامل التي اشرت على السياسة في عصره ، مقال في ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط ، المجلد الاول (١٩٨٢) ص ١٦٩ وما بعدها .

(٥٣) لنظر نص القانون في : J G-R., III, 303-4.

(٥٤) من لحوال الامبراطورية في تلك الفترة الحرجة ننظر :

وسام : دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ١٩٠٠

ص ٣٠٦ - ٣١٠ .

وكان باسيلي قادرا على اثبات ذلك . جاء قانونه رقم (٢٩) للصادر في اوان
يناير سنة ٩٩٦ م الذى يعتبر بلاك اعنف هجوم على طبقة الاقوياء يصدر
من امبراطور بيزنطى . وفى هذا القانون نصوص ضد الاقوياء العلمانيين
والاقوياء من رجال الدين . (٥٥)

ويمكن تلخيص العناصر الرئيسية التى تضمنها هذا القانون كالآتى :

اولا : تجاهل باسيلي الثانى ما ورد فى قانون نفقور فوقاس رقم (٢٠)
الصادر سنة ٩٦٧ م بخصوص الغاء شرط مرور اربعين عاما على انتقال
ملكية قطعة ارض من الفقراء الى الاقوياء . ولكد باسيلي ان شرط مرور اربعين
عاما على انتقال الملكية للزراعية ضرورى قبل أن تصبح حقا للفقراء حسب
قانون قسطنطين السابع . ولكد باسيلي الثانى ان ملكية اية قطعة ارض
زراعية من قبل احد كبار الملاك لن يعترف بها اذا لم يتمكن المالك من اثبات
ان حصوله على الارض قد تم قبل عام للجامعة . كما نص على ان الاثبات
يجب أن يكون بوثيقة ملكية رسمية يظهر فيها التاريخ بوضوح . اما بالنسبة
لحالات انتقال ملكية اراضى تابعة للنتاج الى الاقوياء فقد ألغى فترة الاربعين
عاما ، واشترط على كل من يدعى حقا فى منزل تلك الاراضى أن يثبت حقه
بوثيقة مكتوبة .

كذلك نص القانون على أن انتقال ملكية اى ارض زراعية كانت مملوكة
لأحد صغار المزارعين الاحرار فى عام المجاعة او بعد تاريخ صدور قانون
رومانوس ليكابينوس رقم (٢) لاكتسب شرعية مهما مضى عليها من زمن
بل يجب ان تعود الى المزارع الصغير الحر دون اى تعويض لأن قانون
رومانوس ليكابينوس قضى بعدم انتقال ملكية اراضى صغار المزارعين الى
اغراد من طبقة الاقوياء . ويبدو ان انتقال ملكية قطعة ارض من احد صغار
المزارعين الاحرار الى احد كبار الملاك واكتساب هذا النقل للملكية سرعية
بسبب مرور اربعين عاما ، قد أصبح تقليدا وامرا مسترفا به ، ولكن باسيلي
الثانى قضى على هذا التقليد . وفى هذا المجال يذكر الامبراطور باسيلي الآتى :

JG-R., III, 306-318.

(٥٥) انظر نص القانون رقم (٢٩) فى :

« إذا قام أحد الإقوياء (الاغنياء) بنقل ملكية قطعة ارض في مجتمع
 قريبة ما الى ملكيته الشخصية ، وإذا قام ورنته بوراثة ملكية هذه الارض ٠٠
 وإذا رفض الورثة رد الأرض الى المزارع الذى طلب لاسترجاع ارضه بسبب
 انقضاء فترة طويلة من الزمن على انتقال الملكية ، فليكن واضحا للجميع انه
 مهما كان الوقت الذى مضى منذ انتقال ملكية هذه القطعة من الارض فان من
 حق المزارع ان يطالب بأرضه ويستردّها ٠ وإذا لم نتم بسن هذا القانون ،
 فأننا نعطي بهذا المخائف للقانون للفرصة ليقول : بما أننى نجحت في نقل ملكية
 هذه الارض وبما أن الفلاح غير قادر على المطالبة بحقه ، وإذا نجح ابني
 أيضا ومضى من الوقت الكثير فأننا نستطيع الاحتفاظ بالارض التي امتلكنها
 ولن يستطيع احد المطالبة بها ٠ وعلى هذا فمن مصلحتي مخالفة القانون
 وانتهاك حقوق ملكية الضعيف ٠٠٠ ، وان هذا الأسلوب ووضح في حالة
 عائلتى مالمينوس Maleinos وفوقاس Phokas ، فالبطريق قسطنطين
 مالمينوس وابنه ايستانيوس Eustathius اتبعوا هذا الأسلوب وعاشوا
 فترة ازدهار لم تتوقف قرن من الزمان تقريبا ٠ كذلك أتبع أبناء عائلة فوقاس
 نفس الأسلوب وعاشوا فترة ازدهار أطول لأن الجد الأول والجد التالى
 والأب ومن بعدهم الأولاد على التوالي استولوا على الاراضى بهذه الطريقة
 حتى الوقت الحاضر ٠ فهل يجوز بعد كل هذا ان نترك الهدية الزمنية التي
 استمتعوا بها كامتياز لهم ؟ » (٥٦)

ويستطرد باسبيل للناني في قانونه مشيرا الى أن طبقة كبار الملاك
 استولت باساليب غير شرعية على اراضى صغار المزارعين ثم توارث الابناء
 هذه الاراضى واعتقد الجميع ان مرور اربعين عاما كحد ادنى على نقل الملكية
 قد اعطاهم الشرعية ٠ ونص القانون على حرمان الاولاد كبار الملاك من مثل
 ذلك الميراث وادى هذا الى حرمان عائلات عديدة من ضياعها للشاسعة
 مما أصابها بالفقر فاخفتت ولم نعد نسمع عنها ٠ (٥٧)

J G-R., III, 308-9.

(٥٦)

(٥٧) المعروف ان الامبراطور باسبيل الثاني اتم لهنتكتات الزراعنة
 الخاصة بحوالى احدى عشرة عائلة تنتمى لطبقة الإقوياء هي : عائلة
 موزل Mousel (JG-R., III, 309) ؛ البراكيمومينوس باسبيل (III, 554)
 عائلة مالمينوس Maleinos (Zonaras, (Kedrenos, II, 422)

ثانيا : ميز القانون رقم (٢٩) الذى أصدره باسيل الثانى بين صلاحية وشرعية صك الملكية المهور بالخاستم الامبراطورى Khrysoboullis من ناحية ، وبين وصف حدود قطعة الارض الزراعية اللاحقة والمضافة لصك الملكية . فقد لاحظ الامبراطور اثناء مروره فى اقاليم الامبراطورية اثناء حملاته العسكرية حالات عديدة قام فيها كبار الملاك بوضع أيديهم على اراض كان بعضها فى حيازة المزارعين الفقراء والبيض الآخر كان تابعا لاملاك التاج عن طريق التزوير فى صكوك الملكية الزراعية . وقد اخذ هذا التزوير شكل اضافات تصف حدود العقار الزراعى اضيفت الى صكوك الملكية . ولاشك أن الموظفين الذين صاغوا هذه الاضافات كانوا متواطئين مع كبار الملاك . الا ان قانون باسيل الثانى لم يترك مجالا للشك بالنسبة لصلاحية مثل الاضافات ، فند الغنى لقانون كل صلاحية لها ، ونص على أن وصف حدود أى قطعة ارض تضاف الى صك الملكية تصبح لافية ولاقيمة لها الا اذا ثبت انها مسجلة فى سجلات الادارة الامبراطورية . (٥٨)

ثالثا : تصدى باسيل الثانى فى قانونه أيضا لفئة أخرى من فئات الاقوياء الا وهم رجال الدين فى محاولة لوقف تعدياتهم على ممتلكات القرويين فالموضوع هو كنيسة القرية . لقد كان من المألوف فى القرية أن يقوم أحد المزارعين ببناء كنيسة صغيرة على أرضه ، ثم يرتدى زى الرهبان ويحيا حياة دينية . وكان من المعتاد أن يقوم هذا المزارع بعد ذلك بمنح أرضه لهذه الكنيسة . وفى كثير من الأحيان ينضم اليه آخرون من نفس القرية فيشاركونه حياته الدينية ثم يقومون مثله بمنح اراضيهم لكنيسة القرية . ولكن عند وفاة المزارع الذى شيد الكنيسة فى البداية ، تتقدم الأسقفية التى تقع كنيسة القرية فى ممتلكاتها وتطالب بملكية الجنى والأراضي للزراعة

عائلة فوقاس Phokas وعائلة سكيلروس (Skleros, Chron. I, 18) Psellos, Chron. I, 18) عائلة مالاكتوس (Malakenos (JG-R., III, 310) ؛ عائلة بوبز (Paul Bobs (Kedrenos, II, 451) ؛ عائلة بوبز (Paul Bobs (Kedrenos, II, 451) عائلة نيكوليتزاس (Nikoulitzas (Kedrends, II, 474) عائلة فاتاتزيس (Vatatzes (Kedrenos, II, 452) عائلة جلاباس (Glabas. (Kedrenos, II, 452) (JG-R., III, 311. (٥٨)

القابضة له على أساس أنه مؤسسة دينية وتدخل في إطار قوانين الكنيسة . وهكذا كانت الكنيسة ورجال الدين ، وهم فئة من فئات الإقوياء ، الذين على التسلل والتغلغل داخل مجتمعات صغار المزارعين الأحرار رغم أنهم لا يملكون أرضا زراعية فيها . ويذكر الامبراطور في قانونه أن هذه السادة انفتشت في كل النيمات وأدت في بعض الحالات الى اختفاء قرى بأكملها . ولقد نص الامبراطور في قانونه على أن هذه الكنائس الصغيرة في القرى لا يمكن اعتبارها مؤسسات دينية تابعة للأسقفيات والكنيسة الأم في العاصمة ، بل تعتبر ملكية ممنوع التصرف فيها للقرى أو لمجتمعات المزارعين في هذه القرى . وحرّم القانون على الكنيسة الأم أن تضع يدها عليها . (٥٩)

ربما : تتناول البند الرابع من هذا القانون حقوق الخزنة الامبراطورية . ونص القانون على أنه لا يوجد حد زمني تتوقف بعده الإدارة المالية عن المطالبة بحقوقها واسترداد كل ملكية زراعية تنقل حيازتها بطريقة غير مشروعة الى الأثوياء . ووضح القانون أن مطالب وحقوق الخزنة الامبراطورية يمكن أن تكون جائز رجعي يعود الى الوراء الى زمن الامبراطور اغسطس . كذلك إذا قام موظفو الإدارة المالية والخزنة الامبراطورية بأى عمل يخالف مصلحة الحكومة المركزية ، فإن أى انجازت من هذا القبيل تفقد صلاحيتها . ولقد اعترف الامبراطور بأن موظفى الإدارة المالية لم يكونوا جميعا على مستوى المسؤولية بل أن ثلّة منهم هى التى قامت بتنفيذ الأوامر والقوانين الامبراطورية - بدنة . (٦٠)

لأنك ان قانون باسيل الثانى رقم (٢٩) كان يمثل تغيرا جفويا ولكن في سنة ١٠٠٣/١٠٠٤م أتبع الامبراطور قانونه بمرسوم آخر أكثر قوة وتشددا ضد طبقة الاثوياء . فقد قرر باسيل أن الأغنياء فقط عليهم ان يتحملوا المسؤولية الجماعية في دفع الضرائب التى يتم تقديرها على كل منطقة ، أما الفقراء من دافعى الضرائب فقد اعفاهم هذا المرسوم من كل مسؤولية في المستقبل . (٦١) ورغم تشدد هذا المرسوم ، إلا أنه كان عادلا ويتناسب تماما

JG-R., III, 312-14.

(٥٩)

J G-R., III, 315-16.

(٦٠)

Kedranos, II, 456; Cf. Zonaras, III, 561.

(٦١)

مع الظروف السائدة في الريف • قد وضع الامبراطور مسئولية دفع الضرائب الجماعية على عاتق أولئك الذين يستطيعون الدفع ، مما اعطى للمزارعين الفقراء المحظوتين فترة إعفاء طويلة •

لقد كان هدف هذا الرسوم رفع المعاناة عن المزارعين الفقراء ، الا انه لم يوضع أبدا موضع لتنفيذ • وقد يكون صحيحا أن نفترض أن هذا الرسوم الذي حدد مصالح الاقوياء بشكل مباشر ، قد أدى الى حدوث تواطؤ بين كبار الملاك ، والقضاة ، وجبالة الضرائب للحيلولة دون تنفيذ هدف الامبراطور • وأن مثل هذا التحالف كان أقوى من ارادة باسيل الثاني وعنفه الذي اشتهر به والجدير بالذكر أن هذا الرسوم استمر بعد حياة باسيل الثاني لمدة ثلاث سنوات فقط ، كان فيها حبرا على ورق ، فقد قرر شقيق باسيل وأخوه قسطنطين الثامن ، الذي اعتبه على العرش ، إلغاء هذا الرسوم • وتم هذا الالفاء بالفعل في عهد الامبراطور رومانوس الثالث أرجيروس Romanos III Argyros زوج ابنة قسطنطين الثامن وخليفته • (٦٢) وبهذا انتهت سلسلة طويلة من التشريعات التي أصدرتها الحكومة المركزية لوقف تعدى الاقوياء على ممتلكات صغار المزارعين •

ان مجموعة التشريعات التي صدرت في القرن العاشر الميلادي في الامبراطورية البيزنطية استهدفت حماية مجتمعات صغار المزارعين من تعدى الاقوياء ، ولغاية توازن في ملكية الارض الزراعية • وإن هذه التشريعات تروى لنا الكثير عن كبار الملاك وذوى النفوذ والسلطان كطبقة اجتماعية متميزة في المجتمع البيزنطى • وطبقا لما ورد في هذه التشريعات فإن الاقوياء يمكن تحديدهم كأعضاء بارزين في الجيش ، والكنيسة ، وللجهاز الادارى • فمنهم مجموعة الموظفين الذين شغلوا المناصب الادارية وأولئك الذين حملوا الالقاب السرفية غير المرتبطة بوظائف •

بالنسبة للجيش فإن كل من كانوا في درجة ورتبة Protokentarches أو اعلى (في النيمات) ، تم تصنيفهم ضمن طبقة الاقوياء • ويعتبر هذا تعميما تضمن معظم العسكريين المتمركزين في القسطنطينية والمنطقة المحيطة بها ، وهم جند فرق الفرسان الاربع المعروفة باسم التجمعات tagmata

Kedrenos, II, 486.

(٦١)

وهم القسم الأول من الجيش البيزنطي . كل هؤلاء الجند تم تصنيفهم ضمن
الأقوياء بسبب ارتفاع أجورهم ولأن الكثيرين منهم كانوا ينتمون إلى
ثلاثت معروفة . (٦٣)

أما رُق الثيمات ، فعلى عكس فرق التجماتا Tagmata ، كانت تتكون
أساسا من الجندي المزارع . ولقد حددت التشريعات أن كل الضباط في فرق
الثيمات من درجة ورتبة Protokentarches فأعلى يجب تصنيفهم ضمن
الأقوياء . ويعتبر هذا تصنيفا عريضا لأن رتبة Protokentarches
ترتيبها الثاني عشر بعد رتبة سنراتيوس Strategos (قائد الثيم) .
وعلى هذا فإن كل الضباط من ذوى الرتب التى تلو رتبة Kentarches ، سم
تصنيفهم ضمن الأقوياء في الاقاليم (٦٤)

بالنسبة للإدارة المدنية فإن كل من شغل منصب سكرتير لإدارة من
إدارات الحكومة المركزية في العاصمة أو الاقاليم فأعلى ، تم تصنيفهم ضمن
طبقة الأقوياء ، لأن سكرتير الإدارة المدنية كان ينسأوى في المركز والرتب
مع Protokentarches كذلك تضمنت طبقة الأقوياء كل من حملوا ألقابا
شرفية مثل البطارقة ومن حملوا لقب ماجستير Magistroi فضلا عن
الشيوخ من أعضاء مجلس السيناتو للقيم . (٦٥)

أما الأقوياء من رجال الدين فقد كانوا مجموعة أكبر ، فقد تضمنت رؤساء
الاساقفة والاساقفة ومقضى الأديرة فضلا عن عدد آخر من كبار رجال الدين

(٦٣) كانت فرق التجماتا في القرن التاسع والعاشر من الميلاد تتكون
من أربع فرق فرسان هي : فرقة Skholai ، وفرقة Exkoubitoi ،
وفرقة Arithmos ، وفرقة Ikanatoi . وكانت فرقة السخولاي Skholai
أهمها ، وكان القائد الأعلى للجيش في العادة هو قائد فرقة Skholai للمزيد
عن هذا الموضوع انظر : Bury, Administrative System, 47-66.
Ahrweiler, Recherches, 23-31.
والنظر أيضا : Bury, Administrative System, 47-66.
(٦٤)
Vryonis, Time of Troubles, 206.
(٦٥)

في العاصمة • ويلاحظ ان هذه الفئة من الاقوياء كانت اقل خطورة من الفئات المدنية والعسكرية اذ لم تشكل اى تهديد سياسى للحكومة المركزية •

وباختصار فان الاقوياء كنوا كل لولئك الذين يبدأون من اهل الموظفين المدنيين ، ورجال الدين ، والضباط العسكريين ، الذين كانوا قادرين على استعمال مركزهم والنزوة المتاحة امامهم بحكم مناصبهم من اجل الاضرار بصغار المزارعين ولولئك المسجلين كجند ومزارعين في الاقاليم • ولاشك ان في هذا تحديد قانونى شامل • ؟

ويلاحظ ان الظروف قدمت لفئات الاقوياء المختلفة فرصة كبيرة كي يزيديهم ملكياتهم الزراعية • فالشقاء القاسى لعام ٩٢٧ / ٩٢٨ م والمجاعة التى اعقبته تسببت في حدوث اضطراب اجتماعى في الاقاليم • وخلال تلك الفترة الصعبة اجبر الفلاحون على بيع اراضيهم باثمان زهيدة • ورغم ان القوانين التى صدرت بعد عام المجاعة ، صدرت خصيصا من اجل عودة تلك الاراضى ، الا ان المرجح ان معظم تلك الاراضى ظلت في حوزة الاقوياء ولم يعيدها • كان الفلاح • اما غير قادر على تمويل القوى من اجل استعادة ارضه ، او كان ببساطة قانعا بحياة الاثمان في ضيعة للمسيد للقوى حيث وجد هناك قدرا من الامن في اشد الحاجة اليه •

لقد تعدى كبار الملاك على ممتلكات صغار الفلاحين ، بحرمان الدولة من قوتها العسكرية للدفاعية وقدرتها المالية • وان الشىء الذى لم يذكر بالتحديد في هذه التشريعات هو ان تعدى الاقوياء بهذه الصورة الصارخة قد حدد سيادة الحكومة المركزية نفسها • وعلى هذا يمكن القول ان التشريعات التى تناولت الملكية الزراعية كانت بهدف كبح جماح النمو الاقتصادى والسياسى لطبقة الاقوياء • لقد كانت هذه القوانين اجراءات دفاعية من جانب الحكومة المركزية ضد قوى تحاول للخروج على الادارة المركزية وهى قوى كانت لها صبغةقطاعية • ولكن رغم هذه التشريعات والاجراءات الا ان الحكومة المركزية فشلت في تحقيق هدفها ، لان تطبيقها وتنفيذها كان في يد افراد من نفس الطبقة التى صدرت ضدها للتشريعات •

قائمة المصادر والمراجع وبينان المختصات :

- Ahrweiler, Recherches** H. Glykatz-Ahrweiler, «Recherches sur l'administration de l'empire byzantin aux IX^e — XI^e Siècles, Bulletin Correspondance Hellénique, 84 (1960), 1-109.
- Andreades, Petit Propriété** A. Andreades, «Floraison et décadence de la petit propriété dans l'empire byzantin», *Mélanges Ernest Mommsen*, 1 (1935), 261-66.
- Antoniadis-Bibicou, Etudes** H. Antoniadis-Bibicou, *Etudes d'histoire maritime de Byzance, à propos du 'Thème des Caravisiens'* (Paris, 1966, SEI. and P.E.N.).
- Bach, Lois Agraires** E. Bach, «Les lois agraires byzantines du Xe siècle», *Classica et Mediaevalia*, 5 (1942), 70-91.
- Bury, Administrative System** J.B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century, with a Revised Text of the Kletorologion of Philotheos* (British Academy Supplemental Papers, I), (London, 1911).
- Charanis, Monastic Properties** P. Charanis, «The Monastic Properties and the State in

- the Byzantine Empire», *Dubarton Oaks Papers*, 4 (1948), 51-118.
- Danstrup, Landed Property** J. Danstrup, «The State and Landed Property in Byzantium», *Classica et Medievallia*, 8 (1947), 222-62.
- Ferradou, Monastères** A. Ferradou, *Des biens des monastères à Byzance* (Bordeaux, 1896).
- Gaignerot, Des Bénéfices** A. Gaignerot, *Des bénéfices militaires dans l'empire romain et spécialement en Orient au Xe siècle* (Bordeaux, 1898).
- Georg. Mon. Con.** *Georgius Monachus*, in *Theoph. Cont.*, ed. I. Bekker (Bonon., 1838), 761-924.
- J G-R.** *Jus Graeco-Romanum, Pars III : Novellae, Constitutiones*, ed. C.E. Zacharia von Lingenthal (Leipzig, 1857), 220-318. Reprinted by J. and P. Zepos (edd.) (Athens, 193 P. Zepos (edd.) (Athens, 1931) Vol. L
- Wodrenus** G. Cedrenus, *Historiarum*

- Compendium**, ed. I. Bekker
(Bonn, 1888-39) 2 vols.
- Lemerle, Esquisse** Lemerle, Esquisse P. d é
P. Lemerle, «Esquisse pour
une histoire agraire de By-
zance», *Revue Historique*,
219 (1958)', 32-74 and 254-
84; 220, pp. 43-94.
- Leo VI, Les Nouvelles** 'Les Nouvelles de Léon VI
le Sage, ed. and trans. P.
Noailles and A. Dain (Paris,
1944). (Société d'Édition les
'Belles Lettres').
- Leo Grammaticus** Leo Grammaticus, *Chrono-*
graphia, ed. I. Bekker (Bonn,
1842).
- Mitard, Le Pouvoir Impérial** M. Mitard, «Le pouvoir Im-
périal au temps de Léon VI»,
Mélanges Charles Diehl, I
(Paris 1930), 217-23.
- Ostrogorsky, Agrarian Conditions** G. Ostrogorsky, «Agrarian
Conditions in the Byzantine
Empire in the Middle Ages»
Cambridge Economic Histo-
ry of Europe, 1, 2nd. ed.
(Cambridge, 1966).
- Ostrogorsky, Pre-Emption Right** G. Ostrogorsky, «The Pea-
sant's Pre-Emption Right.

An Abortive Reform of the Macedonian Emperors», *Journal of Roman Studies*, 37 (1947), 117-26.

Ostrogorsky, Quelques Problèmes

G. Ostrogorsky, **Quelques Problèmes d'histoire de la Paysannerie byzantine** (Brussels, 1956). (*Corpus Bruxelense historiae byzantinae, Subsidia*, II).

Ostrogorsky, State

G. Ostrogorsky, **A History of the Byzantine State**, Eng. trans. J.M. Hussey Oxford, 1968).

Ostrogorsky, Steuergemeinde

G. Ostrogorsky, «Die landliche Steuergemeinde des byzantinischen Reiches im X Jahrhundert», **Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaftsgeschichte**, 20 (1928), 1-108.

Psellos, Chron.

M. Psellos, **Chronographie**, ed. F. Renauld (Paris, 1926, 1928), 2 Vols,

Pseudo-Symeon

[Pseudo-Symeon **Magister, Chronographia**, in **Theoph. Cont.**, ed. L. Bekker (Bonn, 1838), 603-760.

Setton, Land Tenure

K.M. Setton, «On the Importance of Land Tenure and Agrarian Taxation in the Byzantine Empire from the 4th Century to the 4th Crusade», **American Journal of Philology**, 74 (1953), 225-59.

Svoronos, Synopsis

N.G. Svoronos, **La Synopsis major des Basiliques et ses appendices** (Paris, 1964). (Bibliothèque byzantine : Études, IV).

Syuzymov, Le Village

M.Y. Syuzymov, «Le Village et la ville à Byzance aux IXe-Xe Siècles», **Recherches Internationales à la lumière du marxisme**, 79 (1974), 65-74.

Testaud, Puissants

G. Testaud, **Des rapports des Puissants dans l'empire byzantine** (Bordeaux, 1898).

Theoph. Cont.

Theophanes Continuatus, Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monachus, ed. I. Bekker (Bonn, 1938), 1-481.

**Toynbee, Constantin
Porphrogenitus**

A. Toynbee, **Constantine Porphyrogenitus and his World** (London, 1973).

Vryonis, **Time of Troubles**

S.Vryonis, **The Internal History of Byzantium during the 'Time of troubles' 1057-81**

Zonaras

A.D. (Dissertation, Harvard, I. Zonaras **Epitome Historiarum**, ed. M. Pinder, B. Buttner-Wobst (Bonn, 1841-97), 3 Vols.

ثانيا : الكتب والدراسات الجديدة

١ — تقرير عن معرض القاهرة الدولي ١٩٨٣م

٢ — عرض ونقد كتاب « تاريخ المغرب — محاولة في التركيب »

**تقرير عن معرض القاهرة الدولي للكتاب
واهم ما جد فيه من مصادر ومراجع تاريخية
تتعلق بتاريخ الوجود اللاتيني في بلاد الشام
خلال مرحلة الصليبيات القرنين ٦ ، ٧ هـ / ١٢ ، ١٣ م**

شهدت أرض المعارض بالجزيرة بالقاهرة في المدة الواقعة من ٢٧ يناير حتى ٧ فبراير عام ١٩٨٣ التقاء عدد من دور النشر العربية والأجنبية مجتمعة في المعرض الدولي الخامس عشر للكتاب . وبهما يكن من أمر الاختلاف بيننا بشأن مقارنة حجم ونوعيات دور النشر ونشاطها في المعرض وما احتواه من كتب جديدة فسأعرض هنا لما قد لفت نظري واسترعى انتباهي فيما ينصل بدراسة الحروب الصليبية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر ، الميلاديين .

أما بالنسبة للمصادر العربية ظهر في المعرض كتاب **محيى الدين ابن عبد الظاهر الروض الأزاهر في سيرة الملك الظاهر ، نشر وتحقيق د . عبد العزيز الخويطر ط . الرياض عام ١٩٧٦ م** وتناول هذه المخطوطة التي حققها الخويطر جوانب هامة فيما يتصل بدراسة عصر الظاهر بيبرس وسقوط إمارة أنطاكية في عهده عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م ، وكذلك موقفه من عناصر الاسماعيلية النزارية وسياسته تجاههم وكذلك عناصر الهيئات الدينية الحربية الصليبية أو مرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام حينذاك حيث القى أضواء هامة على ظروف سقوط قلاعهم على يد المماليك في عهد بيبرس وبتفصيل فتتقر إليه المصادر التاريخية العربية الأخرى اللاحقة التي تناولت بالاشارة نفس المرحلة .

وقد حصل الباحث في دراسته لمخطوطة ابن عبد الظاهر على درجة الدكتوراة من جامعة لندن عام ١٩٦٠ م . الا انها لم ترضو النشر لأول مرة الا عام ١٩٧٦ عندما ظهرت في طبعة مدينة الرياض ومن قبل نشرها أشار الى اهمية ذلك العمل العلمى الأستاذ المستشرق فرانسيسكو جابريلي

Francesco Gabrieli فقد أشار الى المخطوطة المسالفة الذكر في كتابه
الشهير عن مؤرخي الصليبيات العرب .

The Arab Historians of The Crusades

الذي ظهر بالاطالية في اول الأمر ثم ترجم الى الانجليزية من جانب ج .
كوسستيلو G. Costello (انظر تناول المخطوطة في نفس الكتاب
الكتاب P. xxx 111 . ا وكذلك في الفصل الذي كتبه الأستاذ جابريلي
من الدراسة التي ظهرت من جانب جامعة اكسفورد Oxford عام
١٩٦٢ واشرف عليها الأستاذان ب . لويس B. Lewis وهولت Holt
تحت عنوان مؤرخو الشرق الأوسط *Historians of the Middle East*
حيث شارك جابريلي بموضوع يحل عنوان : —

The Arabic Historiography of the crusades

الكتابة العربية للحروب الصليبية ..

مقد أشار في المقالة الأخيرة ص١٦ هامش (٦) الى ان النص الكامل
الذي ألفه ابن عبد الظاهر عن سيرة الملك الظاهر بيبرس قد حققه الخويطر
كموضوع للدكتوراة وأنه لا يزال تحت النشر .

وأود هنا ان أشير فقط الى الخلط الذي وقع فيه سامي الدهان في مقدمة
تحقيقه للكتاب الأعلام الخطيرة ، والحقيقة ان المخطوطة لابن عبد الظاهر
كما تبين من قبل وان كان عز الدين ابن شداد له مخطوطة تتناول الظاهر
بيبرس في ادنة — المسجد المليماني تحت رقم ٢٣٠٦ وقد أشار الى ذلك
الخويطر في مقدمة التحقيق ص ٣٩ .

من اشارة الأستاذ الدكتور سامي الدهان عن ذلك انظر : —
عز الدين ابن شداد ، الأعلام الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة
ط . دمشق ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م ص١٨ مقدمة التحقيق .

من ناحية أخرى شهد المعرض لأول مرة ظهور كتاب **ابن طولون
الصالحى ، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصليبيّة** . الجزء الثاني . ط
« دمشق عام ١٩٨٣ م ، تحقيق محمد احمد دهبان ، وكان الجزء الاول قد
ظهر عام ١٩٤٩ م . وهكذا فقد فصل بين الجزء الاول والثاني ما يزيد على
الثلاثين عاماً وقد حقق الجزء الاول نفس المحقق . والكتاب كما هو معروف

مصدر على قدر كبير من الأهمية بشأن المباحية .

ويبيننا في تناول تطورها التاريخي والعبائر الدينية للمتصوفة على وجه الخصوص وإتسارات هامة عن الدور الحضاري الذي لعبته عناصر الديموقية وأسرة آل قدامة الجباميلي على وجه خاص .

وأود ان اشير هنا الى أنه من قبل قيام المعرض الدولي للكتاب في القاهرة علبت بصور الكتاب السابق من خلال النشرة التي أصدرها معرض المخطوطات العربية بالكويت في عدد يناير ١٩٨٣ م .

— هناك ايضا ما ألفه ابن نظيف الحموي في كتاب **تأريخ التصوري تحقيق د. أبو العين دادو مراجعة د. عنان درويش ط . مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٢م** ويشتمل على الأحداث التي وقعت ابان الفترة من عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م الى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . وهو مصدر هام للعصر الأيوبي في بلاد الشام على وجه خاص في تلك المرحلة .

— ظهرت في المعرض طبعة جديدة لكتاب **ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط . بيروت عام ١٩٨٢م** . ومن قبل كان الباحثون في مجال الصليبيات يستعملون ، بطبعات قديمة مثل ط . القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٣٥٨هـ . وكذلك طبعة بيروت عام ١٩٦٦م .

اما ما يتصل بالأعمال الحديثة والمراجع فقد احتوى المعرض على طبعة جديدة لمؤلفات د. جوزيف نسيم يوسف . ظهرت في بيروت عام ١٩٨١م . تحت عنوان **مكتبة الحروب الصليبية** .

واحتوت الطبعة الجديدة على المؤلفات الآتية : —

— **العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ط . بيروت ١٩٨١م** . وكانت الطبعة الأولى لنفس الكتاب قد ظهرت في القاهرة عام ١٩٦٣م ، في سلسلة المكتبة التاريخية . دار المعارف بالقاهرة . الطبعة الثانية عام ١٩٦٧م ..

— **الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي ط . بيروت .**

١٩٨١ • الطبعة الأولى في القاهرة عام ١٩٦٧ • في سلسلة المكتبة-
التاريخية ، دار المعارف بالقاهرة .

— العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة-
وفارسكور ط • بيروت ١٩٨١ •

الطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٩٦٩م • الناشر دار المعارف .

— العدوان الصليبي على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع على الأراضى-
المقدسة ط • بيروت ١٩٨١م •

للطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٩٥٦م ، الثانية ١٩٥٩ ، الثالثة ١٩٧١ ..
أما الطبعة التي ظهرت في المعرض فهي الرابعة ، بيروت ١٩٨١ •

— من ناحية أخرى ظهر في المعرض لأول مرة عدة مؤلفات جديدة للدكتور
عارف تابر وهى : —

المعز لدين الله الفاطمي ، ط • بيروت ، العزيز بالله • ط بيروت • الحاكم
بأمر الله خليفة وإمام ومصلح • ط • بيروت ١٩٨٢م • الناشر ، دار
الأناتى الجديدة •

وقد احتوى كتاب الحاكم بأمر الله رؤية مدافعة عن عقيدة الدروز أو
الموحدين ودافع بشدة عن سلامة معتقدهم •

— ظهرت في المعرض مؤلفات د. أسامة زكى زيد مدرس تاريخ العمسور
الوسطى . جامعة طنطا . وهى : —

— الصليبيون واسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية • القرن
الثاني عشر م / السادس هـ • ط • الإسكندرية ١٩٨٠م •

— صيدا ودورها في الصراع الصليبي الاسلامى • ط • الاسكندرية ١٩٨١م •
— واحنوى المعرض لأول مرة رسالة الماجستير التى أخرجتها الجامعة
الأردنية عام ١٩٨١م لطفه تلجى الطراونة تحت عنوان : —

• « مملكة صفد في عهد المماليك » •

الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٢م

الناشر ، دار الافاق الجديدة •

وقد تناول في رسالته الحدود الجغرافية للملكة وتاريخها السياسي والمظاهر الحضارية فيها . ويرجع أهمية الكتاب على وجه الخصوص في تناوله للجانب الحضاري خاصة توزيعات السكان والناحية الاجتماعية ولاقتصادية وكذلك الجهاز الإداري •

وأود أن أشير الى نشاط الجامعة الأردنية التي اهتمت في مجال الدراسات الإسلامية بتناول بعض المدن واخصاها للدراسة العلمية الأكاديمية فهناك مثلاً انتاج بعض الباحثين الذين انتسبوا لها • انظر : —

• محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العصر المملوكي •

ط • عمان ١٩٧٦م

يوسف غواتمة ، تاريخ شرق الأردن في عصر

دولة المماليك الأولى

ط • عمان ١٩٧٩م •

ومن الأمور المقررة أن جامعة الاسكندرية كانت قد خطت نفس الخطوة من قبل من جانب أ.د. جوزيف نسيم يوسف بحيث يمكننا القول أن مدن أنطاكية وطرابلس وصيدا وقسارية قد تمت دراستها دراسة تاريخية خلال مرحلة الصليبيات أو في مرحلة سابقة عليها كمحضل لدراسة الحروب الصليبية • أما جامعة القاهرة فقد تمت دراسة مدينة طرابلس وصور وأنتجه أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور الى تناول مواضيع ذات طابع سياسي أو تناول مظاهر حضارية خلال مرحلة الحروب الصليبية ولم يتوسع في تناول المدن بالدراسة •

ظهر في المعرض ما ألفه د. ميشيل جحا عن حركة الاستشراق في إنجلترا والمانيا وإيطاليا وإسبانيا : —

ميشيل جحا • الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا

النشر من جانب معهد الإنماء العربي — ليبيا

ط • بيروت عام ١٩٨٢م

وبحكم أن الباحث قد درس دراساته العليا في ألمانيا فقد قدم في كتابه تناولاً موثقاً لحركة الاستشراق في ألمانيا على نحو يميز دراسته على نحو خاص . ومن خلال ثبت المراجع نجد أنه استعان ببعض الأبحاث التي كتبها باللغة العربية بالألمانية وترجمت إلى العربية : —

— البرت ديتريش ، الدراسات العربية في ألمانيا .

ط • فمبادن عام ١٩٦٢ ، ط ١٩٦٨ .

— روتر ، الدراسات العربية الإسلامية .

بجامعة توينجن ت . كمال رضوان . ١٩٧٤ .

— صلاح الدين المنجد ، المستشرقون للألمان

ط • بيروت ١٩٧٨ .

ومع ذلك فهناك بعض الدراسات الهامة والتي كتب في مجلدات متناثرة متعددة الاهتمام بالنواحي الأدبية والمباحث التاريخية ، ولم يطلعها الباحث على الرغم من أهميتها ومسود بعض منها قبل ظهور كتابه القيم في عام ١٩٨٢م .

انظر مثلاً : آخر بحث علمي باللغة العربية عن حركة الاستشراق

الألماني قام به أحد الباحثين الألمان هو : —

Ulrich Harman

أولريش هارمان

مدير المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت

In titut der Deutschen Morgen landischen Gesellschaft

— أولريش هارمان ، الاستشراق الألماني

منجزات ومواقف .

مقالة مسخرجة من مجلة الباحث

السنة (٥) العدد (٢٥) الصادر في يناير - فبراير ١٩٨٢ م • من
ص ١٤٢ - ص ١٥١ •

تقدم فيها هارمان عرضاً رائعاً لحركة الاستشراق الألمانى ودوافعها على
نحو مختصر •

ايضا هناك دراسة لـ د. عز الدين اسماعيل •

— عز الدين اسماعيل ، « ملخص الاستشراق فى ألمانيا » •

مقالة مستخرجة من حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس م (٧)

عام ١٩٦٢ من ص ٢٤٩ — ص ٢٥٤ •

— ثم أخيراً دراسة قام بها د. مراد كليل •

— مراد كليل « العلماء الألمان والدراسات العربية »

مقالة مستخرجة من مجلة « المجلة »

السنة (٨) العدد (٩٨) •

مايو ١٩٦٤ •

من ص ٤ الى ص ٥١ •

تتناول فيها حركة الاستشراق الألمانى فى القرن الثامن عشر والتاسع
عشر وبدايات القرن العشرين ونمتاز المقالة بتنوعها ، فلم تقتصر على
الدراسات التاريخية فقط بل احتوت مجهودات المشرقين الألمان فى مجالات
التاريخ الإسلامى ، والنقوش العربية والأوراق البردية والدراسات التاريخية
بعمامة ، والأدب الشعبى والشعر واللهجات العربية وتاريخ القرآن والفقه
والحديث وكتب السير • والجغرافية وحتى الطب والعلوم الطبيعية •

الباحثون الإيطاليون ودراسة التاريخ العربى للمستغرب الإيطالى
للاستاذ أومبرتو ريتستاتو

ترجمة عن الإيطالية / عيسى الناعورى

مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى

— ظهر فى المعرض كنب المؤرخة « هسلى » العالم البيزنطى

Hussey, The Byzantine World, London 1957.

فى ترجمة عربية وفى طبعة جديدة هى الطبعة الثانية •

ترجمة د. رافت عبد الحميد أستاذ مساعد التاريخ الوسيط بكلية الآداب .
جامعة عين شمس . كانت الطبعة الأولى قد ظهرت من دار نشر سعيد رافت
عام ١٩٧٧ م .

أما الطبعة الأخيرة التي ظهرت في المعرض فهي طبعة القاهرة ١٩٨٢ م .
الناتج دار المعارف بالقاهرة .

أما الترجمة فتمتاز بالسلاسة والدقة وقد قام الباحث بتعليقات على
النص الأصلي لهسي محيلا فيها الغارئ الى المصادر الأصلية اليونانية
واللاتينية للتاريخ البيزنطي . ويفيدنا الكتاب فيما يتصل بمشاركة الإمبراطورية
الرومانية المتأخرة The later Roman Empire في النشاط الصليبي وأثار
الحملة الصليبية الرابعة بالذات .

— احتوى المعرض لأول مرة على الترجمة العربية لكتاب الأستاذ / ر — س
سمائل R. C. Smail

Smail, Crusader warfare, Cambridge 1954

ترجمة سامي هاشم ، تحت عنوان الحرب الصليبية ،
طبعوت ١٩٨٢ . الناشر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

ويعتبر هذا الكتاب من أهم أعمال سمائل وأول عمل يترجم له الى اللغة
العربية .

أما أعمال سمائل فهي كالآتي : —

Smail, Military Methods employed by the latin states in Syria,
1097. 1192 —Diss. For ph. D., Cambridge 1947.

وهو مؤلفه الأساس الذي حصل على درجة الدكتوراة به من جامعة
كامبردج .

وله دراسة عن القلاع الصليبية في القرن الثاني عشر ، انظر :

Smail, «Crusades Castles of The Twelfth Century» Cambridge His-
torical Journal Vol. X, 1951, pp. 133-149.

وايضا له دراسة عن الصليبيين في سوريا والأرض المقدسة .

Smail, Thee Crusaders in Syria and the Holy land, London 1973.

وهذه الدراسة هي أحدث ما وصلنا من أعمال الأستاذ سبائل .

• مما سبق يتضح لنا أن هذا العمل الذي ترجمه سامى عاشم هو أول عمل له يترجم إلى العربية . غير أن الترجمة أحيانا لا نجدها بصورة سلسلة ومتتابعة السياق ، ولم يضع المترجم أية تعليقات على نص سبائل ولم يحيل القارئ إلى أى دراسة عن الصليبيات ، بل لم يقدم المؤرخ الانجليزى بكتابه للجبهور أو الباحثين . ومع ذلك فالثابت أن المترجم بذل جهدا فى نقل النص الانجليزى على صعوبته لاحتوائه على الكثير من التعبيرات الاصطلاحية والجوانب الأثرية الدقيقة التى يفيض بها الكتاب .

ذلك كان مرضا موجزا لأهم المصادر والمراجع التاريخية التى تناولت مرحلة الحروب الصليبية والأمل معقود على نشاط حركة النشر فى دور النشر العربية لتخرج إلى الضوء العديد من الأبحاث الهامة التى تناولت تلك المرحلة الهامة والحيوية من تاريخ أممنا العربية .

مرض ونقد كتاب تاريخ المغرب — محاولة في التركيب
تأليف عبد الله المروى

سنومى يوسف إبراهيم
مدرس بمساعد يقسم التاريخ
كلية الآداب — جامعة عين شمس

ان محاولة عرض وتقييم واحد من الكتب التاريخية — في اعتقادى —
لمهمة شاقة تحتاج الى الكثير من المعرفة ، وبخاصة منهجية البحث التاريخى
بدءا من هوية المؤلف ، ومرورا بالعلوم المختلفة التى تثير الطريق للباحث ،
وانتهاء بمسئولية الفكر لتفسير الأحداث ، وقبل كل ذلك لابد من اساس
ضرورى وهو المعرفة الكاملة بالمصادر الأصلية التى كتبت عن الفترة التى
بتناولها الكتاب ؛ كما ان عرض كتاب ونقده مثار جدل ؛ اذ يرى البعض ان
الاختلاف مع المؤلف في تفسير بعض الأحداث ، وعدم التأكيد على صواب
تفسيراته وما وصل اليه من نتائج هو هجوم على المؤلف .

واذا كان الكتاب موضوع العرض متعلقا بتاريخ شمالي افريقيا
(المغرب) الذى ما زال يحتاج الكثير والكثير من الجهد للتعرف على حقيقته ؛
كما انه ليس تاريخا لفترة معينة — على عكس ما اعتاد المخصصون في حقل
البحث التاريخى في تأليفهم — وانما تاريخا للغرب بخلف عصوره ، منذ
ان ترك لنا الانسان بعض آثاره اما حفرا ونقشا ، واما آثارا وكتابة ، وحتى
العصر الحاضر الذى دوت أحداثه بالعديد من وجهات النظر حتى كادت
الحقيقة أن تضع بين هذه المفاهيم المختلفة ، مما زاد الأمر عسرا .

ولقد سرت مع المؤلف وصفحات كتابه الطريق كله ، بدءا بالمقدمة التى
حدد فيها الهدف من تأليف الكتاب ، وأخرج أفكاره من الظلمات الى النور عبورا
بالأحداث في سرعة ما اتفقت مع المصادر الأصلية ، وقفوا في نقاش وحوار
مع المؤلف اذا حاد في تفسيراته — من وجهة نظرى — عن الحقيقة التاريخية
الموثقة بالمصادر الأصلية ، او اذ استخدم حدثا واحدا ليكمل منه نظرية
تطبق على الفترة بأكملها ، غافلا غيره من الأحداث التى لا تخدم وجهة النظر
التي يريد اثباتها ؛ فيشوه بذلك الحقيقة التاريخية ، ويحيد عن الموضوعية ؛
حتى تصل في النهاية لما استخلصه المؤلف من الكتاب .

ولست في حاجة الى القول ان مثل هذا العمل قد بذل فيه من الجهد
والوقت الكثير ، كما انه ، لا شك ، قدم فائدة كبيرة لكل المهتمين بدراسة
تاريخ المغرب قديمه ووسيطه وحديثه ، ودليل صدق يؤكد بوضوح مدى
ثقافة المؤلف وسعة اطلاعه ، وبخاصة على كتابات المستشرقين . فذا كان
تركيزى في عرض الكتاب على الرد على بعض تفسيراته ؛ التى هى في
اعتقادى تجانب الصواب ، أو محاولته تثير ذراع الحقيقة التاريخية

ليستقرئها ما يريد أن يثبت ، أو لتحقيق هدف أعد الكتاب من أجله ؛ فحاذ بذلك من حيادية المؤرخ وموضوعيته ، فإن هذا لا ينقص من قيمة الكتاب والجهد الذي بذل فيه ، وما قدمه لنا مؤلفه من أفكار جديدة وجريئة في بعض الأحيان ؛ فإن جانب بعضها الصواب ؛ فكفى أن البعض الآخر كان جديدا لم يسبقه إليه غيره ، حتى إذا كان هذا الجديد فكرة واحدة أو نفسا فريدا .

فلماذا وضع المؤلف كتابه ؟ يقول المؤلف أنه وضع الكتاب للرد على المستشرقين الذين افترضوا فرضيات جريئة دون مسند حقيقي من أقوال المؤرخين المعاصرين (١) ، ثم تداول هذه الافتراضيات كل الذين جاءوا من بعدهم على أنها حقائق مؤكدة ، كما بالغوا في تقديرها وبخاصة ما كتب منها بالفرنسية ، دون نقد أو تحييص أو الاطلاع على المصادر الأصلية ؛ لأنهم يجهلون العربية والبربرية . ويشكك المؤلف في مدره المستشرقين على البحث التاريخي ، لأن معظم من كتبوا منهم عن تاريخ المغرب — حسب قوله — أما موظفون ذوو طموحات علمية ، أو عسكريون اتخذوا من الثقافة هواية ، أو مؤرخون في الفن وليس في التاريخ ، وكلهم دون اعداد لغوى ؛ وأما لغويون وعلماء آثار بدون اعداد تاريخي ، ومن أجل هذا فكر المؤلف في تقديم وجهة نظر أحد المغاربة في تاريخ وطنه ، كما يقوم « بانتقاد المؤرخين الأجانب بقسوة شديدة » (٢) . ويحدد منهجية دراسته بأن كتابه ليس إعادة رواية التاريخ بقدر ما يعنى بلأن المغرب اليوم في محاولة لربطه بماضيه على مر العصور .

ويتسم المؤلف تاريخ المغرب منذ القديم وحتى الوقت الحاضر الى أربع حقب — متناسبا بالتقسيم الذي اتفق عليه مؤرخو الغرب والشرق — الحقبة الأولى يبدأها من عصور ما قبل التاريخ ، وتنتهى في القرن الثامن

(١) رغم قوله هذا فإنه يشكك في مصادر تاريخ المغرب بعصومه المختلفة ؛ كما أن الوجود منها نص كبير بدرجة لا يمكن الاعتماد على هذه المصادر في كتابة تاريخ المغرب ، وعلينا أن ننتظر حتى اكتشاف مصادر جديدة حتى يتاح لنا كتابة هذا التاريخ .

(٢) وإن استثنى من هؤلاء المؤرخين المستشرق الفرنسي جوليان Julien الذي كان للمؤلف صديقا ، ولعظم المغاربة أستاذنا ، وكان ليبراليا ومناضلا ضد الاستعمار ؛

١٠-البلادي ؛ حينها اخذ المغرب بنخلص من حالته كموضوع ، وتعرف على نفسه
في حركة أيديولوجية ذات خاصية دينية (ويعنى بها ثورة البربر على الولاة
الأمويين سنة ١٢١هـ) فانطلق منها لتكوين المدن — الدول ، والإمارات ثم
الامبراطوريات ؛ فكان تاريخ المغرب منذ ذلك الوقت مختلطا بتاريخ تلك
الحركات الايديولوجية ، وهى الحقبة الثانية ، انتى تمند عند المؤلف حتى
القرن الرابع عشر الميلادي . ثما الحقبة الثالثة ؛ فهى التى كان فيها نتاج
المؤرخين مضابيا مع عواصم انسلطات المتعده (أى الدول المستقلة) التى
قامت في المغرب ، ولا تحين للانتمتقات الدينية بشيء ، واتخذ هؤلاء
المؤرخين من حياة عواصم هذه السلطات في فاس ونلمسان ونونس موضوعا
لتاريخهم ؛ في رقت بدأت فيه علاقات مع عالم جديد بترديد خطره ، ثم تجيء
الحقبة الرابعة مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي حيث يظهر نتاج فئتي
المؤرخين الاسنعماريين والقوميين ، اللتين بتعارضان على الأقل في تعبيرهما
عن الحقيقة الواقعة . ويرى المؤلف في تقسيم التاريخ الى أحقاب تبعا لنتاج
المؤرخين السياسى كوسيلة لترتيب التاريخ وعرضه ؛ وليخلص المؤرخ على
الأقل من منهجية الازدهار والانحطاط ، وكتابة التاريخ على نظام الأسرات ،
فلا يكون منطق العرض خاضعا أو مزوجا بنطق الوقائع نفسها .

ويرر المؤلف اختياره لهذا التقسيم في تاريخ المغرب على وجه الخصوص ؛
بأنه يتيح التفرقة بين المستويات المتعاقبة للاقتصاد والمجتمع ، والتنظيم المتعلق
بالدولة والثقافة ، ويساعد المؤرخ في تجنب عثرات عديدة منها تقسيم تاريخ
المغرب الى عصور قرطاجية ، ورومانية وفندالية وبيزنطية وعربية وتركية
ونرنسية ، وحتى لا بصور المغرب على أنه أرض المنازعات بين كيايتين غير
محددتين هما الشرق والغرب ، وليس الدينان المسيحى والاسلامى ، واللغتان
اللاتينية والعربية سوى مظاهر لهذين الكيايتين .

ويعيب المؤلف على المؤرخين المحدثين تقسيم تاريخ المغرب الى فترات
ثلاث في اطارها الضيق المحدود ؛ فهم مثلا يميزون بين فترة كلاسيكية تمتد
من القرن السابع مع انتشار الإسلام ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر « من
الحقبة الطويلة التى تتلوها ، وهى اختفاء المغرب من المسرح ، والهزائم
المتتالية في اسبانيا ، وتعديت الدول على أرض المغرب ، ولهذا يرى اما أن
يؤخذ بالتقسيم الذى اختاره ، واما أن ننتظر حتى يتطور نتاج للمؤرخين

اقتصادي واجتماعي حتى يمكن كتابة تاريخ المغرب وتقييمه الى فترات
على هذين الاساسين .

وقد اختار المؤلف عناوين للحقب الأربعة ليست أكاديمية شاملة جامعة
مائعة بقدر ما هي براءة ؛ فاختار للفترة الأولى عنوان : المغرب تحت
السيطرة ؛ بداية من قبل التاريخ ، وانتهاء بقيام الدول المستقلة (الرسنيين ،
المدرايين ، الادارسة ، الأغالبة ، برغواطية) مروراً بالفتح العربي لبلاد
المغرب ، دون تفرقة بين احتلال المغرب على أيدي سادة الغرب ، وتحول
اهل المغرب الى الاسلام ، وأثر هذا الفتح الذي غير تاريخ المغرب كلية .

ونأخذ الحقبة الثانية : عنوان المغرب الإمبراطوري ، وهي التي تبدأ
بقيام الدول المستقلة وتنتهى بالقرن الرابع عشر الميلادي أى بعد فترة من
قيام دولة بنى مرين ؛ معطيا تركيزا خاصا على الربط بين الاسلام والتجارة
في القرن التاسع الميلادي ، ثم عرض في عجلة لتاريخ الدول المستقلة ،
عارجا بعد ذلك على محاولتى المرابطين والموحدين ؛ ناعنا اياها بمحاولة
للوحدة ، ناهيا هذه الحقبة باخفاق هذه المحاولة .

أما الحقبة الثالثة فهي بعنوان : توازن الانحطاط ، وتبدأ حيث تنتهى
الثانية ، وتنتهى مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، ويناقش فيها بقية
الفترة التي عاشتها الدول المستقلة ، وتعرضت فيها لمحاولات صليبية من
الغرب المسيحي ؛ فاستجابت للتحدي حيناً ، ثم ما لبثت ان شغلت بالمراع
فيما بينها حتى انهكت قواها في الوقت الذي زادت فيه قوى الغرب ومحاولاته
الاستيلاء على المغرب .

والحقبة الرابعة اختار لها عنوان : المغرب الاستعماري ؛ حاول فيها
نوضيح المحاولات الاستعمارية للمغرب من دول الغرب المسيحي ؛ نصمد
المغرب أول الأمر ، ثم ما لبث ان انتصر المستعمر ، ثم يعرض بعد ذلك
لمحاولات التجديد في المغرب بعد تحرره من الاستعمار .

ويبدأ المؤلف الحقبة الأولى بمناقشة آراء المستشرقين التي دارت حول
البحث عن: أصول سكان المغرب ، من أمثال س. تزال J. C. Gsell
بألوت L. Balaut ، ج . كلبس G. Camps وغيرهم ، مبينا أن

مصادر هؤلاء هي النقوش الليبية الفقيرة في معلوماتها ، والتي مازالت رموزها لم تنك حتى الآن ؛ الى جانب المصادر الأدبية اليونانية واللاتينية ذات التجهيزات صعبة التفسير ، والتي تهتم بكل ما هو غريب وعجيب في التاريخ ؛ لأن كتبها أدباء وليسوا مؤرخين ، وكذلك الامكن الأثرية التي لم تلق عناية كافية للحفاظ عليها فحصب ؛ وانما عانت من عبث وتدمير الكثيرين من الهواة في هذا المجال

أما ما يقدمه علماء الآثار ، وعلماء السلالات البشرية ، وعلماء اللغات من معلومات لندير السبيل في البحث عن أصول البربر ؛ فليست سوى فرضيات جزئية مسكوك في صحتها . ويخرج من نقد المستشرقين ومناقشته لأرائهم بفرضية عن أصل البربر لا تعتمد على براهين من النوع الأرى الذى لا يحضى ؛ والذي يطالب به كل من خاضوا في بحث هذا الأمر ؛ ولنا الخيال في أن نقبل هذا الامراض ، وما أن ننظر المستقبل وما يأتى به من اكتشافات يكون لنا عوناً على كتابة تاريخ المغرب في هذه الفترة .

ثم يأتى للفترة التى شملت فترات حكم الفينيقيين واليونانيين والرومان والفاستال والبيزنطيين ، ليؤكد أن هذه الفترة كاملة غير معروفة لنا الا من خلال الأدب اليونانى اللاتينى الذى اهتم في الدرجة الأولى بانحاكمين ولبس بالحكميين ؛ فيكون ما ذكر فيها تاريخاً للقرطاجين وغيرهم من الذين احتلوا شمالى إفريقيا ، ولبس تاريخاً للبربر ، وبذلك يكون البربر موضوعاً لمعرفة غير مباشرة ؛ اذ يجرى التعرف عليهم من خلال القرطاجيين الذين نعر عنهم أعين الرومان ؛ أما المصدر الوحيد في هذه الفترة الذى يمكن أن يمدنا بمعلومات موضح القليل من الحقيقة هو التشريع الرومانى الذى يسمح بنكوين فكرة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجزء المحتل من البلاد — وهو الشريط الساحلى — وليس تكفا ، وعلى وجه التحديد حياة كبار الملاك ورجال الكنيسة وبعض المدن في هذا الجزء ، أما السكان الأصلي ، الذى لم يجد وسيلة حتى الآن للتعرف عليه أو لسماع حكمه عن الدور الحضارى الذى قامت به روما ، وتغنى به كل من كتبوا عن هذه الفترة بحماس لا حد له ، فيمكن تخيله في المرامي وفي أعالي الجبال أو محاصراً في الأوراس ، أو مطرداً فيها وراء الحدود الرومانية ؛ باذلاً كل ما في وسعه من جهد ليدفع ما عليه من الحصول كل حول .

ويجادل المؤلف المستشرقين الذين كتبوا عن هذه الفترة — وهم جميعا في نظره أصحاب رؤية استعمارية ، وهم جميعا يسقطون في تفسيراتهم اوضاعا لاحقة على الماضي الذى لا يملكون عليه دليلا — لأنهم علوا على تأكيد « أن شعب البربر مجرد تماها من كل مبادرة » وأن كل ما عرقه أهل المغرب من زراعة وصناعة ، وكل مقومات الحضارة حتى الأبجدية نفسها جاءتهم من خارج الحدود ، وليست من ابتكارهم ، ويحاول اثبات — دون دليل وثائقي ، وباستخدام المنطق وحده ، ورفض كل ما قدمته مصادر تلك الفترة ؛ لأن مؤلفيها قليلي الاطلاع على حد تعبيره — أن الضرورة هي التي ألجأت سكان الشمال الافريقى ودفعتهم الى معرفة الزراعة ، وإنتاج الحبوب بكثرة ، وعلى استنتاجه هذا يمكن أن تقاس بقية الأشياء الأخرى من صناعة ومقومات الحضارة .

ويأتى المؤلف الى تحول البربر الى المسيحية مؤكدا انتشارها بينهم بدرجة كبيرة حتى غدت افريقية أرض المسيحية الممتازة أكثر حتى من اسبانيا أو بلاد المال من نواح كثيرة ؛ وأن الاكتشافات الأثرية والكتابية تشهدان بتعميق العاطفة المسيحية لدى البربر ؛ الا انه يناقش نفسه ثانية عندما أراد أن يقدم تفسيراً لحدث آخر ؛ فيقول بأن المسيحيين كانوا نادرين في الشمال الافريقى ، ويخلص في النهاية الى القول بسطحية التنصير وبنية المسيحية في افريقية ، وأن المسيحية بها جذبت اليها جموعا من البؤساء سمعا وراء تبرير تعاستهم ، وأن المسائل الدينية لم تكن تحتل مكانا عظيما في السياسة الامبراطورية وفي حياة الناس اليومية أيضا .

ويرى أن تحول البربر الى المسيحية ، وبخاصة العقيدة الدونانية مسألة وطنية بحتة ، وصيغة من الثار ضد الأغنياء والامبراطورية ، ويؤكد أن كل ثورة أو تمرد قام به سكان الشمال الافريقى كانت للأسباب الاقتصادية وحدها ، وأن نجاح بعض هذه الثورات — ولو الى حين — ارضاء الميول العلمانيين والديمقراطيين من اليسار المعادى للاستعمار ؛ وكان الوطنية كانت وقتا على هذين الحزبين دون غيرها . ثم يقر في النهاية بحقيقة أن الثورات في تلك الفترة لا تدل على وعى قومى أو اجتماعى .

ثم يجيء الفاتدال الفاتح الجديد ليطرد المستعمر القائم ، دون أن يغيروا في البنى القائمة ، أو يزيّدوا من رقعة الأرض ؛ إذ عاشوا في نفس

نطاق إفريقيا الرومانية إلا أن قلّدهم غير من أفراد الطبقات ؛ إذ كان على الأريوسية ؛ مصادر أملاك كبار الملاك وكبار رجال الكنيسة لمصالح أنصاره ؛ فاستعدى عليه الآخرون رجال الدين في بيزنطة ؛ فمضط هؤلاء بدورهم على الإمبراطور البيزنطي حتى أرسل جيوشه واسترد المغرب ، ومن ثم أعاد للكنيسة أملاكها ، وللملك الرومان إقطاعيهم ، ويريث البيزنطيون نفس ما ورثه الفاندال عن الرومان بما فيه المصاعب السياسية والعسكرية . ويؤكد المؤلف أن أنظار رجال الدين في إفريقيا ما انجبت الى بيزنطة إلا لأن مصالحهم الاقتصادية قد اضريت ، دون أى اعتبار للخلاف المذهبي ، وأن جوستينيان ما استرد الشمال الإفريقى الا رغبة في ارضاء رجال الدين داخل عاصمته ، دون أسباب أخرى .

ويصور المؤلف العرب — دون ذكر اسمهم صراحة — بأنهم جماعة من البشر اتحدوا في دولة حول عقيدة ، وعندما وصلوا الى المغرب ليخلفوا السابقين ، ويتصرفون فيه كوارثين استخدموا نفس مناهج المستعمرين السابقين ، وحاكوا البيزنطيين ؛ فهانوا نفس المصاعب مع السكان الأصليين . ويرى في الفتح العربى للمغرب انتصارا سهلا على الحكام الأجانب ، وفتح مسير للمحكومين أهل البلاد الأصليين ، وأن العرب احتلوا نفس الجزء الذين سيطر عليه المستعمرون السابقون ، وأن هذا الفتح لم يبتكر جديدا ، ولم يكن له أثر في تشكيل سكان البلاد حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، وانتهى الأمر بالعرب الى التحديدات التى وضعها السابقون .

ولم يقدم لنا المؤلف اسبابا لطول مدة الفتح العربى للمغرب (الذى سماه فتحا عسريا) سوى شدة وصلابة أهل البلاد ؛ مع أن طول مدة الفتح كان لها في اضطراب أبور الخلافة مرات سببا ، وفي طبيعة سكان بلاد المغرب وجغرافية أرضه آخر ؛ فلننظم القبلى الذى هو طبيعة البربر والذى يحاول المؤلف جاهدا نفيه عنهم ، وعدم وجود حكومة مركزية تسقط البلاد بسقوطها كان ضمن أسباب طول مدة الفتح ؛ فكلما قضى العرب على قوة قبيلة ظهرت لهم أخرى وهكذا دواليك . لها قوله بأن العرب احتلوا نفس الجزء الذى سيطر عليه المستعمرون السابقون ؛ فقد بعد بذلك عن الحقيقة ؛ فقد انتساب العرب في البلاد وتوغلوا في الصحارى ، وعاشوا بين السكان الأصليين واختلطوا بهم ، واليهيم يرجع الفضل في ربط الصحراء بالشمال الإفريقى ، وقصة الفتح تملأ المصادر التاريخية ؛ وإن كان المؤلف يشكك في

صدق هذه المصادر . أما قوله بأن العرب علموا البربر نفس معاملة الذين استعصموا المغرب قبل ذلك من استغلال وإذلال ؛ فماذا هو قوله في مشاركة البربر للمغرب في فتح بقية المغرب وفي فتح الأندلس ؛ بعضهم جنودا في الجيش العربي على أن يكون لهم ما للمغرب ، وعليهم مثلهم ؛ وأن يكون من البربر قادة للجيوش من أمثال طارق بن زياد وغيره . أما أن يتخذ المؤلف من شواذ ولاية المغرب أساسا للقياس ؛ فقد عم القليل على الكثير ، وحاد عن موضوعية المؤرخ . فان كان عبيد الله بن الحجاب أساء ، فان غيره من الولاة كثير أحسنوا معاملة البربر ، وعاملوا من أسلم منهم على قدم المساواة مع العرب الفاتحين ، ومن أمثال هؤلاء عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار ، وحسان ابن النعمان ، واسماعيل ابن عبيد الله الذي أسلم على يديه الكثير من البربر والذي كان حسن السيرة بشهادة غالبية المؤرخين المعاصرين .

ويستخلص المؤلف أن الفتنية وحدها كانت غاية العرب الفاتحين ، ولم يكن في النفوس سوى المال هدفا ؛ فلم يكن المغرب أكثر ثراء من مصر آنذاك ، وقد بدأ فتح المغرب في عهد الخلفاء الراشدين حيث كانت الحبة الدينية ما زالت في النفوس ، وشارك كثير من الصحابة في هذا الفتح ؛ فماذا كانت الفتنية واحدا من الأسباب أو غاية بعض العرب الذين شاركوا في الفتح ؛ فام تكن كل الأسباب أو غاية كل العرب كما يريد المؤلف أن يصور .

ويشكك المؤلف بالمنطق وليس اعتمادا على المصادر في وصول عقبة بن نافع إلى المحيط الأطلنطي أو بحر الظلمات رغم ما ذكرته المصادر التاريخية لهذه الفترة من حصار قبائل محسوبة التي تقطن هذه النواحي لعقبة وجيشه ، وما أنقذه من هذا الحصار الأقبائل بنو عبد الواد الزناتيين الذين تحولوا إلى الإسلام من قبل ، ثم يناقض نفسه فيما أراد أن يشكك فيه حين تعرض لغزوات موسى بن نصير قائلا بأن سلك نفس الطريق الذي سلكه عقبة حتى طنجة ، ومن الثابت جغرافيا أن طنجة بالمغرب الأقصى المطل على المحيط .

ولم يكتف المؤلف بالتشكيك في المصادر التاريخية لهذه الفترة وسابقتها ولاحيثها أيضا ، وإنما أمدنا بمعلومات استنتاجية ليس لها في المصادر التاريخية وجود حين يذكر أن هجوما بربريا مضادا أكره زهير بن قيس البلوي على أخلاء القيروان بعد أن استردها من الزعيم البربري كسيلة وقضى على قوة البربر المناهضة آنذاك ، فكيف يعتمد على المصادر التاريخية التي

كتبت عن الفتح العربي للمغرب ، وهي من وجهة نظره متأخرة وتستند الى احاديث شفوية من اصول متنوعة ، كما أن كتب المغازي فهي من عمل فقهاء اهتموا فقط بالشروط التي اعتنقت بها الولايات الاسلام . ولذا فهو ينتظر النصوص البيزنطية التي لم تنشر بعد — رغم أنه شك في صدق هذه النصوص عندما تحدث عن المغرب تحت حكم البيزنطيين — لأنها اصدق قولا .

أما عن تحول البربر الى الاسلام ؛ فانه يرى أن الفتح العربي كان في جوهره اعترافا بالسيادة ، ولم يمن لا الدخول في الاسلام ، ولا التقريب بين الحاكمين والمحكومين ، وأن المسألة منذ بدايتها سياسية أكثر منها دينية ، ويلمح بأن البربر أجبروا على اعتناق الاسلام بقوله « ان الاسلام لا يقر الاكراه في اعتناق الدين ، وبخاصة فيها يتعلق بأهل الكتاب ، وبالمقابل فإن الولايتين هم مجبرون على الاهتداء بالدين ؛ فاعتناق الدين الجديد أخذ شكل الاعتراف بالسيادة » (٣) وأن العرب لم يقدموا جديدا لم يكن لدى البربر الا طريقة خاصة لعبادة الله ليس مؤكدا أن البربر أحسوا بكل جدتها . ويرى العرب مستعمرين كالفاندال والبيزنطيين لم يتركوا أثرا في المغرب (٤) ، ثم يناقش نفسه ليقول ثانية « ان التأثير العربي كان يتجاوز كثيرا تأثير البيزنطيين » (٥) .

ويعتقد أن المغرب استعاد استقلاله الذاتي بثورة البربر سنة ١٢١ هـ / ٧٤٠ م على ولاة بني أمية تحت راية الانشقاق الديني ، دون أن يحدد لنا مفهوم هذا الاستقلال — فهو يستعمل اصطلاحات حديثة كثيرة لم يكن لها وجود في العصور الوسطى بنفس المعنى في العصر الحديث مثل هذه الكلمة وكلمة اليسار وغيرها — فهل الاستقلال الذي يعنيه هو التخلص من سيطرة الخلافة الأموية ، وفك لم يكن هدف الثورة وقت قيامها (٦) أم التخلص من الولاى العربى ، واستبداله بأخر من أهل البلاد ؟ ؛ فإذا كانت الأولى فقد صدق ، أما اذا كانت الثانية فكيف يكون المغرب باستعاد استقلاله ؟ وكان على رأس دولة الأغلبية في غربيقة والتابعة للخلافة

(٣) ص ٧٧ — ٧٨ .

(٤) ص ٩٠ .

(٥) ص ٩٢ .

(٦) انظر بعده .

حاكم عربي وإدارة عربية ، وفي تاهرت بالمغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، وفي فاس بالمغرب الأقصى الإداري وحولهم القرويين والاندلسيين من العرب ؛ وفي برغوة بأقصى المغرب الأقصى في بلاد تلمسنا دولة صالح بن طريف غير معروفه النسب ..

ولأن المؤلف يرى أن المغرب استعاد استقلاله بهذه الثورة التي أنهى بها الحقبة الأولى من تاريخ المغرب ؛ فإنه يعتبر كل ما سبقها من قرون وما تحويه من أحداث هو تاريخ الأجناب على الأرض المغربية .

وننتقل مع المؤلف إلى الحقبة الثانية التي تمتد من القرن التاسع إلى الرابع عشر الميلادي لنرى المغرب الإمبراطوري كما يسميه ؛ إذ يرى أن هذه الحقبة تشكل وحدة لأن إرادة إمبراطورية ظهرت إلى الوجود ؛ فقد اتحد المغرب لأول مرة — بعد تجارب عديدة — تحت اسم فكرة دينية . فهل كانت هذه وحدة كما يسميها أم قبيلة زادت العقيدة الدينية من قوتها ؛ وقضت على العصبية القبلية بين بطونها ؛ والمنافسات بين زعمائها ؛ فغرضت سيطرتها على بعض القبائل الأخرى ؛ وضمت إليها مضاربها ؛ دون أن تثوب هذه القبائل مع بعضها ؛ وظل ولاء الأفراد للقبيلة وحدها ؛ دون احساس بوجود الدولة القائمة . وما أن انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر واخذته معها الكثير من قبيلة كتامة حتى عاد المغرب إلى طبيعته من تفكك وحياة قبائل كل تتبع زعيمها وتكون لها إمارة بالسيطرة على قطعة من الأرض لمدة قرن من الزمان ، ثم أعادت قبيلة أخرى الكرة تحت فكرة دينية جديدة ومذهب مألوف لتسود على المغرب الأقصى وبعض المغرب الأوسط وتنتقل إلى الأندلس ، وبعد قرن تضعف قوتها ليزيحها ائتلاف قبائلي آخر ويحل في السلطة محلها ؛ ويضم مسلحت وقبائل أخرى لسلطانه ؛ لتكون له نفس النهاية على أيدي قبائل داخل الدولة اشتد ساعدها ؛ فاقابلت لها دولاً على أجزاء من دولة الموحدين ، وحاول أحد سلاطين واحدة من هذه الدول أن يضم بقية الدول المستقلة لطاعته ويفرض الوحدة على المغرب من جديد ؛ فباعت المحاولة بالفشل ، ولم تقم لها قائمة مرة أخرى .

ويرجع المؤلف فشل المغرب في وحدته إلى عدم وجود مذهب إسلامي مستقيم الصحة ، ومحدد بوضوح — وليس إلى النظام القبلي النفاذ في المغرب بما فيه من ولاء للقبيلة وليس للدولة القائمة آنذاك ؛ وعدم ارتباط

بالأرض نفسها لأن طبيعة الكثير من قبائل حياة البداوة بها فيها من طعن. ونرجح — فهو يرى أن المذاهب الأسلافية جربت جميعها الواحد بعد الآخر من خارجي وزيدى وشيبي ومالكي وموحدي ، رغم أنه من الثابت تاريخيا أن القبائل البربرية لم تقيم دولا إلا بعد التقاف بعضها أو واحد منها حول مذهب ديني ثم تفرض الوحدة بعد ذلك على غيرها من القبائل ؛ فنكون محاولة الوحدة كما يسميها . فقد كتبت دولة الخوارج في ماهرث على المذهب الإباضي وقبيلتي نفوسة وبنى بفرن الزناتيين ، ودولة الخوارج في سجلماسة على المذهب الصغرى وقبيلة مكناسة ودولة الإدارة على المذهب الزيدى وقبيلة أودية ثم مغراوة ، والدولة الفاطمية على المذهب الشيعة وقبيلة كتابة ثم صنهاجة الشمال ، ودولة المرابطين على المذهب المالكي وصنهاجة اللثام . دولة الموحدين على المذهب الموحدي وقبيلة مسمودة .

والمؤلف يرى أنه مضطر الى تمييز المستوى السياسي الديني لأنه المستوى الذي يمكن انه يحظى بدراسة افضل بالوثائق ، وهذه الوثائق من وجهة نظره ان تقدم — على احسن وجه — الا نصف الحقيقة ؛ لأن التاريخ الاقتصادي هو وحده المفسر ، وهو متعذر التحقيق في الوقت الحالي لعدم وجود مصادر تتناول الجانب الاقتصادي .

ولاهتمام المؤلف بالاقتصاد على اعتبار أنه المفسر الوحيد للتاريخ — في منهج المؤلف — فانه يربط بين التجارة ونشر الاسلام في المغرب بصورة وثيقة (٧) ، ويصور الدولة المستقلة (برغواطيه ، الادارسة المديريين ، المرستيين ، الاغالية) على أنها مستعمرات تجارية . ويعرض لتاريخ كل منها في ايجاز وبطريقته ، فزعم ان ادعاء صالح بن طريف يرجع لايديولوجية تسييعية ، على عكس ما فكرته المصادر من أنه كان خارجيا عمل مع ميسرة المطرفي في ثورته على ولاية بنى أمية ، وهي الثورة التي يقول المؤلف عنها انها اتخذت من الخارجية ستارا دينيا وايديولوجية ، ويركز على أن رغبة البربر في استيعاب الاسلام كانت مشروطة بأن يكون هذا الدين متشيا مع ماضيهم ، وأن تعديل صالح بن طريف في سور القران وشرائعه وأحكامه دون نبذه كنية هو في حد ذاته اعتراف بقيمة الاسلام الحضارية . وكما دته يشكك.

(٧) حقيقة أن الاسلام انتشر على أيدي التجار المسلمين في وسط افريقيا وغربها وليس في الشمال الاثريقي كما يصور المؤلف .

عنها كتب المؤرخون الذين ينعتهم بأنهم راسيون ، ورغم ذلك تابعهم في عرضه لتأريخ دولة الإدارة بعد أن انفاض عليه سبغة اقتصادية . وبالمثل عامل لتأريخ دولتي الخوارج .

أما دولة الاغالبية فقد حظرت باهتمام المؤرخين المشاركة لأنها كانت في طاعة العباسيين وأن الاغالبية ما قاموا بفتح صقلية الا لشغل الجنود بعد أن قامت تهرات كثيرة في صفوف هؤلاء الجند ، وأن أعطوا المشروع طابعا دينيا ، الا انه ما يلبث أن يذكر الحقيقة بأن فتح صقلية كان قد أعد له منذ زمن طويل ، وأن محاولات فتحها بدأت مع السنوات الأولى لفتح أفريقية . ويربط المؤلف بين سقوط دولة الاغالبية ، وسقوط الخلافة العباسية تحت حماية الدليم نصف الشيعيين ؛ في محاولة من الشيعيين لتطويق المذهب السني ، رغم ما بين الحثين من بعد زمني ، ووتوقع خلفاء بني العباس تحت سيطرة للقواد قبل منتصف القرن الثالث الهجري ، وضعف الدولة منذ ذلك الحين . ولأن المؤلف لا يرى للتأريخ مفسرا سوى العامل الاقتصادي ؛ فلم يجد لذهاب علماء المسلمين المشاركة الى المغرب تفسيرا سوى البحث عن القوة .

ويرى المؤلف أن الشمال الأفريقي عانى من أزمة اقتصادية عاثت فيه فسادا بدأت مع القرن الثالث واستمرت حتى الثامن الميلادي ، وما زادها الفتح الإسلامي الا سوا ، مستتبعا ذلك من الحوادث السياسية وليس من الوثائق الاقتصادية التي لم يجد لها وجودا . أما القرن التاسع فكان عصر عودة الازدهار ، معتمدا في استنتاجه على ما أمده به الجغرافيون العرب الذين جابوا المغرب من بيانات وإحصائيات رغم أنه يشك في الوقت نفسه في كتاباتهم لأنهم لم يروا سوى المدن (٨) ثم يعود فيذكر أنهم عاشوا في القرى وأمدونا بوصف كامل لها عندما يحتاج الى تفسير شيء ما (٩) بدافع الدفاع عن سكان المغرب الذي هو أحد أهدافه من تأليف الكتاب كما ذكر في مقدمته .

ويرى المؤلف أن محاولات توحيد المغرب بدأت بالفاطميين وخلفائهم في حكم المغرب ؛ ويعرض في إيجاز سريع لقيام الدولة الفاطمية وتاريخها حتى

(٨) ص ١٢٣ .

(٩) ص ١٢٤ .

نقل خلافتهم الى مصر ، ويرجع هذا الانتقال الى مصر الى عدم قدرة الخلفاء الفاطميين على تنظيم البلاد او استمالتها الى قضيتهم ، وهذا أحد الأسباب وليس كلها ، فمن المعروف أن غاية الفاطميين كانت مركز الخلافة العباسية ، ومصر المرحلة الأولى في هذا الانجاز ؛ لذا ارسل الخليفة الفاطمي الأول اولى حملاته على مصر ، ولم يمض على قيام دولته بالمغرب سنون قليلة . أما السبب الثاني فكان لعدم ثقة الفاطميين في البربر ، والدليل على ذلك ما قام به المهدي من بناء لعاصمة دولته — المهدية ، وفرضتها زويلة ، فكان يعزل بين الناس ومعالمتهم واموالهم بالليل ، وبينهم وبين ابنائهم وخويهم بالنهار لعدم ثقته بهم . كما أن المؤلف يقدم سببا واحدا لفشل الفاطميين في توحيد المغرب ، وهو نوازن القوتين الفاطمية والأبوية ، وهو بالفعل سبب رئيسي وإن كان هناك غيره من الأسباب احدها طبيعة سكان البلاد ونظامهم القبلي ، واعتماد الفاطميين على قبيلة كتامة وهي التي لم تكن بالكثرة العددية حتى تمكن من اخضاع المغرب لطاعة الفاطميين ، ووقوف بعض القبائل في وجه الفاطميين فاقطعت راحتهم طوال مدة اقامتهم في المغرب ، وعلى رأس هؤلاء المعارضين كانت قبيلة زناتة التي تحالفت مع الأمازيغ في الاندلس عندما لم تستطع أن تقف وحدها في وجه الفاطميين . نكان الصراع بين البتر والبرانس أو زناتة وصنهاجة الذي حاول الكثير من المؤرخين ايجلده تفسير له .

فقد رأى فريق من المؤرخين أن سبب هذا الصراع كان اجتماعيا واقتصاديا، ويرى آخرون أنه صراع عرقي بين جماعات البتر وهم البدو الرحل ، والبرانس وهم أهل الزراعة والاستقرار ، وعلى رأس هذا الفريق المستشرق الفرنسي جوتييه ، أما الفريق الثالث فيرى أنه الاختلاف في الجنس بين هذين الجذنين هو أصل الصراع ، وأن الصراع قديم قدم وجودهما في المغرب ؛ ويقدم لنا مؤلف الكتاب تفسيراً جديداً لهذا الصراع على أنه صراع بين أهل التجارة ، واصحاب الزراعة ، واعتقد أنه في ذلك اصاب بكبد الحقيقة .

ويقدم لنا المؤلف تفسيراً جديداً وأن كان بعيداً عن الصواب لمشاركة البربر في حروب الاندلس في فترة الاضطراب التي انتهت بسقوط الخلافة الأموية وينقسم الاندلس الى خمس عشرة إمارة ؛ بأنه كان انقلبا للمغاربة من الأمويين الذين لم يستطيعوا توحيد المغرب ، ولا تركوا هذه المهمة

الأفريقية ، وأن حقد البربر الذى يفصلهم عن سكان المدن والصقالبه كان عنصرا حاسما في تطور هذا الوضع . فالحقيقة أن البربر كانوا مضطرين الى المشاركة في هذا الصراع ؛ اذ انتقلت منهم أعداد كبيرة الى الأندلس منذ الفتح ، أما الأهم منهم الذين استجلبهم المنصور بن أبى عامر كجند مرتزقة لضرب العصبية العربية بالأندلس ، والاعتماد عليهم في حروبه ضد النصارى ، وفريق ثالث خرج الى الأندلس فلما بنفسه نتيجة الصراع على السلطة ؛ فلم يكن أمام كل هؤلاء سبيل آخر للعودة الى شمالى أفريقيا بعد أن عاشوا في الأندلس . وذاتوا نعيمها وتمتعوا بخيراتها ، كما أنهم كانوا جندا مرتزقة يخدمون مع من يدفع لهم ، فلا انتقام هنا ولا حقد .

ولقبام دولة المرابطين يقدم تفسيراً جديداً ؛ فمضى فى أبى عمران الفاسى ، وعبد الله ابن ياسين صاحبى الفضل الأول فى قيام دولة المرابطين سلسلة من الدعاة الملتكئين العباسيين الذين أرادوا تطوير المذهب الشيعى من الجناحين ، السلاجقة فى الشرق والمرابطين فى الغرب رداً على ما قام به الفاطميون من قبل بتطوير الدولة العباسية باستمالة الفرس وأهل افريقية ؛ فمضى أن هناك ارتباط بين قيام دولة السلاجقة ونظرانهم المرابطين ، وعلاقة بين قيام الدولتين والخلافة العباسية التى بعثت دعائها فى أرجاء العالم الإسلامى ؛ فنجحت مهمتهم فى قيام هاتين الدولتين .

وإن كان بعد ذلك يرى قيام دولة المرابطين والموحدين من بعدهم من أجل السيطرة على الطرق التجارية عبر الصحراء التى تربط الأطلس بالبحر المتوسط ؛ فإن صدق هذا القول على المرابطين الذين كانوا هم دسهاجة اللتام ، الذين كانوا يسيطرون قبل قيام دولتهم على الطرق التجارية عبر الصحراء ؛ فجماعتهم الدعوة الدينية ممثلة فى عبد الله بن ياسين ، واستطاعوا بها إقامة دولة ؛ فمدحوا سلطاتهم على بقية طرق التجارة التى عرفوها من قبل . وخبروا أهميتها ، وما تدر من خير وفير ؛ فكيف يصدق ذلك على الموحدين الذى اعتمد ابن تومرت عليهم وهم قبائل عاشت بعيداً عن هذا المجال التجارى فى جبال الأطلس .

وعلى نفس النهج الذى من أجله ألف الكتاب الذى بين أيدينا ، يدافع عن مسلك ابن تومرت وممارسته وعنفه السياسى ، يدافع عنه كأحد أبناء الشمال الأفريقى ؛ إذ يرى البعض أن عنفه هذا لكونه بربرياً أما مؤلفنا فخرج

ذلك للأثر اللاشعوري للسياسة الباطنية حتى على أولئك الذين يحاربونها ، وإن نزع العنق السباسي في مطلع القرن السادس الهجري كانت خاصية العصر ؛ فمدح بذلك العصر كله بالعنف حتى يجد لعنف ابن تومرت مبررا . حتى أنه يشبه التنظيم في بداية دولتي المرابطين والموحدين بالتنظيم الاسلامي الأول على عهد الرسول ﷺ ، ويربط بينهما ويقارن ، ويخلص من ذلك ان الثلاثة كانوا على نسق واحد .

أما في تفسيره لسقوط دولة المرابطين الذين قلدوا السلاجقة ؛ فلكان بسبب عدم وجود الظهير الاحتياطي الكبير لديهم الذي كان يملكه السلاجقة ، ممثلا في الشعوب التركية التي كانت تستطيع امدادهم بالجنود وقت الحاجة ، وكذلك لعدم قدرة المرابطين على تشكيل مذهب ملكي جديد ، أما بالنسبة لدولة الموحدين فيقدم لسقوطها أسبابا انتهاء من داخلها ، وأخرى سقطت عليها من خارجها ، وكلاهما تفسر مقنع يتفق والحقائق التاريخية .

وتستمر المحاولة في إقامة امبراطورية مغربية بعد سقوط دولة الموحدين ، حتى تقضى هذه الفكرة نجبتها تماما بعد المحاولة الأخيرة التي أقدم عليها اسلطان المريني ابو عنان ولم يكتب لها النجاح ، ويظل المغرب مقسما الى دول تتصارع فيها بينها فتضعف قوتها ، ويصبح همها مشاكلها الداخلية ولا تمد اليد الى مسلمي الاندلس في الوقت الذي كانت فيه دول الغرب تقوى وتزدهر . وهذه هي الحقبة الثالثة التي تستمر قرنين من الزمان يمثلان حقبة من الانحطاط العميق التي كانت واحدة من أكثر حقب التاريخ المغربي مغزى ، فكانت اندول المغربية من الضعف الذي استدمى النخل الخارجي من جانب البرتغاليين والأسبان ، ثم كثرت الصحو على أيدي السعديين الذين حققوا أول نصر على البرتغاليين ، وإن كان ذلك بفضل مساعدة خارجية وليس بقوتهم الذاتية وحدها ، فرأى المؤلف ان هذه الحقبة هي مرحلة توازن الانحطاط .

ثم تكون الحقبة الرابعة والأخيرة ليكون في أولها الانحطاط التكاملي ، إذ استعمر المغرب كله ، وهذه الحقبة تبدأ — من وجهة نظر المؤلف — في مطلع القرن التاسع عشر أي أن التاريخ الحديث للمغرب يبدأ من ذلك الوقت وليس قبله كما اصطلاح على ذلك مؤرخو الشرق والغرب جميعا ، وتنتهي بطرد المستعمر ، ويبحث سكان المغرب عن شخصيتهم وعن أنسب الطرق

للحكم والتضاء على التخلف الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ، ويتطلب ذلك
مساءلة الماضى ، ومن أجل هذه المسألة كان تأليف الكتاب هذا .

وبعد هذا العرض السريع للكتاب ككل والتركيز على ما هو جديد فيه
اتفقا أم اختلافا ، فلا يفوتنى أن أكرر بل وأركز على الجهد الكبير الذى
بذله المؤلف والتحليل الموضوعى لكثير من الأحداث ، إلا أنه أراد أن يصبغ
كل ذلك بصبغة اقتصادية ، فصدق معه ما كان الاقتصاد سببه .

ويجب أن انوه أن الكتاب ليس للقارئ العادى ، إذ لا يذكر المؤلف
لكم الكافى من تفاصيل الأحداث ، وإنما القليل الذى يستخدمه فى التدليل
على فكرة أو رأى يريد أن يسوقه ، أو للرد على بعض المستشرقين بدون أن
يذكر قولهم ، فعلى من يريد أن يتابع ما جاء فى الكتاب أن يكون لاهذا تاريخ
المغرب عارفا ، وبأراء المستشرقين عالما . ولذا فإن هذا الكتاب يعتبر محاولة
فنتلير من عل للأحداث رغبة فى استنباط نظريات توضح الاستمرارية
والانتقطاع فى تاريخ المغرب ؛ متخذنا من تركيب السكان وتطورهم الاقتصادى
والاجتماعى الخط الذى يصل بين الفترات المتتالية من تاريخ المغرب حسب
تقسيمه لهذا التاريخ .

أما هذا التقسيم الجديد الذى قدمه لنا لم أجد له ببرا ، فإنه يقتضى
الأحداث العظام ، ويضعها ضمن حقبة دون أن يجعلها بداية لفترة كما اتفق
المؤرخون على ذلك ، وكأنه — كما أراد أن يؤكد — لم يكن لها تأثير على
تاريخ المغرب ، فوضع تحول المغاربة الى المسيحية ثم الى الاسلام ضمن
الحقبة الاولى ، فإن المغاربة وقفوا موقف المتفرج من المسيحية ، ومن انخذها
منهم عقيدة فليس من ايمان ، وإنما لتبرير تعاسة واقعة عليه ، أما الاسلام
والعرب الفاتحين فلم يقدم شيئا أكثر مما قدم الذين سبقوهم فى حكم المغرب ،
وأن الفتح العربى للمغرب لم يغير فيه شيئا أو يؤثر .

إلا ان الأحداث التاريخية وما ذكره المؤرخون يؤكد غير ما يستنبطه
المؤلف دون سند تاريخى أو وثائقى . فقد غير الفتح العربى فى بنى المجتمع
المغربى اقتصاديا واجتماعيا وروحيا ، فقد شارك بعض البربر فى فتح بقية
شمالى إفريقيا وكذلك فى فتح الأندلس ونالوا من الغنائم نصيبا ، وفتحت
أمامهم آفاقا جديدة ؛ فكان فتح الأندلس لهم بابا الى مجالات اقتصادية جديدة ،

كما كان لهذا الفتح اثره على تركيب السكان وكثافتهم في شمالي افريقيا ؛ فقد شارك الكثير منهم في الفتح ، واستقروا في البلاد الجديدة ، وهجر آخرون المغرب ليلحقوا بمن سبقوهم ، ويبدو ان عدد هؤلاء كان كبيرا يتضح ذلك مما ذكره الجغرافيون وأصحاب معالم البلدان من اسماء مدن ومقرى أندلسية تحمل اسماء قبائل بربرية . وكان لهذا التحول الى الاسلام اثره في التنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية أيضا .

ولا ادري لماذا اخبر ثورة البربر على الخلافة الأموية بداية لحقبة جديدة في تاريخ المغرب ، هل لأنها غيرت في تاريخه أكثر مما غير الفتح العربى وتحول البربر الى الاسلام ؟ ويرى ان البربر اتخذوا من الدين ستارا لثورتهم رغبة في الاستقلال عن الخلافة ؛ يؤكد ذلك ان البربر تأثروا بهذه العقيدة وتفاعلوا معها وفهموا احكامها ، وعرفوا ما لهم وما عليهم — على عكس ما يقول المؤلف بأن العرب لم يقدموا للبربر سوى طريقة جديدة لعبادة الله — ولم تكن هذه الثورة على الخلافة من أجل الاستقلال وانما قامت في وجهه وال تعسف مع البربر ، فذهب وفد منهم الى الخليفة الأموى شاكين املا في تغيير هذا الوالى وليس خلعاً لطاعة الخليفة ، فلما لم يجدوا من الخليفة آذانا صاغية ، ثاروا في وجه الوالى الأموى ، في وقت كانت الخلافة الأموية فيه آيلة الى الزوال ، وشغلت بمشاكلها في الشرق من هذا الجزء من العالم الاسلامى . وذلك واضح تماما في الرسالة التي تركها ميسرة المطرفى زعيم ثورة البربر هذه الى الخليفة هشام بن عبد الملك عندما ذهب اليه شاكيا ، فلم يستطع لقاءه فترك له الرسالة بكل ما جاء من اجله عليه يصلح الأمر ، ولكن الخليفة اهل في الإصلاح ؛ فكانت الثورة التي يحملها المؤرخون أكثر مما تحتل من التفسير .

ويحاول العروى في كتابه الرد على ما كتبه المستشرقون ، وبخاصة الفرنسيين منهم والذي يسميهم المؤرخين الاستعماريين ، ويحاول المؤلف أن يكشف عن الروابط العضوية التي تربط المغرب بحوض البحر المتوسط وليس بالشرق أو الغرب ، ومحاولة منه للتغيب في الماضي واستقراء لاحدائه ، ونقد كل ما كتب فيه ، لأنه يريد أن يعبر عن علاقة مغرب اليوم بالغلق على مستقبله الحريص على دعم هذا المستقبل بربطه بماضيه الحقيقي .

ويرى المؤلف وجود علملين هابيين هما القاعدة الأساسية لكل من

يحاول 'دراسة تاريخ المغرب أولهما : ان هذه المنطقة لم تدخل التاريخ وهي نصف متوحشة كما يحاول ان يصورها المؤرخون ، وان النظام القبلي والبدواة لا تمثل النظام الاساسى الذى لا يتغير فى حياة سكان المغرب ؛ وانما هو نظام دفاعى يلجأ اليه المغرب فى ظروف محددة ، ويتخلى عنه عندما تناسبه الظروف ، وهذه الفكرة شغل المؤلف نفسه كثيرا بالدفاع عنها ؛ رغم ما اكده المؤرخون قدامى ومحدثين بأن النظام القبلى هو أساس حياة سكان المغرب حتى اليوم ، وأن الولاء للقبيلة أولا وقبل الدولة حتى فى القرن العشرين .

وثانيهما فيتمثل فى دعوته الى كتابة التاريخ المحلى لسكان المغرب الاصليين ، والتطور التاريخى للمنطقة ، بغض النظر عن تاريخ المستعمرين روماننا كانوا أم بيزنطيين ، عربا أم فرنسيين .

ويرى المؤلف أن تقسيم دراسة التاريخ المغربى كما حاول الأوروبيون على ثلاث فترات زمنية توازى الفترات المأخوذة بها فى دراسات التاريخ الأوروبى لا تتفق مع واقع المغرب ؛ ولذا قسمه هو الى اربع فترات حسب نتائج المؤرخين المعاصرين لهذه الفترات . وفى رايه ان هذا التقسيم يمثل فى حد ذاته رؤيا جديدة للتاريخ المغربى ، تختلف عن تقسيمه الى قديم ووسيط وحديث ، وكذلك عن كتابة التاريخ بذكر العائلات الحاكمة واحدة بعدد الأخرى دون أية دراسة للتطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى يعكس تطور المجتمع ككل . ويحاول المؤلف فى هذه الدراسة أن يبين المغرب ككيان حيوى رابطا ما بين الفترات التى مر بها المغرب مبينا العلاقات الأساسية فى تطور المجتمع مرحلة تلو أخرى وركز تركيزا كبيرا على أهمية ومركزية الدور الذى يلعبه العامل الاقتصادى فى تطور المجتمعات عبر التاريخ .

ويقدم العروى لنا تقسيما جديدا للمغرب غير ما اصطلاح عليه غالبية المؤرخين والجغرافيين المسلمين وكذلك المحدثين ؛ فيقسمه الى منطقة الساحل والمغرب الأوسط الموازية لها ثم الصحراء أى حسب خطوط العرض ، وليس حسب خطوط الطول الى افريقية أو المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ؛ ويركز على الدور الذى لعبته الصحراء فى تاريخ المغرب ، وربما كان اختياره لهذا التقسيم لأنه على حسب تعبيره لأن جزءه الأول يشمل مدن السواحل التى لم يتعداها المستعمر ، وبقيت محوره ، وانتقلت

فيه السيطرة من حاكم الى آخر ، أما المغرب الأوسط ؛ فهو المغرب الحر
بلد الممالك المغربية ، ثم الصحراء التى كانت دأئها منطقة نراجع المغربى
ومركز الخطة الدفاعية .

ويرى العروى أن المغربى تبنى الاسلام كدأة أيديولوجية للوصول الى
الاستقلال الذاتى ، وتبدو هذه الظاهرة — عنده — أكثر وضوحا فى دور
أيديولوجية الخوارج بشمالى افريقيا ؛ وإن كان المؤلف يعرب على المؤرخين
المحدثين الذين يسميهم استعماريين أنهم يسقطون أحداث لاحقة على
أخرى سابقة ؛ فكيف له أن يعرف أن البربر بنوا الاسلام للوصول الى
الاستقلال ويستدل بثورة الخوارج ، رغم تحول الكثير من البربر الى
الاسلام قبل ظهور حزب الخوارج الى الوجود بالمرة .

أما أهم اضافات المؤلف فأنه التركيز على ضرورة استيعاب حقبة
النفاقض والصراع الاقتصادي والاجتماعى فى الفترة منذ بداية الاسلام وحتى
سقوط الموحدين على أنه صراع بين أصحاب التجارة والزراعة وليس بين
البدو والمستقرين كما افترض جوتبيه وردد ما قاله الكثيرون الذين أتوا من
بعده .

وأخيرا فقد اعتمدت وبصفة أساسية على الترجمة العربية للكتاب ،
وهى التى قام بها دة نوقان ثرقوط . والحق أقول أنها سيئة للغاية فى
أسلوبها ولغتها العربية أولا ، وما زادها سوءا عدم الملم المترجم الغام بكل
شئ عن تاريخ المغرب ، وذلك واضح كل الوضوح فى ترجمته لأسماء
المدن والأعلام والقبائل ، وحتى أسماء مؤلفى المصادر الأصلية من تاريخ
المغرب ، وكفى على ذلك مثالا أنه يترجم Ibn Idhari إى ابن مذارى
المؤرخ المغربى المشهور ، وصاحب واحد من عمد مصانير تاريخ المغرب
القليلة ؛ ابن أظهرى . وقد اضطررتى سوء الترجمة هذا الى الرجوع الى
الكتاب بلغته الأصلية ؛ مما يحتمل أن أتوه بل وأطالب بأن من يقوم
بترجمة أحد الكتب لأبد وأن يكون متخصصا فى نفس المجال حتى يقدم الفائدة
المرجوة من الترجمة . وبذلك يحترم نفسه ، ولا يستهين بالقارىء .

**رسائل الدكتوراه والمجستير المسجلة في
التاريخ الإسلامى والوسيط بالجامعات المصرية**

- ١ - أحصاء قوائم رسائل الدكتوراه والمجستير حتى بداية سنة ١٩٨٢ م .
- ٢ - الرسائل التى نوقشت بين يناير ١٩٨٢ حتى إبريل ١٩٨٣ .

قائمة برسائل الماجستير والدكتوراه
التي نوقشت في كلية الآداب جامعة عين شمس
في موضوعات التاريخ الاسلامي والوسيط

أولا : رسائل الماجستير

- ١ - أحمد ابراهيم الشريف : مدينتا مكة والمدينة في العصر الجاهلي وعصر الرسول (١٩٦٣ م) .
- ٢ - أحمد عبد الله الحسن : تحقيق الذيل التام على دول الاسلام للسخاوى
- ٣ - أحمد محمود عدوان : علاقة الدولة الحميدانية بالدول الاسلامية المجاورة .
- ٤ - تونيق سلطان اليوزبكى : الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية .
- ٥ - جمال جرجس يوسف : القضاء في العصر المملوكى تحقيق مخطوطة ابن قاضي شهبة نزهة النظر في قضاء الأبهصار (١٩٧٢ م) .
- ٦ - حسين عبد الرحيم سليمان : تحقيق مخطوطة الاعلام بتاريخ اهل الاسلام (١٩٧١ م) .
- ٧ - اقبال موسى : الحسبة في المغرب مع بعض النصوص الخاصة بها (١٩٦٨ م) .
- ٨ - توفيق جاسر أحمد : الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام (١٩٧٤ م) .
- ٩ - عبد الجليل عبد الرحمن : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ (١٩٦٨ م) .
- ١٠ - فتحى عبد الفتاح أبو سيف : الدولة الطاهرية ، التاريخ السياسي والحضارى (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) (١٩٧٦ م) .

...

- ١١ — محسن سعيد رضا : الكيسانية وأثرها السياسى والاجتماعى فى المجتمع العراقى فى القرن ٣ هـ . (١٩٧٠م) .
- ١٢ — عبد المحسن رمضان : اشتوريس لحدى القوى المسيحية الاسبانية المناهضة لولاة الأئمنلس . (١٩٨٠م) .
- ١٣ — _____ : ملوك غرناطة والخلافة الفاطمية ٢٩٦ — ٣٦٢ هـ .
- ١٤ — _____ : الحسبة فى الدولة الفاطمية الى آخر ق ٤ هـ .
- ١٥ — _____ : الفن الحربى الملوكى .
- ١٦ — محمد فيصل الكبيسى : تحقيق الحقائق الوردبة فى قبة الائمة الزيدية لأبى عبد الله الزيدى .
- ١٧ — محمود رزق محمود : العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين .
- ١٨ — _____ : غرناطة فى عهد ملوك بنى زيرى ٤٠٣ — ٨٢٠ هـ .
- ١٩ — فائق نجم مصلىح : طبقات المجتمع العراقى فى العصر العباسى الأول (١٩٧١م) .
- ٢٠ — عبد القادر طلبات : تحقيق مخطوطة دولة الانبكة ملوك الموصله لابن الأثير الجزرى (١٩٦٨م) .
- ٢١ — عبد الله مهدى الخطيب : الحكم الأموى فى خراسان (١٩٧١م) .
- ٢٢ — محمد سعيد جمال الدين : دولة الاسماعيليه فى ايران مع تحقيق تاريخ جهانكشاهى . (١٩٦٧م) .
- ٢٣ — عمر محمود سعيد : نظم بلاط العباسيين ورسومه فى بغداد (١٣٢ — ٦٥٦ هـ) . (١٩٧٢م) .
- ٢٤ — مراجع عقيلة : قيام دولة الموحدين . (١٩٦٨م) .
- ٢٥ — رافت عبد الحميد محمد : سياسة قسطنطين الأول تجاه الفرق المسيحية (١٩٧٠) .

ثانيا : رسائل النكوراه

- ١ — _____ : مھارس شيوخ العلماء في الأندلس .
- ٢ — _____ : الفرق الدينية في الدولة العباسية ق ٣ ، ٥
- ٣ — _____ : اصول خراسان الحضارية .
- ٤ — _____ : العراق في عصر بني بويه دراسة اجتماعية .
- ٥ — عبد العظيم خطاب : قنصوة الفوري ونهاية للدولة الملوكية .
- ٦ — محمد أمين صالح : التنظيمات الحكومية لتجارة مصر في عصر المماليك الجراكسة . (١٩٧٠ م)
- ٧ — _____ : التنظيمات العسكرية المملوكية الاولى .
- ٨ — حماد الدين خليل : املرة بني ارتق .
- ٩ — عبد القادر طليمات : المؤرخ ابن الاثير (١٩٦٧ م)
- ١٠ — اكرم العمري : موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٩٧٣ م)
- ١١ — اقبال موسى : دور مقيمة كرامة في تاريخ الدولة الفاطمية (١٩٧٢ م)
- ١٢ — احمد ابراهيم الشريف : تاريخ الحجاز في القرن الاول والثاني (١٩٦٧ م)
- ١٣ — توفيق اليوزبكي : تاريخ اهل النبة في العراق ١٧ — ٢١٨ هـ . (١٩٧٢ م)
- ١٤ — مراجع عقيلة : سقوط دولة الموحدين (١٩٧١ م)
- ١٥ — شفيق جاسر : العلاقة بين المسلمين والمسيحيين بالقدس منذ الفتح الاسلامي حتى الحرب الصليبية . (١٩٨٠ م)
- ١٦ — فضيلة الشامي : الخلفية العقائدية لحركة القرامطة وتأثيرها الاجتماعي والسياسي في المجتمع الاسلامي زمن الخلافة العباسية (١٩٧٣ م)
- ١٧ — محمد سعيد رضا : العراق في عصر بني بويه . دراسة اجتماعية على ضوء التطورات السياسية (١٩٧٤ م)
- ١٨ — رافت عبد الحميد محمد : التناسيوس .. فكرة وعلاقته بالدولة البيزنطية ، (١٩٧٤)

- ١٩ - أحمد محمد عدوان : الوضع الاقتصادي في مصر في عهد الدولة المملوكية الأولى (١٩٧٢ م) .
- ٢٠ - غاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي (١٩٧٢ م) .
- ٢١ - فابد محمد عائشور : التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية . (١٩٧٢ م) .

**قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التي توفقت
في كلية البنات جامعة عين شمس بمصر في
موضوعات التاريخ الإسلامي والوسيط**

أولا : رسائل الماجستير :

- ١ - سهام مصطفى أبو زيد : النخبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي .
- ٢ - سعاد محمد علي : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي .
- ٣ - غاطمة مصطفى عامر : ابن عبد الحكم المؤرخ المصري (١٩٦٨ م)
- ٤ - نادية هاشم حسن : تاريخ مدينة الطائف في العصر الجاهلي وصدر الاسلام (١٩٧٦ م) .
- ٥ - الطالب محمد يوسف : البحرين من الفتح الإسلامي حتى سقوط الغرامطة .
- ٦ - راية محمد حسن : الدولة العباسية وأثرها في علاقات الأنثوس الخارجية .
- ٧ - سميرة مختار الليثي : حركات الزنادقة في العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٢٢ هـ .
- ٨ - علية عبد السميع الجنزوري : الحياة السياسية في بلاد الشام في القرن الخامس هـ وأثرها في قدوم الحملات الصليبية (١٩٦٩ م) .
- ٩ - جوزيف نجيب أسعد : الحركة الأدبية والعلمية في الفسطاط منذ الفتح العربي الى نهاية الدولة .

- ١٠ - أحمد التكروري : تحقيق نيل الابتهاج بتطريز الديباج .
- ١١ - رمزية الاطرقجي : بناء بغداد في عصر ابي جعفر الميموري (١٩٦٧م) .
- ١٢ - زينب عبد المجيد رضوان : المنهج العلمى عند ابن خلدون .
- ١٣ - هيام عبد الرحمن سليم : شرق افريقيا عند الكتاب العرب من القرن ٣ هـ - ١٠ هـ .

ثانيا : رسائل الدكتوراه :

- ١ - عليّة عبد السميع الجنزوري : امارّة الرها الصليبية (١٩٧٢م) .
- ٢ - نادية هاتم صقر : الاتجاهات السياسية والحضارية في الدولة العباسية في عصر الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .
- ٣ - جهادية الفرغولى : التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام في العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٣٢ هـ . (١٩٧٤م) .
- ٤ - رمزية محمد الاطرقجي : الحياة الاجتماعية في مدينة بغداد في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) (١٩٧٢م) .
- ٥ - سميرة مختار اللبثي : حركات الشيعة في العراق والحجاز في العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) (١٩٧٥م) .
- ٦ - فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة في مصر الاسلامية منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الفاطمية .
- ٧ - سهام مصطفى ابو زيد : الدعوة الاسماعيلية ومدى نجاحها في مصر للاسماعيلية .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت

في كلية دار العلوم جامعة القاهرة في
موضوعات التاريخ الاسلامي والوسيط

أولا - رسائل المجستيم :

- ١ - جاهد غنيم أبو سعيد : قيام دولة بنى بويه .
- ٢ - حسن عبد الجواد : دولة الادارسة بالمغرب قبلها وتطورها الى منتصف القرن ٣ هـ .
- ٣ - رمزية عبد الوهاب : تجارة الخليج العربى واثرها فى الحياة الاقتصادية الاقتصادية فى منطقة الخليج والعراق منذ صدر الاسلام الى نهاية القرن الرابع هـ .
- ٤ - سليمان العسكري : التجارة والمحنة فى الخليج العربى فى العصر العباسى .
- ٥ - سوسن محمد نصر : القاضى الفاضل وصلاح الدين عماد الوحدة المصرية الشاملة . (١٩٧٦ م) .
- ٦ - طاهر راغب حسين : دور القبائل العربية بالمغرب العربى منذ المسيرة الهلالية حتى نهاية حكم الموحدين .
- ٧ - عبد الاعلا الطحاوى : عز الدين بن عبد السلام وبدرسته السياسية (١٩٨١ م) .
- ٨ - عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد فى الجزائر .
- ٩ - عبد الحميد الدسوقي : موقعة عين جالوت واثرها فى حماية الحضارة العربية .
- ١٠ - عبد الخالق حسين : القضاء فى مصر فى عهد الفاطميين والابويين (١٩٧٥ م) .
- ١١ - عبد الرحمن سالم : التاريخ السياسى للمعتزلة حتى نهاية ق ٣ هـ (١٩٧٤ م) .
- ١٢ - عبد الرحمن حسنين العزاوى : المنهج التاريخى عند المؤرخين العراقيين فى العصر البويهى (١٩٧٩ م) .
- ١٣ - عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب ونظمها عند المسلمين حتى نهاية القرن ٢ هـ .
- ١٤ - عبد المجيد ابو الفتوح : العلاقة بين سلاجقة آسيا الصغرى والدولة الايوبية . (١٩٧٦ م) .

- ١٥ — عبد الوسيط أوليس : القتال في الاسلام .
- ١٦ — على محمود : هجرة القبائل العربية الى الشام وأثرها .
- ١٧ — على محمود عمر : دولة الظاهر برقوق وأسرتة في مصر .
- ١٨ — نهى عبد الجليل : التنظيم الاسلامى والأرض الزراعية حتى قيام الخلافة العباسية وصلاته بتقنين الاقتصاد الاسلامى .
- ١٩ — محمد البلتاجى : منهج عمر بن الخطاب في التشريع .
- ٢٠ — محمد عبد الحميد : الدولة الغزنوية .
- ٢١ — محمد عبد الله النقرة : انتشار الاسلام في شرق افريقيا ومناهضة الغرب له (١٩٧٦م) .
- ٢٢ — محمد عيسى صابر : الدولة الرستمية بالمغرب قيامها وتطورها (١٩٧٥م) .
- ٢٣ — محمد محمود عامر : دولة بنى عدوان في ديار بكر .
- ٢٤ — محمد يوسف البحراوى : العلاقة السياسية والاقتصادية بفي الهند والخلافة العباسية ،
- ٢٥ — أحمد كامل محمود : الحكم بأمر الله وعمره (١٩٨١م) .
- ٢٦ — مصطفى عباس : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن الاسلامية في العراق حتى نهاية القرن ٣ هـ .
- ٢٧ — نصارى فهمى : الدولة الزيادية في اليمن .
- ٢٨ — وفاء جاعوس : بنو منقذ ودورهم في زحف الحروب الصليبية (١٩٧٩م) .
- ٢٩ — يونس السامرتى : السفارات في التاريخ الاسلامى حتى قيام الدولة العباسية .
- ٣٠ — السيد محمد أبو العزم : الأثر السياسى والحضارى للملكية في شمال افريقيا حتى قيام دولة المرابطين .
- ٣١ — عبد العزيز حمادى : الحركة الفكرية والتعليلية بمحنة مراتش منذ تأسيسها حتى سقوط دولة الموحدين وأثرها على المراكز الثقافية الاسلامية جنوب الصحراء

٤٥٤ — ٦٦٨ هـ .

- ٣٢ - عمر عمران أحمد : دولة الاشراف السعديين في مراكش (١٩٨١م) .
 ٣٣ - طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية بالمغرب .
 ٣٤ - محمد عبد الحميد الرفاعي : الدولة الفزنوية (١٩٧٥م) .
 ٣٥ - شفيق إبراهيم أبو الخير : الحركات السياسية والمذهبية في الخليج العربي من منتصف القرن ٣ هـ الى نهاية القرن الرابع (١٩٧٧م) .

ثانياً - رسائل الدكتوراه :

- ١ - حسن عبد الحميد : العلاقات بين مصر والادارة الحكومية في عصر الولاة من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية .
 ٢ - سوزى محمد : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في اتابكيات الجزيرة العراقية وعلاقتها السياسية في القرن ٦ هـ .
 ٣ - سوسن محمد نصر : الاخوة الملوك الثلاثة اولاد المعادل الأيوبي الكامل والمعظم والأشرف (١٩٧٧م) .
 ٤ - عبد الخالق حسن : النظم القضائية في مصر في عصر سلاطين المماليك (١٩٨١م) .
 ٥ - فهمى عبد الجليل : النزعة القبلية وتأثيرها في التاريخ الاسلامى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى (١٩٧٨م) .
 ٦ - محمد التاجى : مناهج التشريع الاسلامى في الدين في القرن ٢ هـ .
 ٧ - محمد عبد الحميد الرفاعي : الحركات الاستقلالية في ابران في انقرنين ٣ ، ٤ هـ . (١٩٧٩م) .
 ٨ - محمد عبد الله النقرة : التأثير الاسلامى في السودان الغربى من بداية القرن ٦ هـ الى القرن ١٠ هـ . (١٩٨٠م) .
 ٩ - محمد محمود عامر : المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر (١٩٨٠م) .
 ١٠ - على محمد عمر : دولة الظاهر برقوق وأسرته في مصر (١٩٧٨م) .
 ١١ - ياسين التكريتى : الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ٦٤٨ هـ - ٥٦٤ هـ (١٩٧٨م) .

- ١٢ - رمزية عبد الوهاب : تجارة الخليج العربي آثارها في الحياة الاقتصادية في منطقة الخليج والعراق من صدر الاسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (١٩٧٩ م) .
- ١٣ - حسين عبد الحميد جبر : التيارات المذهبية والنزعات التحريرية وأثرها في توجيه السياسة في مصر من منتصف القرن الثالث الى منتصف القرن الرابع هـ (١٩٨١ م) .

**قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التي
نوقشت في كلية الآداب جامعة الاسكندرية
في موضوعات التاريخ الاسلامي والوسيط**

اولا - رسائل الماجستير :

- ١ - حلمى محمد سالم : السلطان الظاهر برقوق حياته ونشأته في الديار المصرية .
- ٢ - احمد جمال الدين علي : الخلافة العباسية في مصر .
- ٣ - محمد صالح قزاز : الحياة السياسية في مصر في العدم العباسى الاخير .
- ٤ - عماد الدين خليل : عماد الدين زنكى حياته واعماله السياسية ونظمه العسكرية .
- ٥ - حسان قوام السامرى : المؤسسات الادارية في الدولة العباسية خلال الفترة من ٢٤٧ - ٢٣٤ هـ .
- ٦ - نبيل عبد المنعم : نشأة الشيعة الامامية .
- ٧ - فوزى نجيب حسين : صلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلاميه ضد الصليبيين .
- ٨ - كاظم ابراهيم : المآذن ونشأتها وتطورها في آثار العراق الى نهاية العصر السلجوقى .
- ٩ - أحمد طه ابراهيم : تونس منذ سقوط الدولة الصنهاجية الى قيام الدولة الحفصية .
- ١٠ - رشيد عبد الله الجميل : دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكى (١٩٦٨ م) .

:

١١ — اسهمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية

• (١٩٦٦م)

١٢ — أحمد عبد الحميد خلفي : موقف مصر من الحجاز في عصر المماليك

الجراكسة (١٩٦٨م) •

١٣ — محمد عبد المال أحمد : دولة بني أيوب في اليمن (١٩٦٨م) •

١٤ — إبراهيم سليمان محمد : نظام الوزارة في العصر العباسي الأول

(١٩٦٩م) •

١٥ — عدلي أحمد فريد : السلطان قنصوه الغوري وعصره (١٩٧٠م) •

١٦ — محمد بدوي موسى : تصور القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية .

١٧ — صلاح عبد الهادي : المجتمع العراقي في العصر العباسي الأول

١٨ — محمد عبد المنعم صالح : صقلية والنورمانيين وعلاقاتهم بالمسلمين

(١٩٧١م) •

١٩ — أحمد الطوخي : مظاهر الحضارة في مملكة غرناطة •

٢٠ — نبيلة حسن محمد : انتشار الاسلام في السودان الغربي من القرن

الخامس حتى القرن التاسع هـ (١٩٧١م) •

٢١ — أحمد القصاوي : البحرية الإسلامية في مصر والثمام بعد عهد صلاح

الدين الأيوبي •

٢٢ — ناجلا محمد عبد الغنى : العلاقات بين البندقية ومصر في عهد الدولة

الملوكية الأولى •

٢٣ — مصطفى الحناوى : جماعة الاستبارية ودورها في الصراع الصليبي

الإسلامي في عصر الحروب الصليبية •

٢٤ — إبراهيم خميس : جماعة الفرسان الداوية وعلاقاتهم السياسية

بالمسلمين في الشرق الأدنى حتى نهاية حكم صلاح

الدين •

٢٥ — على محمد الماضي : المغرب في عصر السلطان أبي عثمان المراكشي •

٢٦ — فريال قطان : نشأة الرق التركي والصقلبي في المجتمع الإسلامي حتى

نهاية القرن الرابع هـ •

٢٧ — محمد توفيق بليغ : آثار السلطان قايتباي في الاسكندرية •

- ٢٨ — بشير محمود عبد الله : ظاهرة الحرب في المجتمع الجاهلي .
- ٢٩ — جوزيف نسيم يوسف : حملة لويس التاسع الصليبية على مصر .
- ٣٠ — محمد كمال أبو راية : الأئمة عند العرب في الجاهلية .
- ٣١ — حسن رجب : المدرسة المستنصرية .
- ٣٢ — كمال الدين درويش : محمد بن عبد الوهاب والدعوة الوهابية .
- ٣٣ — ثابت اسماعيل الرواس : العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والاجتماعية الادارية .
- ٣٤ — محمد سليمان أيوب : تاريخ الدولة في عهد مملكة مروى .
- ٣٥ — كاظم ابراهيم : تخطيط مدينة الكوفة في المصادر التاريخية الاثرية خاصة في العصر الأموي .
- ٣٦ — مصطفى الكاظمي : العلاقات بين جنوة والفاطمين في الشرق الأدنى (٤٨٧ — ٥٦٧ هـ / ١٠٩٥ — ١١٧١ م) .
- ٣٧ — محمد محمد السيد : تاريخ القبائل العربية في مصر في عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية (١١٩٧٧ م) .
- ٣٨ — عبد المنعم سلطان : الهجرة الاسلامية في العصر الفاطمي (١٩٧٥ م) .
- ٣٩ — محمد عبد المنعم صالح : صقلية النورماندية وعلاقتها بالمسلمين (١٩٧١ م) .
- ٤٠ — درويش نخيلي : فتح الفاطميين في الشام في مرحلته الأولى ٣٠٨ — ٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) ٦
- ٤١ — محمود سعيد عمران : حملة حنادي برين الصليبية على مصر ٦١٥ — ٦١٨ هـ / ١٢١٨ — ١٢٢١ م (١٩٧٣ م) .
- ٤٢ — وسام عبد العزيز مرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية في عهد ليو الثالث الايسوري .
- ٤٣ — أسامة زكي زيد : العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام في القرن الثاني عشر (١٩٧٤ م) .
- ٤٤ — محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العسري في عصر الأيوبيين والمماليك (١٩٧٤ م) .
- ٤٥ — رضوان محمود رضوان : الجيش في عصر الدولة الفاطمية (١٩٧٤ م) .

- ٤٦ — أحمد محمد الطوخي : نشأة مملكة غرناطة الإسلامية في اسبانيا
(١٩٧٤م) .
- ٤٧ — محمطفى عمرو : القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين وبنى
مزين .
- ٤٨ — يوسف سلامة : امارة الكرك ودورها السياسى والاقتصادى في
منتصف القرن السادس الهجرى حتى منتصف
القرن السابع هـ . (١٩٧٥م) .
- ٤٩ — فايز نجيب اسكندر : فن الحرب والقتال لدى الصليبيين والمسلمين
(١٩٧٦م) في الشرق الأدنى في النصف الأول من
القرن السابع هـ .
- ٥٠ — حمدى عبد المنعم حسين : دولة بنى يوسف المرابطى في المغرب
والانطلس .
- ٥١ — كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية حتى
سقوطها في أيدي المرابطين .
- ٥٢ — وديع فتحى عبد الله : العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية
والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ديتونيلوس
٨٢٩ — ٨٤٢ م / ٢١٤ — ٢٢٨ هـ .
- ٥٣ — عبد الهادى التازى : جامع القرويين من الناحيتين التاريخية والأثرية
(١٩٧٥م) .
- ٥٤ — حسين محمد عطية : امارة انطكية الصليبية وعلاقاتها السياسية
بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ — ١١٧١م)
(١٩٢ — ٥٦٧ هـ) .
- ٥٥ — حيدر محمد حسن : أبو عبد الله البكرى حياته وآثاره العلمية
والتاريخية ٤١٣ — ٤٩٦ هـ .
- ٥٦ — سر الختم سيد فرج : الامارات العربية في ساحل شرق افريقية في
العصور الوسطى .
- ٥٧ — حسن عبد الوهاب حسين : قيسارية تحت حكم اللاتين (١٩٨٢م) .

ثانياً - رسائل الدكتوراه :

- ١ - عبد القادر محمد بسوقى : النظريات الإسلامية .
- ٢ - عثمان اسماعيل : الجديد في حضارة شلالة الإسلامية على ضوء المقابر الأثرية .
- ٣ - جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع في سوريا ١٢٥٠ - ١٢٥٤ .
- ٤ - عبد الغنى إبراهيم : السلاجقة والمسلميون في موقعة ملازجرد ١٠٧١م / ٤٦٥هـ .
- ٥ - سليمان اسحق إبراهيم : تاريخ التعليم في فلسطين في عهد سلاطين المماليك .
- ٦ - عبد الهادى التازى : دولة الموحدين في المغرب وإفريقيا والأندلس .
- ٧ - محمد المناوى : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمى (١٩٦٨م) .
- ٨ - محمد سليمان أيوب : حرية تاريخها وحضارتها (١٩٦٨م) .
- ٩ - رضوان البارودى : الحياة الحربية في عصر الدولة المرينية .
- ١٠ - جابر سلامة : السياسة الخارجية للملك بنى أيوب في الشام بعد صلاح الدين .
- ١١ - جليل حرب محمود : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي .
- ١٢ - عبد المنعم عبد الحميد : الموضع المصرى في عصر الدولة الناطبية .
- ١٣ - فايز نجيب أسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى .
- ١٤ - مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى .
- ١٥ - مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في الأندلس حتى نهاية الخلافة الأموية .
- ١٦ - محمد أحمد سيد أبو الفضل : شرق الأندلس في عصر دولة الموحدين .
- ١٧ - نبيلة محمد السيد : ابن تغرى بردى مؤرخا للمغرب والأندلس وموقفه من معاصريه دراسة مقارنة في المصادر .
- ١٩ - اسامة زكى زيد : بارونية صيدا وعلاقاتها السياسية بالسلطنة في الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية .

- ٢٠ — درويش محمود : مصادر المقرئى فى كتاب اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة
الفاطيين الخلفاء .
- ٢١ — محمود عونى : العلاقات السياسية بين الغرب اللاتينى والمغرب
الإسلامى فى عصر الحروب الصليبية .
- ٢٢ — محمود عبد العزيز : الخط العربى فى الأندلس وتطوره .
- ٢٣ — حسن أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى .
- ٢٤ — محمود زكى : الممالك الإسلامية فى الهند .
- ٢٥ — يوسف درويش : تاريخ منطقة شرق الأردن فى عصر دولة المماليك
الأولى .
- ٢٦ — رشيد الجبلى : إمارة الموصل فى العصر السلجوقى ٤٨٩ — ٥٢١ هـ .
- ٢٧ — عدلى حسن فريد : انهيار وسقوط دولة المماليك الجراكسة بمصر
والشام .
- ٢٨ — إبراهيم شريف : مفرج الكروب بأخبار بنى أيوب لجمال الدين بن
واصل .
- ٢٩ — جمال الدين الشيال : تحقق مفرج الكروب لابن واصل .
- ٣٠ — محمد أحمد عبد المولى : القوى السنية فى المغرب منذ قيام الدولة
الفاطمية حتى قيام الدولة الزيدية .
- ٣١ — أحمد عبد الحميد خفاجى : السلطان الظاهر جقمق وعصره ١٤٢٨ —
١٤٥٣ هـ (١٩٧٢ م) .
- ٣٢ — أسمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة
كريت الإسلامية (١٩٧٣ م) (٨٢٧ ر ٩٩١ هـ /
٢١٢ — ٣٥٠ هـ) .
- ٣٣ — بدرى محمد نهدي : تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير (٥٥٢ —
٦٥٦ هـ / ١١٥٧ — ١٢٥٨ م) .
- ٣٤ — حسن طه إبراهيم : بنو غانية فى المغرب والأندلس .
- ٣٥ — محمد عبد المال أحمد : اليمن فيما بين الدولة الأيوبية والفتح العثماني —
دراسة فى العلاقات السياسية الخارجية (١٩٧٦ م) .

٣٦ — محمد عبد المنعم صالح : مستغلبة النورمانية وعلاقتها بالمسلمين
٥٤٨ — ٦٤٨ هـ / ١١٤٥ — ١٢٥٠ م (١٩٧٥م) .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت
في كلية الآداب جامعة القاهرة في
موضوعات التاريخ الاسلامي والوسيط

اولا — رسائل الماجستير :

- ١ — ابراهيم حسن سعد : الجيش في عصر سلاطين المماليك (١٩٧٣ م) .
- ٢ — ابراهيم على طرخان : نظام الاقطاع في العصور الوسطى الى نهلية
عصر الايوبيين .
- ٣ — أحمد الياس حسين : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل
القرن ١٦ كما عرفها الجغرافيون العرب .
- ٤ — أحمد جمال الدين حسن : الخلافة العباسية في مصر .
- ٥ — أحمد رمضان أحمد : شبه جزيرة سمناء في القرنين ١٢ ، ١٣ م
(١٩٧٤ م) .
- ٦ — أحمد عبد الرحمن الفواوي : عبد الرحمن الناصر ونظام الحكم في عصره
(٣٠٥ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) .
- ٧ — أحمد عبد الكريم سليمان : الحياة الزراعية في مصر في العصر المملوكي
(١٩٧١ م) .
- ٨ — أحمد مختار العبادي : قيام الدولة المملوكية الاولى في مصر .
- ٩ — أمينة على البيطار : موقف أمراء العرب بالشلم والعراق من الفاطميين
حتى اواخر القرن الخامس هـ .
- ١٠ — أيمن فؤاد سيد : المذاهب الدينية في بلاد اليمن واثرا على الجانبين
العقلي والسياسي في ق ٥ ، ٦ هـ .
- ١١ — بدر عبد الرحمن محمد : النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي
(١٩٧٧ م) .

- ١٢ — تقى الدين عارف : علاقة صقلية بدول البحر المتوسط الاسلامية من الفتح العربى حتى نهاية الغزو النورمندى .
- ١٣ — جابر سلامة المدبرى : الزراعة فى مصر فى العهد الأيوبى والملوكى (١٩٧٤ م) .
- ١٤ — جرجس ميخائيل : السلطان حقوق وحالة مصر فى عصره (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ — ١٥٤٣ م) . (١٩٧٤ م) .
- ١٥ — جهادية عبد الكريم : الحياة السياسية ومظاهر الحضارات فى مدينة سايراد خلال القرن ٣ هـ .
- ١٦ — حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية وعلاقتها بالمغول .
- ١٧ — حامد غانم زيان : حلب فى العصر الزنكى ٤٨٨ — ٥٧٩ هـ .
- ١٨ — حسن احمد بتولى : عبد العزيز بن مروان وحضارة مصر فى عصره . علاقات الفاطميين بالدول الاسلامية وخادسة
- ٢٠ — حسين محمد سليمان : تقيف منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة الأموية . (١٩٧٢ م) .
- ٢١ — حمدان ابراهيم عبد الله : الامامة فى العراق الاسلامية حتى ق ٣ هـ .
- ٢٢ — فوزى نجيب حسين : صلاح الدين وتوحيد الجبهة العربية زمن الصليبيين .
- ٢٣ — قاسم عبده قاسم : نهر النيل واثره فى الحياة المصرية فى عصر سلاطين المماليك . (١٩٧٢ م) .
- ٢٤ — محمد على حيدر : الدولة الساسانية نشأتها وتطورها وحضارتها حتى سنة ٣٣١ هـ .
- ٢٥ — محمد فتحى الشاعر : اقليم الشرقية فى عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك . (١٩٧٦ م) .
- ٢٦ — محمد فتحى عثمان : الثغور الجنوبية الشامية الى نهاية عهد التوكل .
- ٢٧ — محمد محمد أمين : السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م .
- ٢٨ — محمد محمد الشيخ : الجهاد الدينى ضد الصليبيين حتى سقوط الرها . ١٠٩٧ — ١١٤٤ م .

- ٢٩ - محمد محمود أحمد : الحياة الزراعية في العصر الفاطمي الى نهاية عهد المستنصر بالله (٣٥٨ - ٥٨٤٧ هـ) (١٩٧٧ م) .
- ٣٠ - محمد محمود أبو زيد : أثر النيل في الحياة المصرية حتى منتصف القرن ٤ هـ .
- ٣١ - محمد حسين الزهراني : الوزراء في العصر البويهي السلجوقي (٣٣٤ - ٥٩٠ هـ / ٩٤٥ - ١١٩٣ م) .
- ٣٢ - محمود اسماعيل عبد الرازق : السياسة الخارجية للأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٨٠ - ٩١٢ م) .
- ٣٣ - ليلى القاسمي : الفيوم في العصور الوسطى بين القرن ١٢ ، ١٦ م .
- ٣٤ - فيصل المسامر : حركة الفرنج وأثرها في تاريخ الدولة العباسية (ب - ت) .
- ٣٥ - محمود ابراهيم شلبية : علاقات المغول بسلطنة المماليك في مصر والشام . (ب - ت) .
- ٣٦ - محاسن لبيب : الأزياء في التصوير في العصرين السلجوقي والمغولي .
- ٣٧ - محمود أحمد زيور : العلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والأخشيدي .
- ٣٨ - محمد بركات الببلي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اشبيلية في عصر بني عبد (١٩٧٨ م) .
- ٣٩ - محمد توفيق خفاجي : اثر الأتراك السياسى والاجتماعى في اشبيلية في القرن ٣ ، ٤ هـ .
- ٤٠ - محمد حسين عبد الزيدى : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة منذ نشأتها حتى نهاية الحكم الأموى .
- ٤١ - محمد زينهم عزيب : الادارة المركزية للدولة الاموية (١٩٨١ م) .
- ٤٢ - محمد صالح القزاز : الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير .
- ٤٣ - محمد عبد الرحيم غنيم : مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى في الاسلام .
- ٤٤ - محمد عبد الفتاح غلبان : قرامطة العراق في القرن ٣ ، ٤ هـ .
- ٤٥ - نظير حسان سعداوى : نظام البريد في الدولة الاسلامية .

٤٦ - نعيم أبو بكر : المتابر الخشبية في مصر حتى العصر المملوكي .
٤٧ - مواهب عبد الفتاح ابراهيم : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة
في دولة السلاجقة على عهد السلطان ملكشاه
(١٩٨٢) .

٤٨ - فوزى حيدى القيس : الفروسية في العصر الجاهلي .
٤٩ - هادى نهر : معارك نور الدين محمود بن زنكى في عصر الصروب
الصلبية .

٥٠ - عبد الرؤوف عفيفى : الأشرف خليل بن قلاوون .
٥١ - عبد العزيز محمد عبد الدايم : اماره طرابلس الصليبية في ١٢ م .
٥٢ - ساهية مصطفى : العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة
الاموية (١٩٨٠م) .

٥٣ - سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان في العصر الوسطى
٥٤ - سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية .
٥٥ - سلام شافعى محمد : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمى الأول .
(١٩٧٦م) .

٥٦ - سليمان اسحق عطية : تاريخ التعليم في فلسطين منذ الفتح العربى حتى
آخر عصر الأيوبيى .

٥٧ - سليمان عبد الغنى ملكى : مرافق الحج والخدمات المدنية في الأراضى
الإسلامية المنتسبة من السنة ٨ هـ حتى سقوط
الدولة العباسية . (١٩٧٨م) .

٥٨ - السيد الباز العربى : تحقيق نهاية الرتبة في طاب الحسية لعبد الرحمن
الشمرأى مقنة تاريخية لوظيفة المحتسب
وتطورها في مصر .

٥٩ - صابر دياب : تطور الحالة السياسية في بلاد اليمن خلال القرن ٣ ، ٤ هـ
٦٠ - عبد الغنى رمضان : قصر الخلافة في العصر العباسى .
٦١ - عبد الغنى محمود عبد العاطى : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك .
(١٩٧٥م) .

- ٦٢ — عبد الله ناصر سيف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز في العصر الأموي من عام ٤٠ — ١٣٢ هـ .
- ٦٣ — عثمان عثري : الأسطول والبحرية على عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ هـ / ٩٢٢ هـ .
- ٦٤ — عصام الدين الفقى : الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في مدينة دمشق من الفتح العربى الى نهاية العهد الأموى .
- ٦٥ — عفاف صبره : ديوان الانشاء وتطوره في عصر الأيوبيين والمماليك ، تحقيق مخطوطة الدر الموشى في صناعة الاتشسا للموصلى الكاتب .
- ٦٦ — عفيفى محمود ابراهيم : احوال بلاد المغرب الاقتصادية في ظل السيادة الفاطمية (٢٩٦ — ٤٤٣ هـ) . (١٩٧٧ م) .
- ٦٧ — على احمد بيومى : قيام الدولة الأيوبية في مصر .
- ٦٨ — على السيد على : المجتمع المسيحى في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (١٩٧٩ م) .
- ٦٩ — على بن حسين السليمان : علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك (١٩٧٠ م) .
- ٧٠ — على حسنى الخربوطلى : حركة عبد الله بن الزبير واثرها في تاريخ الدولة الأموية .
- ٧١ — فاضل عبد اللطيف : تطور الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق خلال القرن ٥ هـ .
- ٧٢ — منى رضوان احمد : الأسرة الجمالية ودورها في الحياة السياسية والاجتماعية في عهد الدولة الفاطمية (١٩٨٢ م) .
- ٧٣ — خاطبه مصطفى الحكيم : الاستكثارية في العصر الأيوبي (١٩٨٠ م) .
- ٧٤ — فرج محمد : النظم المالية والإدارية في الدولة العربية الإسلامية (١٩٧٦ م) .
- ٧٥ — حمدان عبد الحميد : أسواق بغداد حتى العصر البويهى .
- ١٤٥ — ٣٣٤ هـ / ٧٦٢ — ٩٩٥ م (١٩٧٧ م) .

- ٧٦ — حنفى محمود خطاب : الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الاولى .
- ٧٧ — حورية عبد الجيد سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة
الفسطاط في العصر الفاطمى .
- ٧٨ — خاشع المعاضيدى : دولة بنى عقيل في الموصل (٢٨٠ — ٥٤٨٠ هـ) .
- ٧٩ — خطاب عطية : تاريخ التعليم في مصر في العصر الفاطمى الاول .
(٢٥٨ — ٥٤٦٥ هـ / ٩٦٨ — ١٠٠٢ م) .
- ٨٠ — خليل ابراهيم صالح : علاقات المرابطين بالمالك النصرانية في الاندلس.
وبالدولة الاسلامية .
- ٨١ — خليل صلبات : تاريخ الطباعة في الشرق الادنى .
- ٨٢ — الدرديرى اسماعيل البيللى : الربط في بلاد المغرب انشائها
وتطورها حتى منتصف القرن الخامس هـ .
(١٩٧٨ م) .
- ٨٣ — راضى عبد الله عبد الحليم : النظام الادارى والحربى في الدولة
العربية والاسلامية على عهد الخلفاء الراشدين
(١٩٧٩ م) .
- ٨٤ — رجب محمد عبد الحليم : دولة بنى حمود في مالقة بالاندلس (١٩٧٦م) .
- ٨٥ — رضوان اغياتى : القبائل العربية في مصر في القرن ٣ ، ٤ هـ وأثرها
على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية .
(١٩٧٦ م) .
- ٨٦ — زاهر رياض : مظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة
في العصور الوسطى .
- ٨٧ — زبيده محمد عطا : الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية زمن الايوبيين .
(١٩٦٨ م) .
- ٨٨ — زين العابدين سراج : دولة تكلم الاسلاميه ق ٩ — ١٤م (١٩٧٥م) .
- ٨٩ — سامية توفيق : تطور الوزارة في بداية العصر العباسى حتى نهاية
القرن ٣ هـ (١٩٧٧ م) .
- ٩٠ — عادل محمد شهاب : منهج البحث التاريخى عند البيرونى (١٩٨٠م) .

- ٩١ — ابنسليم صالح عبد الحليم : بهادر شاه ظفر آخر سلاطين المغول .
(١٩٨٠ م) .
- ٩٢ — منى حسن محمود : العلاقات بين دولة الفرنجة والمسلمين في الأندلس
(١٩٨٠ م) .
- ٩٣ — عادل بخيت رستم : مظاهر الحضارة الإسلامية في الدولة السامانية
(١٩٧٨ م) .
- ٩٤ — عباده عبد الرحمن كحيلة : المولكون في التاريخ الأندلسي (١٩٧٨م).
- ٩٥ — أحمد محمود زيور : العلاقات بين مصر والشام في المهددين الطولوني
والأخشيدى . (١٩٧٦ م) .
- ٩٦ — صالح مصطفى مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال
الخليفة إلى مصر (١٩٧٦ م) .
- ٩٧ — شوقي عبد القوى عثمان : العلاقات الخارجية بين مصر والدول
الافريقية في عصر سلاطين المماليك (١٩٧٧ م) .
- ٩٨ — جمال الدين الخولي : دراسة مقارنة لوثائق للاستبدال بمصر في
القرن العاشر الهجري (١٩٧٤ م) .
- ٩٩ — عادل سليمان زيتون : العلاقات بين القوى الإيطالية وبيزنطة في القرن
١٢ م . (١٩٧٥ م) .
- ١٠٠ — نوال عبد العزيز : العرب في شرق إفريقيا من القرن الثامن الميلادي
حتى تدخل البرتغال في القرن الثامن عشر م
(١٩٨٠ م) .
- ١٠١ — صالح حسين ناصر : تاريخ مشرق الجزيرة والخليج العربي في فجر
الإسلام حتى نهضة الدولة الأموية (١٩٨١ م) .
- ١٠٢ — صفاء حافظ عبد الفتاح : النفور البحرية منذ الفتح العربي حتى نهاية
العصر الفاطمي .
- ١٠٣ — عبد الجبار منسى : دور الخليفة الموحدي العباسي في اقرار النظم
العباسية .
- ١٠٤ — عبد المجيد الشرفاوي : الملاحة البحرية الأندلسية في القرن ٣ ، ٤

- ١٠٥ — عبد الرحمن عبد الله الحاج : العلاقات بين بلاد المغرب وشرق السودان منذ ظهور الاسلام حتى ظهور الفرنج (١٩٧٦م) .
- ١٠٦ — هاشم اسماعيل هاشم : دراسات تاريخية عسكرية عن الدولة البيزنطية منذ الفتح العربي للشام حتى نهاية العصر العباسي الأول (١٩٧٧م) .
- ١٠٧ — هشام سليم عبد الرحمن : الحكم في الأندلس في عصر الخلافة (١٩٧٥م) .
- ١٠٨ — داود محمد فهمي رشوان : دار الخلافة الأموية في دمشق نظماً ورسمها (١٩٨٠م) .
- ١٠٩ — محمد محمود عرفة : الجيش في العصر الأموي (١٩٨٠م) .
- ١١٠ — محمود محمد الحويري : أسوان في العصور الوسطى .
- ١١١ — مزمل محمد حسين : نيات الشام في عهد الدولة المملوكية الأولى .
- ١١٢ — مصطفى عبد الخالق : هجرة بني هلال للمغرب . (١٩٨١م) .
- ١١٣ — منى إبراهيم عبد الرحمن : السفارات الأجنبية في مصر على عهد سلاطين المماليك (١٩٧٥م) .
- ١١٤ — منى حسن أحمد محمود : العلاقات بين الفرنجة والمسلمين في الأندلس ٧١٤ — ٨١٥م .
- ١١٥ — موسى عبد الغفار : الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين في العهد الأموي ٤٠ — ١٣٢ هـ (١٩٧٩م) .
- ١١٦ — نبيل أحمد عبد العزيز : دمشق ١٠٧١ — ١١٥٤م (١٩٦٨م) .
- ١١٧ — نبيلة إبراهيم مقامى : فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين ١٢ ، ١٣ م . (١٩٧٥م) .
- ١١٨ — نجله قاسم الصالح : بلاد الحجاز خلال العصر العباسي الأول .
- ١١٩ — نزيهة عبد العزيز : الحياة السياسية ومظاهر الحضارات في العراق والمشرق في عهد الخليفة القادر بالله العباسي (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) (١٩٨١م) .
- ١٢٠ — عبد الحفيظ محمد على : الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين في الشرق الأدنى (١٩٧٥م) .

ثانياً - رسائل الدكتوراه :

- ١ - آمال أحمد حسن : المنشآت النجارية في القاهرة في العصر المملوكي
(١٩٧٥ م) .
 - ٢ - ابراهيم على طرخان : النظم القطاعية في دولة المماليك الأولى والثانية
(١٩٥٥ م) .
 - ٣ - ابراهيم راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في العهد الفاطمي
(١٩٤٤ م) .
 - ٤ - أبو النصر الخالدي : المختار بن عبيد التقى اسباب ثورته ونتائجها
دراسة اجتماعية .
 - ٥ - احمد عبد الكريم سليمان : العلاقات بين الدولة البيزنطية والقوى
الاسلامية في شرق البحر المتوسط في ق ١٠ ،
١١ م (١٩٨٠ م) .
 - ٦ - أمينة البيطار : الحياة السياسية أهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام
بمنذ قيام الخلافة العباسية حتى الفتح الفاطمي
(١٩٧٥ م) .
 - ٧ - بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق
والشرق الاسلامي في ق ٤ هـ منذ ظهور السلاجقة
(١٩٨٠ م) .
 - ٨ - جاسم محمد الوهابي : النظام الإداري الفارسي وأثره في الإدارة
الاسلامية في عصر الراشدين والامويين .
 - ٩ - حامد زيان غانم زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان
الحروب الصليبية (٩٠٠ - ٦٥٩ هـ / ١٠٩٦ -
١٢٦١ م) . (١٩٧٣ م) .
 - ١٠ - حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين بالمغرب .
 - ١١ - حسن الباشا : تاريخ الاغلب والمراسيم في الاسلام .
 - ١٢ - حسن سليمان محمود : الصليحيون في اليمن وعلاقاتهم بالفاطميين في
مصر .
 - ١٣ - حسن على محمد : الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب
في القرنين ٥ ، ٦ هـ .
- ٤٠١
(م ٢٦ - النندوه)

- ١٤ — حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين .
- ١٥ — حسين محمد سليمان : مدينة دمشق منذ سقوط الخلافة الأموية حتى زوال السيادة الفاطمية ١٢٢ — ٤٦٧ هـ .
- (١٩٧٦ م) .
- ١٦ — حكيم عبد السرد : قيام دولة المماليك الثانية ١٢٨٢ — ١٤١٢ م .
- ١٧ — حورية عبد الجيد سلام : علاقة مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية .
- ١٨ — خاشع عباده المعاضدي : الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ٣٥٩ — ٥٦٧ هـ . (١٩٧٣ م) .
- ١٩ — رجب عبد الحليم : العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية في اسبانيا من الفتح العربي حتى نهاية ق ٥ هـ .
- (١٩٨١ م) .
- ٢٠ — زاهر رياض : العصر الأول في الأسرة السلجمانية في الحبشة ١٢٦٨ — ١٤٦٨ م .
- ٢١ — زاهر قدورة : الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول .
- ٢٢ — زبيدة محمد عطا : تحقيق زبدة الفكر في تاريخ الهجرة مع دراسة خصائص الكتابة التاريخية في العصر المملوكي لبيبرس الدويدار (١٩٧٥ م) .
- ٢٣ — زكي النقاش : الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع .
- ٢٤ — زين العابدين السراج : دولة كاتم الإسلامية في ق ٩ — ١٥ م .
- ٢٥ — سامي سلطان سعد : الاستبصار في رودس (١٣١٠ — ١٥٢٢ م) .
- ٢٦ — صالح مصطفى : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية في مصر .
- ٢٧ — عباس حلمي اسماعيل : السياسة الداخلية في الدولة الأيوبية بعد السلطان العادل .

٢٨ - عبد الحميد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الاندلس خلال ق ٤ هـ .
٢٩ - عبد الشافى غزيم : حالة المسلمين الثقافية والاجتماعية فى جزيرة
صقلية فى العصر النورمندى (٨٤٤ - ٦٦٧ هـ /
١٠٩١ - ١٢٦٨ م) .

٣٠ - عبد العزيز عبد الدايم : الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى
من القتال فى البحر ، تحقيق نص مخطوطة بن
ملكى المصرى ، مع دراسة من القتال فى العصر
المملوكى . (١٩٧٤ م) .

٣١ - عبد الفنى ابراهيم : السلاجقة والصليبيين فى موقعة ملازجرد
٤٦٥ - ٥٣٦ هـ / ١٠٧١ - ١٢٢٤ م حتى سقوط
الرها .

٣٢ - سامية توفيق : الحياة السياسية فى خراسان من بداية العصر
العباسى حتى نهاية القرن ٣ هـ . (١٩٧٩ م) .

٣٣ - عادل زيتون : النشاط التجارى للبدن الايطالية فى الحوض الشرقى
للبحر المتوسط فى القرنين ١٣ ، ١٤ م (١٩٧٨ م) .

٣٤ - مر الختم عثمان : مدينة صور فى القرنين ١٢ ، ١٣ م (١٩٧١ م) .

٣٥ - سعيد عاشور : دراسات فى الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين

٣٦ - سليمان اسحق : تاريخ التعليم فى فلسطين فى عهد سلاطين المماليك .

٣٧ - سليمان عبد الغنى ملكى : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الاشراف حتى
سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى منتصف

القرن ٤ هـ - القرن ٧ هـ .

٣٨ - سليمان عطية : سياسة المماليك فى البحر الاحمر حتى نهاية عهد

السلطان برمباى ١٢٥٠ - ١٤٣٨ م .

٣٩ - السيد الباز العريتى : الفروسية فى عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠ -

١٥٠٠ م (١٩٥٥ م) .

٤٠ - صابر محمد دياب : سياسة الدولة الاسلامية فى حوض البحر

المتوسط من أوائل ق ٢ حتى نهاية العصر الفاطمي

• (١٩٧٢ م)

٤١ - سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عهد الاخشيديين •

٤٢ - أحمد رمضان أحمد : المجتمع الاسلامي في بلاد الشام وعصر الحروب

الصليبية (١٩٧٧ م) •

٤٣ - عبد المنعم نافع : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق

الاسلامي على عهد الخليفة هشام بن عبد

الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) •

٤٤ - عثمان عسري : الاسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية

• (١٩٧٥)

٤٥ - عصام النقي : الحياة السياسية والتنظيمات الادارية والمالية في دولة

الانابكة بالموصل والجزيرة •

٤٦ - عطية القودمي : التجارة في البحر الاحمر منذ فجر الاسلام حتى

سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ , (١٩٧٣ م) •

٤٧ - عفاف صبره : علاقة البنوقية بمصر والشام منذ بداية القرن ١٢ حتى

القرن ١٤ م •

٤٨ - عفيفي محمود ابراهيم : مظاهر الحضارة في بلاد المغرب منذ انتقال

الخلافة الفاطمية حتى منتصف القرن السادس هـ

• (١٩٨٠ م)

٥٠ - علي حسنى الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي من

النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية

• (١٩٥٧ م)

٥١ - علي بن حسين السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية

• (١٩٧٤ م)

٥٢ - فاضل الخالدي : نظم الحكم في العراق في اواخر العهد العباسي

٤٤٧ - ٦٥٦ هـ • (١٩٧١ م) •

٥٣ - فيصل حربي : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب •

- ٥٤ — قاسم عبده قاسم : اهل الذبة في مصر في عصر سلاطين المماليك دراسة وثائقية . (١٩٧٥ م) .
- ٥٥ — محمد عبد الوهاب خلاف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في قرطبة خلال القرن الخامس هـ . (١٩٧٧ م) .
- ٥٦ — محمد محمد أمين : تاريخ الأوتاف في مصر في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٧) . (١٩٧٢ م) .
- ٥٧ — محمد محمد الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين ١١ و ١٢ م .
- ٥٨ — محمد محمود : الكتابة في مصر في عصر الدولة الأيوبية .
- ٥٩ — محمود اسماعيل عبد الرازق : اثر الخوارج في الحياة السياسية في بلاد المغرب في منتصف القرن ٤ هـ . (١٩٧٠ م) .
- ٦٠ — محمد توفيق خفاجى : تطور النظم المالية والإدارية في بلاد العراق والفرس في مستهل العصر العباسى الى نهاية القرن ٤ هـ .
- ٦١ — محمد حسين عبد الزبيدى : التنظيمات السياسية والإدارية والاقتصادية في عصر حنا الثانى كومنى (١١١٨ — ١١٤٣ م) .
- في العراق في العصر الديوى ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ .
- (١٩٦٨ م) .
- ٦٢ — محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية في الاسلام حتى منتصف القرن ٣ هـ .
- ٦٣ — محمد عبد الفتاح عليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بنى رسول باليمن (١٩٧٣ م) .
- ٦٤ — عبد الحفيظ محمد على : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عصر حنا الثانى كومنين (١١١٨ — ١١٤٣ م) .
- (١٩٨٣ م) .
- ٦٥ — محمد صالح محيى الدين : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق في عهد الناصر لدين الله العباسى ٥٧٥ — ٦٢٢ هـ . (١٩٧٤ م) .

- ٦٦ — نبيل عبد العزيز : تحقيق ونشر مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في
تعليم الفروسية في عصر سلاطين المماليك .
- ٦٧ — ناجي معروف : المستنصرية واثرها في تطور المدرسة الى الجامعة .
- ٦٨ — مليحه محمد رحبه : الحالة الاجتماعية في العراق في القرن ٣ ، ٤ هـ
(١٩٦٨ م) .
- ٦٩ — محمود الحوير : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين
١٢ ، ١٣ م (١٩٧٨ م) .
- ٧٠ — مصطفى طه بدر : ايران في عهد ملزمان (٢٩٤ — ٣٠٧ هـ) .
- ١٢٩٤ — ١٣٠٣ م وعلاقتها بمصر بوجه خاص .
- ٧١ — نظير حسان سعداوي : التاريخ العربي في عهد صلاح الدين الأيوبي .
- ٧٢ — هاشم سليمان أبو رجيلة : علاقات الموحدين بالمماليك النصرانية
بالدولة الاسلامية بالاندلس (١٩٧٩ م) .
- ٧٣ — عبد الجبار العبيدي : دور الظيفة المهدي العباسي في اقرار النظم
السياسية . (١٩٧٠ م) .
- ٧٤ — محمد محمود احمد درويش : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في
العراق والمشرق الاسلامي خلال العصر السلجوقي
الأول . (١٩٨٠ م) .
- ٧٥ — سلام شافعي سلام : اهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي والأيوبي
(١٩٧٩ م) .
- ٧٦ — زاكية محمد رشدي : ميخائيل السرياني الكبير وتاريخه لصدر الاسلام
والعصر الأموي (١٩٦١ م) .
- ٧٧ — نعيم زكي نهemy : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
في اواخر العصور الوسطى (١٩٦٨ م) .
- ٧٨ — حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية وعلاقتها بالمغول (١٩٤٧ م) .
- ٧٩ — عبد الله ناصر سيف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز
في العصر الأموي (١٩٧٨ م) .

قائمة بالموضوعات المسجل فيها لدرجتي الماجستير
والدكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس

أولاً - رسائل الماجستير :

- أحمد فؤاد سببد : نظام الحكم والادارة في العصر الأيوبي بمصر .
تاريخ التسجيل ١٩٧٧م [نوقشت في آخر ١٩٨٢] .
- ناريان عبد الكريم أحمد : أحوال المرأة في مصر في العصر الفاطمي .
تاريخ التسجيل ١٩٧٨م .
- كرم كمال الدين الصاوي : مظاهر النغم الحضاري في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية الدولة الطولونية
من خلال وثائق البردي .
تاريخ التسجيل ١٩٨٢م .
- نجوى عدلى بشارة : الحركة الفكرية في مدرسة الاسكندرية في القرن الثالث م .
تاريخ التسجيل ١٩٧٩م .
- محمد مؤنس أحمد عوض : التنظيمات الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية .
تاريخ التسجيل ١٩٨٠م .
- ناطمة مهيم حافظ خليل : التغيرات الحضارية التي طرأت على المجتمع الانجلو سلكسوني بعد موقعة هاستنجز عام ١٠٦٦م .
تاريخ التسجيل ١٩٧٨ م .
- عاطف برقص بطرس : الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين والمسلمين (١٠٧١ - ١١٧١ م) .
تاريخ التسجيل ١٩٨١ م .
- ايمن حسن خليل : العلاقات البيزنطية الفاطمية في المدة من ١٠٢٥ - ١٠٧١ م .
تاريخ التسجيل ١٩٨٢م .

- حرب عبد المقصود : الحسبة في الإمارات المليبية .
- تاريخ التسجيل ١٦٨١ م .
- اسماعيل عبد المنعم قاسم : الأبراش الاجتماعية زمن سلاطين الماليك .
- تاريخ التسجيل ١٦٨١ م .
- لطفي احمد سعيد : وسائل الترفيه في عصر سلاطين الماليك .
- تاريخ التسجيل ١٦٨١ م .
- ثانياً — رسائل الدكتوراه :**
- سنوسي يوسف ابراهيم : دور زناتة في المغرب الاسلامي بعد خروج
التسليبيين وحتى قيام دولة المرابطين .
- تاريخ التسجيل عام ١٩٨٠ م .
- عبد المحسن رمضان : مملكة اشتوريس وعلاقتها بمسلمي الأندلس
- تاريخ التسجيل ١٩٨٠ م .
- محمود رزق محمود : المجتمع المصري في العصر الطولوني .
- تاريخ التسجيل ١٩٧٩ م .
- جمعة مصطفى الجندى : حياة الفرنج ونظهم في الشام خلال القرنين
١٢ ، ١٣ م .
- تاريخ التسجيل ١٩٨٠ م .

قائمة بالموضوعات المسجلة في التاريخ الإسلامى والوسيط

لدرجتي الماجستير والدكتوراه بكلية الآداب

جامعة الزقازيق - مصر

١ - سامية مصطفى محمد : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اقليم غرناطة
في عهد المرابطين والموحدين ٤٨٤ - ٦٢٠ هـ /

١٠٩٢ - ١٢٢١ م

ك ١٩٨١/١٠/٢١

ج ١٩٨١/١٢/١

٢ - على السيد على محمود : مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك .

ك ١٩٨١/١١/٣٠

ج ١٩٨٢/ ١/ ٥

٣ - محمد فتحى عوض الشاعر : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية
في القرن السادس الميلادى .

٤ - زينب عبد المجيد عبد القوى : العلاقات الدينية والسياسية بين
الامبراطورية البيزنطية وغرب أوربا في الفترة من

١٠٧١ - ١١٠٤ .

ك ١٩٨٠/١٢/٢

ج ١٩٨٠/١٢/١٦

٥ - حسين السيد بتولى : العلاقات السياسية والاقتصادية بين دولة
المماليك الثانية ودول البحر المتوسط الأوربية من

سنة ١٣٨٨ - ١٥١٦ م

ك ١٩٨١/ ٢/١٣

ج ١٩٨٠/١٢/١٦

٦ - أحمد محمد عبد العظيم ناصر : الحياة الاقتصادية في مملكة بيت المقدس
في القرن الثاني عشر م .

ك ١٩٨١/٤/٢٩

ج ١٩٨١/٥/٢٥

٧ - بهى الدين محمود موسى : الحياة الثقافية في مصر في العصر الفاطمي .

ك ١٩٨٣/٣/١٣

ج ١٩٨٣/٤/٥

٨ - طارق محمد عبد القادر : التخصيمات الحربية في العصر الأيوبي
والمملوكي في شبه جزيرة سيناء .

ك ١٩٨٣/٣/٢٠

ج ١٩٨٣/٤/٥

٩ - حمدي أنور السيد : تحقيق ونشر وتقد للمجلد الثالث من مخطوطة ابن
الفرات الحنفى .

ك ١٩٨٢/٢/٢١

ج ١٩٨٢/٢/٢٢

١٠ - فتحى عبد العزيز محمد : دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية
حتى عام ١١٨٧ م .

ك ١٩٨٢/٢/٢٧

ج ١٩٨٢/٢/٢٢

١١ - بلال محمود أحمد محسن : علاقات الفاطميين بالقوى الإسلامية
والصليبية في الشّام في الفترة من ١٠٧١ -
١١٧١ م .

ك ١٩٨٢/٣/ ٧

ج ١٩٨٢/٥/١٨

١٣ - محمد محمد عبد القادر الشامي : الأسواق في المناطق الصليبية لبلاد الشام في الفترة من ١٠٩٦ - ١٢٩٦ م .

١٣ - سميرة عمارة محمد اسماعيل : العلاقات بين الدولة البيزنطية والدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور .

ك ١٦/١٠/١٩٨٢

ج ٧/١١/١٩٨٢

١٤ - صلاح الدين موسى : المواجهة العربية والإسلامية للصليبيين حتى علم ١١٩٢ م .

ك ١٦/١٠/١٩٨٢

ج ٧/١١/١٩٨٢

١٥ - محروس عبد القدوس : جستنيان وسياسة الاسترداد .

ك ٢٨/١٢/١٩٨٢

ج ٧/١/١٩٨٣

١٦ - محمد عبد القادر موافي : المنشآت المعمارية المملوكية في شرق الدلتا .

ك ٢٨/١٢/١٩٨٢

ج ٧/١/١٩٨٣

رسائل الماجستير والدكتوراه
التي نوقشت منذ يناير ١٩٨٢ حتى أبريل ١٩٨٣ م

اعداد
محمد مؤنس موسى
المعيد بكلية الآداب جامعة عين شمس

**قوائم رسائل الماجستير والدكتوراه
التي نوقشت على امتداد عام ١٩٨٢ والثالث
الاول من عام ١٩٨٣ م [حتى أبريل]**

**اولا : - كلية الآداب - جامعة القاهرة : -
محمود عرفة محمود « الجيش العباسي خلال عهدي البويهيين والسلطنة »**

رسالة دكتوراه غير منشورة - ١٩٨٣ م *

اشتملت الرسالة على أربعة أبواب : - الباب الاول اشتمل على الجيش العباسي بعد دخول البويهيين ببغداد ، اما الباب الثاني فقد كان عنوانه اضمحلال الجيش العباسي في بداية العهد السلجوقي اما الثالث فقد تناول زعوض الخلفاء العباسيين لاعادة تكوين الجيش العباسي ودوره في تحرير البلاد من السيطرة السلجوقية واستعادة سلطان الخلافة ، اما الباب الرابع فقد اخص بتناول تنظيمات الجيش العباسي واسلحته *

ويقرر الباحث في ختام رسالته أن بنى بوية اهتموا بتنظيم الجيش واعداده وتجهيزه بكل ما يحتاج اليه من اسلحة ومؤن وعقاد ويرى أن على الرغم من نجاح البويهيين في احلال جيشهم محل الجيش العباسي فان سياستهم أدت الى قيام النزاع والتنافس بينها طمعا في السلطة مما أدى الى ازدياد حالة الخلافة سوءا في اواخر العهد للبويهى في العراق *

وقد وضع الباحث من خلال دراسة حال الجيش العباسي في بداية العهد السلجوقي ومدى ما اصاب هذا الجيش من انحلال بسبب سياسة السلطنة التي هدفت الى احلال جيشهم محل الجيش العباسي *

يجتري رضوان أحمد رضوان • الأسيرة الجمالية ودورها في الحياة السياسية
والحضارية في عهد الدولة الفاطمية •

رسالة ماجستير - عام ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على خمسة فصول ، الفصل الاول تناولت فيه الباحثة الأحوال الاجتماعية في مصر في اوائل عهد المستنصر بالله الفاطمي ، الفصل الثاني تناولت من خلاله الدور الذي لعبته الوزارة في عهد ذلك الامام الفاطمي ، أما الفصل الثالث فانها تناولت فيه ازدياد سلطة الوزراء في ظل اسرة بدر الجمالي الذي استدعاه الخليفة من أجل القيام بالإصلاح أحوال مصر الاقتصادية المضطربة ، وبالنسبة للفصل الرابع فقد عالجت فيه الباحثة موضوع جهود وزراء الأسرة الجمالية في توطيد سلطان الخلافة الفاطمية ، وفي خاتم الفصول وهو الفصل الخامس بحثت فيه الأسرة الجمالية وآثارهم الحضارية في عهد دولة الفولاطم •

محمد بركات البيلي البربر في الاندلس

منذ الفتح الاسلامي حتى نهاية عصر الامارات ٩٢ - ٣١٦ هـ / ٧١١ م

٩٢٩ م

رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢

اشتملت الرسالة على بابين اساسيين لتقسما بدورهما الى العديد من الفصول ، الباب الاول هو الأحوال السياسية للبربر في الاندلس منذ الفتح الاسلامي حتى نهاية عصر الامارة ، أما الباب الثاني فقد تناول فيه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والفكرية للبربر في الاندلس حتى نهاية عصر الامارة للفصول العديدة التي شملت الرسالة منها تذكر دور البربر منذ الفتح الاسلامي في الاندلس والاحوال السياسية للبربر في الاندلس في عصر الدولة والاحوال السياسية للبربر في الاندلس في عصر الامارة وكذلك الأحوال الاجتماعية للبربر في الاندلس منذ الفتح الاسلامي حتى نهاية عصر الامارة ، ثم الأحوال الاقتصادية ودور البربر في الحياة الفكرية في الاندلس خلال المرحلة للزمنية موضوع الدراسة •

بوبة مجاني ، اثر العرب اليمينية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الاولى للهجرة ٧

رسالة ملجستير غير منشورة ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على خمسة فصول . الفصل الاول دور العرب اليمينية العسكرية خلال الرحلة موضع الدراسة لما الفصل الثاني فكان دور العسرب اليمينية على عهد الخلافة الاموية وذلك فيما يتعلق بالناحية السياسية ، اما الفصل الثالث فقد استعمل على دورهم السياسي على عهد الخلافة العباسية والفصل الرابع احتوى دور العرب اليمينية في الحياة السياسية خلال عهد الدول المستقلة ، وفي الفصل الخامس عملت الباحثة على ابراز الدور الحضاري لهم .

وخلصت الباحثة في ختام رسالتها الى تقرير بعض الحقائق منها ان العرب اليمينية لعبوا دورا كبيرا في تاريخ العرب عسكريا وسياسيا وحضاريا ، فمن الناحية العسكرية مثلا شاركوا بقسط وافر في عملية الفتح كجنود وكقواد . اما دورهم السياسي فانهم بعد ان انتهت الفتوحات واستمرج المغرب ولاية اسلامية شاركوا في احداثه السياسية بما فيها من صراعات قبلية ثم صراعات وحركات مذهبية ومن خلال ذلك ظهر دورهم العسكري من جديد اما من الناحية الحضارية فقد ساهموا اسهاما كبيرا في ادخل السند العلمي الى بلاد المغرب والذي قام بهذا الدور هم الصحابة والتابعين وعلى يد هؤلاء تأسست الدراسة للفقهية المغربية التي كان روادها من اليمينية .

يونس عبد الحميد السامرائي . الدولة الراشدية في حطب

رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على اربعة ابواب انقسمت بدورها الى العديد من الفصول وقد قدم لها الباحث بتناولها لاسم حطب وموقعها وجغرافيتها بصفة عامة ، ثم تناول المرداسيين واصلهم ودورهم في حكم حطب ليصل ببخته الى

تناول علاقاتهم بالقوى السياسية المجاورة لهم مثل علاقاتهم بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية وعلاقتهم بالامارات والقبائل العربية المجاورة لهم ، ثم تناول أيضا المظاهر الحضارية في المدينة ونظمها تحت حكم الرواسيين ، مثل ذلك تناوله للألعاب امراء الدولة الرواسية وولاية العهد والبلات الرواسي والزراعة والجيش وحركة الأحداث في المدينة وكذلك القضاء والمحاسب وغيرها من الوظائف ، ثم تناول أيضا النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة وكذلك بحث في الضرائب وحركة العمران والحالة الاجتماعية .

ومما يؤخذ على الرسالة ، ان الباحث لم يضع اية عناوين خاصة بابوابها على نحو أفقدها تحديد هوية المواضيع الكلية المرتبطة بالموضوع والتي تناولها في صورة جزئية متمثلة في الفصول ، وعلى حين وضع عنوانا لكل فصل غافل ذلك بالنسبة للأبواب على الرغم من أهمية ذلك

ثانيا : نادر العلوم

أحمد مصطفى الصغير ، المصادر الجغرافية للتاريخ

المسعودي - الإدريسي - ابن بطوطة

رسالة ماجستير - ١٩٨٢ م .

انقسمت الرسالة الى أربعة فصول ، الفصل الأول خصصه الباحث لدراسة المصادر المختلفة للتاريخ الاسلامي وهدف من خلاله الى اللقاء للضوء على المصادر الجغرافية في كتابة التاريخ الاسلامي . اما الفصل الثاني فقد تناول فيه المسعودي وكتابته واسلوبه في كتاباته الجغرافية والمصادر التي اعتمد عليها ، اما الفصل الثالث فقد خصصه لدراسة الإدريسي والرابع لابن بطوطة

ويعاب على الرسالة عدم تناولها لمرجع واحد بلغة من اللغات الأوروبية الحديثة ولا يستعين بأي عمل من أعمال المستشرقين بلغته الاصلية وخذت قائمة مصادره ومراجعته من أية إشارة لمرجع أجنبي واحد .

عبد الكرىسى محمد زايد ، دولة بنى زيان بالمغرب
رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٨٢ •

اشتملت الرسالة على اربعة فصول ، الفصل الاول الدولة الزيانية وظروف قيامها ومؤثرات العامل القبلى والجغرافى ، الفصل الثانى الدولة الزيانية بين الاتساع والانحسار من خلال مؤثرات العامل القبلى والصراع داخل البيت الزيانى والموقع الجغرافى • اما الفصل الثالث فقد اشتمل على تناول علاقة الدولة بجيرانها من حيث علاقاتها بالموحدين وبنى مريغ وبنى حفص وعلاقاتهم بالاندلس ، اما الفصل الرابع فقد بحث فيه النشاط الحضارى للدولة الزيانية •

محمد محمد زغروت ، الجيش فى عهدى المرابطين والموحدين
رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢ •

تناولت الرسالة اربعة ابواب هى كالاتى : الباب الاول تناول نشاط جيوش المرابطين والموحدين وتنظيمها والاشراف عليها ، اما الباب الثانى فانه اشتمل على اسلحة القتال وبالنسبة للباب الثالث فقد تناول الباحث فيه تنظيم القوات والباب الرابع خصصه لمرحلة مابعد المعركة ، اما الباب الخامس فقد خصصه لدراسة مقارنة لبعض المعارك •

هذا ، وقد فضل الباحث ان يقسم الأبواب الى فصول والفصول الى اقسام متاما حدث فى تقسيمه للفصل الثانى من الباب الثانى وعنوانه اسلحة القتال الدفاعية حيث قسم هذا الفصل الى القسم الاول واشتمل على آلات الدفاع الخفيفة والاسلحة الثقيلة ، اما القسم الثانى فانه اتقسم الى وسائل الدفاع الثابتة •

ومن ناحية اخرى فان الباحث كان قد قدم لرسالته بعرض للحياة العسكرية لبلاد العرب قبل ظهور المرابطين والموحدين •

رقم الايداع / ٢٣٢٣ / ٨٤
ترقيم دولى ٦-٧٥٨-٠٢-٩٧٧

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى - ميدان لافونغلى
القاهرة • تليفون ٣٠٥٥٦

1996/01

Biblioteca Alexandrina



0339634

03